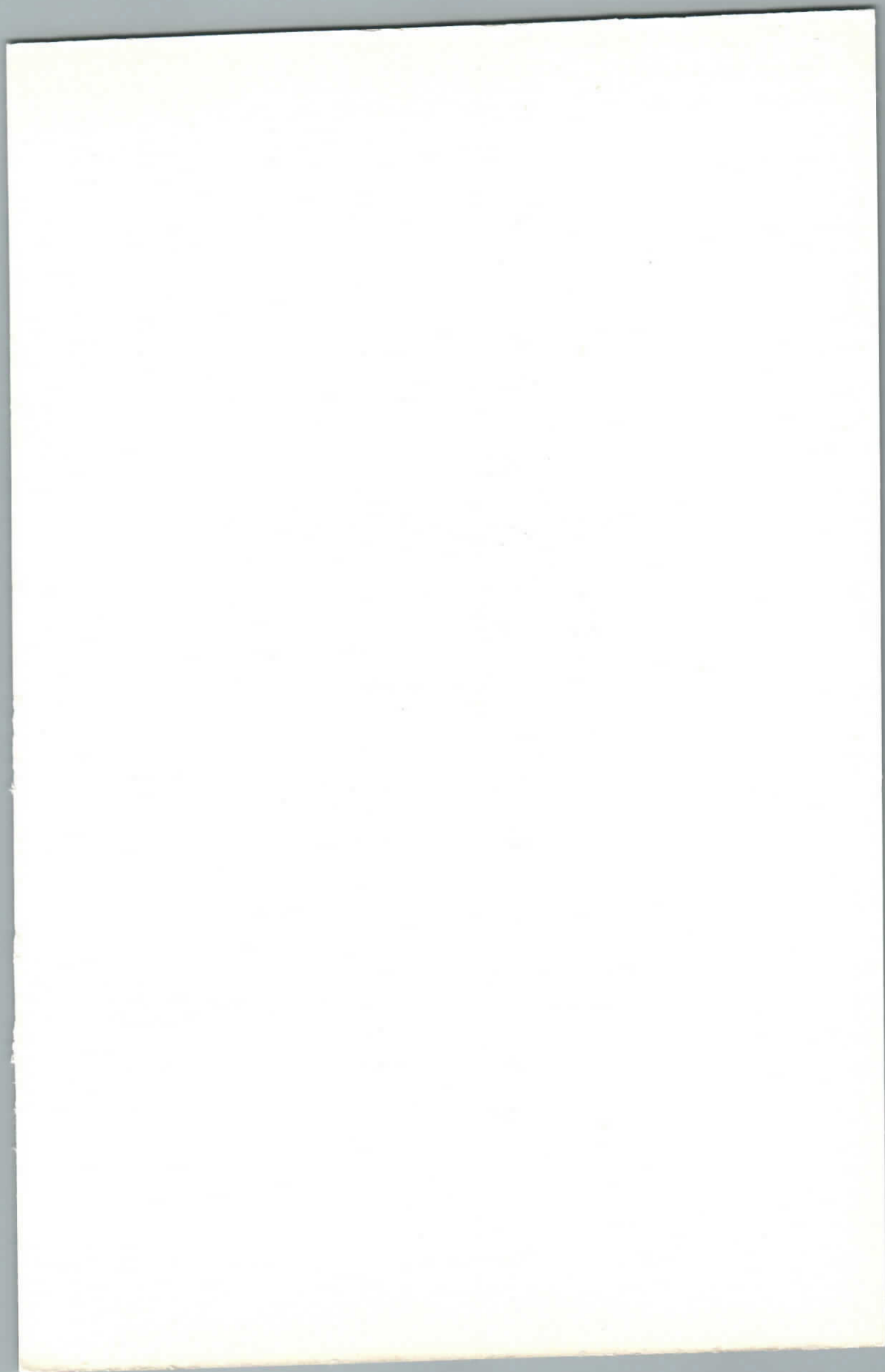




محاضرات وندوات
الموسم الثقافي الرابع
١٩٧١

حول

الذرات العربية الإسلامية

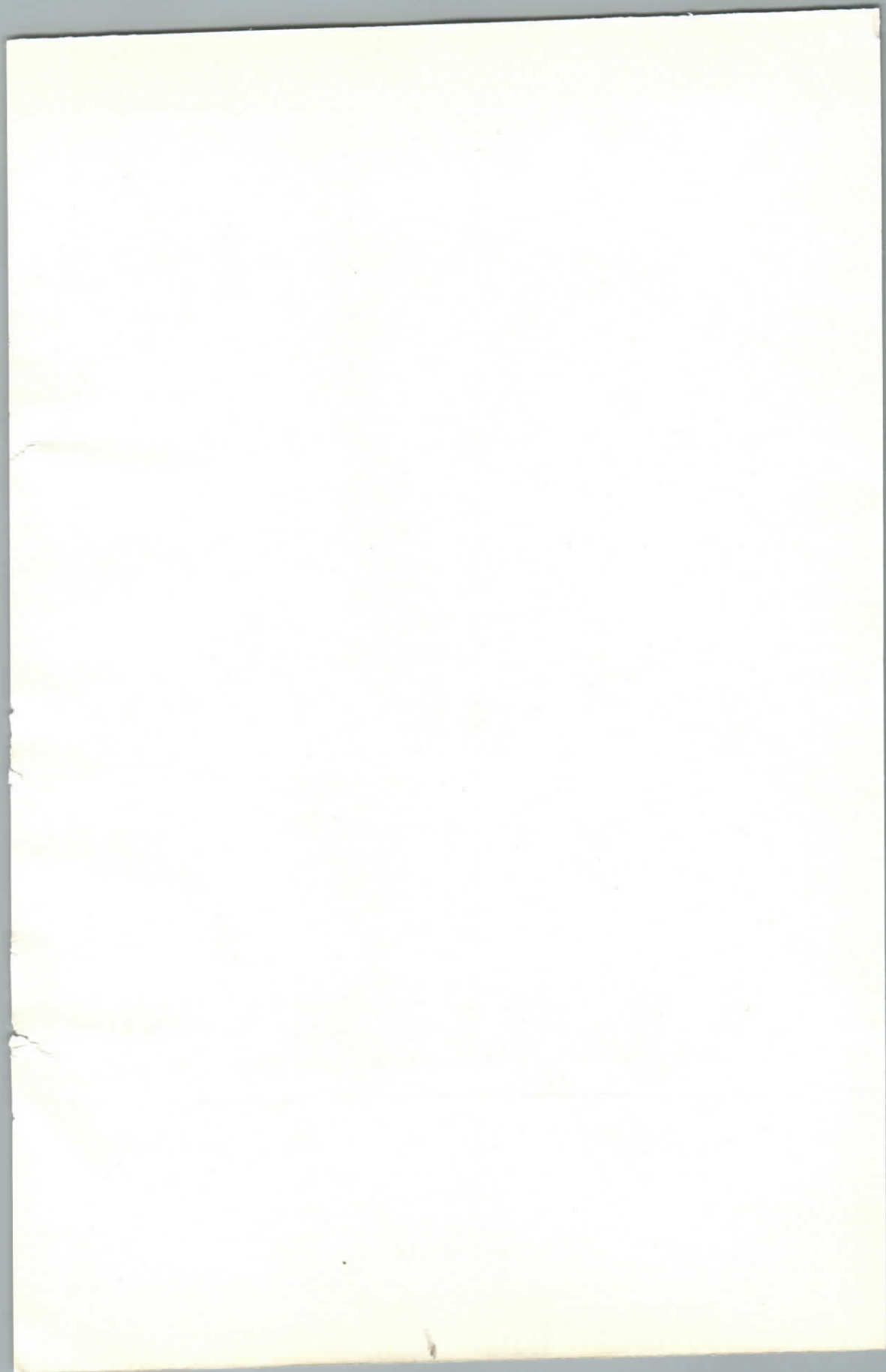




محاضرات وندوات
الموسم الثقافي الرابع
١٩٧١

حول

الذرات العربية الإسلامية



تقديم الموسم الثقافي الرابع

عام ١٩٧١

تواجه امتنا العربية اليوم وعلى امتداد أرضها من المحيط إلى الخليج هجمة شرسة من قوى متعددة تستهدف في المقام الأول الاستيلاء على الأرض والاستيطان فيها على أشلاء أفراد الشعب العربي ، كما تستهدف اذلال وامتهان كرامة الشعب العربي والعمل على تجزئته وفرقه .

لكن التاريخ - مع هذا - يسجل دائما أن المحن تكون عادة من عوامل صقل الأمم وزيادتها صلابة وعزما . وأنه من بين ثنايا الضياع يبرز رجال الفكر وقادة المجتمعات للتصدي لعلاج ما تواجهه تلك الشعوب من محن وقضايا تمس وجودها وبقائها . والانسان العربي اليوم هو أحوج ما يكون إلى من يصوغ له عقائده الفكرية النابعة من ظروفه وأحواله هو ، وإلى من يضع له اطارا لحياة جديدة تسير منطق العصر وروحه .

ورابطة الاجتماعيين وهي تنشأ من خلال مواسمها الثقافية السنوية أن تعالج القضايا المعاصرة التي تمس الانسان عامة والمواطن العربي على وجه الخصوص ، رأت أن تتناول في موسمها الثقافي لعام ١٩٧١ البحث في التراث العربي الاسلامي لعلنا نكون من خلال ذلك قادرين على استخلاص قدر من الاسس والمبادئ لتحقيق الخير والحرية والعدالة والمساواة التي قام عليها ذلك التراث وترك بصماته واضحة جليلة في الحضارة الانسانية . ولعلنا أيضاً نكون قادرين على التوصل إلى عوامل القوة والصلابة التي أتمم بها الانسان العربي خلال الحضارة العربية الاسلامية الزاهية . ثم لعلنا أيضاً بتدارسنا لتراثنا العربي الاسلامي نجد فيه العظلة المنشودة فنستعيد بذلك الماضي لنقارنه بالحاضر ، ليس لمجرد الاجترار والاستكانة لما بلغناه في الماضي وإنما بأمل أن نستزيد من الثقة بالنفس يبدو

أننا كدنا على وشك افتقادها لطول ما عانيناه من تخلف وتسلط الآخرين على مقدراتنا ، وأن نزداد يقينا وإيمانا بالقدرات الخلاقة للانسان العربي الذي كان يوما ما النور الذي أضاء الطريق أمام مسيرة الحضارة الانسانية ، وان نستكشف - بصفة عامة - خصائص ذلك الانسان العربي الذي وضعته كثير من الأمم المعاصرة في غير موضعه الصحيح . ومن عبر ذلك الماضي وواقع الحاضر نحاول أن ننشد أيضا بعضا من الأسس التي يمكن أن تصلح كدعامة قوية لمسيرتنا في هذه الحياة . ومن هنا فقد القيت في هذا الموسم الثقافي لعام ١٩٧١ أضواء على بعض جوانب التراث العربي الاسلامي على أيدي مواطنين وأساتذة عرب معاصرين لهم وجهات نظرهم التي تعكس - في الأغلب - لون الثقافة الحاضرة التي يعيشونها ، ومن ثم فهي في تصورنا تمثل نظرة جديدة بلاشك جدير بنا أن نهتم بها وأن نتأملها .

ورابطة الاجتماعيين تستهدف - كذلك - في دراساتها وبحوثها ومواسمها الثقافية ان تنتقل بالموضوعات من العموم إلى الخصوص أى من الصعيد الدولي والعربي إلى المجتمع المحلي الكويتي ، ومن ثم فبعد أن تناولنا في القسم الأول من الموسم الثقافي الحالي موضوع التراث العربي الاسلامي ، أفردنا القسم الثاني منه لموضوع « السياسة الاجتماعية في الكويت » ، حيث كانت هناك مجموعة من الندوات والمحاضرات تناول فيها مجموعة مختارة من المسؤولين والمختصين والاساتذة العديد من القضايا الحيوية بالنسبة للمجتمع الكويتي على وجه الخصوص ، وكان نتاجها حوارا فكريا تبدو قيمته الكبرى عندما نطالع موضوعاته ونستمتع بما قدمه السادة الذين اشتركوا في هذا الحوار .

وأخيرا ، فإننا نرجو أن يمثل هذا النتاج الذي بين أيدينا اسهاما متواضعا من جانب الرابطة ونوعا من المشاركة في عملية البناء التي نتلمسها ونشدها لوطننا العربي بأسره في هذه الأيام الحاضرة الصعبة من تاريخ الامة العربية .

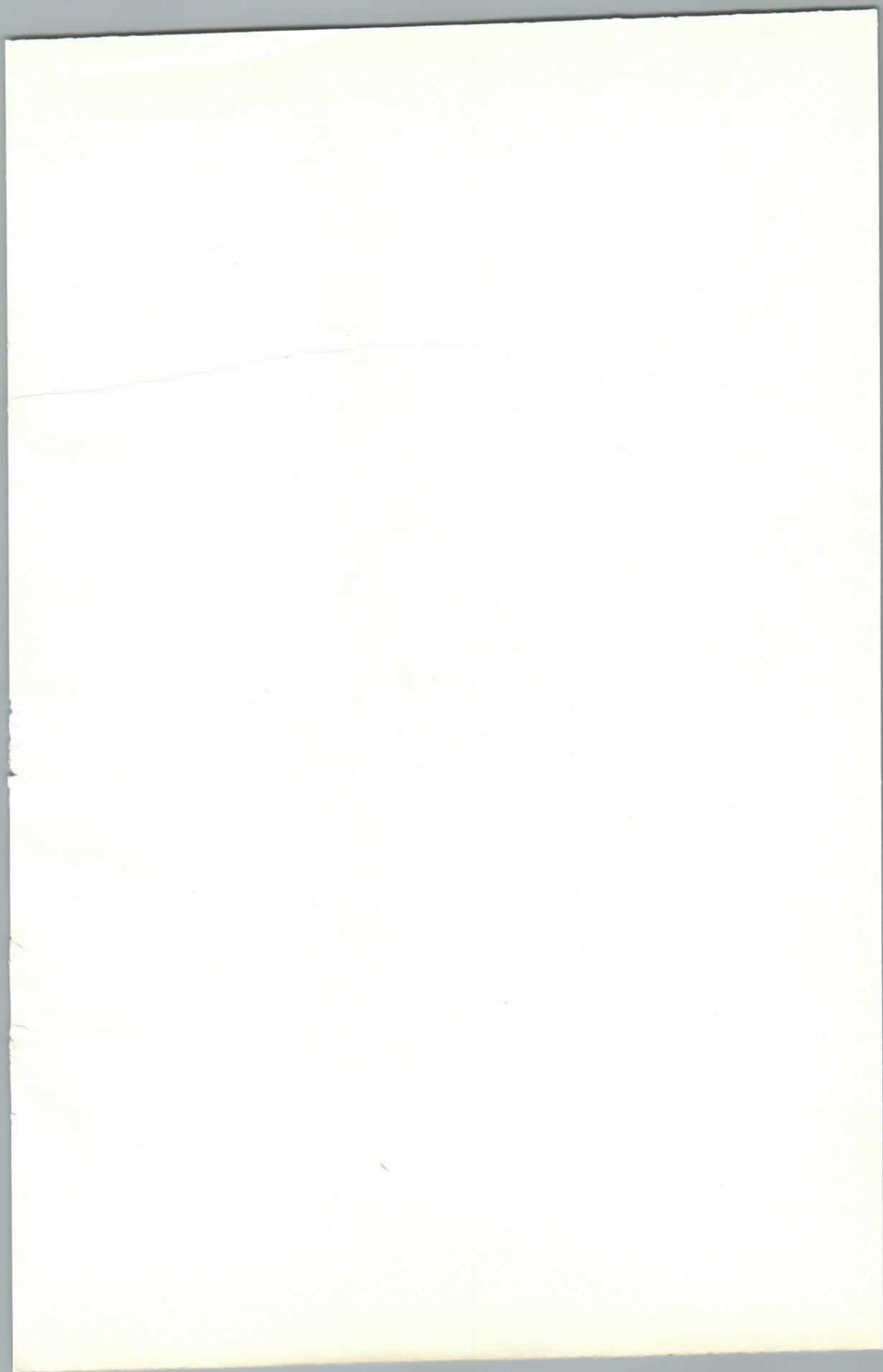
والله ولي التوفيق ، ، ،

عبد العزيز عبد الله الصرعاوى
رئيس رابطة الاجتماعيين

خومستقبل أفضل
أو
الدعوة إلى النظر في تراثنا العربي الإسلامي وإحيائه

محاضرة

الاستاذ عبد العزيز عبدالله الصرعاوى



مقدمة :

لعل أول ما يثور من تساؤل حيال عنوان محاضرتنا اليوم هو . . . ولماذا البحث عن مستقبل أفضل ؟ . . . والاجابة الجاهزة قيد الخاطر هى ما نحن فيه من بلبلة وحيرة وتيه واضطراب ، لا نكاد نستقر على حال ولا يهنأ لنا بال ، طعم الحياة — في الغالب مر ، ما أن يحقق انسان هذا العصر — في كل المجتمعات — نصرا علميا يزهو به ويزيد من قدرته على التحكم في الطبيعة حتى يحس في داخل ذاته بالكآبة وفقدان التوازن فيحار وتزداد حيرته — ويستوى في هذا الانسان فى المجتمعات الصناعية المتقدمة وفي المجتمعات النامية أو التى هى في طريق النمو .

ومن هنا يبدو أن العالم بأسره في تيه شديد ، يتلمس الطريق إلى حياة جديدة . ويبحث عن أسس أخرى لحياته المستحدثة . . . بل ان طبيعة العلاقات السائدة الآن في المجتمع الدولى — وعلى كافة مستوياته — لهى ابدا في تمزق وتوتر وفي خلافات مستمرة .

ولعلنا بهذا يجب أن نحاول التوقف قليلا على الدوافع أو الظواهر التى تشكل وتخلق كل هذه الصور من الاضطراب في حياتنا . وقد نستطيع ان نلخص الموقف كله بالقول بأن واقع الحياة المعاصرة هو غير ما ينشده الناس ويتطلعون اليه ، بمعنى ان الواقع المعاش لا يرتفع إلى ما يدور في أذهان انسان هذا العصر عامة ، أو على الأقل لما يدور في أذهان الصفوة من المفكرين ممن يرتفعون بتأملاتهم إلى ما هو أسقى مما هو (واقع) والذي هو بالفعل سبب معاناة الانسان لمشاكل عالم اليوم . . . وهذا يدفعنا — اذن — إلى أن نحاول ان نجوب بالفكر آملين التعرف على الملامح الأساسية التى تشكل الحياة الحاضرة في الثلث الأخير من القرن العشرين ، وبالذات أن نحاول تتبع المؤثرات والظروف التى يعيشها عالم اليوم والتى انتهت به إلى هذا الحال . . . ولعل أهم ما يعنينا التوكيد عليه في هذه المحاولة هو ظروف مجتمعتنا العربى وموقفه وسط هذا الخضم الهائل من

الضغوط والمؤثرات ، راجين ان ينتهى بنا التأمل والتفكير إلى التوصل للصيغة المنشودة للحياة الافضل التى نحاول أن نبلغها أو - على الأقل - لتلمس الطريق الذى يهديننا إلى ما نشده لمجتمعنا العربى بأسره . وعلى ذلك فاننا نختار لتحديد هذا البحث تناول النقاط التالية :

اولاً : الضغوط والمؤثرات التى تشكل مظاهر الحياة الحاضرة .

- ١ - الحيرة بين الحرب والسلم .
- ٢ - عدم التناسق فيما بين التقدم العلمى والتكنولوجيا وبين الاطارات والانظمة المرسومة للحياة الحاضرة .
- (أ) تحكم الآلة .
- (ب) أزمة القيم فى عالمنا المعاصر ، والتعارض بين الفك والسلوك .
- (ج) الصراع بين الدول المتقدمة والنامية .

ثانياً : فى مواجهة هذه الضغوط وتلك المؤثرات .

- ١ - حركات التحرر والرفض على الصعيد العالمى .
- ٢ - جهود المنظمات الدولية فى ارساء وتدعيم أسس التعاون الدولى والتقدم البشرى .
- ٣ - بروز كيان الدول النامية كمحاولة لاعادة صياغة العلاقات بين مختلف الدول فى عالم اليوم .

ثالثاً : النظر فى التراث العربى الاسلامى كسند لمستقبل أفضل .

خاتمة :

أولاً :

الضغوط والمؤثرات التي تشكل مظاهر الحياة الحاضرة

١ - الحيرة بين الحرب والسلم :

ربما سجل التاريخ أن القرن العشرين هو قرن الحرب والسلم معا . ففيه قامت أول الحروب العالمية بالمعنى الحديث ، وفيه ايضا ترتفع الصيحات والدعوات نحو اقامة سلام عالمي . . . وفي هذه الحقبة من التاريخ فان السلام العالمي إذا لم يكن قد بدأ بالفعل ، فاننا قد نكون أول جيل كان له فضل المحاولة الأولى - تحت ضغط الحروب العالمية - في أن يعمل الفكر جادا فيما يتعلق بالحروب والسلام وفق تصورات مغايرة لما كانت تقوم في أذهان المفكرين السابقين . ففي الحقبة الحديثة السابقة على القرن العشرين ، عندما اتجهت المثاليات إلى تحقيق السلام عن طريق استخدام التشريع بدلا من القوة ، والمعاهدات بدلا من فرض الارادة ، فقد ظل هذا الهدف - على الرغم من مثاليته - قاصرا عن تحقيق أمل البشرية في إقامة مجتمع عالمي . . . فعلى سبيل المثال نجد جان جاك روسو يقرر حتمية قيام ظروف تشريعية أو قانونية لتحويل القارة الأوروبية من الصدام المستمر إلى مجتمع قادر على احلال سلام دائم . الا أن روسو - كما نرى - يقصر هذه الدعوة على القارة الأوروبية فقط . . . وإذا رجعنا إلى فيلسوف مثل (كانت) فانه ينادى بحقيقة استمدتها من مفاهيم (هوبز) و (لوك) عن الحرب والسلم . فهو يتصور امكانية قيام سلام يشمل الدنيا بأسرها . وهو في هذا الصدد يقرر ما يسميه بالمثالية الدولية Cosmopolitical Ideal . وهكذا فان السلام يبدو له شيئا مثاليا لا يمكن تحقيقه تماما وإنما يمكن فقط الاقتراب منه . ومع ذلك فان (كانت) يرى أنه من الضروري مواصلة الكفاح نحو تحقيق هذا الهدف المثالي حتى ولو كان امراً غير ممكن الحدوث . . . وعلى النقيض الآخر نجد جيل القرن العشرين هو أول جيل يطالب بسلام عالمي كنتيجة حتمية يستلزمها الواقع الذي نعيشه . واننا أول جيل يقرر حتمية اقرار سلام عالمي طالما أنه شيء ضروري وحيوي للبشرية . . . ومع ذلك فان حوار السلم والحرب - في عصرنا هذا -

لم ينته بعد ، ولم نصل فيه إلى تحقيق ما نصبو اليه . لكنه إذا لم يكن أمامنا سوى مواجهة الخيار بين هذين الأمرين : الحرب أم السلم ، فإن القرن العشرين هو — على ما يبدو — الحد الفاصل في ذلك الخيار . فانه وإن كانت هناك دائماً اتجاهات متعارضة نحو الحروب في مختلف العصور ، فمنهم من يقرها ومنهم من يعارضها . وسواء أكانت الحروب خيراً أو شراً أو مزيجاً من ذلك فإن الحروب بدأت بالنسبة لمن كتبوا عنها في الماضي — بسبب الاعتقاد لدى البعض منهم بـجتمية قيام الحروب — أنها ظواهر حتمية الحدوث وأحداث لا مفر منها ولا يمكن تجنبها . . . لكن الأمور أصبحت الآن على عكس من هذه التصورات . وظهر امكانية احلال سلام دائم أبدي^(١) — على الأقل من وجهة نظر من يأخذون بالنظرة التفاؤلية والرغبة في صيانة الحضارة البشرية — وعلى هذا الأساس قامت المواثيق والمنظمات الدولية مثل عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة تحقيقاً لهذا الهدف . . . وإلى جانب هذا فإن الواقع الذى انتهى اليه التقدم البشرى في اختراع آلات الفتك والدمار ، قد أحدث التوازن المرعب — ان صحت التسمية — بين القوى المتصارعة بحيث أصبح القوى يرهب القوى ، فهو اذا فكر في دمار الغير فانه حتما سوف يفكر — في نفس الوقت — في مدى الدمار الذى سوف يلحقه هو من ذلك الغير . . . ومن هنا الأمل في تفادى الحروب حيث لا غالب ولا مغلوب . وعلى هذا أصبح كل طرف يدعو إلى السلام وإن لم يقض ذلك على غريزة السيطرة والتحكم في مصائر الشعوب . وهكذا استعاض عن الحرب كوسيلة من وسائل القهر والاستعمار لدى الدول الكبرى — بالرغبة في التودد إلى الدول الصغرى والتخلى — في الظاهر — عن علاقات الخضوع القديمة إلى علاقات تعاون سياسى وثقافى واقتصادى . ولكن ذلك في حد ذاته إذا لم ينطو على علاقات التعاون المخلصة والمتكافئة فانه لن يكون سهلاً أن تتقبله الشعوب بعد أن نمت وتحررت وتزايد الوعى لديها . . . ومع كل هذا وذاك يظل التساؤل المقلق . . . حرب أم سلم ؟ حيث أن هذا التساؤل لا يزال يلقي بظله الكثيب على

(1) The Great Ideas A Syntopicon Vol., 2 P. 1010.

حياة الناس في كافة المجتمعات مما لا يزال يتولد بسببه الشعور بالتوتر والقلق إلى درجة أن فيلسوفا مثل برتراند رسل^(١) يقرر أن بقاء الجنس البشرى كله لم يكن مهددا في يوم من الأيام كما هو مهدد اليوم بسبب التقدم التكنولوجى العظيم، وتحكم العلم فى المجتمع، وظهور أسلحة الدمار الشامل كالأسلحة النووية وما شابهها، ومن هنا وجبت السيطرة على هذه القوى الجبارة الجديدة وتسخيرها في خدمة السلام وحده. فالحل الوحيد عند (رسل) هو السلام، لان البديل وهو الحرب لم يعد يهدد بانقراض المدنية فحسب، بل انقراض الجنس البشرى كله.

٢ - عدم التناقض فيما بين التقدم العلمى والتكنولوجى وبين الاطارات والأنظمة المرسومة للحياة :

من الملاحظ الآن ان الناس وهم على مشارف نهاية القرن العشرين يكثرون من الحديث عن تصورهم لحياة القرن الواحد والعشرين، يدفعهم لهذا المكتشفات المتلاحقة بحيث أصبحوا يتطلعون إلى القرن التالى مدفوعين بهذه المكتشفات والمخترعات، لأن التطور متلاحق والكل يحاول أن يستكشف معالم الحياة في القرن الواحد والعشرين.

هذه الظاهرة تلفت النظر - بلا شك - طالما أن الناس قد بدأوا يتحدثون عن القرن المقبل قبل أن ينتهى القرن الحالى. وبعضهم يتطلع بتفاؤل والآخر بتشاؤم. وجميعهم يصبغون آراءهم بالحديث عن عالم متغير بعد أن لمسوا فى الثلث الأخير من القرن الحالى ما حدث من تغير مذهل في كل شىء، وما لاحظوه من التتابع السريع في خطوات التقدم الملحوظ، نتيجة لتفجير الذرة واستخدام الالكترون على نطاق واسع مما توصلت معه البشرية بسبب هذا التقدم العلمى إلى الوصول إلى القمر والنزول على سطحه واستكشافه خلال حقبة قصيرة من الزمن (سبوتنك في دورانه في الفضاء عام ١٩٥٧ - والنزول على سطح القمر عام ١٩٦٨) . . .

(١) دراسات في النظم والمذاهب - دكتور لويس عوض - كتاب الهلال العدد ١٩٩ - اكتوبر ١٩٦٧ (ص ٢٤٢).

فهذه السرعة المتلاحقة طبعت العصر الحديث بهذه السمة - أى سمة التغير المتلاحق في كافة شئون الحياة ، وهذا - في الواقع - مما اضطرت الناس إلى التفكير في ضرورة مواكبة هذا التقدم السريع بتقدم آخر مماثل في شتى شئون الحياة الحاضرة ، الأمر الذى من شأنه أن يزيد - ولا شك - من إحساس الناس بالقلق لترقبهم باستمرار لكل ما هو جديد ، ولما يمكن أن يحدث في حياتهم من تغيير ، لدرجة أن التعليم والتدريب واعداد النشء - على سبيل المثال - قد أصبح يأخذ اهتماما أكبر بالمستقبل ومشاكله المرتقبة ، بعد أن كان معظم الاهتمام موجها إلى الماضى أو الحاضر على أكثر تقدير مما زاد من إحساس الناس بضغط الحياة التى تواجههم^(١) وأصبح كذلك يعاب على التعليم أن يستمر في تلقيه للطلاب بديهيات العلم^(٢) مما يدعونا - بالتالى - إلى النظر في تغيير مناهج التعليم كى تتفق وتتلاءم مع ظروف الحياة الجديدة وطابعها المتميز بالسرعة في التطور والتغير .

وهكذا أصبحت مسألة الملاحقة وانتظار الناس للجديد تشغل بالهم وتجعلهم دائما في ترقب وتطلع للمستقبل وتصور لما سوف يكون عليه الغد . . . والواقع أن التطور والتقدم في حد ذاته خلق لدى الناس شعورا بعدم الاستقرار فالحياة الحاضرة في تناقص وتعارض مع ما انتهى اليه التطور العلمى والتكنولوجيات من مكتشفات ومخترعات . . . وما زاد الموقف تعقيدا عجز الانظمة والاطارات المرسومة للحياة الحاضرة أن تتمشى مع هذا التطور العلمى السريع البعيد المدى .

فمن المعروف مثلا أن التقارب قد تزايد الآن بين البشر عن طريق سبيل الاتصال المختلفة ووسائل المواصلات المتعددة ، لكن المسافات ما بين دولة

(١) عالم الفكر - مقال بقلم الاستاذ الدكتور احمد ابوزيد - العدد الثانى - المجلد الاول - أغسطس ١٩٧٠ - الكويت .

(٢) ولعلنا نجد مثلا تلك النظرة الحديثة فيما جاء في بيان سمو الشيخ جابر الاحمد الصباح ولى العهد ورئيس مجلس الوزراء بتاريخ ٢٤ يونيو ١٩٧٠ حيث اشار ذلك البيان الى ان التعليم عندنا في الكويت يبحث في بديهيات العلم في الوقت الذى يجب ان نتطلع فيه الى ما استكشفه العلم وانتهى اليه التطبيق .

واخرى بالرغم من السيطرة عليها الا أن حرية الحركة والتنقل لازالت تتحكم فيها الأنظمة والعلاقات الدولية مما جعل الناس يتعلمون ويستشعرون بعدم الرضاء عما يحد من حركتهم وحريتهم في الانطلاق وبما لا يتفق مع تطلعاتهم وواقع التقدم في الحياة الحاضرة المعاشة . وزاد ذلك أيضا من احساس الناس بضرورة تغير الاسلوب والاطار والاجراءات التي تحكم حياتهم . فالانسان وان كان يستطيع في وقت قصير أن يتنقل بين العديد من الدول الا أن ذلك - مع هذا - ليس ميسورا له على الدوام ولا يحتمق له رغبته في سرعة الاتصال والتنقل وحرية الحركة لأن دون ذلك اجراءات رتيبة مملّة ومعوقة . وهكذا يلمس الناس كيف ان الاطارات والنظم التي تحكمهم تقلل من استمتاعهم بشار التقدم العلمى وتحد من استفادتهم المثلى عما وصل اليه العلم في تطبيقاته ، ومن هنا الدعوة إلى تغير الاجراءات والاطار الذى يحكم الفرد في نشاطاته المختلفة ، وإلى المزيد من انفتاح الشعوب على بعضها البعض نتيجة لهذا التقدم العلمى الذى مهد السبيل في التنقل وذلّل الصعاب في اجراء الاتصالات بحيث أصبح ملحوظ ان البعد الزمانى والبعد المكاني لم يعد لهما وجود أو على الأصح لم يعودا يعوقان الانسان في الاتصال بأخيه الانسان بمقدار المعوقات التي يخلقها البشر أنفسهم .

ومع ذلك فإن هناك من المفكرين من يرى في المثال السابق - حيث لا يتلاءم التقدم العلمى والتكنولوجيا مع الاطارات والنظم المرسومة للحياة . . . نقول هناك من يرى في هذه الظاهرة صورة طبيعية لا بد أن تعيشها وتمر بها المجتمعات عند خضوعها لعملية التغير الحضارى . فيرون ان التفاوت الحضارى أو الهوة الحضارية هي مرحلة وسطى أو هي مرحلة انتقال كمظهر من مظاهر عدم التكيف والملاءمة مع الوضع الجديد . وأنه ما هو الا نوع من التخلف الزمنى بين التغير الأصيل والتغيرات الفرعية . . . ويقدم الدكتور محى الدين صابر نماذج لذلك بقوله أنه حين قامت المصانع مضت فترة قبل أن تظهر قوانين العمل والعمال بشأن تحديد ساعات العمل أو تقرير التعويض عن الاصابات أو اتخاذ أساليب الوقاية الصحية . وهكذا مضت فترة من التفاوت الحضارى بين قيام المصنع ووجود التشريعات والتنظيمات المنظمة للعمل والعلاقات المختلفة فيه . . . ويقدم الدكتور

صابر مثلاً آخر عندما أدى انتشار الوعي الصحى وفاعلية الخدمات الطبية إلى الارتفاع النسبى فى مستوى الحياة - أى إلى هبوط معدل الوفيات وخاصة بين الاطفال - وكيف أنه مضت فترة تفاوت حضارى قبل أن تبدأ عملية تنظيم النسل عن طريق التوصل إلى موانع الحمل وغيرها (١) .

ولكن ، ولئن كان من طبائع الأشياء ضرورة مضى بعض الوقت لاجداث التلائم المطلوب ، وفقاً لما يشير اليه الدكتور محيى الدين صابر ، إلا أن من المرغوب فيه فى الواقع هو التفكير فى العمل على سد هذه الفجوة أو - على الأقل - تقصير أمدتها وملافاة الاضرار الناتجة عن عدم التناسق بين التقدم العلمى والتكنولوجيا وبين الاطارات المرسومة للحياة .

والواقع أن هذه الصورة من صور الضغوط والمؤثرات التى تشكل أحد مظاهر الحياة الحاضرة - والتى نتناولها بالتحليل الآن - ونعنى بها عدم التناسق فيما بين التقدم العلمى والتكنولوجيا وبين الأنظمة المرسومة للحياة الحاضرة ، تبرز فى نماذج شتى منها : تحكم الآلة ، وأزمة القيم فى عالمنا المعاصر ، والصراع بين الدول المتقدمة والنامية .

ومن صور الضغوط والمؤثرات التى تشكل مظاهر الحياة الحاضرة يمكن أن نشير إلى الخشية من تزايد تحكم الآلة فى الانسان نفسه . فهناك مخاوف وتوقعات تقوم فى النفس بأنه ربما ينتهى الأمر بالآلة لأن تحل محل الانسان ، وان ينحسر ويتلاشى دور الانسان تقريباً كيد صانعة وخلاقة منتجة أو كرأس مبدع .

(أ) تحكم الآلة :

فلقد شاع استخدام الآلة على نطاق واسع فى حياتنا وتغلغلت فى شتى مرافق الحياة ، وأصبح كل شىء تقريباً يعتمد فى انجازه على الآلة ، سواء فى الشئون المنزلية أو الأعمال التى كان الانسان يؤذيها بالوسائل اليدوية ، حتى لقد استفيض بالآلة - فى كثير من الأحوال - عن الناس أو كاد ذلك أن يتم ، مما أحس

(١) التغيير الحضارى وتنمية المجتمع - د. محيى الدين صابر - دار المعارف بمصر - ١٩٦٢ .

الناس معه بضغط هذه الوسيلة عليهم وجعلهم في خشية من تحكمها وسيطرتها • وكذلك الخوف على الرزق أو على الأقل تدنى مستوى المعيشة بسبب ما يمكن أن يتعرض له الإنسان من البطالة نتيجة لامكانية الاستغناء عن الجهد الانساني واليد العاملة . والخوف كذلك من عدم القدرة على سد المطالب والاحتياجات التي ارتفع اليها مستوى الحضارة المادية الحديثة في هذا القرن ، والتي يبدو أنها لم ولن تقف عند حد معين ، بل ان الدلائل لتشير إلى امكانية تزايد هذه المطالب والاحتياجات ، ذلك أن وفرة الانتاج بسبب استخدام الآلة على هذا النطاق الواسع في الحياة العصرية ، قد أوجد (مجتمع الاستهلاك) الذي ضاعف بدوره من اضطراب الحياة وتعقدها وتعدد مطالبها .

وهكذا ازدادت الحياة ضراوة وقسوة ففقد الناس الاستقرار ، واحتاج الناس إلى التكيف والمواءمة مع هذا التغيير ، ومن نماذج ذلك الحاجة إلى مضاعفة الجهد في التدريب والتعليم للملاحقة التغيير في الحياة العصرية ، ولأن المواءمة مع ظروف الحياة الحديثة يلزمها الكثير من القدرة والكفاءة فان ذلك كما يبدو ليس ميسوراً على الدوام لتتم بذلك عملية التكيف المطلوبة بالسرعة التي تتم بها عملية التغيير في العلوم التطبيقية .

ومن ناحية اخرى ، فإن المطالب المتجددة والملحة لا تترك فرصة للتهميل والتريث في إعداد العدة لمقابلة التغيير في الحياة المتلاحقة ، لأن ذلك يقتضى السير وفق خطة مدروسة تتلاحق بموجبها الخطط ، وهذا قد يصعب اتباعه في كثير من الأحوال بصورة منتظمة .

على أن ما ذكرناه الآن لا يمثل كل الضغوط التي تعرض لها الانسان بسبب الآلة واستخدامه لها . وليست هذه كلها نتائج سيطرة الآلة وتدخلها في العديد من وسائل النشاط الانساني ، فهناك — على سبيل المثال — مشكلة تزايد وقت الفراغ والحاجة إلى تنظيم موجه بناء لاستغلاله . . . مشكلات ومشكلات أوجدتها الآلة ، وما قدمنا سوى نماذج لما أحدثته من آثار في حياة الانسان .

(ب) أزمة القيم في عالمنا المعاصر :

ان التقدم العلمى فى مختلف أساليب الاتصال سواء فى سبل المواصلات كالطيران السريع المذهل الذى قصر المسافات وكاد أن يمحوها ، أو فى طرق الاتصال عن طريق الأقمار الصناعية والطباعة على الالكترون وغيرها ، قد عمل على خلق وحدة ما بين البشر ، وأصبح المجتمع كلاً واحداً ، مما ساعد على التلاحم بين الجنس البشرى بغض النظر عن الأنظمة الايديولوجية التى تحكمه . كما أدى إلى تزايد الدعوة التى تستهدف التقارب بين أجزاء المجتمع البشرى عن طريق المنظمات الدولية . . . وما من شك أن هذه المنظمات قد رسمت اطراراً نموذجية فيها ارضاء للمثل والمبادئ ، لكن هذه الانظمة والمثل مجرد حبر على ورق ينقصها الروح وقوة الضمير . ولقد عمل ذلك - ايضاً - على خلق القلق والتوتر لدى الشباب والجيل الصاعد حين يقارن ما بين الفكر والسلوك أو بين القول والعمل يجد التناقض واضحاً بين هذين البعدين ، وهكذا بدت الأزمة - بالتالى - فى أساسها أزمة أخلاق . وفى هذا يقول (برتراند رسل) : انه لو أراد الغرب أن يباهى بتفوقه فى شىء فهو العلم ومناهجه ، وليس فى القيم الخلقية ويستطرد (رسل) فى شرح موقفه من هذه القضية فيقول « ان فتوحات العلم الحديث التى نحطم بها قيود الطبيعة قيداً بعد قيد ، لا يتجاوز عمرها مائتى عام ، فى حين يرسف الانسان نفسه وخلقها فى أغلال تاريخه الطويل وعاداته التى رسخت منذ عهد الغاب وعصر الصيد وأجيال الذل المرير والجشع المقيت والخوف المتأصل والقسوة الضارية » ويضيف (رسل) بقوله . . . المشكلة اليوم اذن هى مشكلة تأقلم أو تكيف . فاما أن تتأقلم الانسانية فى نظمها الاقتصادية والسياسية والفكرية والاجتماعية مع القوى الانتاجية والتخريبية الجبارة التى استجذت فى العالم ، وأما الكارثة والفناء والانتواء فى متاحف الحفريات مع الماموت والديناصور وغيرها من الكائنات البائدة التى هلكت لأنها عجزت عن أن تتكيف مع ظروف الحياة . . . وينتهى (رسل) بقوله « . . . فبعد تحديد علاقة الانسان بالطبيعة ، لابد لنا من تحديد علاقة الانسان بالانسان . فعلاقة الانسان بالانسان لا تقل أهمية فى حفظ ذاته

وفي رسم ماضيه وحاضره ومستقبله عن علاقته بالطبيعة^(١) . ونرى - بالمثل - مفكرا مثل اوجست كونت يقرر بأن « من الواجب ألا تُعرَّف الانسانية بالانسان ، بل يجب على العكس ان تُعرَّف الانسان بالانسانية. » (ص ٣٤٣)^(٢) . . . فأوجست كونت بهذا يرى أن المرء لا يكون انساناً حقاً الا باشتراكه في صفات الانسانية . . . ويتناول (كونت) المشكلة الاخلاقية - التي هي التجسيد العملي للقيم الانسانية - فيذكر أن الصيغة التي تتجدد بها المشكلة الاخلاقية هي « أن يعمل الانسان ما استطاع لكي تتغلب غرائز المودة بين الناس على دوافع الاثرة ولكي تتغلب النزعة الاجتماعية على الشخصية الفردية . » (ص ٣٢١ نفس المرجع) . . . فالكمال الاخلاقي - عند كونت - ينحصر في تخليق الانسجام بين جميع الناس عن طريق الارادة الطيبة المتبادلة فيما بينهم وفقا لمبدأ الحياة من أجل الآخرين (ص ٣٢٣ من نفس المرجع) . . . وان النظام الاخلاقي بصفة عامة لابد وأن يكون على صلة وثيقة بنظام الكون الخارج عن ذاتنا ، نظرا للتأثير المستمر لذلك النظام علينا (ص ٣٢١ من نفس المرجع) . والواقع ، أننا إذا رجعنا إلى المشكلة الاخلاقية وصراع القيم في عصرنا الحاضر لوجدنا أن سيطرة الانسان على الطبيعة ، لم يوازها تقدم مماثل في فهم البشر لانفسهم ، وفي فهم طبيعة العلاقة القائمة بين الانسان وأخيه الانسان . وربما كان السبب في هذا - كما يقرر أحد الكتاب^(٣) - راجع إلى أن محاولات الانسان فهم حياته في المجتمع بدأت متأخرة جداً فعلم الاجتماع لم يبدأ الا منذ عهد قريب إذا قورن بالتاريخ الطويل للانسان ، ومن هنا كان من الضروري ان ينصب الاهتمام في التركيز على علوم المجتمع ، بحيث يصبح هذا الاهتمام هو الدعامة الأساسية في سياسة التعليم وأساس الرعاية الاجتماعية في المجتمع . وتزايد الحاجة - بلا شك - إلى علم الاجتماع على وجه الخصوص في هذا العصر المعقد الدائم التغيير .

(١) دراسات في النظم والمذاهب . د . لويس عوض . كتاب الهلال العدد ١٩٩ اكتوبر ٦٧ .

(٢) اوجست كونت - للدكتور مصطفى الخشاب - الطبعة الثانية الثانية ١٩٥٦ - مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة .

(٣) علم الاجتماع - الدكتور محمد عاطف غيث - دار المعارف - ١٩٦٣ - القاهرة (ص ٢) .

ولكن هل يفهم من كل هذا أن نزعة التفكير لدينا في تطور الحضارة هى
نزعة تشاؤمية أقرب ما تكون إلى تلك النزعة التى كانت سائدة فيما قبل القرن
الثامن عشر والتى كانت تقدر الماضى وتنظر إلى الوراء وتمجد حالات الانسانية
في صورها الفطرية الأولى مثلما فعل افلاطون وابن خلدون ؟ . . فنحن نعلم أن
افلاطون كان يتصور الحياة البشرية كأنها بحر تنتابه حركتان : حركة للمد
واخرى للجزر ، وان افلاطون كان يفضل الدورة الأولى التى يصفها بأنها
حالة من الصفاء - على الدورة الثانية التى يصفها بأنها تفكك وانحلال . . وبالمثل
فان ابن خلدون كان يمتدح حالة البداوة ويفضلها على حياة المدنية والحضارة ،
لما تمتاز به الاولى من مثاليات وقيم أخلاقية عظيمة (ص ٢٢ ، ص ٦٣ -
ص ٦٥)^(١) ان الاجابة على مثل هذا التساؤل هى في أننا نقرر - فقط -
ما هو قائم الآن بغض النظر عما يحمله من طبيعة تشاؤمية أو تفاؤلية . واننا نشير
إلى المعاناة التى يعيشها شباب وجيل هذا القرن بسبب أزمة القيم التى تسود عالمنا
المعاصر . ومما لا شك فيه أننا نرجو أن ينتبه قادة الفكر ، وكذا أولئك الذين
يمسكون بزمام الامور في سائر المجتمعات والدول - وخاصة الكبيرة منها -
إلى هذه الحقيقة المؤرّة وذلك التفاوت الكبير في أنماط الفكر والسلوك ، وان نصل
في نهاية الأمر إلى تحقيق تلك الغاية التى كان يشير إليها أوجست كونت بأن
« نُعرّف الانسان فعلا بالانسانية » .

(ج) الصراع بين الدول المتقدمة وبين الدول النامية :

لعل من أبرز طرق الضغوط والمؤثرات التى تشكل مظاهر الحياة الحاضرة ،
هو ذلك الصراع المريع الذى يدور - الآن - بين الدول المتقدمة والاخرى
النامية ، ذلك الصراع الذى لا نعتقد أنه يمثل بأى حال من الأحوال مقاييس
العدالة أو التكافؤ . . فالدول الصغيرة والنامية تجد نفسها الآن بين فكي العملاقين
الكبيرين (امريكا وروسيا) اللذين يعملان على استقطاب هذه الدول الصغيرة

(١) فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع - دكتور عبد العزيز عزت - ١٩٦٠ - القاهرة .

والنامية ، وان كانت هذه المحاولات لا تستهدف - بلا شك - الخير للدول الصغيرة بقدر ما تشد مزيداً من استغلالها والدعوة لايديولوجياتها . والواقع أنه على أثر صيحات التحرر وفك قيود الاستغلال والاستبداد أرادت هذه الدول النامية أن تسعى جاهدة لتحسين مستوياتها كحق طبيعي من حقوقها الانسانية المشروعة ، فلم يكن الطريق سهلاً أو ميسوراً أمامها وإنما قامت في سبيلها عقبات وصعاب . . . من ناحية ، نجد أنها دول ناشئة تريد من يأخذ بيدها ويناصرها ويعينها على تخطي العقبات وتذليل الصعاب . ومن ناحية أخرى ، كانت الدول الكبرى نفسها تمثل أكبر عقبة في طريق الدول النامية التي تسعى نحو التخلص من الاستغلال لها الذي تمارسه هذه الدول الكبرى عليها وعلى مقدراتها .

وأمام كل هذا كان لابد من أن يرتفع صوت الضمير العالمي ، وان تصحو البشرية بأسرها على الصوت المنادى بأن الفقر في أى جزء من العالم كارثة تنعكس آثارها على بقية اجزائه . إلا أن الدول الكبرى - مع هذا - ان هى أعطت فلا تعطى إلا بمقدار . ولا تبذل ما لديها من طاقات فعلية لمساندة الدول النامية فى محاولاتها النهوض بمستوياتها المعيشية والاستمتاع بحياة حرة كريمة . وغاب عن بال هذه الدول الكبرى ان ما تتمتع به من مستوى معيشى مرتفع إنما يرجع في أساسه إلى استغلالها لهذه الشعوب واستحوازاها على خيراتها ، مما كان يقتضى أن ترد ذلك عن طريق المساعدات غير المشروطة لهذه الدول النامية . ومع أن هناك محاولات تبذلها الوكالات المتخصصة للمنظمة الدولية ، الا أنها لم تصل حتى الآن إلى المستوى الذى ينبغى أن تكون عليه ، ولم تحقق الأهداف التى قامت من أجلها بحيث لازالت الهوة سحيقة بين الدول المتقدمة والأخرى النامية . ولا يمكن - والوضع على هذا الحال - أن يعيش المجتمع البشرى في سلام ، حيث يتمتع جزء ضئيل من المجتمع الدولى بأعلى مستويات المعيشة بينما تعيش الغالبية العظمى منه في فقر مدقع ، تعاني صنوف الاستغلال والحرمان .

ثانياً :

في مواجهة هذه الضغوط وتلك المؤثرات

كان لابد للمجتمع البشرى أن يواجه الضغوط والمؤثرات التي أصبحت تعترضه وتؤثر في كل جانب من جوانب الحياة فيه . كاستجابته للقانون الطبيعي بأن لكل فعل رد فعل — فقد ظهرت ردود الأفعال في صور عديدة منها حركات التحرر والرفض ، وجهود المنظمات الدولية في ارساء وتدعيم اسس التعاون الدولى ، وبروز كيان الدول النامية ومحاولاتها لاعادة صياغة العلاقات بين الدول .

١ - حركات التحرر والرفض على الصعيد العالمى :

من المظاهر الملموسة التي واجهت بها الشعوب تلك الضغوط حين أحست بالاختناق يعترضها ويسد عليها منافذ الأمل وعوامل الاطمئنان ، أنها حاولت — بشتى الطرق — التنفيس عن هذا القلق الذى يساورها وعن ذلك التوتر الذى تستشعره عن طريق رفض النظم والقيم السائدة في مجتمعاتها ، وبصورة اخرى رفض الاطار الذى يشكل حياة هذه الشعوب في مجتمعات أصبح كل شئ فيه آلياً مما أفقد الناس طبيعتهم البشرية ، أحسوا بالفعل بفقدان النوازع الروحية التي تقابل تعادل هذا التقدم المادى الملموس في تسيير حياتهم ، وفي نظم الحياة التي تسود مجتمعاتهم . كما افتقدوا معانى الاستقرار وعوامل الاطمئنان بسبب ما يواجهونه من تغيير وتبديل سريع في كافة شئون حياتهم اليومية .

ولقد برز هذا الرفض وذلك التمرد في كافة صوره وعلى مختلف المستويات كانعكاس لذلك الاحساس بأن الحياة المادية لم تحقق لهم السعادة والهناء والاطمئنان النفسى . وأصبح من الضروري أن يشارك الانسان في صنع مصيره . والا تكون طاعته طاعة عمياء إنما طاعة مبصرة ، فيسهم هو نفسه في وضع الاطارات التي تحكم حياته أو ما يجب أن يتلقاه من علوم ومناهج حتى لا تكون الاطارات

التراث العربي والفلسفة الإسلامية

محاضرة

الدكتور محمد عبد الهادي ابوريبة



المرسومة عاجزة عن أن ترضى طموحه ومثله ومستقبله . وأصبحت هناك دعوة إلى إشراك سائر فئات البشر فيما يوضع لهم من اسس وقواعد تتشكل وتسير بموجبها حياتهم . فالعمال في المصانع أخذوا يطالبون بالمزيد من المشاركة حتى يمكنهم أن يقدموا الرأى فيما يطبق عليهم من أنظمة وقوانين . والطلبة أصبحوا ينادون بالمشاركة فيما يرسم لهم من خطط وبرامج ، أو على الأقل أن يستمع إلى آرائهم على اعتبار أنهم بشر سوف تتأثر مصائيرهم فيما يرسم لهم من خطط وبرامج . . .

وعلى هذا أصبح مبدأ المشاركة يمثل دعوة عالمية عامة مما يقتضى المزيد من حرية التعبير عن الرأى والمشاركة فيما يعرض للانسان والمجتمع من أنظمة وقوانين .

ولقد اتخذت حركات التحرر والرفض صوراً ومظاهر مختلفة . فبدأت - على سبيل المثال - ظاهرة الرفض السلبي التى تتمثل في أن يتصرف ويسلك الانسان كما يشاء وان لم يرتضى المجموع ذلك التصرف والسلوك . ولقد اخذت هذه الظاهرة في البروز على نطاق ضيق في بادىء الأمر ، ثم مالبت أن انتشرت وشاعت بين الناس بالرغم من كونها نوعاً من الرفض السلبي الذى هو في جوهره تمرد وتعبير عن عدم الانصياع لما تعارف عليه الناس بصورة أو بأخرى ونبذ كل ما هو قائم .

وفي الطرف الآخر ، نجد ظاهرة الرفض الايجابي التى تقوم على الدعوة والمناداة بالمشاركة ورسم اطارات الحياة ، والا تطفئ الماديات على الروحانيات وان نحفظ للانسان آدميته وتوازنه .

وأياً كان الوضع بالنسبة لظاهرتي الرفض السلبي والايجابي ، فان الحكمة تقتضى مواجهة الموقنين بأسلوب فيه القناعة أكثر مما يبدو فيه الفرض والاكراه - حيث أن فرض الارادة يجعل العلاقات دائمة التوتر مما يفقد المجتمع حيويته وطاقاته ويزيد من التباعد بين أفراد المجتمع ، الأمر الذى قد يؤدى بالتالى إلى تدهوره وإنهياره . فما لاشك فيه أن هذا الموقف يحتاج إلى التأمل الطويل

والادراك الصحيح لما هو عليه الواقع ولما يتعرض له أفراد المجتمع من مشكلات وضغوط . وان تكون المواجهة مرتكزة على حلول ايجابية تحقق للناس مايشدونه من حياة مثلى وتعيد اليهم طمأنيتهم النفسية وتشعرهم بذواتهم وآدميتها .

٢ - جهود المنظمات الدولية في ارساء وتدعيم أسس التعاون الدولى والتقدم البشرى :

لقد كان من البديهي والمنطقي ان تحاول البشرية مواجهة الضغوط والمؤثرات التى تشكل الحياة الحاضرة وفي مواجهة تلك الضغوط والمؤثرات رأينا كيف قامت حركات التحرر والرفض على الصعيد العالمى كنموذج لمحاولات الانسان في اعادة التوازن الذى اختل في شتى صور هذه الحياة .

وفي هذا الصدد أيضاً - أى في مواجهة ضغوط الحياة المعاصرة - يمكننا أن نشير إلى جهود ربما كانت أكثر تنظيماً من غيرها من أساليب مواجهة الضغوط ، ونعنى ذلك قيام هيئة الأمم المتحدة بوكالاتها المتخصصة العديدة . ولربما قامت هذه الجهود الدولية كاستجابة لطبيعة الحياة الجديدة التى نعيشها في القرن العشرين . فالحياة العصرية التى نحياها تعدت نطاق الحى والفرد والمجتمع إلى مجتمعات اخرى كى ترابط مع بعضها حتى بتنا نرى مشاكل العالم كلها ترتبط أحداثها ببعض وتؤثر كل واحدة على الاخرى ، ومن هنا انبثقت فكرة التعاون الدولى بين البشر ، فكان لابد من إيجاد هيئات دولية تربط مصائر العالم ، وانبثقت فكرة التعاون الدولى بين الأمم ، فكانت عصبة الأمم التى فشلت لتحل محلها بعد الحرب العالمية الثانية هيئة الأمم المتحدة . ومع ان أهداف هذه الهيئة كانت سياسية في بادئ الأمر ، الا أن اتساع رقعة العالم وسهولة الاتصال بين سائر الدول ، وترابط المصير الانساني وتشابك قضاياها وما يسعى المفكرون من أهداف ومثل عليا للوصول إلى مجتمع متكامل تسود أركانه العدل والمحبة والاخاء ، دفع كل ذلك الهيئة الدولية إلى المساهمة في أكثر من مجال ، فانبثقت عنها هيئات اخرى كمنظمة الصحة العالمية ، ومنظمة الأغذية ،

والعمل ، واليونسكو وغيرها . ولا شك أن قيام هذه المنظمات الدولية فيه تدعيم لاسس التعاون الدولى ، والبحث في قضايا المجتمع البشرى والعمل على إيجاد الحلول لها بالوسائل السلمية ، والعمل على تحقيق التقدم لخير البشرية بأسرها .

ومع أنه قد مضى ربع قرن على ميلاد منظمة الامم المتحدة ، فإنها لم تحقق تماماً أهدافها ولا الآمال المعقودة عليها . ولعل من أهم ما أعاق طريقها في اطراد نموها وبلوغ أهدافها هو طغيان الدول الكبرى على سير أعمالها وقراراتها . ويمكننا أن نذكر في هذا الصدد أنه لا يزال حتى الآن ٤٥ إقليماً يقطنها حوالى ٢٨ مليوناً من البشر لم تحصل على استقلالها بعد . ولا تزال الحكومات العنصرية في جنوب افريقيا وروديسيا الجنوبية وفي المستعمرات البرتغالية تمارس اضطهادها للمواطنين الأصليين . بل أن قضية فلسطين أوضحت للعرب وللعالم بأسره أن منطق القوة يتغلب على منطق الحق والعدالة ، وأن مبادئ الامم المتحدة تضعف أمام ارادات الدول الكبرى . . . ومع ذلك لم نفقد الأمل بعد في قيمة المنظمات الدولية ودورها في مواجهة الضغوط والمؤثرات التى تتعرض لها البشرية .

٣- بروز كيان الدول النامية كمحاولة لاعادة صياغة العلاقات بين مختلف الدول في عالم اليوم .

من البديهيات في مراجع العلوم الانسانية أنه لا خلاف ابدأ على معيشة الانسان في جماعة مهما كان شكل أو تركيب تلك الجماعة . وسوف نجد ايضا ان العلماء قد دأبوا على تصنيف تلك الجماعات . وفي الأغلب فإنهم ينزعون إلى ثنائية التصنيف لاسباب عديدة ، ربما لأن الانسان قد درج على مقارنة نفسه بغيره . فهنا علاقة ثنائية هو أحد اطرافها ، أو ربما لأن التصنيف الثنائى يعينه في تصويره لمواقف الحياة . . . وهكذا نجد تصنيفات للشعوب إلى حضر وبدو ، بيض وملونين . . . الخ والاعتماد في هذه التصنيفات يقوم أما على أساس جغرافى أو على أساس الجنس أو الحالة الحضارية وغير ذلك من معايير .

على أن أهم ما يعيننا - الآن - هو تلك التصنيفات التي بدأت في أعقاب الحرب العالمية الأولى حيث كانت الدول تصنف إلى شعوب مستقلة وأخرى غير مستقلة . وبانتهاء الحرب العالمية الثانية وكنتيجة لحركات التحرير المكافحة ضد الاستعمار ، لم يعد التقسيم الثنائي قائما على أساس المعايير السياسية وإنما برز تصنيف جديد هو البلاد المتقدمة والبلاد المتخلفة . ولعلنا نلاحظ هنا أن معيار التصنيف أصبح يقوم على أساس اقتصادي واجتماعي . ومما لاشك فيه أن ظروف العالم بعد الحرب العالمية الثانية قد اتجهت بالدول الكبرى إلى اتخاذ أساليب مقنعة للاستعمار كبديل عن الاستعمار السافر الذي كان سائدا في أعقاب الحرب العالمية الأولى . ولعل من الأسباب الرئيسية في هذا الصدد هو انقسام الدول الكبرى فيما بينها إلى معسكرين كبيرين تدور بينهما حرب باردة ، تحاول كل منهما أن تستقطب إليها شعوبا أخرى وأن تجعلها تدين بمبادئها وايدئولوجياتها . . . وكذلك تزايد الوعي فيما بين الشعوب ومحاولاتها الدائبة في سبيل التخلص من استغلال الدول المستعمرة لها . . . وربما كان أيضا من العوامل المساعدة في هذا الشأن تشكيل منظمة الأمم المتحدة بوكالاتها المختلفة .

ولقد نستطيع أن نسجل لمؤتمر باندونج الذي عقد في اندونيسيا عام ١٩٥٥ أنه كان أول تجمع لدول آسيوية وإفريقية عانت من الاستعمار الغربي ، وكانت تجمع فيما بينها الرغبة في الاسهام في تحرير البلاد التي لازالت ترزح تحت عبء الاستعمار في آسيا وإفريقيا . . . ولقد تبلورت مبادئ مؤتمر باندونج في التأييد الكامل لحقوق الإنسان ، وأهمها حق تقرير المصير ، والغاء التمييز العنصري عن طريق المساواة الكاملة بين الأجناس والأديان ، والتأييد الكامل لقضايا الحرية والاستقلال ، وفتح باب العضوية في الأمم المتحدة أمام الجميع ، ونزع السلاح وتحريم انتاج وتجريب الأسلحة النووية ، والدعوة إلى التقدم الاجتماعي إلى مستوى أعلى للحياة .

وفي عام ١٩٦٠ برز تعبير الدول المنحازة لأول مرة حين الدعوة والتحضير لعقد أول مؤتمر لهذه الدول في بلجراد عام ١٩٦١ . وكان الهدف الاسمي لهذه الدول هو الدعوة إلى التحرر من أى قيد سوى ما تفرضه مبادئ السلام . . . على أن مفهوم السلام لدى دول عدم الانحياز هو صيغة جديدة تمثل « قوة الضمير في عالم اليوم » وان عدم الانحياز بهذا المفهوم لا يقوم على أساس من الرفض السلبي لأى شىء ، وإنما هو موقف ايجابي فيه انحياز لكل القوى التي تخدم قضايا السلام والحرية والتقدم في العالم .

وهكذا ، وفي مواجهة الضغوط والمؤثرات التي تشكل مظاهر الحياة الحاضرة ، برز كيان الدول النامية لتعمل وتحاول أن تكافح من أجل إعادة صياغة العلاقات بين الامم في عالم اليوم . وهى بهذه المعانى وتلك الأهداف تحاول جاهدة تأكيد المبادئ التي قامت عليها هيئة الامم المتحدة ، ومحاوله رفع الحيف الواقع على هذه الدول النامية . وانها بهذا تحاول تمهيد الأرض والظروف المواتية لتطبيق مبادئ العدالة والمساواة والسلام . كما تحاول ان تشق طريقها وسط الايديولوجيات التي تروج لها الكتلتين الكبيرتين في الوقت الراهن : امريكا على رأس المجتمع الغربي ، وروسيا على رأس المجتمع الشرقي . وهى أيضا تجاهد من أجل الحد من شدة التوتر المرير الذي يسود العالم بسبب هذا الصراع الايديولوجي في كافة المجالات الفكرية والاجتماعية ومختلف أنظمة الحكم ، فتدعو إلى المزيد من الانفتاح والتعايش بين الامم بسلام ، والتعاون القائم على المساواة والعدل ، وكذلك إلى المزيد من الحريات في التعبير عن الآراء وعدم الخضوع للسيطرة والتحكم من قبل التكتلات . . . على اننا مع كل هذه الأمانى والآمال نرجو ألا تتوقف فكرة عدم الانحياز عند حدود التعبير عن الضمير الانساني ، وإنما نرجو أن تصبح قوة ايجابية فعالة في عالم اليوم .

ثالثاً :

النظر في التراث العربى الاسلامى كسند لمستقبل أفضل

ان من يحاول أن يطل اليوم في نظرة شاملة على هذه الدنيا بأسرها ، وأن يتوقف وهو يعبر آفاق المجتمعات البشرية متأملاً ومحملاً لطبيعة الحياة في كل بقعة منها ، لسوف يصدمه حتما الواقع الذى تقوم عليه العلاقات السائدة اليوم في المجتمع البشرى .

فإذا حاول — خلال تأملاته هذه — أن يكون بفكره جزءا من هذا المجتمع العالمى التى ترتفع الدعوة لقيامه وعلى الصورة التى حاولت أن ترسم اطارها موافق هيئة الامم التى جاءت تعبيرا عن أمل البشرية في العيش بطمأنينة وعدالة ومساواة وسلام . . . نقول إذا حاول ذلك ، فإنه لواجد نفسه في وهم وتيه وسراب لما يقال عن مجتمع عالمى موحد لا وجود له في واقع الأمر .

وان هو حاول من ناحية اخرى أن يبحث عن مكان وكيان للشعوب المكافحة في سبيل سيادتها وأمنها واستقرارها ، لوجدتها تصحو ثم تكبو مرة ثانية لتحاول النهوض مرة اخرى. ولكن المشاق التى تواجهها — بدورها كذلك — عسيرة ومضنية . فما يكاد عقدها يكتمل الا وينفطر مرة اخرى مما يعطي الدلالة على ان هذه الشعوب لا زالت — بعد — مكبلة باغلال سافرة او مستترة من صور الاستعمار والاستغلال .

هكذا سوف يجد الانسان صورة هذه الدنيا ان هو حاول أن يتأملها وفي ذهنه أحلام وصورة لمجتمع دولى تسوده الحرية والأخاء والعدالة والمساواة ، مما يؤكد ضعف المثل وضعف الضمير العالمى الذى لم يبلغ — بعد — منزلته الرفيعة المنشودة ، وعلى الأخص لدى الدول المتحكمة في مصائر الشعوب والتى لها الدور القيادى بسبب تقدمها وما يسودها من رخاء وارتفاع في مستويات معيشتها .

وسيجد المرء كذلك أن صيحات العدالة والحرية ومساعدة الدول النامية تتصاعد حتى من الجانب القوى ، لكنها إذا جاءت من جانب القوى فهي - في الأغلب - تخفى وراءها رغبة لاشك فيها في مزيد من الاستغلال تمارسه الدول القوية على الدول الصغيرة .

وإذا جاءت هذه الصيحات من جانب الشعوب المكافحة ، فإنها سرعان ما تضع في الفراغ . . . وتزايد الثغرة وتتسع الهوة باستمرار بين الدول الكبيرة والآخرى الصغيرة ، وتزايد القوى قوة ويمعن في استغلال الضعيف ، وتستمر الأمور من سيء إلى أسوأ .

لكن هل ما نقرره الآن هو أقرب إلى النظرة التشاؤمية التي لا يساندها الواقع كثيراً ، أم أن حركات التحرر لا زالت في مسيرتها وأنها آخذة في إثبات وجودها؟ . . . إننا - في الواقع - لا نستطيع القول أبداً بأن حركات التحرر ماتت إلى الأبد ، بل لعلها الآن أقوى منها في أي وقت مضى ، يدفعها إلى ذلك النزعة الطبيعية في التحرر لدى الشعوب لنشدان الاستقلال والحصول على حقوقها الشرعية ، حيث أنه لا يمكن أن يقوم سلام بين دول قوية تستأثر بكل الخيرات ودول مهقورة لا تنال أدنى حقوقها ، فهذا الصراع سيظل دائماً وأبداً تدعو اليه طبيعة البشر .

ولعل مما يخفف من حدة الظلام الكثيف الذي يواجهنا أن لدينا مهاديات فيما يتعلق بنا نحن أبناء الأمة العربية التي كان لنا فضل المشاركة في إرساء دعائم حضارة عظيمة إذا ما تأملنا فيها فإنها حتماً ستبهر لنا الطريق وسنجد فيها ما يمكننا من حفظ توازننا وكياننا وقوانا كي نستعيد موقفنا من مسيرة الحضارة الانسانية التي يبدو أننا نعيش الآن على هامشها . ولا شك أن لدينا من إمكانياتنا ومقومات حضارتنا ما يعيننا على إستعادة الثقة في أنفسنا ، والاستمرار كشعب له جذوره في هذه الحياة ، شاركنا في صنعها ، وارتبطت في يوم ما باسمنا ، وكانت الدنيا لنا يوم أن كنا معلمى الشعوب الأخرى . . . والآن لا يعيننا أن نتعلم من غيرنا بعد أن انطمس دورنا بعض الوقت ، وها

ويعترف ارنولد توينبي بفضل رجل مثل ابن خلدون بقوله « لقد وضع ابن خلدون في مقدمة تاريخه ، فلسفة للتاريخ ، لا شك أنها أعظم عمل من نوعه ابتكره عقل في أى زمان ومكان » . . . وفي الأدب نجد أنه بعد ستة قرون من وفاة (دانتي) أعظم شعراء ايطاليا يثبت العلامة (ميغيل آسين) في كتابه (الكوميديا الالهية والإسلام) أن هذه الكوميديا التي مثلت ثقافة اوروبا المسيحية برمتها في القرون الوسطى ؛ إنما استمدت من أصول عربية إسلامية استقاها دانتي من قصة الاسراء والمعراج ومن تعليقات وتفسيرات المفكرين الإسلامية في فصل واحد من فصول كوميديته .

ثم بدأت رحلة تراث الحضارة العربية الإسلامية تأخذ طريقها إلى القارة الأوروبية ، فنشطت حركة الترجمة من العربية إلى اللغة اللاتينية في القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر ، وأصبحت تلك الترجمات هي المصدر الوحيد للمعرفة في جامعات اوروبا . فكتب ابن سينا في الطب ظلت تدرس في جامعة مونبلييه حتى أواخر القرن الثامن عشر . واتخذت فلسفة ابن رشد مركزاً لها في جامعة (بادوا) بايطاليا على وجه التخصيص ، وهل اعظم من أن يترجم كتاب (الحاوي) في عشرين جزء لأبي بكر الرازي ، وكتابه (المنصوري) في عشرة أجزاء . وإذا تركنا الطب والعلم إلى الأدب والفقه لوجدنا مثلاً أن قصة (ألف ليلة وليلة) قد طبعت في القرن الثامن عشر ثلاثين طبعة على الأقل بالإنجليزية والفرنسية . وإنما منذ ذلك التاريخ قد طبعت أكثر من ثلاثمائة طبعة بمختلف لغات اوروبا^(١) . بل لعل من العلوم الحديثة — مثل علم النفس الاجتماعي — ليدن كثيراً لعلماء عرب مثل دراسات ابن سينا في الادراك الحسي ، والفارابي في سمات شخصية الزعيم وتماسك الجماعة ، وابن خلدون في الشخصية القومية والوراثة والبيئة^(٢) .

(١) مآثر العرب على الحضارة الأوروبية — للاستاذ جلال مظهر — الطبعة الأولى ١٩٦٠ — مكتبة الانجلو المصرية .

(٢) مقدمة في علم النفس الاجتماعي للدكتور مصطفى سويف .

إنها حقاً حضارة عظيمة شائخة ، أخذت مركزاً قيادياً ضخماً وأصبح من الصواب الحق القول بأنه كان لا بد من وجود ابن الهيثم وابن سينا وابن النفيس والخوارزمي لكي يظهر نيوتن وجاليليو ودارون وكوبرنيكوس . وإنه لولا علماء الحضارة العربية الإسلامية لكان على علماء النهضة الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير الحضارة المعاصرة قروناً لا نعرف مداها . . . هذه الحضارة المعاصرة الذي يزعمها العالم — هي بلا شك وليدة التراث العربي الإسلامي التي أمدتها بالنماء وساهمت مساهمة كبرى في تكوين أصولها وارساء قواعدها .

واكن ، ترى هل استطعنا أن نقدم شيئاً عن الصورة التي عليها الحضارة العربية الإسلامية ؟ . . . أو على الأقل هل كان من المستطاع أن نحصر آفاق التراث العربي الإسلامي في جوانبه العديدة ، وأن نتعرف في كلماتنا القصيرة على ملامحها في أبعادها المادية والروحية . . . لا نعتقد سوى أننا حاولنا لقاء بعض الضوء على ما تمتاز به حضارتنا العظيمة .

خاتمة :

وبعد ، فإن حياة التمزق وحالات الضياع والتهيه والخيرة والتشتت التي ضغطت على نفسية الإنسان العربي وسببت له الشعور بالضالة والانتكاس أمام انجازات العالم المتقدم ، كل هذا كان مرجعه — بلا شك — اهمال الجوانب الايجابية من حضارتنا وما اشتمل عليه تراثنا من قيم ومبادئ جديرة عند التعرف عليها أن تعيد التوازن لنا وان تحفظ للانسان العربي شخصيته .

ونحن إذ ندعو إلى بعث التراث العربي الإسلامي لا لكي نزهو به فقط ، ولا لكي ندلل به على اصالة الفكر العربي الإسلامي ، بل إلى جانب هذا كله وأبعد منه : أن هذا التراث كان جزءاً أساسياً من الحضارة التي وصلت اليها البشرية في أغلى أمانيتها في تحقيق الأمن والسلام والتقدم والتعاون والرخاء وفي ارساء المثل العليا في المساواة والتكافل والعدالة والحرية وتكافؤ الفرص والحقوق دون تفرقة أو تمييز .

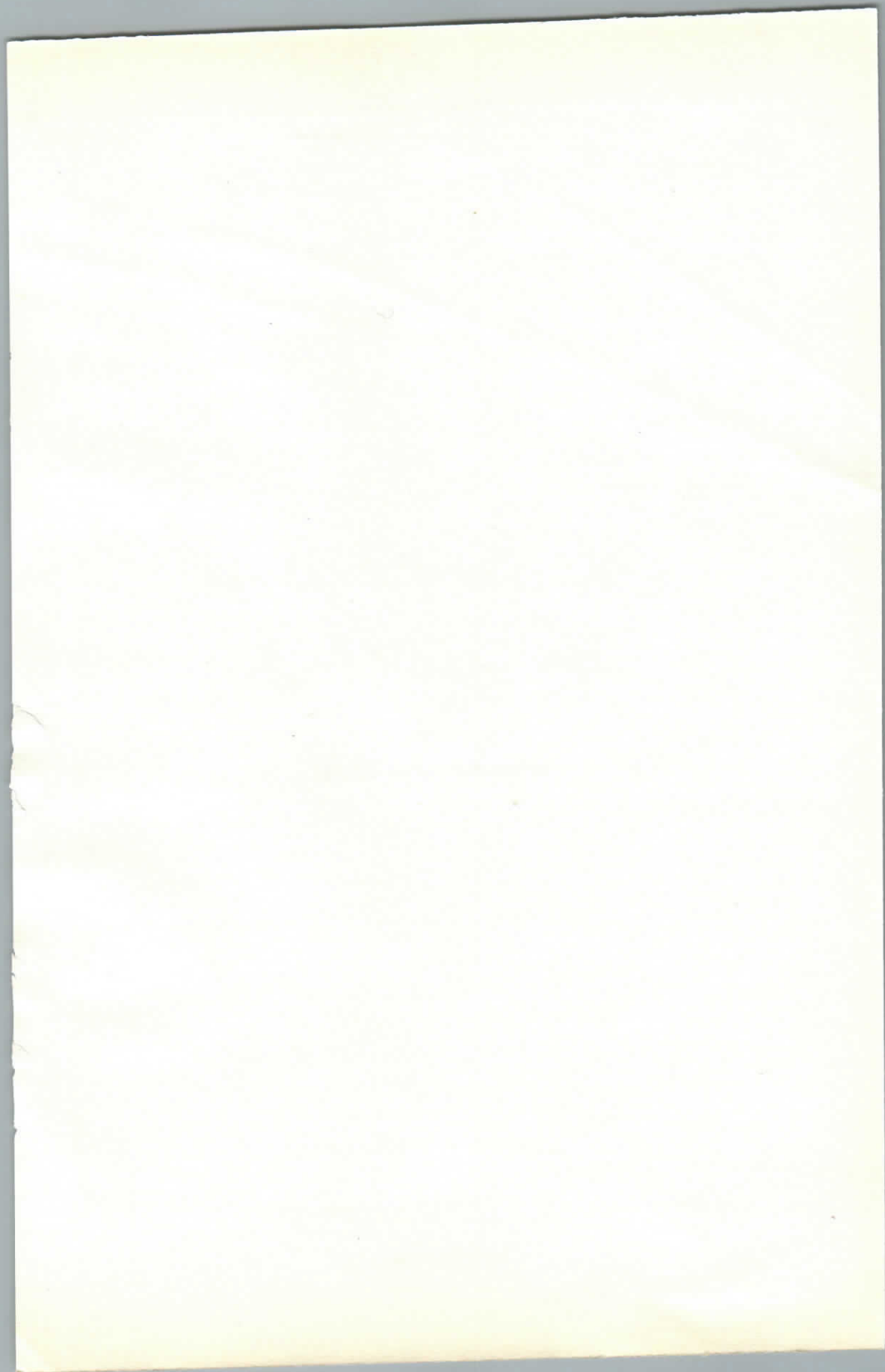
وبالمثل فانه إذا كانت هناك دعوة لمراجعة واستيعاب دروس تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، فإن هذه الدعوة لا ينبغي أن تنتهى بنا إلى حدود التباهى واجترار الماضى ، بل ولا ينبغي أن نتطرق أبداً إلى مثل هذا الموقف السلبي ، وإنما يجب أن تحمل الدعوة طابع الفاعلية والإيجاب . علينا أن نجد في الماضى ما نستلهم منه خطى الحاضر وسلوك المستقبل . وان نفتش في تاريخنا العربى الاسلامى عن تلك الدعائم من الاخلاقيات والمثاليات والنظم الاجتماعية والسياسية ما يمكن أن يكون درسا عمليا نجد فيه ذاتنا ونخلق من خلاله الشخصية العربية المتميزة .

وعلى هذا فان خلاصة ما نرمى اليه هو تحقيق الانسجام والتفاعل مع ما يستجد من ظروف في هذه الحياة بفكر منفتح متجدد مع تجدد الحياة نفسها وظروفها مما يتيح لنا أن نجد في ماضينا أساسا ندعم به حاضرننا ، وان نجد في الحضارة العربية الاسلامية ما يمكن أن نستمد منه الوجود العربى في عالم اليوم .

دور التراث العربي الإسلامي في تدعيم القومية العربية

محاضرة

الأستاذ الدكتور محمد ناصر



مقدمة :

ان امتنا في أشد الحاجة إلى دراسة ما يجابهها من مشاكل ، دراسة موضوعية هادئة بعيدة عن الانفعالات والشعارات الجوفاء ، فالقومية العربية موضوع شائك لأسباب كثيرة ، ان دراسة فكرة القومية شئ حديث فيما كتبه الكتاب والمفكرين العرب وحتى الأجانب فيها وحولها — كالناحية الأدبية أو التاريخية أو الاقتصادية المنظمة .

إنما القومية العربية لم تتحقق وعالم الواقع كما تحققت قوميات أخرى كالقومية الإيطالية أو الفرنسية أو الألمانية . ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن أكثر الكتاب والمفكرين العرب — تأثروا بالمفاهيم الغربية للفكرة القومية ولم يستطع الكثير من هؤلاء من التحرر من تأثير النماذج الغربية في التفكير الخاص بالفكرة القومية — أو بكلمة أخرى لم يستطيعوا أن يكتفوا بالمفاهيم الغربية التي هي نتيجة دروس تاريخية واجتماعية وسياسية .

كذلك يمكن أن نضيف إلى ذلك أن فكرة القومية فكرة ديناميكية متطورة وليست ثابتة أو جامدة ولذا فأننا حينما نتكلم عن القومية في زمان ما وحتى في مكان ما فأننا لا نوّمن بها نفس القومية في زمان آخر أو في مكان آخر . وأخيراً وليس آخراً فإن مما يزيد في صعوبة دراسة حركة القومية في العالم العربي هو ما يردده البعض بحسن نية أو بسوء نية من أن القومية حركة عنصرية مناهضة للتعاليم الإسلامية . ولكن هذا لا يعنى أن نترك القومية منطقة حراما لا نقرب منها بل الأمر على عكس ذلك — فعلى المفكرين والباحثين والكتاب أن يزدوا في اهتمامهم بدراسة هذا الموضوع .

وانى حينما اخاطر في الكتابة في هذا الموضوع فأننى لا أدعى بأنى سأقدم دراسة مستفيضة أو عملية التنفيذ وإنما جل ما أطمح اليه هو أن استعرض بعض الآراء والنظريات المهمة حول القومية العربية ودور التراث العربى الإسلامى فيها ، واننى مدين في هذا العرض لعدد من الباحثين والمفكرين والكتاب من عرب وغيرهم ممن قرأت لهم أو تتلمذت عليهم فعلا فكريا وأخص منهم أولا المرحوم الاستاذ ساطع الحصرى الذى يعتبر بحق أول عربى كتب بعمق وموضوعية

عن القومية العربية وكتب حولها ما يمكن اعتباره خير ما كتب باللغة العربية عنها ، كما أخص بالذكر الاستاذ عبد الرحمن البراز رئيس وزراء العراق الأسبق وهو أول جامعي عميد كلية الحقوق في بغداد سابقا والدكتور قسطنطين جرای الاستاذ بالجامعة الأمريكية في بيروت والدكتور حازم زكي نسيبة وزير الاقتصاد في الاردن سابقا والأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوير وذكرى لمن ذكرت يحتم على في الوقت ذاته أن أعترف بفضل غيرهم ممن قرأت كتبهم أو أبحاثهم .

ماهى القومية ؟

يعرف المعجم الوسيط وهو المعجم الذى نشره مجمع اللغة العربية في القاهرة يعرف القومية بما يلى :

القومية صلة اجتماعية عاطفية تنشأ من الاشتراك في الوطن والجنس واللغة والمنافع وقد تنتهى بالتضامن والتعاون إلى الوحدة فالقومية العربية . ويضيف المعجم إلى هذا التعرف كلمة محدثة بمعنى أنها حديثة الاستعمال في اللغة العربية — والواقع أن هذه الكلمة ليست محدثة في اللغة العربية فحسب بل هى أيضا محدثة في اللغات الأوروبية — في هذا التعريف أشار إلى بعض خصائص القومية — صلة اجتماعية مثلا عاطفية كما أشار إلى بعض العوامل المكونة للقومية — الوطن ، الجنس ، اللغة . المنافع ولكن الغريب الذى نلتقى فيه بالعبارة التالية : وقد تنتهى بالتضامن والتعاون إلى الوحدة فالقومية العربية . اذ أنه ليس من الضروري أن تتحقق الوحدة عن طريق التضامن والتعاون فقط ثم أن القومية العربية لما تتحقق بعد كما هو معروف فكيف تذكر كما لو كانت قد تحققت فعلا . قلنا أن مفهوم القومية في اللغات الأوروبية هو الآخر مفهوم حديث ومن أولى التعاريف التعريف الذى دعى له الانسكلوبيديون الفرنسيون في دائرة معارفهم في أواسط القرن الثامن عشر . لقد جاء في دائرة المعارف التى اشرف عليها فيدور — أن كلمة الأمة اسم جمع للدلالة على كمية كبيرة من الناس الذين يعيشون على قطعة من الأرض داخل حدود معينة ويخضعون لحكومة واحدة —

أن كلمة أمة هنا أن تكون مرادفة لكلمة قومية والغريب في هذا التعريف أنه ينظر إلى جميع الناس بغض النظر عن لغاتهم ونوعهم وتراثهم وجنسياتهم الذين يخضعون لحكومة واحدة - ينظر إليهم أنهم أمة واحدة أو قومية واحدة .

ولا شك أن هذا التعريف خاطئ بالنسبة لنا في الوقت الحاضر ولكن ما سبب وقوع الانسكلوبيديا في هذا الخطأ الفاحش؟ سببه أنه في القرن الثامن عشر لم تظهر الفكرة القومية إلى حيز الوجود بشكل واضح ولذا فإن جميع من كانوا يعيشون في ظل حكومة واحدة وقد تكون هذه الحكومة مدينة أو مقاطعة كما كانت عليه الحال في كثير من المدن التي أصبحت فيما بعد إيطاليا أو ألمانيا - كان ينظر إليهم أنهم رعايا أو قوم تلك المملكة وهكذا فإن أهالي برلين وبون وفرانكفورت مثلاً في ألمانيا قبل توحيدها كانوا بحسب هذا المفهوم أمماً مختلفة وإن كلا من أهالي تلك المدن كان من اتباع حكومة مختلفة . ولا شك أن هذا المفهوم الخاطئ لأمة وبالتالي للقومية يختلف عن المفهوم الصحيح الذي تبلور فيما بعد في القرن التاسع عشر عندما ظهرت إلى الوجود القوميات الكبيرة التي نعرفها كالقومية الإيطالية والألمانية والبلجيكية والنرويجية والهولندية .. الخ .

ومن الأمور الحرية بالملاحظة أن أمة كالأمة الألمانية التي كانت مقسمة إلى دويلات مختلفة تعد بالملئات وليس بالعشرات وجدت نفسها مضطرة إلى الانتساب إلى الدولة وبين الانتساب إلى الأمة - وفي الوقت ذاته فإن فرنسا التي أصبحت دولة قوية ضمت الفرنسيين وغير الفرنسيين قبل أنانيا لم تجد حاجة إلى التفريق بين رعايا الدولة الفرنسية وهي أعلى هيئة علمية في البلاد - تعرف الأمة في قاموسها بأنها مجموع الأشخاص المولودين في البلاد أو المتجنسين بجنسيتها والعائشين تحت رعاية حكومة واحدة ولكن الأكاديمية أدركت فيما بعد عدم كفاية هذا التعريف فأضافت إليه ما يلي :

ويطلق كذلك أن مفهوم الأمة على مجموع المواطنين الذين يؤلفون هيئة اجتماعية متميزة عن الحكومة التي تدبر شئونها . ونجد أيضاً مثيراً وهو من أشهر القاموسيين الفرنسيين عرّف الأمة في قاموسه الشهير بأنها « مجموعة أناس

يسكنون بلادا واحدة ويخضعون أولا للحكومة واحدة » ونجد أن تعريف دائرة المعارف البريطانية ويعكس هذا القاموس الكبير التفكير الانجلو ساكسوني قريب الشبه بالتعريف الفرنسي — فانه جاء في دائرة المعارف البريطانية هذه — بأن الأمة ليس من الضروري أن تكون معترفا بها كوحدة سياسية مستقلة وهكذا بدأ التمييز بين مفهوم الأمة والدولة يتضح أكثر فأكثر ويطول بنا الحديث لو تتبعنا تطور مفهوم الأمة والدولة كما ينعكس ذلك في كتابات مختلف الباحثين من مختلف الأمة ومن الخير لنا أن نقفز إلى ما يسميه الحصرى — أشهر وأهم تعريفات القومية التي ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر — ألا وهو التعريف الذى تقدم به مونتشيني الايطالى — كان مونتشيني هذا استاذاً في جامعة تورنتو ، كانت في ذلك الوقت عاصمة لمملكة سردينيا قبل أن تتحد ايطاليا وقد ألقى في ٢٢ كانون ثانى (يناير) سنة ١٨٥١ محاضرة في الجامعة بعنوان « الأمة كأساس لحقوق الدول » وقد عرف مونتشيني هذا الأمة أثناء محاضراته بما يلي :

« والأمة مجتمع طبيعى من البشر يرتبط بعضها ببعض بوحدة الأرض والأصل والعادات واللغة من جراء الاشتراك في الحياة والشعور الاجتماعى » وترون من هذا التعريف أنه لم يشر إلى الدولة كعامل من عوامل تكون الأمة ومعنى هذا بالنسبة للظروف السياسية التي كانت سائدة في أوروبا في هذا الوقت أى بداية النصف الثانى من القرن التاسع عشر أن كثيرا من الشعوب التي كانت خاضعة لدول قوية وكبيرة كانت محرومة من كيانات سياسية خاصة بها وأن من حقها بحكم كونها أمة مادامت الأمة هى أساس لحقوق الدول كما يشير إلى ذلك أثناء المحاضرة . أن من حقها أن تطالب بالانفصال عن الدولة أو الدول التي كانت خاضعة لها وتصبح مستقلة مثلها . أن هذا المبدأ سبق وأن طبق على بلجيكا واليونان فقط ولكن كثيرا من الشعوب كانت محرومة من استقلالها ولذا فلا نستغرب إذا ما وجدنا أن بعض الدول في ذلك الوقت لم ترتح لآراء (مونتشيني) وطلبت معاقبته وطلب امبراطور النمسا التي كانت تضم عدة شعوب تحت سيادتها من حكومة سردينيا منع تدريس كتاب مونتشيني الذى كان يضم محاضراته .

أن الحصرى يصف تعريف مونتشيني بأنه كان أول تعريف يحاول تحديد معنى الأمة بوجه عام بأسلوب علمى صريح وأن آراءه قد انتشرت ليس في إيطاليا فقط بل في مختلف أنحاء أوروبا أيضا وأنه لذلك كله نستطيع أن نوكد أن تعريف مونتشيني يشغل مكانه خاصة في تاريخ نشوء الفكرة القومية في البلاد الغربية .

وقد جرت مناقشات وأبحاث عدة في أوروبا حول الفكرة القومية وقد لخصها الأستاذ الحصرى فيما يلى :

أولا : النظرية القائلة بأن أس الأساس في تكوين الأمة هو وحدة اللغة — لقد نشأت هذه النظرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر في ألمانيا وانتشرت منها إلى معظم البلدان الأوروبية الغربية والشرقية وهى تعرف الآن باسم النظرية الألمانية وأشهر أعضاء هذه النظرية هو الفيلسوف الألماني « شخته » .

ثانياً : النظرية القائلة بأن أس الأساس في تكوين الأمة هو الادارة أو بتعبير آخر مشيئة المعيشة المشتركة وقد نشأت هذه النظرية من النصف الثانى من القرن التاسع عشر في فرنسا — ولذلك عرفت باسم النظرية الفرنسية وأشهر أعضاء هذه النظرية هو « آرنست رينان » .

ثالثاً : النظرية التى تعتبر وحدة الحياة الاقتصادية من الأمور الضرورية لتكوين الأمة وقد نشأ هذه النظرية في أوائل هذا القرن في روسيا وقد عرضها ستالين قبل الحرب العالمية الأولى وسماها بعد ذلك باسم نظرية الماركسية .

هذا هو رأى الأستاذ الحصرى . ولا يصعب علينا أن نلاحظ علاقة كل نظرية من هذه النظريات بالظروف الاجتماعية والسياسية التى كانت سائدة في البلاد التى ظهرت فيها النظرية . فالألمان الذين كانوا متفرقين في دويلات عدة كانوا يؤكدون على اللغة لأن اللغة هى أهم عامل من عوامل القومية . وأما الفرنسيين الذين كانوا حكومة مركزية تضم فيما تضم شعوبا غير فرنسية فكانوا

يؤكدون على مشيئة الحياة المشتركة لأن هذه الحياة المشتركة هي أهم عامل من عوامل الوحدة .

وأما الروس أو السوفييت فيما بعد فإن تأكيدهم على العامل الاقتصادي يرجع الى أن دولتهم تضم شعوبا مختلفة تتكلم بلغات عدة ولها تراث مختلف وأن المصلحة الاقتصادية هي العامل الموحد فيما بينهم هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن النظرية الماركسية أو المادية بالشيوعية تعطي الأهمية الكبرى أن لم يكن الأهمية الأولى في التطور للعامل الاقتصادي .

ولا شك أن المفكرين الغربيين لم يذكروا الدين وبطبيعة الحال فإنه الدين المسيحي بالنسبة لهم من حيث علاقته الإيجابية أو السلبية بالحركة القومية . والواقع أن الأحداث القومية التي تحققت في أوروبا كالوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية والوحدة اليوغسلافية تمت بدون أن تتأثر بالدين أو المذاهب فوجد في ألمانيا مثلا أن دويلات بعضها كاثوليكية كبافاريا وبعضها بروتستانتية كبروسيا اتحدت وكونت الأمة الألمانية الموحدة ، كما أن الوحدة الإيطالية وإن كانت قد تمت بين دويلات وإمارات كاثوليكية إلا أنها لم تتردد في سبيل اكمال وحدتها في شن حرب ضد دولة كاثوليكية أخرى وهي النمسا . وأما القومية اليوغسلافية فإنها تضم طائفتين مسيحيتين الأرثوذكس في صربيا والكاثوليك في كرواتيا وطائفة اسلامية هم القوشناك — ويمكن أن نذكر أمثلة أخرى على ذلك كالنمسا والمجر من دين واحد ومذهب ولكن ذلك لم يحل دون انفصالهما . كما أن السويد والنرويج من دين واحد ومذهب واحد ولكن ذلك لم يحل دون انفصالهما عن بعضهما . وبالرغم من وجود المسلمين والمسيحيين في ألبانيا ولكن ذلك لم يحل دون اتحادهما ومكافحتهما في سبيل التحرر من السيطرة الأجنبية والتمتع بالاستقلال .

ويشير الاستاذ الحصري أن معظم الكتاب في البلاد العربية يزعمون بأن هذه الميزة خاصة بالأمم التي تدين بالدين المسيحي ولا تنطبق على الأمم التي تدين بالدين الاسلامي وذلك لأن تعاليم الدين المسيحي تفصل من الأصل بين الدين والدولة تطبيقا لما جاء في الانجيل « اعط ما لقيصر وما لله لله » ولكنه لا يتفق

واياهم على هذا الرأى ويقول « ولكن رجال الحكم ورجال الدين في أوروبا لم يعملوا بمنطوق الكلمة المذكورة الا في العصور الأولى من تاريخ المسيحية ولكنهم بعد ذلك صاروا يختلفون ماهو لقيصر وماهو لله إلى أن تركوا المبدأ المذكور جانبا وأخذوا يتنازعون الحكم والسلطان ثم يضيف بعد ذلك - وأن العمل بمبدأ فصل الدين عن الدولة بصورة فعلية فلم يتوسد في أوروبا الا بعد منازعات كثيرة وبعد أن تقرر مبدأ حرية الاعتقاد بصورة نهائية . ومن المعلوم بأن المبدأ المذكور لم يتقرر الا بعد سلسلة طويلة من الأحداث الدامية والحروب الطاحنة والتطورات الفكرية والاجتماعية الخطيرة » وهنا انتهى كلام الأستاذ الحصرى .

ومن هذا فان السبب الرئيسى لعدم ذكر المفكرين الغربيين بدور الدين في القومية هو أن فصل الدين عن الدولة قد تم في وقت سابق لظهور الحركات القومية أى قبل القرن التاسع عشر الذى سعى بعصر القوميات ، ولعل حركة الاصلاح الدينى التى قادها مارتن لوثر - كانت عاملا من عوامل اضعاف سيطرة الكنيسة على الناس كأفراد وبالتالي على الكيانات السياسية التى كونها هؤلاء الناس ، لا بل يمكن اعتبار حركة الإصلاح الدينى عاملا مهما في دفع الحركات القومية إلى الأمام . وان هذه الحركة شجعت استعمال اللغات القومية ودعت إلى ترجمة الكتاب المقدس « التوراة والانجيل » إلى هذه اللغات لأن الكتاب المقدس كان باللغات القديمة (اللاتينية واليونانية) كما دعت إلى نشر التعليم وليس أبلغ من كلام « شخته » الفيلسوف الألمانى والداعية الكبير إلى الوحدة الألمانية بعد هزيمة المانيا على يد فرنسا في معركة « وارن » في بيان دور حركة الاصلاح الدينى في تدعيم الحركة القومية والاستقلال . قال شخته :

« أننا لم ندرك عندئذ الدافع الحقيقى الذى كان يدفعنا في كفاحنا ولكن الآن صرنا نفهم بكل وضوح ، ان الثورة الدينية التى قمنا بها ، يقصد بها حركة الاصلاح الدينى ، في تدعيم الحركة القومية ، إنما كانت صفحة من صفحات مقاومتنا لسيطرة الامبراطورية الرومانية ومحاولة جديدة للتخلص من تلك السيطرة والاستقلال عنها استقلالا تاما . »

ولو أردنا أن نجعل حداً للفكرة التي وصلت إليها حركة القومية لقلنا أنه يتلخص في أن ينظر إليها على أنها حركة تستهدف تمتع كل مجموعة بشرية ذات خصائص متشابهة باستقلالها عن كيان دول كبيرة كانت تابعة لها وانفصالها عن كيانات سياسية تظم غيرها من المجموعات البشرية ذات الخصائص المختلفة وكذلك النظر إلى هذه المجموعة البشرية كأمة واحدة حتى ولو لم يكن لها كيان سياسي أى دولة ومن أهم خصائص القومية في نظرهم هي اللغة - التاريخ - التراث المشترك - الوطن - المصالح المشتركة . أما السدين فلم يلعب دوراً رئيسياً في الحياة القومية ولم ينظر إليه كواحد من الخصائص أو العوامل المهمة في تكوينها .

وأما الجنس أو العنصر بمعناه الضيق المبني على قرابة الدم والأصل الواحد فكانت النظرة أقل من العوامل الأخرى .

ما هو الموقف العربي من مفهوم القومية ؟

إننا بطبيعة الحال نعتمد في محاولة معرفة الموقف العربي من الرجوع إلى كتابات السياسين والمفكرين العرب وترجع هذه الكتابات إلى أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالى وأغلب ما كتب في هذه الفترة لم يكن من أول اتصال للعرب بالغرب عن طريق فتح نابليون لمصر إلى الحرب العالمية الأولى ، كان عاماً وغالباً وغير علمي بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وكانت الفكرة القومية لا تتعدى في مفهوم البعض منهم ، الحكم الذاتي بدلاً من الحكم المركزي ضمن الدولة كما كانت عند البعض الآخر دعوة إلى الاهتمام باللغة العربية التي كانت قد تدهورت في ذلك الوقت أو دعوى إلى الوحدة الشرقية أو الوحدة الإسلامية أو دعوى إلى تفسير الإسلام لتفسيره مجدداً بحيث يواكب الأزمنة الحديثة ويمكن أن ندخل في عداد هذه المرحلة من المفكرين العرب والمسلمين « جمال الدين الأفغانى » والشيخ محمد عبده وتلميذه السيد محمد رضا وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم .

أما جمال الدين الأفغانى فقد اقترن أسمه بحركة الجامعة الاسلامية والدعوة إلى الاصلاح وقد وصفه تلميذه محمد عبده بأنه أى الأفغانى يهدف إلى تجديد حياة الدول الاسلامية وتقويتها حتى تبلغ مستوى الدول الكبرى ومن ثم تعيد الاسلام إلى سابق عزه .

ولا تتعدى هذه الدعوى سوى تجديد الخلافة الاسلامية التى كانت قائمة وقتذاك — إلا أن الأفغانى كان له تأثير كبير على دفع عجلة الاصلاح والتجديد سواء في العالم العربى عامة والعالم الاسلامى خاصة وقد تأثر بآراء كثير من الزعماء السياسيين والمفكرين أمثال محمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل وعبد الله النديم وأديب اسحق والكواكبي . . الخ .

ويعتبر محمد رشيد رضا من أنصار حركة البعث الاسلامى ويعتبر مؤلفه « الخلافة » أقوى وأكمل عرض منظم للنظرية الاسلامية في الحكومة منذ كتاب الأحكام السلطانية الذى وضعه الماوردى قبل حوالى تسعة قرون تقريبا . وللكتاب هذا جانبان : جانب عملى يتصل بمشاكل الادارة والوجود نتيجة لالغاء الخلافة الاسلامية بعد الحرب العالمية الأولى وهو لا يهمنى كثيرا لأنه لا يعطى ضوءاً على ما يتصل بعرضنا هذا — وجانب نظرى يتصل بالمبادئ الأساسية في الاسلام وفي هذا الشأن جاء في ذلك الكتاب مايلى :

« ومن المبادئ الأساسية في الاسلام أن تكون السلطة للامة وأن تكون الحكومة شورية في المفهوم الاسلامى تكون شكلا من أشكال الحكم الجمهورى وخليفة النبي لا يتمتع أمام الشريعة بحقوق أكثر من حقوق أى مسكين فى الرعية وهو أى الخليفة لا يعدو أن يكون ممثلا للشريعة ومقررات الامة وتتضمن واجبات الحكومة حفظ الدين وحماية المصالح الدنيوية ، والدولة ملزمة بتمثيل مصالح الدين والدنيا على السواء كما أنها ملزمة بالجهاد في سبيل الأخوة الانسانية والسعى وراء الوحدة الأخلاقية والنوع البشرى وقد عجز المسلمون عن مراعاة هذه المبادئ حينما أصابهم الضعف ولو أنهم عملوا بما تقتضى لكانوا قد أحدثوا لكل زمن ما يناسبه من التنظيمات والمؤسسات » .

ومنه نرى أن الذى تكلم عنه محمد رشيد ليس دولة قومية وإنما هى خلافة جديدة وربما أكثر شمولاً من الخلافة إذ أنه يتكلم عن الجهاد في سبيل الأخوة الإنسانية والسعى وراء الوحدة الأخلاقية للنوع البشرى على أن هذا لا يعنى أن محمد رشيد رضا لم يشر إلى اتجاهات سليمة في الحكم كسلطة الشعب والحكومة الشورية والجماعة ولكن مفاهيم هذه الاتجاهات لم تكن واضحة .

أما عبدالرحمن الكواكبي وهو ممثل لحركة البعث الإسلامى الحديثة فأكثر وضوحاً من سابقه فيما يريد للأمة أو للمسلمين إن شتم وقد تأثر الكواكبي بالتيارات الكبرى التى كانت سائدة في وقته وهى البعث الإسلامى والقومية العربية التى بدأت تتحرك ضمن الدولة العثمانية وخاصة بين أبناء المشرق العربى الموجودين في اسطنبول والمدنية الغربية الزاحفة إلى الشرق والحياة الدستورية التى انتقلت بدورها إلى الدولة العثمانية نتيجة لإلحاح العناصر الواعية من تركية وعربية وغيرها في المطالبة بها .

ويمكننا القول بأن الكواكبي وإن كان من أتباع الأفغانى ومعاصريه فإنه يختلف عنه في تمييزه بين الحركة العربية والحركة الإسلامية وكان قد توصل إلى هذا التمييز .

إن الحركة التى قادها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا والكواكبي وغيرهم — كانت شاعرة بالخطر الأوروبى المحدق بالبلدان الإسلامية ومنها البلدان العربية وكان الخطر الأوروبى محدقاً بالدولة العثمانية التى لم تقو على الوقوف أمامه بقوة وصد أخطبوطه الذى يمتد إلى أقاليمها البعيدة والقريبة ومنها أقاليم عربية كمصر وليبيا وصار يهددها بالذات . ولكن إلى جانب هؤلاء المصاحين الذين كانوا في الغالب موالين للدولة العثمانية وغير راغبين بالانفصال عنها — كان هناك في داخل الدولة العثمانية شعور مترايد بالوعى القومى العربى وكان هذا الشعور يرى الخطر محدقاً باللغة العربية والتراث العربى — كنتيجة لسياسة التريك التى صارت تتبعهم الحكومة التركية بعد إعلان الدستور في عام ١٩٠٨ بقليل — لقد منع

التدريس باللغة العربية كما منع التعامل الرسمي بها وحلت محلها اللغة التركية وقد دعى لها عدد من المفكرين العرب في البلدان العربية وفي تركيا ذاتها حيث كان قسم منهم يدرس في الأستانة (اسطنبول) أو موظفاً مدنياً أو ضابطاً في الجيش دعاهم إلى تنظيم نواد وجمعيات أدبية سرية وعلنية تطالب بالحكم الذاتي للبلاد العربية وتشير برامج هذه الجمعيات والنوادي إلى اختلاف في الوعي القومي بين المشتغلين في القضية العربية في ذلك الوقت - كما تشير إلى الشعور القومي بضرورة العمل المشترك في سبيل إقامة كيان عربي متميز .

فالحركة القومية لم تكن إقليمية أو مجزأة بل فكرة المصير العربي واتجهت إلى وحدة العرب وهذه ظاهرة ملموسة في الفكرة القومية النابعة من جذور الأمة العربية كما يسميها الدكتور الديوري .

ونجد أن جمعية الأخاء العربي وهي أول جمعية عربية تأسست في الأستانة في اسطنبول عام ١٩٠٨ تدعو إلى إعلان شأن الأمة العربية من النواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وصيانة حقوق أبناء العرب جنب تعزيزها الرابطة العثمانية لخدمة الدولة العثمانية واصلاح الشؤون المختلفة ولكن سرعان ما زادت الحركة الطورانية في تركيا فخلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ وطوردت الجمعيات والنوادي العربية ومنها جمعية الأخاء العربي .

وإذا تركنا الجمعيات العلنية جانباً وانتقلنا إلى الجمعيات السرية لوجدناها تعبر عن وعي قومي بشكل أوضح ومن هذه الجمعيات الجمعية القحطانية التي تأسست في الأستانة عام ١٩١٥ وهي تدعو إلى تكوين مملكة عربية لها برلمانها وحكومتها المحلية وتتخذ العربية لغتها الرسمية وتكون طرفاً في امبراطورية ثنائية عربية على غرار النمسا والمجر .

وتأسست في عام ١٩٠٩ الجمعية العربية « الفتاة » الذي كان ينص القسم الذي يؤديه الأعضاء الذين ينتمون إليها ما يلي :

« بذل كل جهد لإيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم الراقية الحرة المستقلة الكبرى » .

أما جمعية العهد العسكرى فقد تأسست عام ١٩١٣ وضمت مجموعة من الضباط أغلبهم من العراق وسوريا وكانت تهدف إلى استقلال البلاد العربية على أن تظل مرتبطة برباط اتحادى مع حكومة الأسنانه على غرار فكرة الجمعية القمحطانية .

وقد تبلور جهود هذه الجمعيات والنوادي في الدعوة إلى مؤتمر عربى عام في باريس عام ١٩١٣ وجاء في بيان الدعوة « أرادته أن يكون وسيلة لحفظ كيان الأمة العربية وإزالة العقبات عن طريق ارتقائها » وجاء في المنشور الذى وجهته اللجنة التحضيرية لهذا المؤتمر ، انه دعوة إلى أبناء الامة العربية المنتشرة في أقطار الأرض تحت كلمة التضامن الاجتماعى والسياسى لهذه الأمة حيث نبسط للأمم الأوروبية أننا أمة مستمسكة ذات وجود لا ينحل ومقام عزيز لا ينال وخصائص قومية لا تترع ونصارع الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا .

وقد عقد المؤتمر فعلا في باريس في حزيران عام ١٩١٣ وفيما يلي أهم مقرراته :

أولا : من المهم أن يكون مضمونا للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في الادارة المركزية للملكة اشتراكا فعليا .

ثانيا : يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها .

ثالثا : اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثمانى ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية .

ولدى تصفح محاضر جلسات هذا المؤتمر نجد آراء ناضجة في القومية العربية . فقد جاء في أقوال عبد الغنى العريس أحد أعضاء المؤتمر مايلي :

ان العرب تجمعهم وحدة لغة ووحدة عنصر ووحدة تاريخ ووحدة عادات ووحدة مطمح سياسى . فنحن عرب قبل كل صبغة سياسية حافظنا على خصائصنا وميراثنا منذ قرون عديدة فكل ماتذرعت به الأستانه من الوسائل لم

يؤد إلى غير نتيجة واحدة وهو الحرص على مكانة حفظ الجماعة واحياء هذا الحس الشريف النبيل حس الجنسية .

ولكن الاستانه لم تستجب إلى مطالب العرب المعتدلة المعقولة ولجأت إلى أسلوب القمع الشديد لمن ينادون بالفكرة القومية وقد استغل الحلفاء هذا الجفاء بين العرب والأتراك العثمانيين واتصلوا بشريف مكة آنذاك الشريف حسين والجد الأكبر للأسرة الهاشمية في العراق والاردن وتم توقيع اتفاق الحسين — ماكماهون الذي وافق الحلفاء بموجبه على استقلال ووحدة البلاد العربية في المشرق العربي التي كانت خاضعة للدولة العثمانية وهي الحجاز ، فلسطين بما فيها شرق الأردن ، سوريا ، لبنان ، العراق ، وذلك مقابل اعلان العرب الحرب على الدولة التركية وقد قام العرب بالتزاماتهم ولكن الحلفاء كانوا يتآمرون ضد العرب قبل وبعد اتفاق الحسين ماكماهون . فقد وعدوا الصهيونيين في عام ١٩١٧ على إنشاء وطن قومي يهودي لهم في فلسطين . كما اتفق الانجليز والفرنسيون فيما بينهم وبصورة سرية وبحسب اتفاقية سرية سميت باتفاقية سايس — بيكو على تقسيم البلاد العربية التي ستحرر من الدولة العثمانية مناطق نفوذ فيما بينهما فخصصت سوريا ولبنان لفرنسا ، وفلسطين والعراق لبريطانيا وترك الحجاز للشريف علي الابن الأكبر للشريف حسين . أما الشريف حسين فقد نقاه حلفاؤه بالأمس إلى قبرص وهكذا كانت نهاية أول محاولة عربية أولى في سبيل إقامة وحدة عربية من بعض الدول التي تحررت من الدولة العثمانية .

أما في مصر وطرابلس الغرب (ليبيا الآن) وفي تونس والجزائر فكانت المحاولات للتخلص من النفوذ الأجنبي قطرية وليست عربية وظلت كذلك لمدة طويلة وقد ظهر قادة مرموقون في مصر كمصطفى كمال وسعد زغلول ولكن كفاحهم في سبيل التحرر كفاح اقليمي وليس عربيا في الغالب وكانت الإشارة والعروبة هي الواضحة في أذهانهم . فتارة هي رابطة شرقية وتارة اخرى رابطة اسلامية ولكن وجود الأزهر الشريف في مصر كان عاملا قويا من عوامل الحفاظ على اللغة العربية والتراث العربي الاسلامي كما كان وجود

جامع الزيتونة في تونس عاملا مهما في المحافظة على اللغة العربية والتراث الثقافي العربي الاسلامي في المغرب . ان البلاد العربية باستثناء نجد والحجاز التي أصبحتا فيما بعد المملكة العربية السعودية واليمن وقعت تحت الحكم الأجنبي ما بين احتلال ماكنون لمصر عام ١٧٩٢ وبين ١٩١٨ انتهاء الحرب العالمية الأولى وظلت خاضعة لهذا النفوذ إلى الحرب العالمية الثانية وإلى ما بعدها بقليل وقد ازداد الوعي القومي في هذه الفترة وانتشرت الصحافة وعم الراديو وتلاه التلفزيون وكثرت المطابع وازداد عدد المتعلمين وانتشرت الكتب والمجلات وتأسست الجامعات والمعاهد العالية وسهلت المواصلات نسبيا بين البلاد العربية مما أدى إلى التأكيد على الروابط العربية والوحدة العربية والقومية العربية فقد نشأت في مختلف البلدان الغربية جمعيات تدعو إلى الوحدة العربية وقد نشأت هذه الجمعيات في سوريا والعراق ولبنان خاصة وكان من احدى ثمار نشاطها عقد مؤتمر عصبة العمل القومي في فرنای في أواخر الثلاثينات في لبنان وقد دعى هذا المؤتمر إلى الوحدة العربية ومن المؤتمرات العامة المهمة التي كانت تحمل نفس الفكرة من قبل الخريجين الذي عقد في وقت متأخر في قبرص عام ١٩٥٥ وحضره حوالي ٥٠٠ عضو من خريجي الجامعات من مختلف البلاد العربية وكلهم من مؤيدي الفكرة القومية وقد تبنى هذا المؤتمر منهجا اتحاديا للعالم العربي وسن دستوراً وافق عليه المؤتمرون بالاجماع وتعهد أعضاء الوفود أن يجاهدوا في سبيل تنفيذ هذا المنهاج كل في بلاده . وان نتذكر أنه قد تم قبل ذلك في عام ١٩٤٤ تأسيس جامعة الدول العربية الى أعلن وزير خارجية بريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية ان بريطانيا تؤيد انشائها ومعنى هذا أن هؤلاء المؤتمرون في عام ١٩٥٥ في قبرص لم يكونوا قانعين بشكل الرابطة التي تمت بين الدول العربية بشكل جامعة الدول العربية وان الجامعة مهما وجه اليها من انتقادات فقد عودت العرب من ساسه وعسكريين واختصاصيين في حقوق اخرى على التعامل فيما بينهم وعلى تنسيق جهودهم وعلى الشعور المتزايد بالحاجة إلى رابطة أقوى .

ولا ننسى أنه دارت في هذه الفترة في البلاد العربية أو في بعضها على الأقل حركات سياسية علنية أو سرية تدعو إلى الوحدة العربية أو إلى الاقليمية ومن أهم

هذه الحركات الأحزاب العقائدية المتمثلة في حزب البعث العربي الاشتراكي وحركة القوميين العرب والاتحاد الاشتراكي العربي في الجمهورية العربية المتحدة وان جاء متأخرا والأخوان المسلمون والحزب القومي السوري والحزب الشيوعي وحزب التقدم الاشتراكي في لبنان ولا يسمح لي الوقت أن أشرح دور كل حركة من هذه الحركات في دفع القومية العربية إلى الأمام أو مقاومتها أو التصدي لها وأعتقد أنه من النافع جدا القيام بدراسة لدور الاحزاب والحركات السياسية في دعم القومية العربية أو التصدي لها .

وإذا أردنا أن نبلور الاتجاهات النظرية حول القومية العربية في العشرين أو الثلاثين الأخيرة لوجدنا أنها تتمثل في الكتابات التي وضعها المفكرون والكتاب من أمثال جورج انطونيوس مؤلف كتاب اليقظة العربية والأستاذ ساطع الحصري ومؤلفاته كثيرة والأستاذ عبد الرحمن البراز والأستاذ حازم زكي نسيبة « القومية العربية » ورثيف الخولي « معالم الوعي القومي » والأستاذ يوسف هيكل والعلايلي والقزاز الذي كان أميناً عاماً لحزب البعث . الخ . وتتضح أفكار هؤلاء الكتاب بصورة واضحة من نظرتهم إلى مقومات أو عوامل القومية العربية فيركز بعضهم على بعض العوامل ويهمل سواها ويختصر بعضهم هذه العوامل كما فعل الأستاذ الحصري في عاملين اثنين هما اللغة والتاريخ وسنذكر العوامل المتفق عليها ومن ثم نذكر العوامل المختلف عليها كما لخصها الدكتور نسيبة في كتابه « القومية العربية » .

أما المقومات المتفق عليها فهي اللغة والتاريخ والمصلحة المشتركة أما غير المتفق عليها بين هؤلاء فهما الجنس والدين والخلق القومي والبيئة الجغرافية أو الوطن .

ان اختيار المفكرين العرب لهذه المقومات يعتمد على مصدرين رئيسيين :
الأول هو التراث العربي الذي يؤكد على اللغة وعلى التاريخ وما يتصل بهما من تراث ثقافي وحضاري يمثل الامة العربية في بساطتها وتقدمها .

وثانيا الفكر الغربى الحديث والمعاصر من اتجاهات فى تحديد مفهوم الأمة والقومية والغرب يزودنا بنماذج عدة لذلك ولكن اقتباسنا لهذه النماذج من الغرب يكون سطوحيا وربما ضار إذا لم يكن مبنيا على الدراسة التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التى ظهرت فيها تلك الحركات .

فلنأخذ هذه المقومات أو المعالم ولنرى ما أن كان فى التراث العربى الإسلامى ما يدعمها أو يتصدى لها .

اللغة

تمثل اللغة روح الأمة وحياتها كما يقول الأستاذ ساطع الحصرى وقد أصبحت اللغة العربية بلهجة قريش هى اللغة العربية الرسمية ان شئتم وقد تم هذا قبل الإسلام وقد كان لنزول القرآن الكريم بهذه اللغة مازاد من منزلتها بين اللغات وثبت من مكانتها وهكذا أصبحت اللغة العربية سجلا عظيما لكل تراث الأمة العربية ولكثير من التراث الإسلامى وقد طبعت اللغة العربية من تكلم بها مثلها فى ذلك مثل غيرها من اللغات بالطابع المميز لها فاللغة كما نعرف ليست مجرد نقل ما فى نفوسنا للغير أو فهم ما نسمع أو نقرأ ولكنها أيضا طريقة فى التفكير وأسلوب فى التعبير ، وقيم خلقية وجمالية ووعاء كبير جداً لحضارة الأمة وثقافتها ، واللغة العربية بشكلها الحالى وبدون أن تيسر فى نحوها أو صرفها وبدون أن تسهل فى كتابتها وبدون أن تتطور فى طرق تدريسها إلى ما يجعلها لغة سهلة التعليم . ان اللغة العربية بوضعها هذا استطاعت أن تكون فى متناول الملايين من البشر وأن تطبعهم بالطابع الثقافى العربى فكيف بها لو تحقق لها ما تحقق للغات الحية الأخرى ، ان غرضي أن أقول ان اللغة العربية كما هى حفظت الأمة العربية طوال ما يزيد على ألف وخمسمائة عام ولولاها لضاع العرب فى كثير من الضياع ولكنها وقفت شامخة حتى فى وقت تخلفها وتقهقر الأمة التى تنطق بها وتحديث محاولات التريك فى الدولة العثمانية والتفرنس فى شمال افريقيا واللهجات الاقليمية ونهضت أخيرا من كبوتها . ان اللغة العربية كتراث عربى حافظ على وحدة العرب ووحدة الشعور العربى . فشعراء الجاهلية بالنسبة

للـعرب في الجزائر أو في العراق أو في السودان هم شعراؤهم الأقدمون والسجايـا التي كانوا يشيدون بها كالكرم والشجاعة والمرؤة هي بطولات وسجايـا يطرب العرب أينما كانوا أنفسهم بها . أما دور القرآن الكريم فدور عظيم بالنسبة للعربي أو لغير العربي من المسلمين - ان القرآن الكريم يحمل الرسالة التي حملها العرب للشعوب الأخرى ولذا فاعتزاز العرب بالقرآن الكريم انه جاء بلغتهم وأنه يحمل رسالة الاسلام الانسانية إلى الشعوب الأخرى بلسانهم المبين ، ان للقرآن الكريم دوراً كبيراً في الحفاظ على اللسان العربي يتمسك العرب والمسلمون حتى من غير العرب به وتكريس كثير من العلوم الغربية لتفسيره وتوضيحه كان عاملاً مهماً من عوامل المحافظة على اللغة العربية ومن ثم على الأمة العربية . ولكن إذا ما قارنا اللغة العربية بغيرها من اللغات الحية كالانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الروسية . . الخ لوجدنا انها لاتزال لغة فقيرة ، فإذا كانت وهي ما هي عليه قد قامت بدور كبير في سبيل الحفاظ على الأمة وتقريب العرب بعضهم إلى بعض فكم سيصبح دورها أكبر وأعظم لو أنها بعثت من جديد كما بعثت اللغات الحية الأخرى . فما هو بعث اللغة العربية الذي سيزيد من فعاليتهم في دعم القومية العربية . انه من الصعب ان ألج هذا الموضوع ولكن يكفي ان أنبه إلى ما ينقص اللغة العربية .

أولاً ، ليس في اللغة العربية قاموس شامل كبير كما هو الحال في اللغات الحية الأخرى .

ثانياً ، لا توجد في اللغة العربية دائرة معارف كبيرة كدائرة المعارف البريطانية أو الفرنسية أو الروسية أو الإيطالية كما لا توجد فيها دوائر معارف اختصاصية حتى دائرة معارف الاسلام من وضع الأجانب .

لا توجد في اللغة العربية قواميس علمية اختصاصية كما في اللغات الحية . لم يدرس التراث اللغوي والأدبي والثقافي العربي كما درس أمثاله في اللغات الحية الأخرى . لا توجد في البلاد العربية أكاديمية على غرار الأكاديميات الفرنسية أو الروسية أو جمعية تقدم العلوم البريطانية تنشر ابحاثاً علمية باللغة العربية . لم يدرس التراث العربي كما يمثل الانتاج الأدبي لمعرفة الأفكار الحية فيه وربطها

بالمفاهيم المعاصرة - ليس في اللغة العربية الا النذر اليسير من المجالات العلمية الاختصاصية - لا يترجم الى اللغة العربية من الكتب الأجنبية الا القليل بالرغم من حاجة اللغة العربية إلى المعرفة العصرية - وتستغربون إذا قلت لكم لغة حية كاللغة الروسية مثلاً تحاول أن تترجم أهم ما ينشر في المجالات العلمية الانجليزية والأمريكية والألمانية واليابانية إلى اللغة الروسية ، وروسيا على ما نعلم من تقدم ، فما أفقر اللغة العربية إلى الترجمات . انى أتصور أن اللغة العربية ستلعب دوراً أقوى في توحيد الفكر العربى والنزعة العربية وفي دعم القوميه العربية لو هبى لها ان تصبح لغة حية مثل اللغات الحية الاخرى .

التاريخ

لا شك في أن تاريخ أية أمة يكون كما يقول الأستاذ الحصرى - ذاكرتها وشعورها - والتاريخ العربى مثله كمثل تاريخ أية أمة أخرى جانبان : جانب مشرق وجانب مظلم . الجانب المشرق هو الذى يعتر الخلف فيه تذكرو والاعتزاز به والاستفادة منه في دعم القومية العربية والوحدة القومية - وجانب آخر ملء بالمأسى من حروب قبلية أنهكت الكيان العربى قبل الاسلام إلى تمزق سياسى وطائفى ظهر بعد وفاة الرسول واستمر في عهد الخلفاء الراشدين وبداية العصر الأموى والعصر العباسى . لاشك ان ابراز هذه الخلافات التى وراء هذه الحروب والتمزق الذى نخر في جسم الأمة ليس في صالح الوحدة العربية وقد حاول أعداء الأمة العربية سواء في الماضى أو في الحاضر تجسيم هذه الخلافات لغرض اضعاف روح الوحدة بين أبناء الأمة العربية ولكن أية أمة أخرى تخلص تاريخها من الخلافات والحروب - أو لم تستمر الخلافات بين جنوب فرنسا وشمال فرنسا قبل أن تتحد أو لم تنشأ الخلافات العديدة في بريطانيا قبل أن تتوحد أو لم تنشأ حرب أهلية دامية بين شمال الولايات المتحدة الأمريكية وجنوبها وهكذا ان هذه الحروب والخلافات لم تكن دون استعادة هذه الشعوب بشكل يغذى وحدتها وتماسكها ولقد قال مفكر فرنسى شهير ما معناه « لننس نهائياً مائة سنة من تاريخ فرنسا » وكان ذلك

المفكر موريس باروز الذى قال عنه روجر سولتو أحد مؤرخى الفكر السياسى الفرنسى في القرن التاسع عشر ما يلى :

« يكشف باروز في الواقع عن ذاتية خارقة للعادة إلى درجة مدهشة إن لم تكن فريدة فيما ينبغى أن تكون تاريخية موضوعية فهو يبدأ بمحو أكثر من قرن أو تجاهله من نمو فرنسا وحياتها وفكرها أو تاريخها بكلمة واحدة لأن ذلك القرن لا يوافق فهمه للمجرى الذى كان ينبغى لحياة فرنسا أن تسير فيه وهكذا يمكن أن يكون التاريخ أداة تفريغ . إن الموضوعية لا تقر باروز على أسلوبه في كتابة التاريخ إذ لا بد أن يكتب التاريخ كتابة موضوعية ولكن هذه الكتابة الموضوعية للمختصين . أما التاريخ الذى يكتب لعامة الشعب ولأغراض تربوية فينبغى أن يبنى على أساس اختبار الجوانب التى توحد الأمة وإدراج تلك الجوانب وإجمالاً الجوانب التى تفرق الأمة - بطبيعة الحال ينبغى ألا نزور التاريخ ولكن القضية هى أنك لا يمكن أن تدرس التاريخ كله بل لا بد من الاختيار . فإذا كان الأمر كذلك فيجب أن نختار الجوانب الموحدة لا المفرقة .

إن المؤرخين العرب من حسن الحظ من قدامى ومعاصرين لم يحاولوا أن يشوهوا التاريخ وأن لم يتحرروا تماماً من العصبية القبلية والطائفية وهذا يحتم علينا إعادة النظر في دراسة تاريخنا دراسة موضوعية بغرض تنقيته من الأحداث المختلفة والتفسيرات المغرضة ويتطلب هذا جهداً عظيماً لم تبدأ به الأمة العربية بعد . إن البلدان المتقدمة لها جمعيات تاريخية كبيرة أو فروع تاريخية في أكاديمياتها تكرر جهودها لتحقيق تاريخها فأين مثل هذه الجمعيات في بلادنا العربية .

ونقطة أخرى ينبغى الإشارة إليها حول التاريخ العربى وهى أن تاريخ الأمة العربية امتزج بتاريخ الشعوب الإسلامية الأخرى ولذا فأن نظرنا إلى من نبغ من أبناء تلك الشعوب ضمن الحضارة العربية الإسلامية ينبغى أن تكون نظرة اعتزاز كاعتزازنا بمن نبغ من أبناء العروبة وعليه فإن ابن سينا الفارسى

الأصل والفارابي التركي الأصل والكندي العربي الأصل كلهم فلاسفة عظام
ظهروا في حضارتنا العربية الإسلامية وينبغي أن نعتز بهم على حد سواء - إنى
أعتقد أن مثل هذه النظرة تقربنا إلى الشعوب الإسلامية الأخرى وبالتالي
تقربها إلينا وفي ذلك كسب عظيم لنا وفي الواقع فإن الحضارة العربية هي
حضارة عربية إسلامية وليست حضارة عربية خالصة وإننا كمعرب
ينبغي أن نشجع اشتراك العرب والعجم وأقصد بالعجم هنا ما عناه العرب وهو
كل غير عربي في الحضارة الإسلامية فالعرب والإيرانيون والأتراك والأكراد
وشعوب آسيا الوسطى التي هي الآن في الاتحاد السوفيتي والهنود والباكستانيون
والأفغانيون والاندونيسيون وشعوب أفريقيا السوداء - كل هؤلاء شركاء في الحضارة
العربية الإسلامية - إنى أذكر هذا رداً على من يريدون عزل العرب عن بقية
الشعوب الإسلامية لبث النزعات العنصرية الضيقة التي مارسها النازية
والفاشية في الأزمنة الحديثة . إن من مصلحة العرب أن تقوى علاقاتها
بالشعوب الإسلامية وأن تحصل على دعم لها في بناء الوحدة العربية .

إن هذه النقطة تجرنا إلى دور الجنس أو العنصر في دعم الوحدة العربية
والقومية العربية . إن العلم الحديث أثبت كما لا يقبل الشك أنه لا توجد سلالات
نقية الدم إلا في مناطق معزولة من العالم وأن السلالات البشرية اختلطت مع بعضها
البعض على مر الأزمنة وأنا حين نتكلم عن الجنس أو العنصر فنحن في الواقع
نتكلم عن ثقافة سائدة موحدة فالعرب أمة واحدة ليس باعتبار أن دماء العرب
المعاصرين ترجع إلى عدنان أو يعرب وإنما العرب أمة واحدة لأن الثقافة وخاصة
اللغة جعلت منهم أمة واحدة . لقد اختلط العرب بالفرس والأتراك والصليبيين
والتتار والبربر والزنوج والهنود والأوروبيين في جنوب أوروبا وجنوب غربها
كما اختلطوا بالشعوب السامية الأخرى التي كانت تقطن العراق ومصر وسوريا
ولبنان وفلسطين وغيرهم وصهرتهم جميعاً وجعلت منهم الأمة العربية الجديدة
أو الموسعة إن شئت ، ونحن من هذه الأمة قد أصبحنا جميعاً عرب لأن الثقافة
العربية طبعتنا بطابعها ومثل الأمة العربية في هذا مثل غيرها من الشعوب
الأخرى . إن اعترازا في العروبة هو في الواقع اعتراز لكوننا أصبحنا نتاج

الثقافة العربية الإسلامية لا كوننا عنصراً متفوقاً على غيرنا أو دونه . نه سد
القوميات العنصرية وبقدر ما أخذنا بهذه الفكرة بقدر ما وجدنا جميع الساكنين
في البلاد العربية المختلفة وبقدر ما أخذنا بفكرة القومية العنصرية بقدر ما شجعنا
الحركات الانفصالية . فالدعوة إلى الفينية في لبنان أو إلى الفرعونية التي كانت
في مصر أو إلى البربرية التي كانت في الجزائر والمغرب وغيرها من الدعوات
المماثلة وإن خفت وطأتها إلا أن إحدى مبرراتها هي القومية العنصرية .

المصالح المشتركة

تكون المصالح المشتركة إحدى العوامل المكونة للأمة وتشمل المصالح
المشتركة مجموعة من الفوائد المادية والأدبية فالإقتصاد القومي الذي يفيد منه
الجميع والجيش القوي الذي يدرأ الخطر عن الجميع والمركز المرموق الذي
تتمتع به الأمة والذي ينعكس على المواطنين أينما كانوا والأهداف التي يتطلع
إليها الجميع ويأملون أن يصيبهم نفع منها عند تحقيقها والأخطار التي تتهددهم
والتي يجدون في الوحدة إحدى الضمانات لصدها عنهم كل هذه عامل قوي من
عوامل الوحدة . ان البعض من المفكرين العرب يبرزون النواحي المادية من
المصالح المشتركة على النواحي الأدبية كما أن البعض الآخر يغلبون النواحي
الأدبية على النواحي المادية . ولكن الواقع أن الأحوال الاجتماعية والثقافية
والاقتصادية السائدة هي التي تغلب هذه الناحية على تلك في ظروف معينة . ومن
الخطأ أن نخضع ذلك للحتمية التاريخية ولكن المصالح المشتركة ليست في جانب
الوحدة العربية في بعض الأحيان وخاصة وقد تكونت ضمن الأمة العربية وحدات
سياسية ذات كيانات سياسية مستقلة وقد تكون المصلحة لأحدى هذه الكيانات
ضد اجراء معين وان كان هذا الاجراء يخدم الأمة العربية ككل . وأعتقد أن
ما أتكلم عنه واضح لا يحتاج إلى أمثلة كذلك يحدث أن تحاول بعض هذه
الوحدات السياسية بحكم موقفها أو مكانها في الأمة العربية ككل أو في بعض
أن تحقق مصلحة لنفسها على حساب بقية الوحدات أو بعضها — أن هذه الظاهرة
من أكبر الأخطار التي تهدد الوحدة العربية ويجب أن ننبه إلى مخاطرها لكي

تتحاشى الوقوع فيها وليست الأمة العربية وحدها هي التي تجابه هذه المشكلة فقد جابهتها ألمانيا عند وحدتها وقد استغرق كمثل - تعديل الاجراءات الجمركية في الدويلات التي كونت ألمانيا ما يقرب من خمسين عاما لكي تزول وتحل محلها اجراءات جمركية موحدة لكل ألمانيا ولكن الظروف قد تغيرت بطبيعة الحال فلا يصح للأمة العربية الآن الانتظار لمدة خمسين عاما لكي تحقق الوحدة الجمركية فيما بينها . كذلك يلاحظ أنه كان هناك تصادم في المصالح المشتركة بين شمال الولايات المتحدة وشرقها من جهة - الذي كان اقتصاده تجاريا وصناعيا - وبين جنوب الولايات المتحدة من جهة أخرى الذي كان اقتصاده زراعي . ولن تنتهي شكوى الجنوبيين من استغلال التجار والصناعيين الشماليين والشرقيين لهم الا أخيرا - وربما لاتزال آثار بعض هذه الشكوى إلى الوقت الحاضر .

ويجب أن يتصف سياسيوننا ومخططوننا بالذكاء والحكمة لكي يتجنبوا احداث ردود فعل سلبية ضد الوحدة العربية بسبب توجيه المصالح لخدمة منطقة أو وحدة سياسية أخرى .

العوامل الأخرى المختلف عليها - بالاضافة إلى العوامل الرئيسية التي ذكرناها - يمكن أن نقول أن هناك عوامل أخرى يعطيها بعض المفكرين أهمية ولا يعيها البعض الأخرى أهمية من هذه العوامل : - العرق أو الجنس الذي سبق أن أشرنا اليه والدين ، وكذلك الخلق القومي والبيئة الجغرافية أو الوطن . وبمرور الوقت ساعد بالدور الديني فقط كعامل من عوامل القومية العربية . أن بعض المفكرين العرب وخاصة الماركسيين منهم يستبعدون دور الدين كعامل من عوامل القومية العربية ، وهذه النظرة نتيجة حتمية لمرعيتهم المادية الديالكتيكية الا أن نظرتهم هذه لا تمثل الواقع وهي احدى الاقتباسات التي نقلها بعض مفكرينا من العالم الأوروبي والتي هي نتيجة ظروف سياسية واجتماعية وثقافية سائدة فيه دون أن ينظروا إلى الظروف الاجتماعية السائدة في البلاد العربية .

ولكن بعض المفكرين العرب لا يجعل من الدين عاملا أساسيا من عوامل الوحدة القومية ولكنهم ينظرون اليه كعامل ثانوى ويؤكدون على دوره أى دور الدين في تشجيع لغة معينة على الانتشار وبالتالي على شيوع ثقافة واحدة بين الذين يتكلمون بهذه اللغة طبعاً في حالتنا هى اللغة العربية . ان الاستاذ (ساطع الحصرى) هو أحد هؤلاء المفكرين وتتخلص نظرتة فيما يلى :

« يتضح من الحقائق التى سردناها آنفاً أن الديانة الاسلامية لعبت دوراً هاماً في تقدم القومية العربية وتوسعها وأنها أولاً كانت القوة الدافعة للفتوحات الاسلامية للفتوحات العربية التى نشرت اللغة العربية ووسعت نطاق القومية العربية ، وثانياً صارت القوة الواقية التى اكسبت اللغة المذكورة نوعاً من المناعة ضد عوامل التفرع والتفتت وصانت بذلك القومية العربية من الانشطار في عهد انحطاطها الطويل . ولكن ذلك لا يعنى أن القومية العربية ظلت مرتبطة بالديانة الاسلامية لأنه قد تكونت أمم اسلامية غير عربية من ناحية - وجماعات عربية غير مسلمة من ناحية أخرى .

ويتخوف بعض المفكرين من أن يحرف العامل الدينى إلى تأكيد على النزعات التى تزرع الفرقة في صفوف أمتنا العربية ومن هؤلاء المفكرين الاستاذ قسطنطين زريق الذى يقول « القومية الحقيقية لا يمكن بحال من الأحوال أن تناقض الدين الصحيح اذ ليست في جوهرها سوى حركة روحية ترمى إلى بعث قوى الأمة الداخلية وتحقيق قابلياتها العقلية والنفسية ، فلا بد للقومية اذن وهى حركة روحية من أن تلاقي الدين وأن تستمد منه القوة والحياة - كذلك هى القومية العربية لا تعارض دين من الأديان ولا تنافيه بل تقبل على الأديان جميعاً وإذا عارضت القومية شيئاً فليس هو الروحانية الدينية وإنما هو العصبية الهدامة التى تجعل الرابطة الطائفية أقوى من الرابطة القومية . وتأبى أن تذيب نفسها في بودقة الوطن الجامعة وأصحابها هم أعداء القومية العربية وهادموا وحدتها أما الدين الصحيح فهو ينبع والقومية من معين واحد .

وهناك موقف آخر يمثل المفكرون الذين يرون عدم الخلط بين الوحدة العربية والوحدة الاسلامية لكل واحدة منهما أهميتها الخاصة بها وان لكل منها مجال يختلف عن مجال الأخرى وانه في الوقت الذي أصبحت فيه الوحدة الاسلامية في ظل دولة واحدة أمرا صعب التحقيق في الظروف الراهنة فان العمل في سبيل الوحدة العربية وتحقيقها لا يعدو بأى شكل من الأشكال اضعاف الشعور الأخوى نحو الأقطار الاسلامية غير العربية بل ينبغي تقوية العلاقات الثقافية والدينية معها . وهناك بعض المفكرين الذين يرون اننا ينبغي ان نتخطى الدعوة إلى الوحدة العربية إلى الدعوة إلى الوحدة الاسلامية واستنادهم في ذلك إلى أن الاسلام دين انساني عالمى دعا إلى الاخوة الاسلامية ولكن هل صحيح أن حقيقة كون الاسلام دين انساني ودين الاخوة الاسلامية يتعارض والدعوة إلى الوحدة العربية . أن دائرة الاسلام أوسع من دائرة العروبة — فليوحد العرب كلمتهم وآرادتهم في سبيل المحافظة على كيانهم وضمان تقدمهم وفي ذات الوقت يتعاونوا مع غيرهم من الشعوب الاسلامية إلى اقصى حد ممكن . أما الأمة العربية لما تتحد بينما نجد أن أغلب الدول الاسلامية غير العربية متحدة فالدعوة إلى تعطيل الوحدة العربية فقط أمر غريب ومريب .

والخلاصة أن أكثر المفكرين العرب ينظرون إلى الدين كعامل مهم في دعم القومية العربية .

وقد يهمنى في استعراضى هذا أن أقول بأن الأمة العربية ككل كحضارة وثقافة وتقاليد وقيم وأدب — ككيان لطابع حضارى وثقافى متميز تجابه تحديا كبيرا من الحضارة الغربية التكنيكية متمثلا في الصناعات ومن الثقافة الغربية متمثلا بالقيم والمثل ولن تستطيع مواجهة التحديات الغربية والمحافظة على كيانهما والقيام بدورها الحضارى كأمة سبق لها أن خدمت البشرية أكثر من مرة الا بوحدها وبيعث ذاتها ثم أن الأمة العربية تواجه التحدى الصهيونى الذى يسنده الغرب أو قطاع قوى منه ولن تستطيع الأمة العربية أن تحدد من التحدى الصهيونى

أو ترده إلى حيث كان إلا بالوحدة ، والوحدة عمل يحتاج إلى تخطيط على المستويات الاقتصادية والسياسية والعسكرية بقدر ما يحتاج إلى تخطيط على المستويات الاجتماعية والثقافية والتربوية ، والأمة العربية مثلها مثل غيرها من الأمم الكبيرة سبق أن أدت رسالات حضارية إلى العالم قاطبة وإن من مصلحة البشرية ومصلحتها هي أن تقوم بأداء دورها في الحياة وهي لن تستطيع ذلك إذا لم تتوحد وإذا لم تعد النظر في تراثها وتبعث ما هو حرى بالبعث منه بعد دراسة مستفيضة ومالم تبعث الحياة في اللغة العربية وتجعلها لغة حية كما هي الانجليزية والفرنسية والألمانية وما لم تتشرب ما لدى الغرب . وتوحد ما بينه وبين تراثنا .



دُور الجامعات والمراكز الثقافية
في إثراء التراث العربي والإسلامي
لمواكبة التقدم العلمي والتكنولوجي



كلمة

الاستاذ ابراهيم الشطى

عندما نتكلم عن التراث العربى يجب أن نفهم شيئا واحدا أن هناك نوعين من العرب : العرب الأوائل والعرب الأواخر — كان المؤرخين العرب دائما يسمون في زمانهم القديم عرب عاربة وعرب مستعربة . نحن نستطيع أن نقول في أيامنا هنا أن هناك عرب عاربة أولئك الذين اندثروا من الناحية العلمية والفكرية وعرب مستعربة وهم نحن العرب الذين نحاول في هذه الفترة من الزمان أن نتشبه بهم ونردد أمثالهم ونجتز ما عندنا من معلومات عنهم دون أن نضيف إليها شيئا ، العرب الأوائل تركوا لنا تراثا نجعله نحن تمام الجهل ، أن صح هذا التعبير ، وقد أكون فعاليا فيه . هناك التراث التاريخي وهناك التراث الفلسفى وهناك التراث العلمى الذى يشتمل على الطب وعلى الصيدلة وعلى الفلك وان كان لنا أن نضيف الجغرافيا والرحلات اليه وهناك التراث الدينى وهذا أيضا جزء ضخم جدا بالاضافة إلى التراث الفنى الملموس في الهندسة وفن المعمار وغيرها . ولكن نحن العرب الآن ماذا عملنا لهذا التراث . نحن نعرف أشياء قليلة منه ونعرف بعض الكتب المشهورة . كتاب الأغاني وغيره من الكتب تشاهدونها كل سنة لها طبعة جديدة من شركة طباعة معينة سواء أكانت في مصر أو في سوريا وكان التراث العربى هذه الكتب العشرة أو العشرين — الأغاني وكتاب الحيوان للجاحظ وكتاب العقد الفريد وغير ذلك . نحن لانضيف أشياء جديدة الا إذا تفرغ استاذ في الجامعة في سنة من السنين وحقق كتابا وأخذ سنتين أو أكثر يطرق باب الناشرين لنشر هذا الكتاب فيردونه لأنه ليس كتابا قصصيا أو روايات يقرأها شباب العرب وغيرهم فيتعب في تحقيقه ويصرف من عمره وجهده الشئ الكثير ثم بعد ذلك يأتى التعب الأكبر فيمن يطبعه وينشره له . وبين حين وآخر نرى شبابنا والمثقفين منا عندما يسافرون إلى أوروبا أو في العالم

العربي ويطالعون على بعض القواميس والمعاجم الأوروبية ويأتون ويقولون هذا معجم في الفنون العسكرية وهذا معجم بالتعبيرات الفلسفية وهذا شيء أوروبي حديث - فصل الأوروبيون الآن المعاجم - معجم للغة ومعجم للعلوم - فيقولون أن الأوروبيين سبقونا إلى ذلك وقد غاب عن بالهم أن أباءهم منذ ألف سنة وضعوا المعاجم وفصلوها ووضعوا لكل شيء معجمه وإن كانوا لم يتركوا جميع الأبواب .

الحقيقة أن العرب في زمانهم تخصصوا تخصصاً دقيقاً مثل هذه الأيام هناك من تخصص في اللغة وأمضى حياته فيها . هناك من تخصص بالفلسفة هناك من تخصص بالزراعة - كتاب الحيوان للجاحظ هذا تخصص تقريباً في كل شيء في زمانه - عرف هو عن الحيوان - كتبه في هذا الكتاب الضخم ، وكتبوا أشياء كثيرة جداً لا تطرق على بال الإنسان ولا يعتقد أنهم يؤلفون فيها في يوم من الأيام - هذه الأشياء كلها موجودة حتى هناك أشياء تخص الأطفال والناس في أحاديثهم وندواتهم ومجالسهم ككتاب ألف ليلة وليلة - هذا الكتاب الضخم الذي اقتبست منه معظم الأمم وصف حديثه وكتبته وترجمته - هذا يحوى الكثير من الخيال - والخيال عند الإنسان نوع من أنواع الذكاء ، ليس الإنسان الخيالي كما نعتقه نحن غير واقعي بل الإنسان الخيالي فيه شيء كثير من الواقع لأن الأشياء التي نشاهدها في حياتنا اليومية كانت أوهام وخيالات في تفكير الإنسان .

إذا نظرنا إلى الأمم الأوروبية الآن التي وصلت مرحلة كبيرة من التكنولوجيا كما يسمونها - أي تقدم العلوم - والأشياء المادية نجدها لا تزال تعيش مع تراثها - لماذا ؟ لأن الأمة التي تجهل ماضيها لا تفهم حاضرها ولا تعرف أن تخطط لمستقبلها . ولما نذهب لأوروبا نشاهد أن تاريخهم لا يزال يعيش معهم ، إن سمعنا إلى موسيقاهم فهم يرددون في كثير من الأحيان للمثقفين والمعلمين الموسيقى التاريخية في مسارحهم يمثلون أساطيرهم وقصصهم وكذلك هذه موجودة في رقصاتهم وفي أغانيهم . ولكن عندما نأتي نحن العرب وجلس الحاضرين ونسأل من منا شاهد رواية تمثيلية تاريخية ومن كم سنة ؟ ما في

جواب . من منا شاهد فيلماً تاريخياً عن تاريخ العرب ومن كم سنة ؟ ما في جواب . ولكننا لا زلنا نحن حتى في عقردارنا نشاهد الأفلام والتمثيلات التي تروى لنا القصص التاريخية الغربية وتراثهم واساطيرهم . ونحن عندنا من التراث الذي لا نستطيع أن نفهمه حتى الآن شيء كثير ولكن لا نتطرق اليه من قريب أو من بعيد .

التراث ليس معناه أن نحويه عن طريق تأليف الكتب وتحقيق هوامشها بل أيضاً على المستوى الفعلي . أنا لم أشعر في الواقع بأهمية القصص وأنها مهمة وخاصة القصص في التراث والأدب العربي إلا لما أصبح عندي ثلاثة أطفال ودائماً ككل الأولاد يريدون مني قصة وإذا ذهبت إلى المكتبة لأشترى لهم قصة لا أشاهد قصة عربية دائماً قصص أجنبية ملونة جميلة في كثير من الأحيان ولكن نادراً ما أجد قصة ملونة جميلة عن صلاح الدين وعن ابن قتيبة وعن ابن الوليد وعن صقر قريش . هذه من الأشياء النادرة التي نجدها في مكاتب الأطفال بينما في العالم الغربي اهتموا إلى درجة كبيرة جداً بمكاتب الأطفال بسبب أن علماءهم النفسانيين يركزون أو يرددون ما نقوله نحن العرب من سنوات « العلم في الصغر كالنقش في الحجر » إذا فهم الطفل منذ الصغر القصص وعرف أن خالد بن الوليد عظيم فيظل هذا في نفسه وفي مخيلته عظيماً لكن الآن أطفالنا يسألوننا عن نابليون والامسكندر وغيره وحين نبث في المدارس أشياء بسيطة وقليلة عن الأبطال العرب والتراث العربي وأيضاً في مكباتنا أيضاً الشيء القليل جداً عن هذه الأشياء . ونحن عندما نأخذ كتاباً واحداً من كتبنا الشعبية الذي نفخر فيه وإن كان الكثيرون يجهلونه وهو كتاب « ألف ليلة وليلة » وقرأناه - هذا الكتاب قرأته وأنا صغير أصغر من الآن بسنوات كثيرة لأنه لم يكن في ذلك الوقت في الكويت تسلية وكانت تسليتي كتاب « ألف ليلة وليلة » وتمكنت من اكتشاف منه أشياء الآن أجدتها موجودة - تنبأت شهرزاد عن أشياء كثيرة - بساط الريح - ونشاهده الآن أشكالا وألواناً - كثيراً ما تقول أن فلاناً يقعد في مكان ويدير شيء - خاتمه أو محبسه - ويشاهد ماذا يعملون في جهة ثانية ونحن شاهدنا فعلاً - التلفزيون موجود عندنا . وشاهدنا مباراة المكسيك في حينها

والنزول إلى القمر ونحن جالسين - تذكروا قطعاً قصة سليمان والعفريت في القمم - يفتح القمم فيشاهد حاجة هائلة قوة جبارة يقول أنا خادمك « إن أردت في التعمير وإن أردت في التخريب » الآن القنبلة الذرية ما هي إلا قنقم إن أرادها الإنسان في التعمير فليتنفضل وإن أرادها في التخريب فليتنفضل - هذه أشياء خيالات كانت موجودة ولكنها الآن أصبحت حقيقة . العلماء كلهم كانوا خياليين - كثيراً منهم قالوا عنهم مجانين - ولكن خيالاتهم وهذا النوع من أنواع الجنون عندهم أسعد الإنسان كثيراً - وتقدمت علومه ، وأصبح هذا الخيال شيئاً واقعاً . فكر عربي أصيل الآن في هذا الزمن ليس موجوداً تراث عربي أصيل في هذا الزمن ليس موجوداً - ليس عندنا شيء عربي أصيل لا في الفكر ولا في الأدب ولا في الموسيقى الآن - كل ما هناك تشويه - نحن مثل الغرب ، نسينا ماضينا وتراثنا ولم نفهم الحضارة الغربية ولم نتقبلها - لانحن قابلين الحضارة الغربية ونقول نحن غربيين لأن هناك شيئاً قوياً يشدنا إلى الماضي - ولا نحن مهتمون بالماضي وبالحاضر لأن العالم العربي يعيش في مرحلة من التخلف الفكري كبيرة جداً .

نحن متخلفون فكرياً وهذه في الحقيقة يجب أن نفهمها على مستوى الفرد وفي عالمنا العربي لتخلفنا الفكري على مستوى الفرد دائماً نتهم حكوماتنا بكثير من التقصير - حكوماتنا صحيح مقصرة إلى درجة كبيرة - ولكن نحن على المستوى الفردي نقصيرنا أكثر وأكثر والحكومات - الرجال التي تأتي إلى الحكم كمواطنين صالحين كانوا أفراداً معنا فلو كنا نحن على المستوى الفردي متقدمين فكرياً وذهنياً وحضارياً لكانوا هم كذلك مثلنا . ما هو العلاج وما هي الطريقة لكي نحمل تراثنا الماضي ولكي يكون عندنا أو نبداً ببناء حضارة عربية أصيلة . الواقع أن الإنسان لما يبدأ يفكر بهذا الشيء هناك يجد أشياء كثيرة يمكن أن يبدأ فيها العرب الآن وهذه الأشياء مجرد آراء شخصية لأنه لا يمكن أن الإنسان مهما قال أنه هذا هو الرأي السليم وهذه هي الفكرة السليمة - نحن أولاً لغتنا لانهم بها (اللغة العربية) وهي لغة قديمة ولغة ناضجة والإنسان عندما يهتم بلغته - متى يبدأ يهتم ؟ عندما يكون إنساناً متعلماً عنده من الذوق والأدب الشيء

الكثير فيحاول أن يكون كلامه فيه الشيء الكثير من الذوق والشيء الكثير من الأدب ليثبت أنه في مستوى أرفع مما كان عليه ثقافياً وحضارياً . نحن عندنا نسمع الكلام من المعلمين يكسرون اللغة العربية ويتكلمون باللغة العامية . هذا شيء طبيعي بالنسبة لنا . لكن نحن عندما نذهب إلى إنجلترا أو فرنسا أو ألمانيا ويأتى واحد يتكلم المانى بين ألمان أو فرنسى بين فرنسيين أو إنجليزى بين إنجليز ويتكلم لغة إنجليزية مكسرة في مجتمعهم أو لغة فرنسية مكسرة أو لغة المانية مكسرة يحتقرونه تمام الإحتقار ويعتبرونه أنه جاهل وأن تعليمه مخلوط وأن تربيته تربية ناقصة تماماً كما كان الحال عند آبائنا وأجدادنا في قديم الزمان عندما يدخل عليهم إنسان ويلحن في اللغة العربية .

فاللغة العربية إهتمامنا بها يجعلنا نهم بترائنا وإنها هى الطريق المؤدى والموصل إلى الإعتزاز والفخر بحضارتنا وبأجدادنا وبكوننا أمة عربية واحدة .

إذن كيف التراث العربى بكافة أشكاله وألوانه للطلاب والمعلمين في جميع المدارس والمعاهد والكلليات وغيرها . لا شك أنكم درستم أو شاهدتم كتب عربية تكتب عن تاريخ العالم في كتاب غربى مترجم إلى اللغة العربية . تجدون آسيا صفحتين أفريقيا صفحة ونصف . كل الكتاب عن التاريخ الأوروبى ، وكأن ليس في الدنيا شيء إلا أوروبا هذا صحيح في هذا الزمن ولكن الحضارة أصلاً جاءت من آسيا وتاريخ الإنسان لآلاف من السنين كانت من آسيا . ماذا يريدون هم من ذلك ؟ هم يريدون أن يوهموا الناس في مختلف بلاد العالم أن تاريخ الإنسانية هو تاريخ أوروبا وأن الحضارة الإنسانية هى الحضارة الأوروبية لذلك دائماً لا يفهمون طلابهم في مدارسهم ومعاهدهم شيئاً عن آسيا وأفريقيا إلا صفحتين .

نقوم نحن في معاهدنا ومدارسنا وندرس التاريخ الأوروبى بالتفصيل حتى مؤتمر فينا معروف . . . ما جاء فيه مفصل ومعروف ويقرأه أبناءنا بالتفصيل ولكن وقائعنا التاريخية وأجدادنا التاريخية قليلة . تراثنا الدينى مثلاً — هذه مجرد فكرة — نحن عندما نلاحظون أن تفاسير القرآن الكريم لا زلنا نعتمد على تفاسير

الطبرى والرازى وغيره - مئات السنين - حتى القرآن الكريم لم نستطع إلى الآن أن نكون هناك لجنة أو مجموعة من العلماء ليفسروه أو يأتوا بشيء جديد له أو تفسير يكون حديثاً ولا أقصد حديثاً في التغيير بل حديثاً في الزمن يعنى وصلوا إلى علوم وإلى مرحلة من الثقافة وإلى العلم بحيث يكون هناك تفسير كل التفاصيل الموجودة نادراً - هناك في القليل ولكن بنسبة - تفسير القرآن دائماً للمفسرين الأوائل .

الواقع أن تراثنا العربى لا زلنا نجهله وجاهل هذا التراث ناتج عن سبب التخلف الفكرى في العالم العربى والتخلف الحضارى الآن . والإهتمام به أمر مهم جداً لنا وهذا الإهتمام له طرق ووسائل عديدة بإمكاننا أن نبدأ بها سواء أن كان ذلك عن طريق جامعة أو عدة جامعات أو عن طريق هيئة سياسية أو إقليمية كجامعة الدول العربية أو عن طريق الجامعات كل على حدة - ليس هناك شيء غريب أن تبدأ مثلاً جامعة الكويت ببحث التراث القديم الخاص بهذه المنطقة وجامعة دمشق بالتراث الخاص للشام وجامعة القاهرة بالتراث الخاص بمصر . وفي المغرب العربى كذلك بتراثهم وهذا طبعاً على أساس خطة مدروسة بإمكاننا أن نسير على هذا الطريق .

كلمة

الاستاذ يعقوب الغنيم

أن الأمر الذى لفت نظرى وسرنى جدا هو أن البحث أو البحوث التى تقوم بها الرابطة لهذا العام كلها تتعلق بهذا الموضوع العام من مواضيع الحياة العربية . ولا شك أن افراد موسم ثقافى كامل لهذا الموضوع عملية هامة جدا وسوف تفيد من حيث توجيه الاهتمام الى هذه الناحية بالذات أما من ناحية الموضوع نفسه الذى نتناوله الآن فالواقع أن لى بعض ملاحظات في هذا الصدد فأهم نقطة هى أن نهم أيضا بغرس النظر إلى التراث العربى لدى الطفل العربى . فالواقع أن من أهم النقاط التى أثرت هى أننا عندما نبحث في موضوع التراث يجب أن تمتد نظرنا إلى هؤلاء الصغار بحيث يشبوا وتشب معهم نظرة الاحترام إلى تاريخهم ولتراثهم فمما لاشك فيه اننا لو تأملنا المكتبات وما تقدم إلى ابناءنا الصغار لوجدنا اشياء لامت إلى تراثنا بأى صلة . فمثلا مجلة ميكى أو طرزان أو غيرها ، أو القصص الاجنبية المترجمة لا يمكن أن تغرس في الطفل أى نظرة إلى التراث العربى . وقليل من مجلات الاطفال التى تعنى بأدخال بعض القصص ذات الطابع التاريخى العربى في بعض صفحاتها . وعلى هذا فنحن أيضا ينبغي أن نلتفت الى هذه الناحية كالتفاتنا إلى ناحية الاهتمام بالتراث العربى بالنسبة للكبار .

النقطة الاخرى التى احب أن أشير اليها هى أن الناس دائما أو الامم دائما عند ما تصاب بالنكسات والمصائب تلجأ إلى تراثها وتستجدى هذا التراث .

والواقع عندنا تجربتين كبيرتين ، وهما تجربة الاتحاد السوفيتى أو الكتلة الشيوعية الشرقية وأيضا تجربة الصين .

هاتان التجربتان واضحتان من حيث الاهتمام الكلى بالتراث وبتنمية الذات وعدم التأثير بالروح الغربية ، بمعنى أنها استفادت من التكنولوجيا الغربية ولم تأخذ شيئاً ولو يسيراً من الأيديولوجيا الغربية .

نحن الآن أمام موقف عربي هام جداً وهو موقف التحدى الاسرائيلي لأمتنا وتراثنا وشعبنا جميعها . في الواقع لا يمكننا أن نتغلب عليهم وهذا ظهر الآن واضحاً وقد نخفيه عن أنفسنا لكنه هو الواقع حيث لا يمكن أن نتغلب على هؤلاء اليهود الا إذا صممنا في داخل أنفسنا على بناء أنفسنا ببناء جديداً قويا يعتمد على تاريخنا وعلى تراثنا وعلى حضارتنا . فالاهتمام بالتراث في الواقع هو الاهتمام بالحياة نفسها عندما نهتم بتراثنا نهتم بحياتنا ونهتم بتطوير أنفسنا في الواقع فكرة التراث فكرة مهمة جداً وينبغي أن نركز عليها وينبغي ان ننمي أنفسنا عن طريق الاتصال بالتراث لاعن طريق الانقطاع عنه ، ومع الأسف مرت فترة طويلة انقطعنا فيها عن تراثنا وكرس الغرب فكرة انقطاعنا عن التراث حتى نظل ضعفاء أزلأ له دائماً ، بينما كان يستفيد من مؤلفات علمائنا العرب في العصور الذهبية للعلم العربي .

لقد كانت لنا نهضة علمية جبارة ويكفي أن نعلم انه عندما افتتحت غرناطة أحرقت في يوم واحد مليون كتاب عربي من المؤلفات العربية . فأمة تكون لها قرية من قراها يحرق لها في يوم واحد مليون كتاب ، لمى أمة عظيمة ، أمة علماء ، أمة أدباء فنحن الآن رغم ظهور المطابع ورقم الاعداد الهائلة من الادباء والعلماء لم نصل إلى ايجاد مليون كتاب في أى قرية من قرانا العربية كقرية غرناطة التي كانت احدى قرى الاندلس . وبعد ذلك أحب أن اعود إلى موضوع التراث بمعناه الكتب العلمية التي ألفها العرب ، في الواقع بدأ الاهتمام بنشر التراث العربي لا عن طريق العرب بل عن طريق المستشرقين ولم يكن لنا في الواقع اهتمام علمي دقيق بتراثنا الا عندما بدأ المستشرقون في طبع الكتب العربية ومع ذلك لا يزال الأمر مبعثر وغير منظم ولدينا من الكتب الكثير

والكثير ولكن يطبع في الكويت وفي مصر في نفس الوقت كتاب واحد استطيع أن افرق بين الطابع المصرى والطابع الكويتى في كتاب معين ، وهذا يبذر الكثير من الجهد والمال ، ويحرمانا من كتاب آخر . وفي نفس الوقت أيضا في المغرب حركة نشر التراث العربى حيث تطبع كتب حاليا هى في الوقت تطبع في بيروت وكذلك في معظم البلاد العربية جميعها .

ينبغى أن يكون هناك اذن تنسيق دقيق بين الناشرين أو بين الحكومات العربية فيما يتعلق بنشر التراث العربى حتى لا تهدر جهود بدون فائدة وحتى نستفيد بدلا من تكرار طبع الكتاب الواحد في عدة دول بأن نطبع عدد من الكتب الجيدة التى لم تطبع من قبل . وفيما يتعلق بالترجمة لدينا نفس العملية ، وهى عملية البعثة والتكرار في الجهود فإحدا لو نفذت فكرة ايجاد جهاز مركزى للطبع والنشر والترجمة على مستوى البلاد العربية كلها يقوم بالطباعة والترجمة بحيث تكون الجهود منسقة وغير مبعثرة في غير طائل في الواقع عندما ننظر إلى الجهود المبذولة الآن نجد لدينا معهد المخطوطات العربية هذا المعهد بذل جهوداً كبيرة في تطوير التراث العربى المنتشر في جميع أنحاء العالم ، وجمعه في مركز هو جزء من الجامعة العربية . ولكن ما الفائدة من هذا المعهد بالنسبة للعرب الذين يحبون أن يدرسوا تراثنا ؟ ما مدى امكانياته بالنسبة لنشر التراث ؟ كل ما في الأمر أنه كان للمعهد مجلة صدرت منها اعداد قليلة ثم توقفت ثم بدأت تطبع من جديد ثم انه عندما يطلب أى باحث عربى صوراً من معهد المخطوطات لا يستطيع أن يحصل عليها بالسهولة التى ينبغى أن يكون الامر عليها وربما لا يستطيع الحصول عليها نهائيا .

لو نظرنا إلى جهاز الترجمة نجد أن جهاز الترجمة في جامعة الدول العربية ترجم مسرحيات ثم توقف لقد كان بإمكانه أن يسجل اشياء كثيرة وعديدة ممكن أن تفيد في تنمية التراث العربى ويستفيد منها كتاب الثقافة العربية والثقافة

الاجنبية وفي الواقع فان هذه العملية ينبغي أن تقوم بها الجامعة العربية والجامعات العربية المختلفة ، ولكن فيما يبدو فان روح الاهتمام بالتراث العربي ليست متوفرة ولو وجدت هذه الروح وقويت وتمت في نفوس ابناء الامة العربية لوجدنا الاهتمام يرتفع إلى مستوى الدول العربية بحيث يكون لها ما تطمح اليه من تنمية حاضرها من ناحية المحافظة على أنفسنا وعلى تراثنا ، وكل ما أرجوه أن يأتي ذلك اليوم الذي يبتسم فيه العالم العربي بتراثه وأن يتنبه إلى هذه الناحية الخطيرة التي يعتمد عليها تاريخ الامة العربية . ففي الواقع ليس لأمة حياة مالم تهتم بتاريخها وبفكرها وبتراثها وما لم تكن مؤمنة بهذا التراث .

كلمة

الاستاذ انور النورى

إن هذا الموضوع الذى له أهميته لم ينل حظه من الدراسة لا على المستوى العربى فحسب بل حتى على المستوى العالمى نجد أن الحديث والدراسة تتركزان فى مواضيع أخرى عن دور الجامعات فى المجتمع الحديث وعن دورها فى مواكبة التقدم التكنولوجى وعن تطوير مناهجها وعن ثورة الشباب فيها ولكن الحديث عن دورها فى إحياء التراث كان قليلا نسبياً .

إذن ما هو هذا الدور الذى تلعبه الجامعات والمراكز الثقافية فى إحياء التراث وهنا أعنى بالطبع الجامعات العربية . ولنفرض أننا عرفنا الإجابة على هذا التساؤل فكيف نربط بين إحياء التراث العربى والإسلامى لنجعله مواكباً للتقدم العلمى والتكنولوجى ؟

ماذا نقصد بالتراث ؟؟

إنه الميراث الثقافى والحضارى للأمة الذى يورثه الآباء للأبناء ومن ثم للأحفاد . . إن هذا الميراث يمثل اللغة والفكر والثقافة والأدب والعلم والفن والعادات والتقاليد . . إنه مجموعة القيم التى تصل الجيل الماضى بجيل الحاضر وجيل المستقبل . . فإذا ما انقطعت هذه الصلة تفككت الأمة وضعفت وانقطع حاضرها عن ماضيها وفقدت عزتها وكرامتها .

وهذا ما حدث للأمة العربية والإسلامية حيث عمل الإستعمار الغربى على قطع صلة الأمة بماضيها وفرقها إلى شعوب متنافرة وصبغها بصبغات ثقافية مختلفة من فرنسية وإنجليزية وإيطالية وعمق فيها هذه الثقافة الوافدة والدخيلة . .

وبهذه الطريقة كاد البعض أن يفقد حتى ما تبقى له من لغة ودين . . ونتيجة لذلك نجد أن العرب أنفسهم فتنوا بالفكر الغربي إلى غير حد وسخطوا على الثقافة العربية إلى غير حد أيضاً فكانت المناهج التعليمية غربية لا عربية في مضمونها فحسب بل وحتى في لغتها وأصبح المثقف العربي يعرف عن شكسبير ودانتي وأديسون ونيوتن وباستير أكثر مما يعرف عن المتنبي والبيروني وابن الهيثم والرازي والكندي وجابر بن حيان . . . بل أن العرب أنفسهم أنكروا تراثهم واستهزؤوا به وأصبح التكلم والتحدث عما وصل اليه العرب في مجالات العلوم والفنون مجالا للتندر والتفكه وأصبحت النظرة إلى دراسة هذا التراث وبعثه من جديد ما هي إلا مضيعة للوقت . . هذا الوقت الذي يجب أن يكرس لدراسة ثقافة الغرب لأنها الوحيدة التي فيها المتاع وبها الإنتفاع وأصبحت النظرة للغه العربية أنها لغة شعر وأدب وليست لغة علم وحضارة . .

في ظل كل هذا وبالرغم منه فقد حاول بعض الرواد التحرك لبعث التراث لجعله مواكباً لعصر العلم والحضارة الذي نعيش فيه ولكنه كان تحركاً بطيئاً مشوباً بحذر شديد .

إن فضل الحضارة العربية والإسلامية والدور الكبير الذي لعبته في ربط حضارة اليونان مع حضارة أوروبا في عصر النهضة أمر معروف لا يحتاج إلى إثبات فهو كذلك باعتراف الأوروبيين أنفسهم . . فقد قال أحد مشاهير العلماء الأمير كيين (سارتون) . . « لقد كان العرب أعظم معلمين في العالم فلو لم تنتقل البنا كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدينة بضعة قرون فوجود ابن الهيثم وجابر وأمثالهما كان لازماً وممهداً لظهور جاليليو ونيوتن ولو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن إلى أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم » .

لقد مجد العرب العقل ورجعوا اليه واعتمدوا عليه وأهتموا بالأسلوب العلمي وتقيدوا به فنقلوا اليهم حضارة من سبقوهم وأضافوا اليها وقامت حركة واسعة للترجمة (وما أحوجنا اليها اليوم) في الفلسفة والتاريخ والرياضة والفلك والطب والكيمياء وغيرها من المواضيع المختلفة . . .

لا أريد أن أطيل في التحدث عما وصلت اليه الحضارة العربية ولكنني أشير إلى أن العرب قد وصلوا إلى ما وصلوا اليه بفضل عوامل أربعة :

١ - حرية الرأي العلمي - دون خشية من سلطان أو حاكم أو رجل دين مترممت ودون حرج على الفكر من أى نوع كان .

٢ - تقدير العلماء من قبل الحكام والولاة والأغداق عليهم بما يحتاجونه من المال .

٣ - زهد العلماء العرب في الترف والمال والجاه . . . وهنا نتذكر قوله الحسن بن الهيثم المشهورة « يكفيني قوت يوم » .

٤ - الإستعداد الذهني والصبر والجلد على العمل . . . وهو نفس الأسلوب الذى نحتاجه في العصر الحاضر لبعث حضارتنا ولتقدمنا في المجالات العلمية المختلفة فبنفس الطريقة نستطيع أن نتوصل كما توصل غيرنا إلى مواكبة العلم في العالم الحديث فالعقل العربي قادر إذا ما توفرت له الإمكانيات والأجواء الملائمة على الخلق والإبداع .

إننا أولا وقبل كل شئ يجب علينا أن نبعث تراثنا العربى بمعنى أننا يجب أن نطلع عليه وندرسه ونتعرف عليه ونجمعه ونحققه . . فهذا التراث العربى هو عبارة عن مخطوطات وكتب وآثار موجودة في أماكن متفرقة من العالم في مدريد والقاهرة وطنجة وتركيا وإيران وفي أنحاء أخرى كثيرة من العالم .

والجامعات العربية وغيرها من المراكز الثقافية باستطاعتها أن تقوم بهذا الدور ولكنني أقول أن هذا العمل ليس بالسهولة التى يتصورها المرء لأول وهلة فهو يحتاج الى جهد جهيد ومال وفير لا تستطيع أن تقوم به جامعة واحدة . . . وإنما يحتاج الأمر الى جهد متكاتف ومنسق على مستوى الدول العربية وحتى الاسلامية ويجب أن تشارك فيه المؤسسات الأخرى عن طريق التمويل بل ويجب أن تقوم الحكومات العربية والأفراد في رعاية هذا العمل والأهتمام به . . . فالجامعات العربية لا تستطيع أن تتحرك تحركا جادا في هذا المجال ما لم تهب لها الفرص وتزود امامها الصعوبات .

ولنفرض أننا جمعنا هذا التراث في محل ما وفهرسناه وحققناه ونشرناه فما هو أثر ذلك في مواكبة التقدم العلمى والتكنولوجى فى العصر الذى نعيش فيه ولكننى أقول أن عملية بعث التراث لا تقتصر فقط على التعرف عما فعل الاجداد ولكنه يجب أن يكون حافظا للجيل الحاضر للعمل على اثرائه والاضافة اليه وهذا لا يتم الا إذا صاحبت هذه العملية عملية أخرى وهى عملية التعريب حركة تعريب على نطاق واسع حتى يستطيع العربى أن يطلع على النتائج العلمى بلغته الام فيفهمه بعمق ويضيف اليه . ان عملية التعريب لا تعنى بالضرورة ترجمة كل ما ينشر فى مختلف اللغات ولكنها عملية تعريب لاشياء وبحوث متقاة . عملية تعريب منظمة يقوم عليها أناس مختصون تترجم أمهات الكتب والمراجع والبحوث التى لها علاقة بما يجرى من بحوث فى الوطن العربى فعن هذا الطريق نستطيع أن نبعث اللغة العربية لنجعلها لغة العلم الحديث حتى يتمكن علماءنا من تدريس طلبتهم بها وتشجعهم على التأليف والنشر بها أى بعبارة أخرى اننا عن هذا الطريق نوصل العلم فى الفرد العلمى العربى ونبعث حضارة عربية جديدة فمن غير المعقول أن يستمر علماءنا فى التأليف بلغات إجنبية مختلفة فهم أشبه ما يكونون بينابيع تصب فى بركة أو بحيرة لا يستفيد من ماها العرب أنفسهم بل المستفيد هم أولئك الذين ينشر العلم بلغتهم وهم بهذا من حيث لا يشعرون يساهمون فى إثراء العلم الغربى والتقدم العلمى فى الغرب . كما وانه من غير المعقول أيضا أن نستمر فى تدريس طلبتنا العلوم بلغات إجنبية مختلفة ولكنه لابد من ذلك فى الوقت الحاضر ما دامت المراجع والعلوم المبتكرة لا تنشر حتى من العرب أنفسهم الا بلغات غربية . فهذه العملية تحتاج الى تنظيم وتنسيق والى عمل جاد على مستوى الجامعات والدول العربية ولابد من بداية بالطريق طويل وصعب ويزداد صعوبة بمرور الأيام .

وما حدث فى الاتحاد السوفيتى من تجربة فى هذا المجال ليعطى دليلا على إنه فى الامكان تنفيذ ذلك فبعد أن كان النشر العلمى يتم معظمه عند قيام الثورة البلشفية فى عام ١٩١٧ باللغات الأوروبية أصبح منذ سنة ١٩٣٥ ينشر بالروسية وبالتدريج ومع إطلاق الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٥٧ لأول قمر صناعى أصبح كل النشر

يتم باللغة الروسية وتنهت الولايات المتحدة الامريكية لذلك فرصدت الميراثيات الضخمة لترجمة الانتاج العلمى الروسى الى اللغة الانكليزية . . وهكذا فان اللغة الروسية أصبحت في فترة وجيزة نسبيا (نصف قرن تقريبا) هى لغة العلم والأدب والحياة فلننكب على دراسة هذه التجربة حتى نستفيد منها .

إذن لابد من بعث اللغة العربية لجعلها لغة العلم في العالم العربي وهناك بعض المجهودات في هذا المجال لازالت حيه وإن كانت تسير بخطى وثيدة لا تتفق وعصر السرعة الذى نعيشه فقد قام مجمع اللغة العربية بالقاهرة بالتعاون مع مجاميع اللغة في البلاد العربية الأخرى بصياغة ما يقارب من المائة ألف مصطلح في مختلف فروع العلم في الطب والهندسة والفيزياء والرياضة ومن الممكن اعتبار هذا الحصيلة قاعدة انطلاق للعلماء العرب ليستعينوا بها على تطوير اللغة العربية للعلوم الحديثة حتى نتمكن من إيجاد الثقافة والفكر العربى الواحد .

أن اللغة العربية هى الوعاء الفكرى للمواطن العربى فهى اداة للتفكير ووسيلة التعبير فاستعمالها في التأليف والنشر يؤصل العلم في الوطن الذى نعيش فيه فلا بد من الاهتمام بها وبعثها من جديد .

وهنا أعود فأقول أيضا أن العملية صعبة والطريق طويل وشاق ويحتاج الى جهد متناسق وتعاون علمى منظم بين مختلف الجامعات والمراكز الثقافية العربية برعاية مختلف الحكومات العربية وليكن هذا العمل الجبار هدفا من أهداف جامعة الدول العربية تعمل بكل مألديها لتنفيذه بعد أن فشلت في تحريكها ونشاطها السياسى (توصيات المؤتمر الثقافى العربى الثامن) . . وأنا متأكد أن الجامعات العربية كل على حدة قد قامت بشئ بسيط في هذا المجال أو حاولت على الأقل ولكن لابد من تنظيم العملية ودفعها الى الأمام فهى ليست مستحيلة بالرغم من أنها ليست سهلة المثال . وجامعة الكويت مستعدة أن تساهم في عمل عربى جامعى موحد في هذا المجال بما لديها من إمكانيات محدوده ولكل جامعة عربية إمكانيات محدودة ولكن إذا جمعنا هذه الإمكانيات ونظمناها إستطعنا أن نوجد إمكانيات ضخمة تغلب على ما يبدو مستحيلا .

وختاما لا أستطيع أن أغفل ما لبعث هذا التراث وما لتأصيل العلم في الوطن العربي من أثر على وحدة هذا الوطن وتقدمه وقوته فعن هذا الطريق يخلق الفكر العربي الواحد ويتم الإتصال الفكرى بين العلماء والعرب فبدلا من التعرف على نتائج بعضهم البعض عن طريق لغات غريبة يستطيعون التعرف على بعضهم البعض عن طريق لغتهم الاصلية . . . ومن العسير خلق وحدة سياسية وإقتصادية لا تدعمها وحدة ثقافية فالتأخير في بعث التراث وإثرائه يؤدي إلى تباعد فكرى وشعور متزايد بالمبعد عن الأصل العربى لدى كل شعب في مختلف البلاد العربية.

دور بعض لخصيائ العربيه في ريادة الفكر الاسلامي

محاضرة

الاستاذ الدكتور زكي نجيب محمود

مقدمة :

الحقيقة أن كل أمة لها تراثها الذى هو ثمرة عبقريتها، والمعبر عن روحها، وعنوان المجهود الكبير الذى تبذله بعقلها وإرادتها وملكاها لكى تساهم في التراث الإنسانى على تنوع جوانبه . ومن أروع ثمرات التراث الإنسانى، الفلسفة والعلم والفن .

ففيما يتعلق بالفلسفة الإسلامية ، التراث هائل ورائع حقيقة ، ولا يتسع المقام في محاضرة قصيرة للكلام المفصل في الموضوع ، فلا بد أن نكتفى بحديث يتضمن لمحات وإشارات ويتسع المجال عند ذلك لبعض الأسئلة التى نستطيع أن نخرج منها بنتائج يمكن أن تفيدنا عندما نستعرض تراثنا في هذه الناحية .

ولا أجدنى محتاجاً إلى أن أفصل الكلام عن مفهوم « الفلسفة » وعن مفهوم « الفلسفة الإسلامية » . فالفلسفة ، بحسب مفهومها العادى والمأثور ، هى محاولة الفكر البشرى لإكتشاف المجهول من حقائق الأشياء وطبائعها . والحقيقة أننا ، رغم كل ما وصلنا اليه من علوم ومعارف متنوعة ، لا نزال نسبح في بحر من المجهول ، ولا أقول في بحر من الجهل ، إذ لا بد من الإعراف بأن العقل البشرى قد أثمر على مر آلاف السنين ثمرات رائعة في مجال المعرفة ، كما أن الإرادة البشرية استطاعت ، بفضل القدرة والملكات الإنسانية ، أن تؤثر في هذا العالم ، وأن تعمم الأرض وأن تبدع كل ما نراه من مظاهر الحضارة والتمدن بكل صوره المادية والمعنوية . فالعقل يخوض عباب هذا المجهول ، في عمل شاق ، لكنه في الوقت نفسه مهمة نبيلة وثمرة .

ومهما كان تساؤلنا ، وحتى تشككنا في قيمة الأبحاث النظرية كما تتمثل في الفلسفة ، بمعناها الخاص أو بمعناها المتصل بمختلف العلوم والدراسات ، فإننا نستطيع أن نقول مطمئنين إن كل الأنوار التى تكشف لنا حياتنا وكل القيم التى نوؤمن بها وكل المبادئ التى نوجه حياتنا بحسبها ، بالمعنى العادى لكل هذه المفهومات ، إنما هى ثمرة المجهود العقلى الذى يبذله الإنسان في محاولة معرفة حقائق الأشياء وحقيقة نفسه وحقائق القيم التى يشدها ويؤمن بها ، بصرف النظر عن النور الكبير الذى يأتى للإنسان من مصدر أعلى هو المصدر الذى صدر عنه

الإنسان كما صدر عنه الكون ، وأعنى به في غاية البساطة : التعلم الآلى الذى جاء إلى البشر على لسان أفراد منهم اختارهم الله وعلمهم ليعلموا الناس ما لا يمكنهم أن يعلموه علماً صحيحاً كاملاً لو اعتمدوا على أنفسهم وحدها .

والفلسفات متعددة ومتنوعة ومتفاوتة — هناك فلسفة الصين والهند واليونان والرومان ، وفلسفة العرب ، والفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى والعصور الحديثة ، وربما كانت هذه هى الفلسفات الكبرى بوجه عام ، وهى قد تتابعت واتصل بعضها ببعض وتضامنت أجيال إنسانية من مختلف البلاد في الثمرات الفكرية التى أثمرتها عقولهم وهم يلتمسون حقائق الأشياء . ولم يظهر التضامن بين البشر على اختلاف الملل والبلاد كما ظهر في ميدان المعرفة وهى في الغالب تدور حول أمور موضوعية ، لا دخل فيها للأهواء والعواطف الشخصية ، ولذلك يلتقى الناس عند الحقائق أكثر مما يلتقون عند المصالح .

والذى يستلقت النظر في الحياة البشرية أنها تتردد دائماً بين الحقيقة وبين المصلحة — بين الموضوعية وبين الذاتية . والموضوعية هى نقطة التقاء الناس ، فقد اتفقوا حول أسس المعرفة وحول القيم الكبرى وإن تضاربت مصالحهم وتنوعت .

والآن أحب أن أنبه إلى مفهوم « فلسفة إسلامية » . مفهوم الفلسفة ، كما هو معروف وكما تقدم القول عبارة عن محاولة الفكر البشرى العادى بوسائله أن يصل إلى المعرفة معتمداً على نفسه . والإسلام تعليم الهى — فكيف يمكن أن يكون هناك تفلسف ، أو بعبارة أخرى : كيف يكون هناك تفكير إنسانى مع وحول وفي الإسلام باعتبار أنه تعليم الهى ؟ إذا كان الإسلام عبارة عن علم بأصول العقائد وأصول الشريعة والعبادات وعن مبادئ أخلاقية ووجهة نظر حول هذا الكون وحول الإنسان وما وراء الكون والإنسان ، فكيف يمكن أن يتفلسف الإنسان في هذا المجال ؟ وأن تكون هناك فلسفة إسلامية ؟

الحقيقة أن الإجابة عن هذا السؤال دراسة شيقة للإسلام نفسه وللتفلسف من حيث حقيقته لا التفلسف من حيث الصور المتكلفة أو الصور المغرضة التى

نراها أحياناً على ألسنة قوم ينتسبون إلى التفلسف وما هم من التفلسف ، في الحقيقة ، على شيء . الفلسفة هي محاولة معرفة الحقيقة لذاتها ، بقصد المعرفة دون النظر إلى أى عاطفة أو إلى هوى أو إلى مصلحة أو حتى إلى تطبيق مبادئ بالقصد الأول ، وإن كانت الفلسفة من الناحية العملية هي التي تقود الإنسان في حياته وبها يستنير ، وتطبيقات المعرفة النظرية هي كل ما نعيش فيه في دنيانا على هذه الأرض .

إن التفلسف ثمرة العقل والإسلام علم من الله ، فكيف يمكن التفلسف في الإسلام ؟

يستطيع الإنسان بسهولة أن يقول - إن العقل من الله والدين من الله ، والمفروض أن يلتقيا لأن مصدرهما واحد ، والحكمة تقتضي ذلك - هذا إلى أن من طبيعة العقل أن يبحث ويفكر ، وهو يجب أن يسترشد من المعرفة . والدين بوجه عام ، في حقيقته توجيه في أمور كلية ومبادئ كبرى ، وهو بعد ذلك يترك للإنسان بما له من ملكات أن يستقصى التفاصيل ويسترشد من المعرفة على الأسس الكبرى وأن يصل إلى كل ما نجده في كتب الفلسفة وكتب العلم وكتب الدين من تفاصيل المعرفة التي هي من ثمرة التقاء العقل بالكون في ضوء التدبير الإلهي والحكمة الإلهية . فإذا كان الدين نفسه يأمر بالنظر في العالم ويعظم العالم والحكمة ويدعو إليها ويحث طريق العلم والحكمة كطريق للتأكد من صحة الإيمان ، فعند ذلك يكون هناك أكبر باعث من الدين نفسه لنشأة الفلسفة وظهورها ، وهذا هو الذي حصل بالفعل فيما يتعلق بالفلسفة الإسلامية .

فالاسلام ، كما نجده في القرآن ، ليس مجرد عقيدة ، ولا هو مجرد نظام في الحياة وإنما هو عقيدة تقوم على العلم والعقل والدليل والبرهان ، هي تقوم على النظر العقلي ، إلى حد أن علماء الاسلام الذين انشأوا علم اصول العقائد يقولون أنه يجب على المؤمن أن يقيم إيمانه على الدليل والبرهان ، وأن أول واجبات المسلم البالغ الرشيد القادر على التفكير هو أن يفكر وينظر لكي يعرف طريق اثبات العقائد خصوصاً - طريق معرفة الله - .

ومن هنا التقى الاسلام بثمرات الفكر البشرى كما أثمرها العقل الاسلامى الذى فكر في اصول الدين وكما وجدها أمامه ممثلة في تراث الانسانية العلمى والفلسفى السابق ، على تنوع البلاد والاجناس والامم .

الفلسفة الاسلامية معناها التفلسف المتصل بالاسلام أو التفلسف كما ظهر وازدهر بين المسلمين . والانسان عندما يتأمل اصول العقيدة الاسلامية يلاحظ انها كلها موضوعات للبحث وهى في الحقيقة شاملة لجميع أنواع الموجودات - الاله - حقيقة هذا العالم - الانسان - القيم ، الروح وما لها من عالم - الكائنات التى لا نراها - حياتنا هذه والحياة التى قبلها والتى بعدها . والعقيدة الاسلامية أشمل من كل العقائد التى قبلها ، وهى على أبسط صورها ، الايمان بالله وبالملائكة وبالتعليم الالهى أو الكتب المنزلة وباليوم الآخر وبالحياة التى بعد هذه الحياة ، بالعالم الجديد الذى سيظهر - لأن عالمنا هذا لا بد أن يتغير ، هو عالم حادث الصورة ، ومع أن عمره طويل جدا ، يقدر بعدة آلاف من ملايين السنين ، لكن عمره بالقياس إلى الأزل والأبد لحظة قصيرة . وكذلك شأن الحياة الدنيا ، وكل ذلك سيفضى إلى عالم جديد وإلى حياة أخرى خالدة ، وعلمنا الذى يقتصر على قطاع من تاريخ الوجود علم قاصر - فهناك ما قبل وهناك ما بعد ، وهناك تبدل هذا النظام إلى نظام آخر .

فالاسلام بعقائده لم يترك شيئا خارج نطاق نظريته وبحته . وكل الموضوعات التى تدور حولها العقائد قد جعلها القرآن موضوعات بحث تقدم الأدلة عليها وتقبل الاعتراضات ويرد عليها وفي أثناء هذه العملية تتكون الأفكار ومن جملتها يصبح هناك فكر فلسفى متنوع ، لا يقتصر على الناحية الاعتقادية بل يشتمل أيضاً على جميع النواحي العلمية والفلسفية لأن الفلسفة الاسلامية ليست فقط فلسفة بالمعنى الخاص المقصود بالتفلسف وإنما هى شاملة لكل شيء - فعلوم الاسلام نفسها من فقه وأصول وتفسير ، وحتى علم الحديث لها كلها مناهجها العلمية وكذلك علم اصول العقائد له منهجه العقلى ، وكلها مناهج بحث جدية بأن توضع إلى جانب أحسن ما وصل اليه علماء مناهج البحث في تحقيق المسائل التاريخية والمسائل العقلية وغيرها .

فالاسلام علم ، كما يقول القرآن ، وهو حكمة ، وهو نور ، وهو ذكر وتذكرة — تنبيه للعقل لكي يفكر ويستدل ويعرف . فمن شأن الاسلام ، من أول الأمر ، أن تكون فيه فلسفة .

والفلسفة الاسلامية ينظر اليها مثلاً باعتبار أنها الفلسفة التي ظهرت ضمن تيار الفكر الفلسفي العالمي الذي بدأ لا مع اليونان بل قبل اليونان ، لأن اليونان تلاميذ لغيرهم ، ثم انتقلت فلسفتهم إلى الرومان ومن الرومان واليونان إلى العرب والمسلمين بوجه عام ومن العرب والمسلمين إلى أوروبا في العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة وإلى اليوم .

فاذا نظرنا إلى الفلسفة الانسانية الاسلامية على أنها هذا النوع من التفكير الفلسفي الداخل ضمن تيار الفكر العالمي فاننا نجد بالفعل كثيراً من الفلاسفة الاسلاميين الذين كانوا من اساتذة الانسانية وهم يملأون — فترة استمرت قروناً ، من أوائل القرن التاسع الميلادي وظلت آثارهم العلمية مراجع للفلسفة — وللعالم في الشرق والغرب . وإذا كانت قد حصلت فترات ركود لم يكن فيها ابتكار في الحياة العقلية فانها كانت في الحقيقة فترات محافظة على التراث .

والفلسفة الاسلامية التي ظهرت في إطار الفكر الفلسفي العالمي تراث غني جداً لا بفلاسفة فقط ، بل بفلاسفة علماء وعلماء فلاسفة ، منهم الفلكي الفيلسوف ومنهم الفيلسوف العالم بالرياضيات والطبيعات ، ومنهم الفيلسوف المهتم بالطب ، ومنهم الطبيب المهتم بالعلوم العقلية والمنطق والميتافيزيقي . ولست بحاجة إلى أن نذكر اسماءهم فهي أشهر من أن تذكر .

لكن الفكر الفلسفي الاسلامي يتمثل أيضاً في ميدان آخر هو ميدان البحث حول العقائد الاسلامية التي هي ، كما تقدم التول ، رؤوس موضوعات بحث الفلسفة الاسلامية فلنلاحظ أن الاسلام استولى على البلاد ذات الحضارات القديمة ، ولم تمض الا عشرات قليلة من السنين حتى كان الاسلام معروفاً ليس فقط كفكرة ولكن عند امة تمتد من أعماق آسيا إلى المحيط الاطلنطي ، بل لم

يمض قرن حتى كان قد دخل في أسبانيا وإلى فرنسا ، وبذلك أصبح المسلمون ، بأفكارهم وأصول العقيدة والقضايا الرئيسية التي في أذهانهم عن الله والكون والانسان يواجهون التراث الفكرى عند الانسانية . ولم تكذباً حركة الفتوحات الكبرى وتستقر أحوال الدولة العربية الاسلامية في عصر العباسيين ، خصوصاً العصر الاول ، حتى تطلع علماء العرب الى معرفة ذلك التراث بشغف كبير فبحثوا عنه ونقلوه اب لغتهم وفي مدى قرن من الزمان بين ١٥٠ و ٢٥٠ هجرية كان التراث الانسانى في العلم والفلسفة قد أصبح أمام العرب باللغة العربية ، وكان ذلك هو الجو الذى ظهرت فيه علوم العقائد الاسلامية ومن التفاعل بين الاسلام أي بين العقل الاسلامي ، أعنى العقل الذى فيه أصول العقيدة الاسلامية وبين المذاهب الدينية والفلسفية الاخرى ظهر علم هو في الحقيقة مجموعة علوم ، وهو يسمى « علم الكلام » أو علم اصول العقائد أو علم التوحيد ، وهو علم عقلى وفلسفة بالمعنى الحقيقي ، وهو يتميز عن الفاسفة بمعناها التقليدية بأنه يسير على طريقة النقد وبأنه يعتمد على المنطق والجدل وعلى مقدمات مأخوذة من العلم الطبيعى ومن مبادئ العقل ، وهو بعد أن تطور وتكامل قد أصبح جملة علوم منسقة ، منها علم في نقد المعرفة ، ومبحث في الوجود ، وآخر في الطبيعة ، وغيره في النفس والانسان ، وكلها مرتبطة فيما بينها لكي تؤدي إلى القضية الكبرى في المعرفة الانسانية العلمية والفلسفية وهى وجود الخالق الحكيم المدبر لهذا العالم .

إن علم الكلام الإسلامى علم عقلى ، علمى فلسفى ، لإضافه مفكرو الإسلام إلى التراث الفلسفى التقليدى ، وتميز به أصحابه عن مذاهب فلاسفة الإسلام الذين تلمذوا على فلاسفة اليونان لكنهم بدورهم حددوا التفكير الفلسفى وطوروه ووصلوا فيه إلى أشياء جميلة جداً في الفهم والابتكار .

على أننا إذا صرفنا النظر عن التفكير الفلسفى الإسلامى كما يتمثل عند الفلاسفة بالمعنى الخاص وكما يتمثل عند علماء كثير من العقائد الذين كانوا فلاسفة وكانوا متصوفين ومؤمنين في وقت واحد ، وجدنا ميادين أخرى للفكر الفلسفى من أهمها ميدان التصوف .

والتصوف ميدان كبير من ميادين الفكر الفلسفي رغم ما يحصل في بعض الأحيان من انطباعات لا تمثل التصوف الإسلامي على حقيقته ، مثل أنه ابتعاد عن الحياة وإهمال لأمرها . فالتصوف الحقيقي ليس شيئاً غريباً عن الدين ولا هو بعيد عن الإهتمام بالحياة وبالبشر ، التصوف علم وخلق وحياة وعمل ، ليس معنى التصوف اتخاذ الصوف الخشن لباساً بدلاً من اتخاذ الحرير وفاخر الثياب التصوف شيء آخر ، هو اجتهاد المؤمن في أن يصل فيما يتعلق بالعقائد والأعمال إلى حالة حياة حقيقية ، فيها يكون الإيمان ، وهو قول لا إله إلا الله ليس مجرد كلام يقوله اللسان ويتمثل معناه في الذهن ، بل يكون قول لا إله إلا الله حياة عميقة للروح ، وعلماً مستقراً في القلب ، يهب له الحياة ، ويشع عليه من نوره ، بحيث يكون كل من تفكيره وسلوكه متمشياً مع الإمثال لأمر الله ، فلا يتحكم فيه الهوى ولا الشهوات ولا تكون هناك قيمة أعلى من كلمة الله تعالى ، وفي الوقت نفسه يكون مقامه الدائم وسلوكه الدائم هو مقام لا إله إلا الله — لا يخشى إلا الله ويحب الله فوق كل شيء ويحب الأشياء لأنها من الله .

فالتصوف بهذا المعنى هو عمل روحي وتكامل خلقي ومحاولة الإندماج بين الفكر والحياة وبين الفكر والسلوك ، لكن التصوف لم يقتصر على ذلك ، لأن الوصول إلى الفضائل اقتضى أخلاقاً وعلماً للأخلاق وتصفية للنفس لكي تصل إلى هذا تحتاج إلى معرفة بالنفس ، وإلى علم نفس تحليلي تربوي مسهب نجده عند الصوفية ، وأيضاً إذا كان الإنسان يصل إلى المعرفة النظرية بامتدادات عقلية فهناك أيضاً معرفة نظرية ، هي روحية مباشرة تتجلى في الروح وتتجلى للروح من طريق التصفية الروحية .

والمعرفة الإنسانية قد تكون من طريق الحواس والإستدلال منها ، والحواس محدودة مقيدة والمفاهيم التي تتكون من المعطيات الحسية تكون على غرار المحسوسات ، فهي مفاهيم نسبية . لكن هناك معرفة تدركها الروح مباشرة وهي من نوع آخر أعلى وأرقى . ولا يمكن إنكار المعرفة من طريق الروح ، لأنه حتى في المعرفة الحسية الذي يرى مثلاً ليس هو العين ، بل الذي يرى هو الروح لأن العين مجرد وسيلة ، وللروح معرفة خاصة بها .

فالتصوف ، في ناحية من نواحيه ، محاولة الوصول إلى معرفة روحية مباشرة هي للروح بطبيعتها والروح تحصل عليها إذا تخلصت ، بمقدار ما هو ممكن في هذه الدنيا ، من سيطرة الحس وقيوده والعالم المحسوس ومظاهره ، وعند ذلك نصل إلى مقامات في المعرفة وأنواع من المعرفة فوق الطوق العادى وأعمق منه . وهذا قد اقتضى نظرية في المعرفة عند الصوفية ، وعندما تنكشف حقائق الأشياء لأصحاب هذا الطريق يكون عندهم نظرة للوجود إلى جانب نظرة غيرهم .

وبهذا كله فإن التصوف ليس مجرد طريق في تركية النفس ، بل هو أيضاً جملة علوم متكاملة كما هو الحال بالنسبة لعلم الكلام والفرق بين هذا وذاك أن علم الكلام بحسب وظيفته الدقيقة يرمى إلى تكوين وجهة نظر عقلية وأن التصوف بعد تكوين وجهة النظر العقلية يصل إلى حالة المشاهدة الروحية والذوق الروحي .

فهذه الميادين الثلاثة الكبرى — ميدان الفلسفة الإسلامية — بمعناها الخاص وميدان علم أصول العقائد وميدان التصوف هي الميادين الرئيسية للفكر الفلسفى في الإسلام . وعند المقارنة يتجلى للإنسان أنها من أروع العلوم التى وصل إليها الفكر البشرى ، لا من حيث المنهج فحسب بل أيضاً من حيث المحتوى ومن حيث الأفكار وسموها وعلوها .

فالفلسفة الإسلامية في ميادينها الرئيسية جاءت بعد فلسفات سابقة ، لكن كانت لها ميراثها :

هى في ذاتها تمثل تيارات واتجاهات ومذاهب في غاية الخصوبة . فعلم الكلام له مدارسه الكثيرة واتجاهاته ، وفيه حرية فكرية ليس لها نظير ، والتصوف له اتجاهاته ، وكذلك فلاسفة الإسلام لهم نزعاتهم ومذاهبهم . وفي كل هذه الميادين كان للفكر الإسلامى مساهمة ضخمة في تراث الفكر البشرى .

ولا نستطيع بسبب ضيق المقام أن نذكر الأمثلة على ذلك ، وهى لا تحصى ، سواء في ميدان التفلسف الشامل للعلم والفلسفة وفي غير ذلك ، وابتكارات العرب في العلوم معروفة . وكان لهم أيضاً ابتكاراتهم في المفهومات الفلسفية ، وهى أعلى وأدق من ابتكارات من سبقهم .

فمثلا فكرة الألوهية في الفكر الإسلامى أعلى بما لا يقاس من الفكرة الألوهية في كل التراث السابق الدينى والفلسفى ، والتدقيق والتحقيق في المشكلات المتعلقة بالآله وبالعلم أعلى بكثير وأدق وأوسع وأشمل ، هناك مشكلات لم تخطر للسابقين على بال ، ولكننا في كثير من الأمور نجهل هذا التراث . وأقول لكم بصدق وصراحة أننا حتى الآن ، رغم المعاناة الطويلة عشرات السنين نحاول أن ندرك محتوى المفهومات في الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامى وفي علم الكلام وأن نتبين ما فيها من ثروة بل لا نزال حتى الآن أن نحدد معنى بعض المصطلحات ، والسبب في ذلك يرجع إلى فترة الإنقطاع الطويلة التى استمرت مئات كثيرة من السنين بين مستوى ثقافتنا وبين تلك الثروة الضخمة التى تضمنها التراث . وفي طول تلك القرون ركذ الفكر ، بل تدهور ، وضعفت المقدرة على الابتكار في ظروف طرأت على العالم العربى الإسلامى منذ أيام غزوات التتار والمغول ثم الحروب الصليبية وسيادة العناصر التى لم تكن تمثل ثقافة بقدر ما كانت تمثل القوة ، كما حصل في تاريخ العالم الإسلامى من القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، ثم جاءت عصور السيطرة الأجنبية الغربية وكل ذلك عاق تقدم الفكر العربى الإسلامى ، عاقه أولا عن فهم ما عنده ، ثم عاقه عن التطوير والتحديد الذى نرجو أن يتحقق إن شاء الله في عصور الحرية ، لأنه من غير حرية لا يمكن تقدم ، لأنه لا يمكن فكر ولا يمكن علم ولا تنشأ إنسانية قادرة على التقدم الحقيقى الذى هو غير التقدم الظاهرى ، أعنى التقدم المادى الذى هو ميسور لكل من يعرف قوانين الطبيعة ويستطيع أن يستخدمها . والتطور المادى كما لاحظنا في الحضارة الحديثة وكما تبين من سلسلة المحاضرات في العام الماضى - هذا التقدم المادى كان على حساب جوانب هامة رائعة من الإنسان وهى جانب العقل وجانب الخلق ، جانب الإنسان كإنسان هذا الكائن الذى يستطيع بفضل عقله وضميره وطموحه وحرية وما تختلج به نفسه من العواطف النبيلة أن ينتج أعظم الثمرات .

المهم إنه في الميادين الكبرى الثلاثة للفكر الإسلامى نجد التنوع والخصوبة والاتجاهات ، ونجد أمامنا تراثا رائعا ، وهو يمتد منذ أوائل القرن الثالث الهجرى أوائل القرن التاسع الميلادى ، قرونا كثيرة تجلت فيها أروع صور الإنتاج والأبداع ، ثم يمتد بعد ذلك غذاء للشرق والغرب الى اليوم . وهو يتميز بأنه كان نقدا للتراث السابق وتطويرا واتماما له . وآثاره البعيدة لم تظهر في الشرق بقدر ما ظهرت في المغرب . ومن المعلوم أن الفكر الاوروبى من حوالى أوائل القرن التاسع الميلادى الى آخر القرن السابع عشر ظل يتغذى بالفكر العربى الإسلامى - ليس فقط في ناحية العلوم من رياضيات وطب وطبيعات وعلوم نبات وحيوان ، بل أيضا في ناحية الفكر وحتى في العقائد . والعقائد الأوروبية المسيحية في العصور الوسطى تأثرت أكبر التأثير بالفكر الإسلامى ليس فقط بالفكر الفلسفى الذى نجده عند الكندى والفارابى وابن سينا ، بل أيضا بالفكر الفلسفى كما يتمثل عند علماء العقائد من المسلمين ، ومن المدهش أننا نلاحظ أن كبار علماء العقائد الذين لا زالت أفكارهم مهيمنة الى اليوم في ميدان العقائد المسيحية يمثلون الاتجاهات والتيارات التى ظهرت في الفكر الإسلامى . وهذا ليس كلاما يقال بوجه عام ، بل هناك التفاصيل ، فتاريخ مفكرى العصور الوسطى ، وهم من علماء العقائد يشهد بذلك منذ أواخر القرن العاشر ، من أيام البابا سلفستر الثانى الذى كان يسمى « البابا المتفلسف » فهذا البابا كان واسع الأفق ، محبا للثقافة . وقد ذهب الى إسبانيا وتعلم العلوم العقلية وغيرها على يد علماء مسيحيين يقيمون مع المسلمين ، وقد كتب كتباً على غرار الكتب التى في الفلسفة الإسلامية كما تتمثل عند العلماء . وبعد ذلك بدأت الاتصالات بين الفكر الأوروبى والفكر الإسلامى من طرق متعددة - ولا بد أن نشير الى تلك العلاقة التى كانت بين شرلمان وهارون الرشيد وأن شرلمان بدأ في إصلاح الأحوال الثقافية في إمبراطوريته مستفيدا مما عرفه عن دولة العباسيين من جمع العلماء وإنشاء معاهد العلم وأحياء الثقافة . ثم إنه بعد ذلك لما فتحت مدينة طليطلة على يد الاسبان وتم إستيلاؤهم على مسجد طليطلة وكانت فيه عشرات الالوف من كتب الفقه والتفسير والحديث والعلم والفلسفة ، عند ذلك اخذوا يدرسون هذه

العلوم . وكان هناك عالم ذكى من علماء الدين هو دون رايغوندو ، اسقف طليطلة ، فانشأ في طليطلة معهد التعليم اللغات الشرقية كالعربية والعبرية ولترجمة كتب العرب . وبدأت مدرسة المترجمين الأسبان من أواخر القرن الثاني عشر الى القرن الخامس عشر . ثم تعددت مراكز الترجمة : في أسبانيا وفي إيطاليا ، في دير مونتي كاسيني ، وبعد ذلك في باريس تم في اكسفورد ، وكان المدير الأول والاستاذ الكبير في جامعة اكسفورد وإسمه روبرت حروسيتست ، كان متخصصا في دراسة علوم الطبيعة وكان يقرأ من كتب العلم الإسلامى بصفة خاصة كتاب « القانون في الطب » لابن سينا « وكتاب المناظر » لابن الهيثم في ترجمتهما اللاتينية ، وكان يعد هذين الكتابين المثل الأعلى في المنهج العلمى وفي المحصول العلمى أيضا .

فالتراث العربى الإسلامى في ميدان العلوم والفلسفة انتقل الى أوروبا مترجماً الى اللغة اللاتينية . أما التراث الاعتقادى فقد عرف لكنه لم يترجم ، لأن علماء العقائد المسيحيين لم يحبوا أن يترجموا الكتب التى تشتمل على العقائد الإسلامية الى اللغة اللاتينية ، لأن هناك نقطا من الاختلاف لا يمكن التوفيق فيها بين الديانتين ، فاكتفوا بأن درسوا تلك الكتب باللغة العربية وأقتبسوا منها ، ثم القوا كتبها في العقائد وعنونوها بعنوان « الآله الواحد » . وعندما ننظر في الكتب التى ظهرت في أوروبا في القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد متعلقة باصول العقائد نجد التبويب والمشكلات موازيا لما في كتب العقائد الإسلامية الا في الأجزاء الأخيرة التى فيها مثالا الكلام عن النبوات وأظهار نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهم أحلوا محلها كلاما في الأمور الاخرية ونصائح وتوجيهات تتعلق بالحياة الفكرية والاتباع لسيدنا عيسى عليه السلام . فاما الأدلة والموضوعات والأبواب المتعلقة — بالله تعالى وأفعاله وصفاته وبالأنسان وحرية الاختيار والخير والشر والتحسين والتقبيح بحسب حكم العقل كما نجاهه عند علماء الكلام الاسلاميين فهو موجود في هذه الكتب ، كما يتمثل في كتابين كبيرين للقديس توما الذى توفي في أواخر القرن الثالث وذهب الى إيطاليا ويرجع يقول : اننى أكتشفت أشياء ، كل علمى الذى وصلت اليه ليس شيئا بالنسبة اليها — فما أكتشف هذا

القديس ؟ كان هناك العلم العربى في جامعة بولونيا وكان في بالرمو بصقلية حيث كان يحيط بملوك النورمانديين علماء من العرب ، وكان ملوك النورمانديين يعرفون العربية ويتخذون ملابس على الطريقة العربية ويتعلمون ويناقشون في مسائل الفكر ، حتى أن ابن سبعين الفيلسوف الصوفي هو الذى اجاب على أسئلة أحد ملوك النورمانديين المتعلقة بالنفس والوجود والأنسان والروح . . . الخ ، وللآن توجد الآثار على ذلك في باليرمو ، وفي مدينة بولونيا بايطاليا مازالت الغرفة التى كان يجلس فيها علماء العرب معروفة ، ولا زالت آثار العلم العربى موجودة في متحف باليرمو ، فهناك الخريطة التى رسمها الشريف الادريسي للعالم على لوحة كبيرة من الفضة مكتوب عليها الأسماء والمسافات كما عملها الشريف الادريسي لأحد ملوك النورمانديين والتى على أساسها أنشئت الخريطة التى تعبر عن المعرفة الجغرافية لذلك العصر .

والمهم أن العلماء والفلاسفة الإسلاميين كانوا في الشرق والغرب ، شأنهم شأن المفكرين الإسلاميين في أصول العقائد وشأن الصوفية ، بل أن التصوف الإسلامى ، كما نجده عند كبار الصوفية في المغرب مثل ابن عباد الرندى وابن الحسن الشاذلى ، كان له تأثيره عند المتصوفين الأوروبيين مثل القديس « سان جان دى لاکرووا » . والدراسات التى قام بها العلماء الأسبان خصوصا من الرهبان ، وأكبرهم المستشرق الكبير « أسين بلاثيوس » تبين ماتقدم وتبين تأثير ابن رشد في القديس توما ، وبينت الدراسات بعد ذلك تأثير آراء ابن سينا في القديس توما نفسه الذى أخذ بيان ابن سينا لمذهب أرسطو ونسق بينه وبين العقيدة المسيحية . وقد كتب بلاثيوس أيضا في بيان تأثير الفكر الإسلامى ، خصوصا آراء الغزالى ، في الفيلسوف الفرنسى « بسكال » ، وذلك في كتاب باللغة الأسبانية عنوانه - الترجمة العربية - هو « السابقات الإسلامية لمراهنة بسكال » ، ولهذا الفيلسوف الفرنسى المشهور ، اعنى بسكال ، دليل أسمه « دليل المراهنة » . وقد وضعه لمناقشة المنكرين بوجود الله ، وهو يبين ماذا يستفيدون لو كان وجود الله حقا وماذا يخسرون ، وهو يثبت لهم أن الاحتياط يقتضى أن يؤمن الإنسان بالله وباليوم الآخر ، لأنه إذا تبين أن الأديان المنزلة

ليست صحيحة ، وكان هناك من ينكر وجود الله وينكر الحياة الآخرة فانه يخسر كل شيء ، هذا هو « دليل المراهنة » الذي اهتم الراهب بلاثيوس ببيان أصوله عند مفكرى الاسلام وأن بسكال عرفه وتأثر به . ولنعرف أن ذلك الراهب ينتمى الى أصل عربى ، وكان من أكبر المستشرقين ، ويكفى أن نعلم أنه كتب كتابا من أربعة مجلدات ضخمة عن ابن حزم الأندلسى ، وتناول بالتحليل كتابه أحياء علوم الغزالي في أربعة مجلدات أيضا ، وكتب عن تأثير الفكر الإسلامى في بسكال وفي القديس توما وفي القديس (سان جان دلاكروا) أو « يوحنا الصليبي » كما يمكن أن يسمى باللغة العربية ، بل في الشاعر الإيطالى دانتي ، في بحث رائع له أثار أعظم الأهتمام .

وكما كان اساتذة العقائد الإسلامية اساتذة شعوب الاسلام في بلادهم كانوا اساتذة أيضا في العالم الغربى في فلسفة العقائد فضلا عن العلم والفلسفة . فاذا جئنا الى العصور الحديثة وجدنا أن كثيرين من رواد الفكر الفلسفى الأوروبى خصوصا في القرنين السابع عشر والثامن عشر قد عرفوا التراث الإسلامى وأستفادوا منه على نحو مباشر أو غير مباشر ، فهم أما أنهم قرءوه في تراهم كما كان الحال عند سبينوزا الفيلسوف الهولندى الذى كان يهوديا ، وكان يدرس التراث الفلسفى اليهودى الذى كتبه مفكرو اليهودوهم في عصر الفكر الإسلامى وفي محيط الثقافة والفكر الفلسفى عند المسلمين والحق أن التفلسف لم يظهر بين علماء اليهود الذين كانوا يعيشون بين المسلمين الا بعد ظهور الفلسفة الإسلامية ، وقد ظهرت كل كتاباتهم الفلسفية الهامة في المحيط الثقافى الإسلامى وكان كل فيلسوف يهودى يسير في اتجاه فيلسوف إسلامى : أحدهم مع الفارابى والآخر مع ابن سينا والثالث مع الغزالي . . . وهكذا ، وكان للتصوف الخاص بهم مزدهرا أيضا في المحيط الثقافى الإسلامى ، لأن هذا التراث كان قويا جدا وكان عامرا وخصبا ومتنوعا لا يمكن أبدا أن يكون أنسان يعيش في هذا التراث ويستطيع أن يتجاهله ، بل لم يكن بد من أن يتغذى به ويقتدى بشئ فيه .

وفي العصور الحديثة نجد مفكرين أوروبيين كثيرين مثل الفيلسوف الفرنسي مالبرانش والفيلسوف الهولندي جويلنكس يتمثلون عناصر فلسفية إسلامية - فيما يتعلق بمسألة العلاقة بين الفعل الانساني والفعل الالهي .

وكل أصحاب الديانة الطبيعية في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر الذين أرادوا التخلص من سلطان الكنسية وأرادوا إنشاء مذاهب عقلية في الدين والأخلاق ذهبوا مذاهب شبيهة بما نجده عند مفكرى الإسلام الأحرار ، مثل مفكرى المعتزلة ، الذين اعتبرهم البعض ممثلي شريعة عقلية .

والفيلسوف ليبنتز الذى يعتبر من أكبر فلاسفة الألمان ومن أكثرهم قراءة وأطلاعاً وأوسعهم علماً بالديانات والمذاهب ، تأثر أيضاً بالفكر الإسلامى . وكنا في بعض الأحيان نقرأ كتبه ونتأمل أفكاره فنندهش كيف يقول هذه الأفكار التى توازى في نظر المتخصص أفكار أهل السنة فيما يتعلق بمشكلة القدر ومشكلة الخير والشر ، الى أن نتبين في سياق كلامه إنه يذكر آراء للإسلاميين مأخوذة من مراجع تضمنت المذاهب الإسلامية ، خصوصاً كتب علماء اليهود مثل الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون . ومما لا شك فيه ان مذهب « المونادولوجيا » ، أو مذهب الجواهر المنفردة ، عند ليبنتز ، يرتبط بمذهب الجواهر الفرد عند الاسلاميين أوثق ارتباط .

وكذلك الفيلسوف الالماني كنت لم يخل من المعرفة بالفكر الإسلامى والتأثر به ، سواء كانت معرفته به قد جاءت من قراءته لآراء مفكرى العصور الوسطى الأوروبية أو من قراءته للترجمة اللاتينية لكتاب « تهافت التهافت » لابن رشد الذى يشتمل على آراء كل من الغزالى وابن رشد في الميثافيزيقا اليونانية التى نقدها الغزالى .

أن التراث الفلسفى الإسلامى شئ رائع حقاً ، وهو جدير بأن تفخر به الأمة العربية الإسلامية ، وهى تكون بارة بنفسها وبتاريخها إذا درستة دراسة واعية ، لا لمجرد أحياء الماضى على سبيل الأفتخار والزهو بما كان للآباء من إجماد ،

وهي نعمة جارية في العالم العربي والإسلامي يل بقصد معرفة تؤدي الى التجديد
والى الترقية سواء في مجال المعارف النظرية أو في مجال المعارف العملية .

وقد عرف الكثير من التراث الفكري الاسلامي ، لكن الكثير منه لا زال
مجهولا ، وهو في جملته لم يدرس بعد دراسة كافية ، وهو حافل بالعناصر الدقيقة
وبإفكار في غاية العمق في جميع فروع المعرفة بالاشياء وبالقيم الكبرى الانسانية.
ولم يصل أى مجتمع في أى امبرطورية عالمية ولا في أى دولة واسعة النطاق الى
المفهوم العالمى للانسانية والى احترامها مهما تنوعت أجناس البشر وأختلفت
الوانهم وتباعدت مذاهبهم كما حصل في الدولة العربية الاسلامية . وهذا ما
يعترف به كل المؤرخين ،

أن كنوز التراث الفلسفي الاسلامي لا تزال موجودة في دور الكتب العالمية ،
وأكثرها موجودة في أوروبا وأمريكا ، في خزائن الكتب في للعواصم الكبرى
للحضارة والثقافية في الغرب والدراسة ، ولا توجد جامعة كبيرة في العالم الاوفيهها
دراسات عربية اسلامية تتناول بالبحث هذا التراث العربي الاسلامي الرائع الذى
نتحدث عنه والذى يهمننا أن يكون موضع عناية وأهتمام الجامعات العربية الحديثة
ممثلة في أبنائها بهمهمهم المتوثبة . أن للتراث الفلسفي الاسلامي ثمرة عبقرية انسانية ،
وهو أيضا ثمرة الاستنارة بمبادئ كبرى في العلم والعمل جاءت من عند الله ، من
فيض علمه الذى لا نهاية له وحكمته المحيطة بكل شئ .

وكل مفكر وباحث يتمنى أن نزداد علما بهذا التراث ونزداد بفضل دراسته
اعترازا بانفسنا على نحو يؤدي بنا الى الابتكار والمساهمة في عصرنا الحاضر ،
عصر النهضة الكبرى .

١ - اعتراف واعتذار

- * أما الاعتراف فهو أنى لست في هذا الميدان من فرسانه ، اذ ليس لى في دراسة التراث العربى والاسلامى الاحظ قليل .
- نشأتى التعليمية كادت تخلو من أصول الفكر العربى ، بحيث ترتبط تلك الأصول بعضها ببعض فى نسق واحد ، فبقيت المعلومات الجزئية التراث متناثرة لا ينبعث منها ضوء كاشف .
- ولكننى كنت فى ميدان التراث قارئاً هاوياً ، ولم أكن فيه قط دارساً محترفاً .

* وأما الاعتذار فهو عما قد اتعز فيه من أخطاء فى الحكم والتقدير ؟

- ٢ — كان لابد لى من اختيار خط معين أربط به الشخصيات التى أجعلها أجعلها ممثلة للفكر الاسلامى ، فماذا عسى أن يكون ؟

* ورد لى خاطرى شيثان ، رأيت انهما قد يرتبطان معا ، فيرسمان لى خط السير ، لكلاهما يحدد مراحل النمو العقلى ، مما قد يصلح أن يكون اساساً لتقسيم تاريخ الفكر الاسلامى الى شئ يقرب من تلك المراحل . .

(أ) أولهما كتاب « أهداف التربية » تأليف « الفرد نورث وايتهيد » وفيه يبحث عن الطريقة التى تنعكس بها مراحل النمو العقلى فى مراحل التعليم :

فأولاً : مرحلة عفوية خلاقه فى تحصيل المعرفة .
وثانياً مرحلة يتم فيها وضع القواعد التى تنظم تلك المعرفة المحصلة .
وثالثاً : الصعود من مجموعة القواعد إلى المبادئ العامة التى تجمعها معا فى بناء فكرى واحد .

بعبارة أخرى :

— مرحلة تسودها فاعلية الخيال

- تليها مرحلة تتحدد فيها الملامح المميزة لما كان الخيال قد كونه
بفاعليته العفوية التلقائية .

- ثم تأتي اخيرا مرحلة يكون فيها التعميم في الحكم والتوسع في مجال
التطبيق .

وهنا نلاحظ أن :

- المرحلة الأولى يكون فيها ادراكنا للأشياء ادراكا بالجملة وعلى شئ
من الابهام .

- والمرحلة الثانية يكون فيها ادراكنا للأشياء ادراكا لتفصيلاتها واجزائها
وما بين تلك التفصيلات والاجزاء من علاقات .

- وفي المرحلة الثالثة نرتفع إلى مبادئ تضم أشتات القوانين في أصول
مشتركة ، فتتوحد المعرفة على اختلاف موضوعاتها في بناء واحد .
وبذلك يتسع الأفق ويتسع بالتالي مجال التطبيق .

* ويمكن التمثيل لهذه المراحل باللغة وكيفية تحصيلنا لها :

- ففي البداية نلقطها لقطا من أفواه المتكلمين .

- ثم نضبط قواعدها .

- واخيرا ندرك أصولها العامة التي يمكن الاستعانة بها في كتابات جديدة
مبتكرة .

* ومعنى ذلك أننا :

أولا : نشاهد الواقع كما يقع وننحصر في حدوده .

وثانيا : ننظر إلى كل واقعة مما يقع من حيث هي حالة مفردة يتمثل فيها
قانون عام .

وثالثا : ندرج القانون العام تحت مبدأ يكون اعم منه ويحتويه مع أشباهه
من سائر القوانين .

(ب) وثانيهما هو تأويل الامام الغزالي لآية النور ، كما ورد في كتابه مشكاة الأنوار تقول الآية الكريمة :

— الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح .

— المصباح في زجاجة

— الزجاج كإنها كوكب دري

يوقد من شجرة مباركة

زيتونة ، لا شرقية ولا غربية

— يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار

نور على نور ، يهدي الله بنوره من يشاء

يفسر الغزالي هذه المراحل بأنها تمثل مراحل الادراك العقلي وكيف يتدرج :

— فالمشكات رمز للحواس ، تتلقى ما يفد اليها من انطباعات العالم المحيط بنا .

— والزجاجة رمز للخيال ، يحفظ ما تورده الحواس ليعرضه على العقل عند الحاجة .

— والمصباح يعنى العقل ، يدرك المعاني التي تتجاوز حدود الحواس والخيال .

— والشجرة هي المبادئ الفكرية العامة ، أعنى أنها هي بمثابة القيم التي نقيس عليها الافكار والأعمال ، ولذلك فهي تؤلف بين العلوم المختلفة في وحدة متصلة الأجزاء .

— وأما الزيت فهو الروح القدس ، اذ هو الالهام ، يختص به الأنبياء والأولياء وفيه تتجلي لوائح الغيب .

- * وبمقارنة هذه المراحل مع المراحل التي ذكرها وايتهد ، نجد :
- المرحلتان الأولى والثانية عند الغزالي في تأويله للآية الكريمة ، تقابلان المرحلة الأولى عند وايتهد .
- المرحلة الثالثة عند الغزالي تقابل المرحلة الثانية عند وايتهد .
- المرحلة الرابعة تقابل الثالثة .
- ثم تأتي عند الغزالي مرحلة خامسة تزيد على مراحل وايتهد .
- * ولو طبقنا هذا المعيار الموحد على تاريخ الفكر بصفة عامة ، نرى أن :
- الخطوة الأولى في تاريخ الحضارة ، وهي التي ظهرت في الشرق القديم ، تتميز بأنها مرحلة جمع للتجارب الأولية .
- ثم جاءت حضارة اليونان ، فاستخدمت الادراك العقلي الخالص في تنسيق تلك التجارب الأولية في بناءات فكرية متكاملة .
- وبعدها جاءت مرحلة الالهام متمثلة في ديانات الشرق الأوسط .
- ٣ — وبتطبيق هذه المراحل التي يتدرج عليها الادراك الانساني ، بتطبيقها على الفكر العربي والاسلامي بصفة خاصة ، نجد أن :
- المرحلة الأولى تتمثل في القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) حيث الفكر عبارة عن ومضات عفوية .
- وتتمثل المرحلة الثانية في القرنين الثامن والتاسع ، حيث سادت التقسيمات العقلية والاستدلالات المنطقية .
- وفي القرن العاشر ارتفع الفكر إلى التعميمات الفلسفية .
- وأما في القرن الحادي عشر ، فقد لحا الانسان إلى الحدس المباشر في ادراكه للحقيقة .
- وما بعد ذلك هو امتدادات للمراحل السالفة ، وتدوينات في المشرق العربي ، ثم تكرار للدورة نفسها في المغرب العربي .

٤ - وعلى ضوء هذا التقسيم سنختار لكل مرحلة رجلا وكتبا يمثلانها :
(أ) في القرن السابع نختار الامام على رجلا ونهج البلاغة كتابا .
(ب) في الثامن والتاسع نختار الجاحظ رجلا والحيوان كتابا .
(ج) وفي العاشر نختار ابا حيان التوحيدي رجلا والامتناع والموانسة كتابا .
(د) ثم في الحادي عشر نختار الغزالي رجلا والمنقذ من الضلال كتابا .
فاذا امتد بنا الحديث ، انتقلنا إلى المغرب في الثاني عشر ، لنختار ابن طفيل وكتابه حي بن يقظان .

٥ - على بن أبى طالب وكتابه نهج البلاغة (جمعه الشريف الرضى سنة ١٠١٥م)
— هنا نجد ومضات فكرية بغير نسق صوري ، فالبناءات النسقية المنطقية لم تظهر الا بعد الترجمة عن اليونان .
وهناك من يرى أن في نهج البلاغة نسقا فلسفيا متكاملا ، وانما يحتاج إلى تحليل لاجراء مثل هذا النسق الكامن في جزئياته .
(راجع كتاب هنرى كوربان « تاريخ الفلسفة الاسلامية » ترجمة نصير ومروة .
— ولقد شملت تأملاته المتناثرة أفكارا من : الله ، العالم ، الانسان ، وهذه هي أهم موضوعات التفكير الفلسفى .
* الله :

— وحدانية مطلقة ، لا نسبية في الزمان أو في المكان يجوز اضافتها اليه .

— يتصف بالثبات وبالدوام ، فلا يعتره تغير ولا زوال :
— خلق الخلق من عدم ، وخلقهم كاملا دفعة واحدة « بلا روية ولا محاولة » .. اذ الروية تستلزم أن يكون لفعل الخلق نقطة معينة يبدأ منها ولا يكون قبلها ، والمحاولة تدل على نقص في العمل يتلوه استكمال النقص .

* العالم :

يسير بمشيئة من الله ، ولما كانت المشيئة هي الارادة ، كانت
الأولية للارادة على غيرها من الصفات .

* الانسان :

— مشدود بين قطبين يجذباناه : لذات الدنيا من جهة
والخير الذى أمر بفعله من جهة أخرى . أى أنه مشدود بين
الغريزة والأخلاق .

— واختيار أحد الطرفين يكون بهداية من الله ، ومن ثم ارسلت
الرسل وأنزل الكتاب .

— فالواقف أمام الانسان هو : أما متعة هنا وعذاب في الآخرة
وأما حرمان هنا ومتعة في الآخرة

ولا مخرج من هذين البديلين ، والرأى عند صاحب نهج البلاغة
هو الاعراض عن الدنيا في سبيل الآخرة .

* هكذا ترى صورة الفكر في نهج البلاغة قد جاءت في وثبات شعورية
مع قلقة في التعليل المجرد ، وفي وقفات عند الخبرة الجزئية المباشرة
دون الرغبة في الايغال في التعميم .

٦ — الجاحظ في كتابه الحيوان

— هنا نقطة تحول من ثقافة محورها الشعر ، الى ثقافة محورها النثر .

ومعنى ذلك أن الخطاب هنا موجه إلى العقل عن طريق الفكرة لا إلى
المشاعر عن طريق العاطفة ، أى أن الخطاب موجه إلى قوة المنطق
الهادئ ، لا الأذن بوساطة النغم الموزون .

ومعنى ذلك أيضا أن الصدارة قد أصبحت لأسلوب المدن ، بعد أن
كانت قبل ذلك لطريقة البداوة .

- فالجاحظ خلاصة عصره بطابعه العقلاني
ففى عصره نشأت مذاهب المعتزلة ، كما كثر علماء النحو واللغة ،
ويكفى أن نذكر أن عصره قد شهد سيويه والخليل .
- * هنالك من يتهم الآثار الفكرية العربية بفقر في الأفكار يغطيه بريق
الألفاظ ، فاذا تصادف أن وردت فكرة غنية ، جاءت تلك الفكرة
في قالب ثقيل معقد .
- كما اتهم الآثار الفكرية العربية كذلك بالانصراف إلى جمع الشواهد
التي تدل على سعة الاطلاع على التراث القديم ، دون أن يكون للمفكر
شخصية ذاتية واضحة المعالم .
- فاذا صدق هذا الاتهام ، كان الجاحظ هو بمثابة افتتاح صفحة
جديدة برئت من تلك العيوب :
- فعند الجاحظ الفكر الفنى الذى لا يحتاج إلى بريق اللفظ ولا يتعرّض
في قيد الأسلوب الثقيل ، وشخصية الجاحظ واضحة المعالم في
كل موضوع كتب فيه —
- يشبهه مستشرق المانى بفولتير في تهكمه
- وهو كاتب « انساني » مع أن النزعة « الانسانية » في الفكر
الأوروبى لم تظهر واضحة الا أبان النهضة في القرن السادس عشر
- للجاحظ منهج موضوعى عقلى ، فتراه يستعرض جميع الآراء
المتضاربة في الموضوع الواحد ، فيعرض الفكرة ونقيضها ،
ويدافع عن كلتا الفكرتين بدرجة واحدة القوة ، وكثيرا ما
رأيناه يكتب في ذم الشئ ومدحه بدرجة واحدة من التحمس ،
وقد يضيف إلى الموقف شخصاً آخر لكي يخلق به طرفا في
المناقشة ، فيعطى نفسه الفرصة التي تتيح له أن يأخذ رأيا يؤيده
ورأيا يعارضه .

- يقوم الجاحظ في منهجه هذا : « ونحن ... إذا استنطقنا الشاهد وأحلنا على المثل ، فالخصومة حينئذ إنما هي بينهم وبينها »
- ومن أطرف الأمثلة التي نذكرها بطريقته في عرض الافكار تلك المناقشة المطولة التي عقدها ليفاضل بين الديك والكلب ، وينسبها إلى شيخين من شيوخ المعتزلة ، فيجعل أحد الشيخين يؤيد الديك والآخر يؤيد الكلب ، والمرجح جدا أن يكون وراء هذه الموازنة العجيبة عوامل خفية لها علاقة بنقد الأوضاع السياسية في عصره ، كما فعل - مثلا - جوناتان سويت في كتابه « رحلات جلفر » عندما أراد أن يتخفى في نقده للسياسة في إنجلترا في عصره .

٧ - أبو حيان التوحيدى في كتابه الامتاع والموانسة

- قيل عن أبى حيان التوحيدى انه « الجاحظ الثانى » .
- فان كان الجاحظ أكثر تشعبا وأكثر انطلاقا ، فالتوحيدى أجزل لفظا وأوسع علما
- سجل الجاحظ ثقافة القرن التاسع الميلادى ، الذى بدأت فيه نشأة العلوم عند العرب ، وسجل أبو حيان القرن العاشر حين نضجت تلك العلوم .
- فأبو حيان يمثل العربى الى اين وصل في تقدمه ، والجاحظ يمثله كيف بدأ .

* إذا استعرضنا الموضوعات التي اثبتت كما وردت في كتاب الامتاع والموانسة ، كنت بذلك استعرض المسائل الفكرية التي شغلت المثقفين في القرن العاشر الميلادى ، وهالك بعض تلك الموضوعات :

متعة الحديث ، رجال العلم في ذلك العصر وتقدير أوزانهم بالنسبة بعضهم إلى بعض ، حاشية الأمير وكيف تحتوى على بعض رجال

السوء ، ابن عباد ، أبو اسحق الصباني ، مفاضلة بين الأمم المختلفة
مقارنة بين علوم الرياضة وعلوم البيان ، مناقشة حول المنطق اليوناني
والنحو العربي ، أخلاق الحيوان وأخلاق الانسان ، حقيقة النفس ،
العقل والحواس ، الجبر والاختيار ، الخ الخ

٨ - الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال

من أهم ما يهمننا في هذا الكتاب بالنسبة لموضوعنا هذا ، هو استعراض
الغزالي لتيارات الفكر في عصره ، لينقدها واحدا واحدا ، ويبين أنها
لا تقنعه ، ليقول في النهاية أن التصرف وطريقته في معرفة الحق هو الوسيلة
التي يؤيدها ، أما التيارات المنقودة فهي : جماعة المتكلمين وطريقتهم في
النظر ، جماعة الفلاسفة ومنهجهم في التأمل ، جماعة الباطنية ومذهبهم في
وجوب قيام أمام معصوم يعلم الناس تأويل القرآن .

وبعد ، فهذه شخصيات أربع حددنا بها مدارج الوعي في التراث العربي
والاسلامي : الامام علي وفطرة البداهة النافذة في « نهج البلاغة » ، والجاحظ
في حدود المنطق العقلي والتصنيف المنطقي في « الحيوان » ، وأبو حيان التوحيدي
في نظراته العامة الشاملة كما نراها في « الامتاع والموانسة » ، والغزالي في اختياره
للحدس الصوفي وسيلة لادراك الحق ، كما يحدثنا في « المنقذ من الضلال » .

أثر العرب في حضارة الغرب والعالم

محاضرة
الاستاذ شاكِر مصطفى

مقدمة :

يروون عن يوليوس قيصر ، زعيم روما العتيق المعروف أنه كان يحتفظ بالكيل الغار لا ينزعه عن رأسه أبداً . في مجلس الشيوخ أو في السوق أو في سهرة الأئس والشراب كان الإكيل دومأ يعلو هامته . وما كان سر الغرام بالإكيل والإفتان بالحصول عليه ولكنه كان في صلته المخيفة : كان يوارى به ذلك الفراغ اللامع أمام الناس .

وأخشى أن يكون هذا الحديث في موضوعه عن فضل العرب على الحضارة الأوروبية والعالمية نوعاً من المداراة لصلعة قيصر . هرباً إلى الماضي من هزائم الحاضر المرعب . بعض النساء كذلك إذا قيل لهن لقد تجعد الوجه يا خالة واشتعل الرأس شيباً كثر حديثهن عن الفتنة التي أوقعت آلاف الرجال في غرامهن . . . وجئن بصورهن أيام الصبا الريان . منذ سنوات كتبت مستشرقاً المانية كتاباً في هذا الموضوع فما كان أسرع ما ترجم مرتين في القاهرة وبירות في وقت واحد . . . كنا نتنصر بكلام هذه المستشرقة في عملية تعويض طفولية على عقدة الحاضر الغبي على التخلف المهزوم . على النفس المزعزعة الثقة . إن التباهي بالأمس لن يكون أقل اضحاًكا وكاريكاتورية من منظر بعض نبلاء الأسباب الذين يحكون أن الثورة سلبتهم ألقابهم وثرواتهم ومكانتهم ولكنهم كانوا يصرون على السير حتى بالملابس المهترئة بلى ولكن مع السيف المدلى على الخصر :

وأنا من طبعي مع الغد لا مع الأمس . أعيش مع ما سوف تبني أمتي لا مع ما قد بنت ، التاريخ عندي ضوء على الدرب صيرورة حية . رصيده لا هو كهف الذكريات الدافئة ولا الملجأ من الصقيع . . .

قصة الحضارة في حوض البحر المتوسط الشرقي :

فإن تحول حديثي اليوم من قصيدة مديح على قافية : كنا وكنا . . . إلى قصة عادية من قصص الدنيا . وإن اختفت منه الحشرات والندب وطيوف التباهي وهز الأعطاف إلى الموضوعية الباردة فلأني لن أقوم بأكثر من الكشف على الرصيد القديم في إطاره التاريخي القديم . إن القصة لا تفهم ، في الواقع ، إلا

ضمن الإطار . . . فلنبداً القصة إذن من أولها . . . الزمان هو القرن السابع الميلادى والمكان حوض البحر المتوسط الشرقي . . . وكان ما كان مما تعرفون من الفتح الإسلامى وأجداد القادسية واليرموك وناهوند ثم فتوح عقبة وطارق ومحمد بن القاسم الثقفى . . المعجزة العربية الإسلامية كانت في حساب الأحداث أغرب الضربات المسرحية الخارقة في التاريخ مفاجأتها .. سرعتها الخاطفة . سعتها في المدى الجغرافى . عمق آثارها كل أولئك لا تذكر الدنيا أنها عرفتة إلا مرة واحدة من قبل ، عهد الإسكندر المقدونى . هذا الفاتح أيضا غير وجه العالم المسكون المتحضر في ست سنوات : ولكن إمبراطورية الإسكندر انحلت بعد موته إلى ثلاث دول هلينية ثم أربع . . . أما الفتح الإسلامى فأنشأ من منطقة الحضارات القديمة كلها ما بين الهند وإبيريا وإمبراطورية واحدة لم يخرج عن نطاقها سوى قسم محدود من أرض البلقان وآسيا الصغرى قامت عليه بئر نطة .

من زاوية التاريخ العالمى : هذا الفتح أدخل تغيرات جذرية في صميم التكوين التاريخى الحضارى للمنطقة كلها .

كان البحر الأبيض المتوسط وهو بحر الحضارات القديمة قد تحول منذ قرون سبعة إن لم يكن عشرة قبل الإسلام بحيرة غربية ، الرومان بعد الإسكندر والإغريق ربطوه بروما . طوقوه كله بفروعه وجروه وراء عجلاتهم في مواكب الظفر بروما ، أما محاولات الفرس للنفوذ اليه ففشلت كلها . . فلما جاء العرب المسلمون لم يلبثوا فقط الإمبراطورية الفارسية ولكن الغوا الصبغة الغربية الخالصة عنه . قسموه قسمين بينهم وبين الغرب وبعد أن كان بحيرة ضمن عالم حضارى واحد غربى مسيحى متواصل الشائخ أضحى فاصلا بين عالمين : عالم مسيحى غربى في الشمال ما بين فرنسا وإيطاليا والبلقان وتركيا وعالم مسلم ما بين الشام ومصر وشمال أفريقيا وإسبانيا . .

أوروبا ردت بهذا الشكل إلى الوراء كثيراً لأن المراكز التقليدية للحضارة ولأن طرق القوافل والبحار للتجارة أضحت الآن بيد العرب المسلمين . ولما كانت أوروبا قد أهلت من قبل طبقة بدائية من السكان هم الجرمن قبل ثلاثة قرون فقط من الإسلام فقد كان عزل أوروبا يعنى خاصة عزل هؤلاء ممن

نسيمهم الفرنج والالومان والقوط والذين تمركزوا في غرب أوروبا .
وقد انتقل معهم مركز الثقل الديمقراطي والسياسي والاقتصادي الى هناك . .

وأما من زاوية التاريخ الحضارى فقد كان البحر الأبيض المتوسط قد فقد حيويته الحضارية قبل الإسلام بعدة قرون كان الإبداع قد خبا فيه . حضاراته القديمة كانت بدأت تجتر قيّمها التقليدية . وقد ظهر ذلك جلياً في تلك المحاولات التي حاولتها عن طريق المجامع المسكونية المتكررة لإعطاء العقيدة المسيحية شكلها النهائي دون طائل ، لكن ظهور العرب المسلمين الضخم غير المنتظر على مسرح البحر المتوسط أنقذ حضاراته من مصير متحجر كان ممكناً أن يكون من مصير حضارات المايا والأنكاس أو بعض حضارات الهند . الفتح الإسلامي أعطى تلك البقاع التي انساح عليها روحاً جديدة ديناميكية ، حارة ، واعطاها خاصة ما سوف يكون قوامها الثقافي المقبل : الدين الإسلامي ولحد ما اللغة العربية ولكنه أبقى عليها في الوقت نفسه طابعها الشرقي القديم والجذور الثقافية الهامة التي طالما اينعت فيها التقاء الأسلام كعقيدة دينية عالمية أصيلة مع التراث العربي الإيراني العريق رد إلى الشرق الأدنى خاصة شخصيته الذاتية ودوره الذي طالما لعبه في التاريخ . أوجد الحضارة العربية الإسلامية التي كانت آخر حلقة من الحلقات في حضارات البحر الأبيض المتوسط قبل أن يتسع العالم اتساعه الكوني ذى ال ٥٠٠ بعد الذي نشهد اليوم :

هل كان هذا يعني أن هذه الحضارة قد نصبت نفسها ضد العالم المسيحي ؟
إن فهم الأمر بهذا الشكل المبسط قد وרט الكثيرين في الخطأ . (كروبر) في كتابه طبيعة الثقافة بتهم الإسلام بأنه ضد الثقافة وضد المسيحية وضد الفن وضد الفلسفة الهلينية لأنه صحراوى نشأ في منطقة أضحت مواتاً من الناحية الثقافية وينسى أن مناطق الحضارة الإسلامية سواء في إيران والعراق والشام أو في مصر والمغرب والأندلس كان قوام الحضارات والإمبراطوريات بغناها المادى والثقافى . . .

ما كان الاسلام ضد المسيحية ولكن المسيحية الغربية هي التي كان ضده . . .
اعتبرته غاصباً لأرضها ولأبنائها وربطته بالشيطان . فصورة الرسول العربي كانت
في أذهان الغرب - وما تزال في بعض الزوايا - صنماً معلقاً في الهواء لعبادة
الشيطان ، مسيحيو الشرق ما شعروا بمثل هذا الموقف الحقدي . أما الغرب
فأعتبر - وما يزال يعتبر - معركة بواتيه سنة ٧٣٢ بين شارل مارتل والغافقي
إنقاذاً للمسيحية وأوروبا من العرب المسلمين فهل كانت هذه النظرة التي ما تزال
تملأ الكتب المدرسية الأوروبية صحيحة ؟ .

الواقع أن مثل اسبانيا وحده يكفي لتكذيب هذه النظرة . لقد حولها الحكم
الاسلامي خلال مائتي عام من بلد فقير بدائي الحضارة الى أرقى بلد في أوروبا ثم
جعلها مركز الحضارة والفن والعلم لتلك القارة خمسمائة عام بعد ذلك دون أن
يسحق مسيحيتها !

مارتل ، وهنا نقطة التناقض ، انما دافع في بواتيه عن التعصب المسيحي الغربي
ضد الاسلام عن (بدائية) أوروبا ضد الحضارة . أضاع فرصتها الذهبية لتبدأ
المسيرة الحضارية قبل ثمانمائة عام مما فعلت . أوروبا نفسها كانت تدعو مارتل
(لص الكنائس) لما سرق من ممتلكات الاديرة ولما منح من أراضيها لفرسانه
الاقطاعيين فبقى قبره مهجوراً « كقطعة فحم » ! ولكن مارتل كان يمثل العزلة
الأوروبية ضد التفتح . كانت أوروبا ، بحصيلتها الحضارية الهزيلة قد انكمشت
على ذاتها نتيجة ثلاثة عوامل .

الأول : فهمها الخاص للعقيدة المسيحية الذي تمثل في الكاثوليكية البابوية . وقد
جعلت من الرهبنة قلعتها الروحية فيكاد لا يوجد بيت غربي ليس فيه
راهب . أحد الآباء ، الأب هيرونيموس أعلن أن الفكر الاغريقي
الحر لعنة على البشرية . أما استخدام العقل للبحث فهو اساءة استعمال
للقوى التي وهبها الله إياها . الأب لاكتانتيوس يقول : « لو كان
الوصول للحقيقة ممكناً عن طريق البحث والدراسة لوصل الناس منذ
زمن بعيد . وما داموا لم يصلوا رغم الجهد فهذا يعني أن الحكمة الإلهية

احتفظت لنفسها بالحقيقة واعطت منها ما في الكتاب المقدس . فطريق
الانسان إذن واضح المعالم . . . »

الثاني : الفقر الإقتصادي فقد كان سكان أوروبا يتكاثرون وكانت الغزوات
والحروب الداخلية تسحق ثرواتهم المحدودة بينما كان معظم الأرض
غايا ويتحول ببطء الى مناطق رعى وزراعة .

ولم يكن للاوروبيين صناعات راقية وقد ماتت التجارة بعد انقطاعهم
عن مصبات التجارة في البحر المتوسط وسقوطها بيد العرب ، ولم يكن
للغرب من منفذ تجاري آخر على العالم . بينما كان التاجر الاسلامي
يملك مع المتوسط ينابيع التجارة على المحيط الهندي كله سواء على
الشواطئ الشرقية لافريقيا أو على اطراف القارة الهندية بل شقوا
طريقهم عبر ممر سنغافوره الى اندونيسيا ثم الفلبين بل الى الصين براً
وبحراً ! وقد زاد في عزلة أوروبا دون شك ان شرقها كان مغلقاً
أيضاً ، ففي الجنوب الشرقي بيرنطة الروم التي لا تقل عداوتهم لها عن
عداوتهم للإسلام . وفي الشرق مملكة الخزر التي كانت اكثر وعياً
من أن تفتح لهم السبيل لكسر احتكاراتها للتجارة البرية مع آسيا
البعيدة عبر السهوب ! . .

الثالث : الهجمات الغازية ليس فقط من العرب الذين احتفظوا بديناميتهم
الفاخرة قرناً كاملاً متصلاً وغزوا أوروبا من الجنوب حتى فرنسا ولكن
كذلك من بعض الشعوب المغولية الاصل كالافار والمجيار والشعوب
السلافية في الشرق واخيراً من شعوب الفايكنغ (ومنهم النورماند
وانجل والسكسون) الذين جاؤوا من الشمال ونفذوا كالسهام الحادة
بقواربهم الرفيعة الطويلة في كل الانهر . . .

كانت النتيجة فيما يتعلق بالعلاقة مع العرب المسلمين أن الغرب كان
يصدق الشائعة المستقرة من أنه ليس في امكان أحد السفر الى مصر
والشام بلاد الشيطان ! وعزلت أوروبا بالتعصب الديني الأعمى عن

التيار الحضارى العالمى ومن عجيب التناقض ان الاسلام والجهاد فيه
فريضة — كان متسامحاً رحب الافق وان المسيحية التى تقوم على
التسامح والسلام والمحبة كانت بالعكس هجومية متعصبة حاقدة
كالقط الوحشى الشرس . في القرن الثانى عشر مثلاً :

زار راهب مدينة بيرّا الايطالية ثم ذكر منزعجاً كيف كانت المدينة
تموج بعدد ضخم من الكفرة الاثراك والليبيين والفرس والعرب
القتلرين وكيف انهم يعطون المدينة وجهاً قبيحاً هجياً . . .

ولقد اضطر رئيس الطائفة الدومينيكانية اوردانوس نيموراريوس
للحصول على إذن خاص من البابا ليتمكن من متابعة الدراسة لكتب
أولاد موسى بن شاكر في الرياضيات والفلك وعلم الحيل . . . كانت
الرهينة كلها قد ضجت منه ! بينما صدر سنة ١٢٢٨ قرار تحريم
الاتصال بالوثنيين المسلمين ؟ !

ماذا كانت النتيجة :

كانت النتيجة صور من الحياة والفكر في اوربا لا تنكشف ابعادها إلا أن
تميز بأصدادها في الشرق الاسلامى . . . أحدثكم ببعض هذه الصور ؟

لعله ليس من الطريف كثيراً أن نرى المرافى الاوروبية مقفرة في القرن التاسع
الميلادى والمستودعات فارغة وحساء الملفوف دون بهار . . . وأن يدفع الفلاح
حسابه لأخيه عيناً من البقر والحبوب لأن الذهب قد عدم وندرت الفضة . وان
يجرى القداس في الكنيسة دون بخور ولا قناديل زيت لأنه لا بخور ولا زيت . .
ولكن صوراً أخرى قد تكون أكثر ضوءاً وأثارة ودعونا نتخير لها سنة ١٠٠٠
زمناً . . . في سنة ١٠٠٠ كانت اوربا جميعاً مقطوعة الانفاس من الملح كانت
تعتقد انها سنة القيامة . تعاظمت الصدقات وضاعت الاديرة والكنائس بالمصلين
والتائبين ، وبينما كان الامبراطور اوتو الثالث وهو في العشرين من عمره يقضى
يومذاك عدة اسابيع يمشى حافياً الى الحج بين روما وجبل جرجانوس بناء على
اوامر القديس رومولادوس . . . لأن المسيح سوف يأتى ليقصص من الناس كان

على بعد خمسة آلاف ميل منه في خراسان ، ابن سينا بدوره في العشرين من عمره ولكنه يومذاك حسب كلماته كان قد فرغ من العلوم كلها لم يتجدد له بعدها شئ وكان البيروني يعلن النظرية التي قال بها كوبرنيك من بعد : ان الارض تدور حول الشمس وليس العكس . وكان الحسن بن الهيثم يكتب للناس قوانين الضوء ويجري التجارب على المرايا والعدسات المخروطية والكروية والاسطوانية وعلى آلة التصوير . . .

في سنة ١٠٠٠ كانت هيئة الدومينكان في اوربا اصدرت قرارها الذي يحرم على الاعضاء دراسة الفلاسفة او تعاطى الفنون والعلوم بينما كان ابن النديم ينشر في بغداد كتاب الفهرس يجمع به اسماء خمسة آلاف مجلد مما الف العرب المسلمون في الفلسفة والفلك والطب والرياضيات والفيزياء والكيمياء والتاريخ والادب والدين . في سنة ١٠٠٠ كان محرماً على المسيحي الغربي مس الجسد ، بمشروط او دراسة تركيب العظم والاعضاء انها من صنع الله ولا عدوان على صنع الله . ولكن أبا القاسم الزهراوى كان ينشر تلك السنة كتابه الذي ظل انجيل الجراحة والجراحين عدة قرون وكانت آخر طبعاته سنة ١٧٧٨ في اكسفورد قبل عشر سنوات من الثورة الفرنسية .

في سنة ١٠٠٠ حين سمع بابا روما بمكتبة القصر الفاطمي في القاهرة التي تعد ألف ألف ومائتي الف مجلد قال : « الحقيقة التي لا تنكر هي أنه ليس في روما من تمكنه ثقافته من أن يكون حارساً لتلك المكتبة . . . في تلك السنة كان الحكم الثانى قبل وفاته بأربع وعشرين سنة فد جمع مكتبة تضم ٥٠٠ الف مجلد وكان قد علق على هوامش الكثير من هذه الكتب وبعد خمسة قرون من ذلك كانت مكتبة كلية الطب في جامعة باريس تتكون من كتاب واحد فقط هو كتاب (الحاوى) لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى وكان مقيداً بسلسلة ضخمة لئلا يسرق فلما اراد الملك لويس الحادى عشر استعارته ليستعين به طبيبه على مداواته دفع تأميناً بمعدل مائة دينار ذهبي و ١٢ وزنة فضة ! . . . قبل سنة الف بقرنين كان شارلمان امبراطور اوروبا العظيم سنة ٨٠٠ يحاول على الكهولة تعلم مبادئ

الهجاء عبثاً بينما كان المأمون في بغداد يعج بلاطه بكبار العلماء والفلاسفة، يناقشون الخليفة في اسمى حدود الفكر ! . . . وفي سنة الف يينا كان نبلاء اوروبا يتحايلون على التهرب من هذا الفن العسير فن القراءة والكتابة كان وجهاء العالم الاسلامي هم ادباؤه الخالدون وكان يجيد الشعر والفتة والحديث النبوي حتى الجوارى والاطفال . . . في دكان نساخ واحد في قرطبة كان هناك ١٧٠ جارية تعمل بالنسخ . مكتبة بنى عمار في طرابلس كان فيها ثمانون ناسخاً يعملون ليل نهار على اغناء المكتبة . . . وبعد سنة الف بثلاثمائة سنة لم يكن دير القديس غالان قد عرف بعد من عمره الذي امتد قروناً راهباً واحداً يقرأ ويكتب بينما كانت حلقات التدريس في جوامع العالم الاسلامي يؤمها حتى الاطفال من عمر سنتين . . . وحوالي سنة الف حدث أن فانت بعض المسؤولين عن مراقبة الهلال في روما فرصة تحديد ظهوره وضاع الحساب فوق الأب الأقدس في حيرة من أمره وأرسل مضطراً بعثة الى اسبانيا تسأل العرب أولاد الشيطان هؤلاء عن موعد الجمعة الخزينة وعيد الفصح المجيد . لم يكن في الناس حوله فلكي واحد يستطيع حسابان ذلك ! . . وفي سنة الف كذلك كانت قرطبة تضم مائتي الف منزل بها مليون نسمة ويستطيع أهلها السير في شوارعها بعد الغروب على ضوء المصاييح العامة وكانت بغداد تضم أكثر من مليونين وتشع أماسيها بالأنوار وكان الحاكم بأمر الله يحول ليل القاهرة نهاراً بالمصاييح ليعمل به الناس . . . بينما ظلت لندن سبعة قرون بعد ذلك ليس في طرقها الضيقة الموحلة مصباح واحد يضيء الليل !

وفي ذلك القرن زار الرحالة الطرطوشي بلاد الفرنج وهو المسلم الذي يتوضأ خمس مرات في اليوم فدهش للقذارة التي يراها ، في الناس . كان لا يستحم احدهم الا مرة او مرتين في السنة ، وبالماء البارد . ولا تغسل الملابس لئلا تتمزق ! في احدى القصص عن ذلك العصر تباهى حبيبة حبيها انها استحمت في السنة الماضية ؟ كانت القذارة قد اخذت لديهم الشكل الديني ومقابل (النظافة من الايمان) الاسلامية كانت الكنيسة تعلمهم ان العناية بالجسد خطيئة . فالروح أجدر أن يعنى بها اما الجسد فيجب اهانتة وتعذيبه واهماله وتجريد الجسد بثير

الغرائز الجسدية فالتقذارة مظهر العفاف والتقوى ! هذا بينما كانت حمامات قرطبة وبغداد ودمشق تعد بالآلاف يومذاك .

حتى المرأة الغربية كانت نوعاً من السائمة ولما كانت سبب السقوط من الجنة فهي اذن وسيلة الشيطان للتكيد بالرجل وابعاده عن الصراط المستقيم وفي ذلك الوقت كانت تلمع في الشرق اسماء رابعة العدوية وشهده ولادة وشجرة الدر .

وصور اخرى من الصور :

في القرن الرابع عشر اصدر الامبراطور مكسيميليان امراً عالياً بأن الجدرى وسيلة من وسائل الله لتهديب البشر وعن طريقه نعرف مدى عذاب الله . . ومن لا يؤمنون بهذا كفار ! . . وقبل ذلك بقرنين كان ابن رشد يعلن ان التلقيح ضد الجدرى الاسود يمنح الجسم الحصانة مدى الحياة واجرى التلقيح فيما بين الابهام والمعصم ! . .

وفي سنة ١٣٤٨ هاجم الطاعون اوروبا . ذهب بالآلاف فالعيون الصفراء هي رصد الموت بكل زاوية . . واتهم الهاربون من الموت اليهود باثارة ذلك الوباء فأحرقوهم واتهموا الانكليز وعلمه آخرون بالدخان السماوى الخانق او بالزلازل . . اما الطبيب البلجيكي سيمون دى كوفينو فعلمه باقتران المشتري وزحل والمريخ في ٢٠ مارس من تلك السنة وبالضبط تمام الساعة الواحدة مساء وعلى درجة ١٤ من برج الدلو . . . واما استاذ الطب في جامعة مونبلييه فأعلن ان السبب في تفشى الوباء هو نظرات المريض ونصح بأن يطالب المريض باغماض عينيه او تغطية وجهه بملاءة من الكتان ! . .

واحد فقط في تلك السنة طلع على العالم المعذب بالسبب الحقيقى هو السياسى المؤرخ الطبيب الاندلسى ابو عبدالله محمد ابن الخطيب . نشر رسالة في الطاعون وأسبابه وعلاجه والوقاية منه . . . لأنه ينتشر بالعدوى ونصح بعدم لمس المريض او الاختلاط به او القرب من برازه او ملابسه أو أوانيهِ . . . ونصح باعلان الحجر الصحى على كل قادم غريب الى بلد غير موبوء ! . . كل الطب في اوروبا

كان علماً مشبوهاً وكيف يعتمد الانسان في مرضه على انسان آخر و—ترك
الاعتماد على الله وعلى يسوع المسيح؟ ويهتم بالجسد مستخدماً الوسائل الارضية
والروح اولى بالعناية وبالوسائل السماوية؟

ولندع هاهنا لقصص اخيرة أن تكمل الصورة . كاتب احداها هو اسامة
بن منقذ وزمانها القرن الثاني عشر ، أما المكان ففي المنطقة المحتلة من قبل
الصليبيين في الشام . قال « من عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة (وهى قرب
أفقه عند نبع ابراهيم من لبنان) كتب إلى عمى (وعمه هو أمير شيرز) يطلب
منه انقاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه فأرسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له
ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ،
قال : احضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دمل وامرأة قد لحقها نشاف
فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت وحميت المرأة ورطبت مزاجها
... فجاءهم طبيب فرنجى فقال لهم : هذا ما يعرف شيئاً يداويهم . وقال
للفارس : ايما أحب اليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال :
أعيش برجل واحدة قال احضروا لى فارساً قوياً وفأساً قاطعة . فحضر الفارس
والفأس وانا حاضر فحط على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله بالفأس
ضربة واحدة اقطعها . فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت فضربه ضربة
ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال : هذه امرأة فى
رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم
الثوم والخردل فزاد بها النشاف فقال : الشيطان قد دخل في رأسها . فأخذ
الموس وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح
فماتت من وقتها فقلت ما بى لكم إلى حاجة فقالوا لا . فجئت ... وقد تعلمت
من طبهم ما لم أكن أعرف ... »

وقصة اخرى عن مرافق للقيصر هيرنج السادس ، كان قصيراً كثير الشحم
وقد قرر القيصر السفر إلى خطيبته في ايطاليا فخاف المرافق من الرحلة ومن
حرارة ايطاليا على شحمه . فاستشار طبيباً في ذلك بقر بطنه واستخرج منه
الشحم ... والروح معاً ! .. وإذا كانت العدالة التى يسهر عليها الاله تقضى

عندهم بغطس يد المتهم بالزيت المغلى فان احترقت كان مذنباً والا كان بريئاً
فقد حفظ لنا اسامة صورة اخرى لهذه العدالة « الالهية » التى لا يكشفها إلا الله
قال في محاكمة حضرها لدى الافرنج بفلسطين « جلسوا بتيه (حلة) عظيمة
ومأواها ماء وعرضوا عليها دف خشب وكتفوا ذلك المتهم وربطوا في كتافه
حبلا ورموه في البتيه فان كان بريثا غاص في الماء فرفعوه بذلك الحبلا لا يموت
في الماء وان كان له الذنب ما يغوص في الماء فحرص ذلك الرجل لما رموه في
الماء أن يغوص فما قدر فوجب عليه حكمهم لعنهم الله فكملوه . . (أى سملوا
عينيه) ! ! . . على بعد أميال من هذا النوع من القضاء والعدل كان يقوم
عدل آخر اسلامى أساسه البينة ، والحدود ، والحقوق والشهود العدول وفقه
يملاً عشرات الالوف من المجلدات !

بعد سنة ألف . . . هذه الصور كلها اهترت . القرون التالية أتت بتوازنات
عالمية جديدة الحروب والتجارة فتحت الكوى المغلقة بين الشرق الاسلامى
والغرب المسيحى . أذابت الجليد الحقدى طبقة طبقة - الحروب الصليبية ذهبت
إلى الشرق بالمحاربين وعادت من هناك بالاسلاب الحضارية من كل لون .
لقاء الغرب بالمسلمين في الشرق كما في صقلية واسبانيا كان اللقاء العنيف الدموى
الطويل ولأنه كان العنيف الدموى الطويل ما كان شراً كله . جوانبه السلبية ،
كانت تحتضن معها جوانب الايجاب . السيوف نفسها التى كانت تحارب كانت
تندى ، تبرعم بالثمار ،

« وبنيت في أطرافها الورق الخضر ! »

— مدن ايطاليا التجارية : بيزا . البندقية . جنوا . نابولى تحولت مراكز
للتبادل الاقتصادى لا أكثر حيوية ولا أغنى ذهباً . . . أساطيلها الجوارى فى
البحر كالأعلام احتكرت تجارة الشرق كما غلغلت في حوض الرين والشمال
الاوربى توزع التوابل والقطن والحرير والعطر والبخور والورق وما غلا من
نادر السلع وتلملم الخشب والسلاح والفراء وتسوقه إلى الجنوب الدافئ .

البندقية بالذات هي التي حطمت الستار الحديدي الاوروني وفتحت فيه الثغرات والكوى للشمس والفكر الطلق . نصبت الجسر المفقود أول من نصب بين العالمين المتقاطعين عبر المتوسط

— وبين الحرب والتجارة بدأت بعض الطلائع البعيدة النظر تتكون في الغرب المسيحي ، منهم رهبان . منهم باباوات . منهم تجار ومنهم ملوك ومنهم العبيد الارقاء أيضا والمغنون المرتزقون . . . ولكن الجميع كانوا قد تجاوزوا عصرهم إلى عصر آخر يمهدون له .

من هؤلاء الرواد البابا الذي كان سنة ١٠٠٠ قد تسلم عرش بطرس منذ سنة واحدة فقط البابا سلفستر الثاني ، هو تلميذ العرب وقد بلغ من التنور والتفتح الفكري الحد الذي جعل معاصريه يكرهونه بقدر ما يحترمونه . ولقد آهموه — وهو الوليد اللقيط — انه ساحر رهيب وانه ابن بعض العرب . لقد كان أول من أدخل الأعداد التي نعرف إلى اوروبا .

ومن هؤلاء الرواد الملك فريدرىك الثاني أول ملك عصرى على عرش في اوروبا » ، عهده كان العهد الذهبي للقاء المنتج بين اوروبا المسيحية والشرق المسلم في صقلية . وما قولكم بملك غربي من القرن الثاني عشر يجر وراءه أنى انتقل أحمال الكتب على الجمال ؟ من ذا الذى علمه ذلك ؟ ومثل فردريك كان جده روجمر صاحب الادريسي من ذلك الشعب النورماندى الذى وهب الكثير من حيويته وفتحه لاوروبا وحارب في اسبانيا وصقلية كما حارب في انطاكية وانكلترا وآسيا الصغرى والبلقان وفرنسا وكان دوماً مع الحركة نحو الغد . . . من القوط في اسبانيا لم يظهر مثل فريدرىك أو روجر سوى الفونسو الحكيم . . . ومن هؤلاء الرواد ميغل ترفيدار ولو أنه متأخر قليلاً — الذى انتقد ولما يزل في الخامسة والعشرين مذهب التثليث وترجم الطب العربى وهرب وتنكر وانتهى فريسة للبراغيث والتعذيب في سن جنيف ليس عليه في ثلجها المحرق سوى قميص واحد ممزق . . .

ومن هؤلاء الرواد مجموعة المترجمين التي اوقدت المصباح الاولى في القارة ..
 بزيت عربي ! نعرف منها ما سمي بمدرسة المترجمين في طليطلة وعلى رأسها
 الشماس (دومنغو غونزالف) التي ترجم الى اللاتينية الفارابي وابن سينا والغزالي
 وابن بيروت الاندلسي . وهناك زميله في الترجمة خوان بن داوود ويوحنا
 الاسباني مترجم الخوازمي الفرنسي واديلارباث ... مترجم الخوارزمي
 أيضاً ، والاماني هرمانوس مترجم ابن رشد والايطالي جيراردودي كريمونا
 الذي ترجم ٧٠ كتابا في الطب والفلك والرياضيات وميخائيل سكوت وماركوس
 الشماس واللومباردي اسطفان الطيب ، ومن هؤلاء الرواد أيضاً وأيضاً
 العلماء الغربيون الاوائل وكلهم تلاميذ الكتب العربية والحرف العربي في العلوم
 ومنهم الفرنسي فنسانت دي بوفيه (المتوفي سنة ١٢٦٤) والاسبانيان ويموندوس
 لولوس (١٣١٦) وأرنولد (١٣١٢) والاماني البرت فون بولشتاد (١٢٨٠)
 وتقلب في الدين قبل أن ينتهي به المطاف مؤلفا في الطب باللاتينية ! ثم
 تبين بعد ٤٠ سنة أن الرجل مزيف وانه لم يفعل سوى أن ترجم بعض كتب
 الطب عن العربية !

ومن الرواد التاجر ليوناردو فون بيرنا الذي علم أوروبا كيف تعد وتكتب
 الارقام العربية . ومنهم البحار ماويكورث الصليبي الذي نقل اليهم البوصلة ...
 موكب طويل ذلك الموكب يظهر فيه اسم تيموברהه الفلكي وبوكاشيو
 القصاص ودانته الشاعر ودافنشي الموسوعي فما منهم الا وقد أخذ عن العرب
 شيئا ... مع كل شراع قادم من الشرق كان ينزل الشاطئ الأوروبي شئ جديد
 ومع كل عقل كانت تنتقب كوه على الشرق في الجلد الازرق العثم الذي يلف
 القارة ... مراكز الاتصال كانت كثيرة لكن أكثرها فعالية ونشاطا ثلاثة ،
 مركز في طليطلة الاندلس والثاني في بالرمو من صقلية والآخر في الشام . كانت
 هذه هي نقاط الاحتكاك الحربي وهي محطات الارسال الحضاري في وقت معاً ،
 اثنان في الأض الأوروبية ذاتها كان العرب هم الذين ذهبوا اليهما والثالث في
 أرض الاسلام كان الغرب هو الذي جاء اليه .. وإذا ظن رئيس اساقفة اسبانيا
 في نهاية القرن الخامس عشر (أكزيمينيس) انه ينصب المحرقة في الساحة العامة

لثمانين الف كتاب من كتب العرب بعد اخراجهم النهائي من اسبانيا قد استطاع ان يطرد ظل اولاد الشيطان من ارض اوروبا فقد كان قصير النظر بحيث لم ير ان خمسة قرون من التأثير المتواصل قد جعلهم يتسللون إلى النخاع الشوكي من الفكر الأوروبي وان ليس إلى طردهم من سبيل !! كان الفتح الاسلامي الفكري قد تم في الواقع ، بالرغم من بواتيه ، من شارل مارتل . وان يكن بدون العقيدة الاسلامية .. وفيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر كانت مياه كثيرة قد مرت من تحت الكرادلة في الرين والسين والدانوب والتايمز والتير ... وفي نهاية الفترة كان حتى رهبان الفريير والفرنسيسكان واستقف باريس قد تحللوا من السياسة المترومته لأسلافهم الأولين . فماذا اخذ الغرب من الحضارة الاسلامية في هذه القرون ؟ اسمحوالى هنا أن أسجل ملاحظات ثلاثا :

الاولى : ان دياالكيكية التواؤم ما بين العداء المتبادل مع العطاء الايجابي هى دياالكتيكية التاريخ والتناقضات هى التى تخلق الحركة دوما وتبعث كتحد التطور إلى اعلى والتغيرات الكمية البطيئة هى التى تسبب القفزات التى تتغير معها النوعيات ... والأخذ الحضارى والعطاء يقومان خلال التنافر قيامهما خلال التقارب ليس في هذا جديد واخذ اوروبا عن العرب في تلك الفترة من الدهر كان حدثا طبيعيا لا مجال للعجب منه ورقبها عن طريق تأثيراته الذاتية امر عادى لا موجب للفخر به !

الثانية : اننا في استعراضنا لتلك المؤتمرات قد نقع على امور نحسبها تافهه لا وزن لها ... ونود هنا أن نلاحظ أن هذا العصر الصاروخى القمري ومعطيات الذرة ومنجزات الالكترتون قد وسعت من مفاهيمنا للقيم العلمية حتى لتبدو مبتكرات الامس القريب في العلم لعب اطفال ... ومع ذلك فاذا كنا نتنفس من الهواء بغير كد الافكار التى ماتت من اجلها النفوس العظيمة فان هذا لا يبلغى مكانها . اليس في عود الكبريت التافه اكثر من ثلاثين الف سنة من الجهد الانساني؟ وفي ابتكار الحرف الذى نعلمه للاطفال من الثورة الفكرية مالا يدانيه كشف الذرة ؟

وإذا كان تأثر الحضارات ببعضها بعض مسلمة تاريخية معروفة ،
وكانت قيمة التأثيرات انما تحسب على اساس عصرها ودورها في البناء
الحضارى فالملاحظة :

الثالثة : هى ان لكل حضارة روحها الذاتية وخصائصها ومداهها في الاقتباس
والأخذ . لا تأخذ حضارة من اخرى في العادة كل ما فيها ولا أحسن
ما فيها ولكن بعض جوانبها وما يتفق مع روحها وقابليتها منها .

ما كان للغرب المسيحى أن يسلم ويسلم بمفاهيمه الأولى ليلبس العمامة
والطليسان العربى... وانما كان التراث العربى الاسلامى بالنسبة اليه . محرصا
شحنة كهرباء أخذ منها ما يريد نوعا بالقدر الذى يحتاج كيفا وفي إطار الجدلية
التطورية زمننا فاذا بدا يوماً أن بعض التأثير العربى الاسلامى كان موقوت
المدى وبعضه دائم . وإذا بدا يوماً آخر أن ما اقتبس من العلم كان هزيبا بالنسبة
لما حقق الغرب من ثورة علمية مذهلة ... وإذا ما بدا يوماً ثالثاً أن هذه المعطيات
التي اخذت قد لبست اللبوس الغريب فهي اذن خلق آخر . فانما يعوذ ذلك
كله إلى أن البساتين لا تتشكل في كل مكان بشكل واحد وإلى أن الزهرة الواحدة
لا تنبت في كل البساتين على صورة واحدة ... من الامور الموقوته المرحلية
أو العلمية اليومية التي قامت بدورها الفكرى في تطور الغرب قبل أن تغيب أو
تتشكل خلقاً آخر أو تنسى اصولها منها ؛ :

١ - أثر الثقافة العربية في التكوينات الأولى للفن الأوروبى . النماذج الأولى
للأدب الأوروبى تحمل البصمات العربية واضحة . موشحات الاندلس
وزجل ابن قزمان الذى نعرف أخذت على افواه الأوروبيين وفي لغاتهم شكل الـ
(Minnesang) الاسبانية وشعر التروبادور الفرنسى وشعر الغرام
(Cantigas) . كما ظهرت في الشعر الدينى الذى نظمته الرهبان
الفرنسييسكان في القرن الثالث عشر والرابع عشر . والقصص العربى ترجمت منه
ثلاثون اقصوصه سماها المترجم بدور الفونسو تعليم العلماء ؟ وترجم منه كلية
ودمنة زمن الفونسو الحكيم . كانت الاشكال والمحتويات الأدبية العربية من

التأثير والالهام بحيث صاح بوكاشيو ، اديب القرن الرابع عشر (صاحب الليالي العشر) : عجباً لقد استطاع شيشرون الروماني أن ينبغ في الخطابة بعد ديموستين الاغريقى واستطاع فرجيل أن ينبغ في الشعر بعد هوميروس فهل قدر علينا الا نكتب بعد العرب ؟ لقد أدر كنا الاغريق وسبقنا جميع الشعوب في بعض الاحيان الا العرب فيا للجهل ويا للعقمية الايطالية الخامدة ! »

الموسيقى العربية الأندلسية دخلت أوروبا عن طريق الفلامنكو الإسباني ودخلت معها أدواتها الرباب ، والعود والنأى الأندلسى والقيثارة المورييكية . . . فهى الأدوات الموسيقية الأوروبية في مطالع عصر النهضة . وشاع استعمال الموسيقى الشعبية العربية في الأنواع المسماة بالرونند والبالاداس في إسبانيا وايطاليا بل وفي انكلترا . وفن المعمار العربى موجود في هذا الإسلوب الذى يدعونه في الغرب بالتموطى وكل عناصره عربية والفن المدجن وفي فن القلاع الحربية . وفن الأفواس والتصاميم والزخرفة . . . وعمل الأقبية بأقواس معقودة متساندة . فن العمارة زحف من شرق العالم الإسلامى وغربه معاً إلى أوروبا .

٢ - ومن التأثيرات العربية الإسلامية أيضاً بعض العادات الإجتماعية . فالحب العذرى النبيل ، حب عربى خالص . وإذا زار أوروبا في عصر النهضة فإنما كان ذلك لأن العرب كانوا هناك . واحترام المرأة عادة دخيلة على الفرنج أخذوها كما أخذوا عادة الإستحمام من التقاليد العربية الإسلامية . أكثر من عشرة آلاف حمام ما بين قرطبة وبغداد علمتهم نعيم الجسد . وتعلموا بين ما تعلموا لعب الشطرنج عن العرب لعبة الكرة والصوالجنة (لعبة البولو) ، لعبة نور الدين بن زنكى المفضلة التى كانت سبباً في تغيير مجرى التاريخ . . . لقد عرفتھا فرنسا من إسبانيا ثم عرفھا الإنكليز في حرب المائة عام وكانت الأصل في لعبة كرة القدم . . . ومن التأثيرات المتعلقة بالمعارف العلمية والخياطة اليومية ما تعلم الغرب من صناعات الصابون والسكر وأنواع الزجاج والجلود والخزف والتماش والبطر والخبر والتهوة ومن زراعات الزهور والفواكه والخضار . . الصابون مثلاً ابتكار عربى خالص وكان الرومان واليونان من قبل ينظفون

بالرماد وبعض جذور النبات . . . واقتبسها الأوروبيون وقلدوا أنواع القماش الإسلامي فمنه إلى اليوم التابى نسبة إلى حى العتابية ببغداد ومنه الغرينادين نسبة إلى غرناطة والدامسكو نسبة إلى دمشق والموصلين نسبة إلى الموصل والفستيان نسبة إلى القسطنطينية . . . وإذا أكل الغربي اليوم الخيار والقرع والبطيخ والشمام والخرشوف والسبانج والليمون والبرتقال والخوخ والرز فلأنه نقلها جميعاً من هذه الأرض التأثير العربي تغلغل في لب الحياة اليومية الغربية ! . . . أليس بذى مغزى إذن أن تحوى اللغة الإنكليزية حوالى ألف كلمة عربية وتحوى اللغة الفرنسية مثلها وتحوى اللغة الإسبانية خمسة آلاف ونيف وتحوى البرتغالية حول ذلك وتحوى الإيطالية أكثر من ألفين ؟

أهى تأثيرات هينة المدى ؟ إذن فتعالوا ننظر في مستويات أخرى من التأثير الجذرى المقيم في تكوين الفكر العلمي والفلسفي في الغرب : طريقة وأساساً ووسيلة عملية واتجاهاً روحياً إنسانياً . لقد أتى على أوروبا حين من الدهر كانت معرفة اللغة العربية فيها شرطاً من شروط الثقافة والعلم تماماً كالإنكليزية اليوم . روجر بيكون (من القرن الثالث عشر) هو الذى قال : « إن الفلسفة (وهى كل العلم يومذاك) مستمدة من العربية وعلى هذا فلا يستطيع اللاتين أن يفهم فلسفة العلم إلا إذا عرف اللغة التى نقلت عنها . . . » فماذا قدم العرب للفكر الغربى ؟ فأما في الطريقة أو المنهج العلمى (Methode) وكثيراً ما ثقت آذاننا كلمة : إن العلم هو العلم بالطريقة والمنهج وإن ديكارت وبيكون هم آباء الطريقة في العلم الحديث . . . فالطريقة عربية بقدر ما هى يونانية بل أكثر بكثير مما هى يونانية . وإنما أخذها الغرب عن العرب المسلمين بالذات مطورة مطبقة في مختلف العلوم بما فيها من تجربة وملاحظة وشك ونقد واستقراء واستنتاج . . . ومبدأ السببية . بعض علماء العرب صرح بحدود « الطريقة » نصاً . عبداللطيف البغدادي الطبيب الفيلسوف يقول في القرن الثانى عشر « الحس أقوى دليلاً من السمع » (والنقل) وجالينوس وإن كان في الدرجة العليا من التحرر والتحفظ فيما يباشره ويحكىه فإن الحس أصدق منه . . . » والشك المنهجى الشك الموصل إلى اليقين الذى

يتحدث عنه ديكارت قاله الغزالي قبله : « من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر
(ولم يعلم) واضاف قول المجرى :

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل ؟

والملاحظة الموضوعية قالها رشيد الدين عم ابن أبي أصيبعة الذي يوصى طلاب
العلم « أن ينظروا في كل خبر عارياً عن محبة أو بغضة وأن يزروه بميزان العقل
والقياس وأن يتفحصوه إذا كان ممكناً على ضوء الحقائق المستمدة من
الاختبار . . . »

غير أن الفكر الغربي في الواقع لم يتلق الطريقة العملية عن العرب في النصوص
والمبادئ بل في العمل التطبيقي . العرب المسلمون أنفسهم لم يهتموا كثيراً بصياغتها
نصوصاً وحدوداً ولكنهم اهتموا بلي اهتموا كثيراً بجعلها منهجهم العملي الدائم
في العلم كانوا بذلك المبتكرين الحقيقيين للأبحاث العلمية التجريبية . وعن طريق
انتقال هذه الأبحاث والعلوم إلى الغرب انتقلت الطريقة إليها أيضاً . عبد اللطيف
البغدادى مثلاً درس النى جمجمة ليثبت أن عظم الفك الأسفل عظم واحد لا
عظمان وخرج إلى تل من الرمم تراه أقل من الموتى تحدد ما يظهر منهم للعيان
بعشرين ألفاً ليدرس العظام وأشكالها والمفاصل ويطبق ذلك في التشريح الطبي .
الفلكي ، الزرقالي ابن ابراهيم (القرن الحادى عشر) أجرى أربعمئة بحث
وبحثين ليثبت أن أوج الشمس لدى طلوع النهار يعادل أوجها لدى هبوط الليل !
.. وأعمال الزرقالي ترجمها جرارد الكريمنى وكانت من موارد كوبرنيك
العلمية وموارد غاليله . . أعمال ابن البيطار في النبات كلها ملاحظة واستقراء
حرفي . أعمال جابر بن حيان في الكيمياء تجارب علمية خالصة . نظريات
ابن الهيثم في المناظر والبصريات كلها تجربة وقياس وملاحظة . أعمال أولاد
موسى بن شاكر في علم الحيل والفلك كلها تجارب متصلة وابتكار عملي .
كتب ابن زهروا بن نفيس والرازى وأبى القاسم الزهراوى في الطب والجراحة
جانب التجربة والملاحظة والاستقراء فيها هو الذى اعطاها القيمة والشأن قروناً

الطبيعة (يكشف الجانب التجريبي الاستقرائي في الفكر الرشدي . . . المسيرة من العملي إلى النظري ومن الجزئي إلى الكلي ومن الخاص إلى العام ومن الشك إلى اليقين هي مسيرة الفكر العلمي التي اعطاها العرب المسلمون للغرب من خلال ما ترجم من أعمالهم العلمية خلال عدة قرون .

وإذا انتقلنا إلى هذه الاعمال ذاتها وإلى أثرها في تكوين الفكر العلمي الغربي وجدنا عجباً من الأثر الواسع . بلى تجاوز الغرب كثيراً تراث العرب في ميدان العلوم ولكن هل يلغى ذلك دورهم التاريخي أو هل الغى جميع آلائه ؟ في الأساس العميق من العلم الحديث تقوم الرياضيات . ومن هذا الباب بالذات تربع العرب وما يزالون رواداً أوليين في قدرة من التجريد الفكري ندر ان توفرت في أى حضارة :

العرب هم الذين اعطوا اوروبا والعالم النظام العشري في العدد واعطوا الشكليات للذين تكتب بهما الآن الاعداد بالعربية والاجنبية . اليونان استعملوا الحروف الابطجدية حتى ٩٩٩ ثم الخط والفاصلة والنقطة . الرومان استعملوا سبعة احرف ابجدية ١ ، (I) ، ٥ ، (V) ، ١٠ ، (X) ، ٥٠ ، (L) ، ١٠٠ ، (C) ، ٥٠٠ ، (D) ألف ، (M) . العرب هم الذين كشفوا قيمة النظام العشري التقطوه من الهند ثم اضافوا اليه ، في عبقرية هامة ، شارة الصفر ، رمز العدم الذي تدور حوله كل الاعداد ونشروه كأساس للحساب . . . اثنان عملاً على ذلك في اوروبا البابا سلفستر الثاني (مطلع القرن الحادى عشر) تلميذ العرب والتاجر ليوناردو البيرنى في القرن الثالث عشر . . . واتما الكتاب الذي تعلم فيه الغرب هذه الاعداد فكتاب ابى عبدالله محمد بن موسى الخوارزمي المتوفي قبل اواسط القرن التاسع . . . الكتاب الآخر لهذا الرجل المسمى (حساب الجبر والمقابلة) الذي ترجمه جراردو الكريمونى في القرن الثانى عشر هو الذى نقل للاروبيين علماً آخر من الرياضيات العربية الخالصة - علم الجبر . وظل اسم الخوارزمي لدى الرياضيين الذين يستعملون اليوم ما يسمونه بالجداول الاوغارتمية يذهبون في تفسير أصل الكلمة مذاهب شتى ولا يعملون إنما هي الجداول الخوارزمية .

الطابع الهندسى الذى طبع به الاغريق الرياضيات نزرعه العرب ، في قفصة الرسوم الهندسية عن حل المعادلة من الدرجة الرابعة ففتح العرب المدى الجبرى والـ ما هي إلا أول كلمة « شئ » بالعربية .

وأسس العرب علم المثلثات . . . وقصة الجيب وتمام الجيب والمماس وتمام المماس هم الذين كتبوها للقلم الغربى وأوجدوا الحساب العشرى . الفلكى حمشيد بن مسعود الكاشى (القرن ١٥) هو الذى أوجده حين حول لأول مرة في تاريخ الكسور الكسر العادى إلى عشرى وابن سينا هو الذى أوجد حساب الـ (Differential) قبل ٧٠٠ سنة مما أوجده عالم انكليزى أو ألمانى . وعالج مسائل الاحجام اللامتناهية اللانهايات الصغرى والكبرى دينياً وفيزيائياً ورياضياً وهى المسائل التى اوصلت نيوتن وليبنز فى القرن السابع عشر إلى وضع حساب اللامتناهى ! . . . واولاد موسى بن شاكر هم الذين علمت كتبهم بعد ان ترجمها جراردو الكرىموني باسم كتاب (الاخوة الثلاثة) علمت اوربا علم الحيل (الميكانيك) والساعات الشمسية وحساب مساحة السطوح المستوية والكروية . وقد ثبت أخيراً ، حين صدر كتاب الباهر في الجبر الذى شرح فيه السموأل المغربى نظريات ابى بكر الكرجى في الجبر أن ما يسمى في الرياضيات باسم مثلث باسكال ونظريته ما هو إلا نقل حرفى عن الكرجى . وبين الاثنين سبعة قرون . كما ظهر مخطوط آخر يكشف بكل وضوح أن نظرية الهندسية التحليلية وتطبيق الحل الهندسى على الجبر واستخدام التحويلات الخطية في البحث عن النهايات العظمى لعبارات جبرية واستخدام النظام العشرى في حل المعادلات وكلها مما يعزى فضل ابتكاره العالمى إلى ديكارت الفرنسى إنما هو بكل بساطة من ابتكار ابى بكر الطوسى قبل ديكارت بستة قرون أيضاً ! !

ولإذا انتقلنا من الرياضيات إلى الفلك وجدنا أن الاوروبين كانوا عيالاً على الفلكى المسلم في أرصاده خاصة وفي النظريات الرياضية والآلات العملية التى استخدم في قياس محيط الارض الذى قامت به في منطقة سنجار بعثتان زمن المأمون : بعثة سند بن على وخالد بن عبد الملك المرووزى وبعثة على بن عيسى

الاسطرلابي وعلى بن البحتري . كما كانوا عيالا في نظرية كوبرنيك في أن الارض هي التي تدور حول نفسها وهي التي تدور مع النجوم حول الشمس لا العكس فقد قالها البيروني قبله بخمسة قرون . وقالها ابن الشاطر الفلكي الدمشقي في القرن الثالث عشر . وكانوا عيالا كذلك في امور كثيرة اخرى منها حسابات الفلكي الاندلسي البطروجي في انحراف الكواكب ودورانها الدائري على النقيض مما قال بطليموس . ومنها اكتشاف سمت الشمس وحساب انحرافه بمقدار ٢٣ درجة و ٣٣ دقيقة و ٥٢ ثانية وهو تقريبا الرقم اليوم . ومنها حساب البتاني للسنة بمقدار ٣٦٥ يوما و ٥ ساعات و ٤٦ دقيقة و ٢٤ ثانية والحساب الدقيق اليوم يزيد عن ذلك فقط دقيقتين و ٢٣ ثانية ، ومنها قياس الفرغاني لخطوط الطول والعرض ومنها حساب الخسوف والكسوف والتنبؤ بهما بدرجة من الدقة المتناهية المذهلة . ومنها اكتشاف ابى الوفاء البوزجاني (القرن ١٠) للتغيرات القمرية . واكتشافهم البقع الشمسية . . . هذه المباحث جميعا وغيرها ترجم مبكرا ليكون زاداً لغاليله و كوبرنيك و تيخوبراهي . وترجمت الجداول الفلكية التي وضعها الخوارزمي من قبل أولاد البائى وترجم كتاب الفرغاني أبى العباس أحمد بن محمد وهو الذي قاس قطر الأرض بمقدار ٦٥٠٠ ميل ترجمه خوان الاشيلي وجراردو الكريموني وترجم كتاب البلخي وفيه نظرية عن المد والجزر . وكتاب الزيج الصائى للبتاني الذي ظل يترجم وينشر في اوروبا مرة بعد مرة منذ القرن الثاني عشر حتى السابع عشر . وكتاب ابن يونس المصرى الذي استفاد منه لابلاس العالم الفرنسى في مطالع القرن التاسع عشر .

وأما في الفيزياء فأبرز الأسماء العربية التي عرفها الغرب كان الحسن بن الهيثم (القرن ١٠ - ١١) لم يضع هذا العالم فقط نظرية في حركة الافلاك على اطباق غير شفافة ظلت تشغل العصور الوسطى ولكن كتابه في (المناظر ، البصريات أو الضوء) كان انجيل الفيزياء وقد ترجم إلى اللاتينية ونشر في السادس عشر وفيه نظرياته في المرايا المستوية والمخروطية والاسطوانية والكروية والبيضاوية ، وفي الانحراف والانكسار ، من اروع ما اكتشف نظرية الابصار وان الشئ ليس العين هو الذى يرسل الاشعة التي بها يرى . وان الضوء ينبعث بخط مستقيم

من الشيء المرثى في جميع الاتجاهات وان نور القمر مستمد من الشمس . وقد حدد سملك الطبقة الهوائية حول الارض كما قام بتجارب في الغرفة المظلمة درس بها الخسوف والكسوف ووضع بها الشكل الاول لآلة التصوير . . إن روجر بيكون الانكليزي وميرولام الالماني وفيتلو البولوني ودافنشي وغاليله الايطاليان كلهم كانوا تلاميذ ابن الهيثم وكتبه ونظرياته . على اساس ابحاثه اخترع دافنشي آلة التصوير والمضخة ومشروع أول طائرة . وإذا أثبت كبار أن ظل الحسن بن الهيثم هو الذي كان وراء غاليله في اكتشافاته فليس من الصعب على أحد أن يثبت أن ابن الهيثم ما يزال موجوداً في أبحاث الفيزيائيين إلى اليوم .

وأما في الكيمياء فالاسم الذي يقابل الحسن هو اسم جابر بن حيان . . انه ينزل من تاريخ الكيمياء — كما قال الكيماوى الفرنسى برتلو منزلة أرسطو من تاريخ المنطق . هو اول من وضع الكيمياء على قواعد علمية وكانت قبله مجرد سيمياء . عرفه الاوروبيون باسم (Geber) من خلال كتابه (Summa Perfectionie) وكتب كثيرة اخرى غير أن التراث الغربى العلمى يدين للعربى بجانب أبحاث جابر بالعدد العديد من المبتكرات منها المركبات الكيماوية كالأحماض والأملاح والنترات والكلاورات ومنها العمليات الكيماوية الاساسية : التقطير والتبلور والتكلس والترشيح والتبخير .

فإذا وصلنا الطب وجدنا اوربا عالة في كل حدوده على التراث العربى من مدة تزيد عن سبعة قرون . العناية بالانسان — الجسد — عرفها المسلمون جيد المعرفة ، وإذا برزت مبادئ السببية والملاحظة الموضوعية والتجربة واضحة في أبحاث العرب الطبية فإنما انتقل كل ذلك مع ما انتقل من تراثهم الطبى إلى الغرب ووضع للطب الاوروبى الطريق . في مطلع القرن الثالث عشر سنة ١٣١٥ قرر البابا انوسنت الثالث وجوب احترام الناموس الذى سبق أن اقره مجمع نانت سنة ٨٩٥ من أن سبب المرض الخطيئة وقد قطعت اوربا الشقة الواسعة بين هذا الموقف وبين الموقف العلى السببى المناقض له بمرافقة الطبيب العربى ابن زهر نبه إلى طفيلى الحرب وكشف بعض الامراض التناسلية . ابن رشد علم التلقيح

ضد الجدرى (الخزام) ابن نفيس كشف قبل هارني بستة قرون الدورة الدموية الصغرى وقد وضع الاطباء العرب إلى هذا وذاك مواعيد التشخيص السريري والاعتماد على النبض والبول والحرارة ووصفوا العديد من الحميات والامراض وابتكروا عملية التخدير ودرسوا الجدرى والحصبة والبرص وتشريح العين وبذلوا اوسع الجهد في كشف ما سموه الاسباب والعلامات أى اسباب الامراض وعلاماتها بدراسة انظمة الطعام (Diathetique) و اضافوا الكثير إلى الفارما كوكيا والصيدلانة مستعينين بأبحاث علم النبات وتعمقوا علم التشريح للتوسع في الجراحة وأدواتها . . .

وهذا التراث كله انتقل مبكراً إلى أوروبا ليستقر قروناً في جامعاتها على انه مصدر الحكمة الوحيد . كتاب القانون لابن سينا لا يعدله كتاب آخر في تاريخ الطب العالمى . . بلغت طبعاته اللاتينية حتى منتصف القرن السادس عشر عشرين طبعة أما شروحه فلا تحصى كثرة . وكتاب الحاوى في فنون التداوى لابن بكر الرازى ترجم مرات وطبع مرات ومرات . طبع مثلاً خلال خمسين سنة (بين سنّى ١٤٨٦ - ١٥٤٢) خمس طبعات . اما كتابه عن الجدرى والحصبة فقد طبع بين نهاية القرن الخامس عشر وسنة ١٨٦٦ (قبل قرن واحد) اكثر من اربعين مرة ! وما يزال الكعباب يحظى إلى اليوم بالعناية والدراسة . وترجم (الكتاب الملقى) لعلى بن العباس منذ نهاية القرن الثانى عشر فظل بأيدي طلبة الجامعات لا ينافسه كتاب حتى نهاية القرن السابع عشر . وكتاب ابن القاسم الزهراوى (التعريف) في الجراحة ظل مرجع جميع الجراحين في أوروبا وحده منذ القرن الرابع عشر حتى القرن الثامن عشر . وقد كانت كتب ابن سينا والرازى اجبارية على طلاب الجامعات الاوروبية فلم يغب ظل هذين الطبيبين عنها حتى نهاية القرن السابع عشر . وقد جاء احد العلماء باحصائية معبرة طريفة إذ تناول كتاب طب اصدده (فرارى) الاستاذ بجامعة (بافيا) في سنة ١٤٦٩ فأحصى مراجعة فيه فرأى أن ابن سينا قد ذكر عنده ثلاثة آلاف مرة والرازى ذكر ألف مرة ومثله جالينوس اما هبقراط ابو الطب فلم يذكر سوى مائة وأربعين مرة .

ومن الطريف ان بعض الاعمال الطبية كالتخدير والتعقيم دخلت مع الطب العربى إلى اوروبا منذ القرن الثانى عشر ثم هجرت هجراً طويلاً عدة قرون ليعود العلم اليها من جديد في القرن الماضى ! أما مبتكرات العرب في الصيدلة فقد عرفت عمراً أطول من عمر الطب فقد ظل التراث العربى اساس علم الدواء حتى القرن الماضى . وفي عام ١٧٥٨ اعيد نشر اجزاء من مفردات ابن البيطار وفي سنة ١٨٣٠ استخدمت عدة مراجع عربية كمصادر اساسية للصيدلة الاوروبية وفي سنة ١٨٣٢ اعيد نشر كتاب عربى فارسى يعود إلى القرن الثانى عشر في الوصفات العلاجية . . .

ويتصل بتكوين الفكر العلمى الاوروبى توفر امكنة العلم ووسائله .

وفي هذا المجال أيضاً كان العرب هم أيضاً المعلمين : نظام التدريس الجامعى وان وجد في الحضارة الاغريقية إلا أن اوروبا قلدت فيه ما رأته لدى العرب في اسبانيا وفي الشام خاصة من نظام « المدارس » المعروف ، ومدرسة سالرنو للطب انما يرجع الفضل في ما احرزت من شهرة إلى الطب العربى . وجامعات مونبيلييه ، اورليان رامن في فرنسا وبولونيا ، بادوا نابولى في ايطاليا واكسفورد وكمبرج في انكلترا انما قامت شهرتها الاولى على ما كان يدرس فيها من الطب العربى خاصة ومن فلسفة العرب . . . ابن رشد وابن سينا كانا ماثلين في كل زاوية هناك لعدة قرون . وانما اخذ نظام الغرب نظام الاجازة (ليسانس) وتنظيم الدراسة على اساس الكتاب وطريقة المعيدى والولع بجمع الكتب في المكتبات . . حتى كلمة بكالوريا التى لم يهتد الغربيون إلى أصلها اللاتينى عن يقين ليست إلا تحريفاً « لحق الرواية » الذى كان يوقع به الاستاذ العربى لتلميذه في نهاية الكتاب .

ونقف أخيراً عند بعض الادوات العلمية والعملية التى قدمها العرب للناس . لقد كانت أدوات - ثورات : اولها : الورق ولعل أجل خدمة قدمها العرب للفكر العالمى بلى ! هذه الصحيفة الرقيقة هى العمود الفقرى للمعرفة الانسانية

وقد ظلت منذ نشرها العرب في القرن الثامن حتى هذا العصر الالكتروني ادارة العلم الاولى والوحيدة . لولاها اذن فالعلم شئ آخر . . . أقل من حجمه اليوم بكثير . . . لقد ختم انتشار الورق عصرآ من عصور الحضارة وبدأ آخر . لأنه على الأقل كسر احتكار العلم وسمح للطباعة ان تكون ممكنة . وقد التقط العرب فكرته من الصين فطوروها ونشروها من سمرقند الى بغداد الى شاطبة في الاندلس وعن طريق الاندلس وصقلية دخل الورق لأول مرة الى اوروبا في القرن الحادى عشر ثم انشئ اول مصنع للورق في ايطاليا سنة ١٣٤٠ . . . وبدأ الدولاب يدور.

ومن الادوات فكرة المطبعة والطباعة . لالم يبتكرها غوتنبرغ الذى نعرف . وانما اسهم فيها من قبلة العرب . ونحن لا نزال نجهل اليوم بأية آلة كان وزير عبد الرحمن الثالث يطبع الرسائل الرسمية للحكومة وينسخ منها النسخ العديدة . . ولكننا نعرف انهم صنعوا ايضآ اوراق اللعب ونشروها في اوروبا مطبوعة نسخآ نسخآ ! . . .

ومن المبتكرات العلمية التى كان نشرها ثورة : البارود . واذا كنا نقف اليوم مبهوتين امام التطور الصاروخى العالمى فان القذائف البارودية الاولى انما صنعها العرب . نظرية تركيب البارود والمدفع هم وضعوها في القرن الثانى عشر وقد استطاع هذا الابتكار ان يدك النظام الاقطاعى كله حين استطاع ذلك الحصن الاقطاعى ! وقبل ان يلعب هذا الدور كان العرب قد استعملوه في معارك بالاندلس حملت الملح القاتل الى صفوف الاهداء في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وعن طريق بعض الترجمات اللاتينية سمع بالمزيج المنفجر امثال روجر باكون والبرت الكبير وفوق بولشتاد وعن طريق هذا الاخير سمع بالامر من يدعى باختراع البارود في اوروبا : برتولد شفارتس الفرنسيسكانى .

ولا حاجة لأن اذكر بعد هذا ما قامت به البوصلة وما قام به الاسطرلاب الذى دخل اوروبا لأول مرة في القرن الرابع عشر من دور في مد الافق الجغرافى الاوروبى وفتح عصر الكشوف ، ولكنى اسجل بجانب هذين الابتكارين العربيين كشافين آخرين مغمورين : هما كشف العرب (لغيوم ماجلان) وهى النجوم

التي يهتدى بها الملاحون في النصف الجنوبي من الكرة والتي هدت ماجلان في طوافه حول الارض ، وكشف العرب للشراع المثلث الذي نقلوه في القرن التاسع من بحرهم الجنوبي الى البحر المتوسط وأصبح بإمكان الملاح معه الابحار ضد الريح العاصفة . . كم ذل ذلك من العقبات للمكتشفين ؟

ونصل أخيراً الى تأثير العرب في التفكير الفلسفي الاوروبي . . .

ودور التراث العربي ها هنا دور مزدوج : دور الحامل لرسالة اليونان في الفلسفة من جهة ودور الفاعل المؤثر بما ابتكر وأنتج .

كان التراث اليوناني قد اندثر إلا أقله في اوروبا . ارسطو ، وافلاطون وسقراط وابركلس وافلوطين وفيتاغورث كانوا قد اصبحوا نكرات مجهولة . وقد أحياهم العرب هناك من جديد . لولا العرب ما انصلت اوروبا بهؤلاء وما عرفت اوروبا من هذا الفكر الاغريقي انما كان الفكر المستعرب منه . العرب هم الذين اختاروا من ذلك الفكر ما يهون ترجموه وبوبوه وفسروه . اضافوا اليه ما يشاؤون وزيفوا عليه أيضاً مما عندهم ثم قدموه لاوروبا . كان فكراً عربياً اذن ذلك الذي اطلقوه للفكر الغربي اختلط فيه عدة قرون اسم ارسطو مع اسم ابن رشد وآراء الفارابي وابن سينا مع افلاطون وافلوطين . . فلا فكاك ! العرب ما كانوا مجرد نقلة ، سعاة بريد كالذي ذكره القرآن يحمل أسفاراً . . . تلك الصورة الحاقدة انتهت والنظريات اليوم تحاول ان تبين الجانب العربي الكبير الذي اضيف تحت اسم اليونان لليونان .

واما الدور الآخر دور الفلسفة العربية الخالصة في الفكر الاوروبي فتظهر في ما تغلغل من اسماء ابن سينا وابن رشد والفارابي والكندي والغزالي في خلايا التفكير الاوروبي منذ القرون المبكرة واذا كان ابن عربي يظهر لدى دأته وكان الغزالي يظهر في مراهنه باسكال المعروفة ظهوره في براهين وجود الله عن توماس الاكوينى فيلسوف عصر النهضة الاوروبية وكان ابن عباد الرندي الشاذلي يظهر في ثياب الصوفي الاسباني الاكبر يوحنا الصليبي فان اكبر فلاسفة اوروبا في

القرن الثالث عشر البرت الكبير وتوماس الاكويى انما كانا تلميذين صغيرين في المدرسة العربية الفلسفية .

اما ابن سينا وابن رشد فقد بلغ من تأثيرهما أن الاسمين دخلا في التراث الفكرى الغربى . وقد تميز بصورة خاصة ابن رشد . واذا كنا لا نستطيع مثلا ان نتحدث عن سيناوية او فارابية لاتينية فاننا نستطيع ان نتحدث عن رشدية لاتينية . لقد فتح ابن رشد مدرسة كاملة امتدت قرونا عبر مختلف الجامعات في اوروبا . كانت الدار الحقيقية له جامعتا بولونيا وبادوا في ايطاليا ولكنه كان يقسم الجامعات الغربية الأخرى بين رشدية ولا رشدية حتى القرن السابع عشر .

وقد ادخرت للنهائة كلمة النهاية : فان اخص ما تتميز به الحضارة الغربية الحديثة هى النزعة الانسانية فهل فيها من جذور عربية ؟ الواقع ان هذه النزعة هى عربية خالصة بقدر ما هى اغريقية خالصة . واذا كانت تقوم على اسس خمسة :

- ١ - النظر الى الانسان على انه مركز للوجود .
- ٢ - والاشادة بالعقل ورد التقويم اليه وجعله مركز الكون والمعرفة .
- ٣ - والنظر في الطبيعة وتحليل آلائها . . .
- ٤ - والايان بأن التقدم انما يتم بالانسان وللانسان .
- ٥ - والنظرة الانسانية العالمية للبشر كوحدة كاملة مع رفض الفوارق والقول بالعدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص وتضامن الجنس البشرى .

ان كانت هذه هى أسس النزعة الانسانية الحديثة فهذه الاسس كلها موجودة في القرآن الكريم وفي التراث العربى الاسلامى ، هى الجذر الروحى الحضارى للذات العربية . ابن عربى الجليلى جابر بن حيان . ابن سينا ابن رشد . الرازيان ابو بكر وابو حاتم . ابن خلدون . اخوان الصفا . ابن سبعين . . . كلهم حكوا بمختلف الاشكال والصور والنصوص وقد تسربت مع ذلك التراث في الفكر الاوروبى فأثمرت ثم أثمرت ما نراه من التطور الفكرى الملون . ومن المؤسف أنه لم يظهر بعد الباحث العربى الذى يضع هذه القيم الانسانية العربية في موضعها من

سلم القيم العالمى ولا النهضة العربية التى تستمد من تلك القيم سبيل الانطلاق نحو المستقبل ؟ .

وماذا بعد ؟ هذه الشعلة التى اعطت ثم أعطت كيف انطفأت ؟ كيف جفت البناء وفقدت المراكز الاسلامية حيويتها الحضارية وتأثيرها المشع النافذ ؟ هنا ، مرة اخرى نحتاج في الجواب الى شئ من التاريخ . . . الواقع انه في الوقت الذى كانت فيه الحضارة الاسلامية تعطى رسالتها كانت تموت . . . تماماً كطائر البليكان في القصيدة المشهورة التى يحفظها كل دارس للادب الفرنسى من الفريد دى موسيه . طائر البليكان هذا عاد من رحلة عبر البحر الى فراخه فوجدهم يتضاعون من الجوع وليس في منقاره شئ . . . فوقف على الشاطئ وضرب منقاره في صدره فتنفجر . وارتدى على الرمل يلفظ أنفاسه بينما كان الصغار يتلمظون بحشاشته وآخر نبضات قلبه يشبعون ! ما بين القرن الثانى عشر والرابع عشر حين كان التبادل الحضارى بين التراث الاسلامى والغرب الاوروبى في أوجه كان العالم الاسلامى يتلقى ثلاث ضربات مدمرة : ضربة افرنج مسن الغرب في قصة الحروب الصليبية التى بدأت في القرن الحادى عشر واستمرت اكثر من قرنين كاملين . ثم ضربة المغول المدمرة التى جاءت في مطلع القرن الثالث عشر مع جنكيز خان من الشرق فمسحت الأخضر واليابس قرناً كاملاً وكان من بعض حصاها سقوط بغداد وأخيراً ضربة ثالثة مثلها كان على رأسها تيمور لنك . . . وقد حاولت الصليبيات ان تتفق مع المغوليات في بعض الضربات وأرسل ملوك فرنسا والبابا وفوداً من أقصى الغرب الى أقصى الشرق الى قرة قوروم عاصمة المغول وتلاهم ماركو بولو الى بلاط قوبلاى خان في الصين وبدا كأن العالم الاسلامى كله قاب قوسين أو أدنى من الاختناق أكثر من مرة . . . لكن لم تفلح عملية التطويق . لأن القوتين المطبقتين لم تستطيعا الغاء الشأن الاستراتيجى الهام للشرق الاوسط الاسلامى ولتجارة البحر المتوسط التى تسلمها المماليك من بعد . وقد جاءت الغرب هذه الفرصة على أهون سبيل في القرن السادس عشر . . . كان الغرب قد تزود من التراث الاسلامى بما يحتاج من العلم ثم اكتشف امريكا فزودته بالمال . وبينما كانت اماطيلة البحرية تدور حول

افريقيا الغربية الاسلامية وقعت على رأس الرجاء الصالح ووضعت يدها بحركة خاطفة على منابع التجارة العربية الاسلامية في المحيط الهندي كله ملغية بذلك دور البحر المتوسط ومطوقة العالم الاسلامي كله ومنتزعة من هناك السيادة البحرية التي لم ينترعها من قبل احد . كانت روسيا بدورها تطوق هذا العالم نفسه وفي الوقت نفسه من الشمال . . . بعثت بملاحى الانهار من القوزاق شرقا بنفس السرعة والاكتساح عبر السهوب التركستانية ثم مغولية حتى انتهى بهم المطاف بالوصول عبر امبراطورية المانشو الى شواطئ المحيط الهادى سنة ١٦٣٨ ، وهكذا في غضون فترة تقل عن القرن وبعد ان دمر الصليبيون ثم التتر مرة بعد مرة قلب العالم الاسلامي من الداخل ، اغلق الايبيريون الطريق البحرى الجنوبي امام هذا العالم وانترعوا منه احتكاره كما اغلق الروس من الجهة الاخرى الشمالية الطريق البرى ! . . ووضع الطوق بهذا الشكل في عنق الفريسة التي دخلت مرحلة الجمود والشلل . وتباورت نوايا الجانبين الغربى والروسى في عملية انقضااض على فريسة اتضح لهم انها اضعفت عاجزة المعجز المطلق . . . كان عهد الاستعمار الغربى قد ظهر ! . . .

وبعد فيروون عن الراقصة الفرنسية المشهورة سارة برنارد أنها حين ادركها الهرم سكنت في الطابق السابع من عمارة لامصعد فيها . وحين سئلت عن السبب قالت : لقد تعودت الا يأتى أحد الا ويخفق قلبه !

ولقد احتجنا اليوم بعد ان نباعد العهد وتعتق الاثر وشاخ الى ان نصعد الطوابق السبع كيما يخفق قلبنا لذلك الاثر العميق الواسع الذى منحه التراث العربى الاسلامى للحضارة الاوروبية والعالمية . . . والذى أضحى غريباً مجهولاً . . حتى منا نحن !

وأخشى ما أخشاه أن يكون الغار الذى نفتش عنه في هذا الحديث مجرد محاولة لستر صلعة قيصر ! . .

لا ! انه حتى « الغار » لا يغنى من الصلغ شيئاً . أليس القانون الالهى « كل نفس بما كسبت رهينة ؟ » .



الأصول والمقومات الأساسية
للسياسة الاجتماعية عامة
وفي الكويت خاصة

كلمة

الدكتور عثمان خليل عثمان

الحديث عن الأصول والمقومات الأساسية للسياسة الاجتماعية يعني أن هناك « اصولاً » هي المنطلق أو الجذور الأولى للموضوع محل البحث أو « اتجاهاته العامة » وان هناك من بعد ذلك « مقومات أساسية » هي ما يتفرع عن الأصل (أو الأصل) من خطوط عريضة لا تنزل إلى مستوى الجزئيات .

ولكن ما المقصود « بالسياسة الاجتماعية » ؟

أما السياسة فهي الخطوط العامة لنهج معين ملتزمة جهة ما أو دولة أو جماعة ما في موضوع معين والسياسة هذه توصف بأنها « اجتماعية » إذا تعلقَت بتنظيم المجتمع أو روابطه (ومن ثم تدخل في نطاق علم الاجتماع) . ولكي يقوم مجتمع يجب توافر عدد من الناس ، وان يجمع بينهم عنصر معنوي أو رابط روحي . فبفضل هذا الرابط يعيش الفرد مع الآخرين بصورة منتظمة أو مستقرة ، وعليه فليست العلاقة مجرد لقاء عابر . ولذلك يفرق الباحثون بين « المجتمع » و « الاجتماع » ويضربون لذلك أمثلة منها : الأشخاص الذين توقفهم إشارة المرور وينتظرون على ذلك دقائق أو لحظة من الزمن وقد يصل عددهم إلى مئات في هذه اللحظة — هؤلاء عبارة عن جمع وليسوا مجتمعاً لأنهم انما تلاقوا بمحض الصدفة ولم يكن هناك رابط أو مخطط حملهم على هذا الاجتماع ، وليس بينهم رحم أو صلة يعلان من هذا الاجتماع « مجتمعاً » . ومثل ذلك أيضاً جمع المسافرين في قطار أو الموجودين في سينما أو مسرح أو في مثل هذه الأماكن — فالناس الذين يجتمعون فيها لا تربطهم غاية مستقرة ولكنه لقاء للحظة وينتهي . فهذا يسمى « اجتماعاً » ولا يكون « مجتمعاً » .

وعليه لا ندخل في نطاق « علم الاجتماع » بالمعنى الصحيح الا عندما يتوافر قدر من الترابط المنظم المستقر في الجمع ، والترابط على هذا النحو من سمات بعض الانسان ، لأنه نتاج فكرى ومجهود عقلى مع قدر من التخطيط والتنظيم للوصول إلى أهداف مشتركة ، وهذا هو الذى جمع « الأسرة » أولاً ، وهو الذى جمع « القبيلة والعشيرة » هو الذى جمع في النهاية المجتمع السياسى الأكبر وهو « الدولة » .

هذا التصور الذى يبدو للذهن لأول وهلة موهماً بأن هذا النوع من الترابط الاجتماعى (أو المجتمع) مقصور على المجتمعات العاقلة البشرية ، غير صحيح ، فقد أسفرت بعض البحوث — وبخاصة منذ أوائل القرن العشرين — عن أن هناك قدراً من هذا الترابط أيضاً بين بعض المخلوقات غير البشرية ، فهناك مثلاً بعض الحشرات تشعر بالرغبة في العيش المشترك ، وعندما تجتمع معاً تلتزم بقدر من التنظيم بل وتوزع العمل مما جعل البعض يصفون هذه الكائنات بوصف « اجتماعية » ، وفي مقدمة الأمثلة لذلك النحل والنمل . وعليه هناك رباط اجتماعى ممكن كذلك بين مخلوقات غير البشر ، بل وله نصيب من التنظيم والاستقرار .

وإذا رجعنا إلى « المجتمعات البشرية » وجدنا لها « سياسة اجتماعية » بالمعنى السابق ذكره ، ووجدنا لهذه السياسة « أصولاً » تنبنى عليها وتتفرع عنها « مقومات أساسية » .

أما الأصول فأولها — في تقديرى — تحديد دور كل من « الفرد » و « المجتمع » في هذه الحياة المشتركة ، فأيهما يعتبر مركز النقل ومنطلق التحديد اللازم لنطاق كل من الطرفين ولحقوقه وامتيازاته . . ؟

الأصل الثانى هو طبيعة الرابطة التى تشعر الفرد إلى مجتمعه ، أهى رابطة وحية ومعنوية ، أم هى رابطة مصالح مادية . . ؟

وفيما يتعلق بالأمر الأول لا يخفى أن الموازنة بين الفرد والمجتمع مشكلة عويصة ، يتنازعها اتجاهان رئيسيان متعارضان ، يرجح أحدهما جانب الفرد وحقوقه وحرياته على جانب الجماعة وامتيازاتها ومتطلباتها بحيث يكون الجانب الأول هو المنطلق والمحدد للجانب الآخر (هذا هو المذهب الفردى) ، بينما يذهب الاتجاه الآخر إلى تقيض ذلك (وهذا هو المذهب الاجتماعى أو الاشتراكى) ويرى أعضاء هذا الاتجاه ان الفرد وان كان هو الأسبق في الوجود على الجماعة ، وكانت الجماعة مجموعة أفراد ، الا ان هؤلاء الأفراد ليسوا في المجموع الا لبنات توضع جنباً إلى جنب لتدوب في المجتمع ولتكون منها ما هو أسمى من الأفراد ، وهو المجتمع ككائن شمولى متميز ، ولذلك برزت فكرة الجماعة بل وتغلبت في نظر هذا الفريق الثانى على فكرة الفرد ، ولم يحجز للفرد من الحقوق وأوجه النشاط الا ما ينبثق عن هذا الوضع الممتاز للمجموع . ويتنازع العالم - خصوصاً في العصر الحاضر ، ومنه أوائل هذا القرن العشرين بالذات ، ومنذ الثورة الروسية على وجه أخص ، يتنازع العالم هذان التياران وقد يحمل كل منهما سلاحه ووسائل اعلامه ليقف في وجه الآخر ، فانقسم العالم بذلك إلى معسكرين كما تعلمون « شرق » و « غرب » وتصارعت الأفكار « الفردية » مع الأفكار « الشمولية » على نحو حاد وعنيف .

وفي صراعات الآراء والمذاهب نجد خير الأمور وسطاً بين اسرافين ، كالفضيلة وسط بين شرين : فأصحاب المذهب الفردى أو النظرة الفردية قد اسرفوا عندما اسقطوا وقللوا من وزن المجتمع في مواجهة الفرد ، وأصحاب النظرة الشمولية أو الجماعية اسرفوا عندما محوا قدر الفرد وانتقصوا منه بمغلاة ليجعلوا الفرد مجرد قطعة من آلة كبرى هى المجتمع . وقد ثبت مع الزمن - خصوصاً بعد ان خفت بعض الشىء غلواء التطرف لكل من الاتجاهين الفردى والجماعى وأبديا قدراً من روح التعايش السلمى في الفترة الأخيرة ، وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وذلك على الأقل من الناحية الفكرية أو النظرية . فقد بدأ يظهر لكل من الجانبين أنه قد تطرف بعض الشىء وأنه من الخير له وللحقيقة

أن يأخذ بقدر من صواب النظرة المعارضة له . وبذلك تزايدت اصدااء هذا التعايش المنشود بين هاتين الفكرتين - الفردية والشمولية - وتمثل ذلك بصفة خاصة في قدر من الوسطية تخيرته بعض الدساتير الحديثة ومن بينها الدستور الكويتي . ومن أوضح الأمثلة في هذا الدستور على هذا المنحى المادة ١٦ منه ، فقد تحدثت عن الملكية ورأس المال مؤكدة أنها « جميعاً حقوق فردية » ولكنها اضافت عقب ذلك مباشرة قولها « ذات وظيفة اجتماعية ينظمها القانون » كما نجد المادة ١٨ أيضاً تقرر الأصل القائل ان « الملكية الخاصة مصنونة » ثم تجيز بعد ذلك نزع الملكية « بسبب النفقة العامة » .

هذا عن الأصل الأول للسياسة الاجتماعية وبعض أصدائه في الكويت .

الأصل الثاني للسياسة الاجتماعية يتعلق « بروحانية » أو « مادية » العلاقة بين الفرد والمجتمع . وهنا أيضاً نجد المعسكرين المتعارضين في العالم . فيرى البعض ان هذا الرباط رباط روحي . روحي أولاً في اصوله التاريخية باعتبار ان الدولة هي الوارث الحديث للخلية الأولى للمجتمع وهي الأسرة ، والأسرة انما قامت على التعاطف والتراحم والمحبة . والدولة في هذا العصر قد بنيت أيضاً على التوسع في هذه الوشائج الروحية التي قامت عليها الأسرة منذ القدم وبذلك يكون الرباط شعورياً أولاً وإلى جانبه مختلف المصالح الاقتصادية والعسكرية وغيرها من ماديات . فكل هذه المصالح بصورها المختلفة - انما تأتي إلى جانب الصلة الأصلية وهي التراحم الأسرى والتعاطف الذي بين الأب والأبن وبين الزوج والزوجة ، والقريب والقريب .

أما النظرة المضادة فتقول ان العلاقة بين الناس في المجتمع هي علاقة مادية أصلاً ، اساسها المصالح المادية المشتركة ، وما دامت الحكومة المنشودة هي الحكومة الديمقراطية فالذي يعنينا من هذه المصالح إذن هي مصالح الأغلبية الحقيقية للشعب ، أي مصالح الطبقة العاملة المظلومة ، التي استغلته عبر العصور أقلية بورجوازية . وإذا كان رباط المجتمع هو الصلات المادية ، فهذه الصلات المادية بقدر ما تربط العامل والعامل ، تفرق بين طبقة العمال

وغيرها من الطبقات ، ولهذا ركزت هذه النظرة على فكرة الظلم الطبقي البورجوازي ، وعلى القول بأن هذا الظلم لا يمكن ان يصلحه سلام أو نصح أو ارشاد وانما تصلحه الثورة ، ثورة العمال في جميع بلاد العالم (أيها العمال في أنحاء العالم : اتحدوا) . هكذا تكشف هذه النبرة عن مادية التاريخ وحتمية الثورة والصراع الطبقي.

هذا «الأصل» المادى في رباط المجتمع لم يأخذ به دستور الكويت موثقاً عليه بوضوح الأصل «الروحى» وحسبى ان اذكر عنواناً لهذا «الأصل» نص المادة (٧) من الدستور المذكور على أن «... التعاون والتراحم صلة وثقى بين المواطنين»

هذا النهج الكويتى يناقض اذن النظرة المادية التى تريد القاء الأسرة أو الانتقاص من قدرها حتى لا تقف حائلا بين الفرد والمجتمع . فالحياة العائلية كثيراً ما تقف بعواطفها بين الفرد والمجتمع ولذلك وجدت مثلاً في بعض الدول شبيبة تسمى الشبيبة الهتلرية ، تعرف بأنها لبناء الدولة أو الفوهرر . والكتلة الشرقية كذلك تحاول ما أمكن النزول بدور الأسرة وألا تكون للعواطف الأسرية مكانها الذى نعى نحن به في تراثنا الإسلامى والعربى والذى رددته نصوص عديدة في الدستور الكويتى كتلك المتعلقة بالطفولة - بل وبالجنين باسم الأمومة - ثم بالنشئ في مختلف مراحل الحياة ، وخاصة ما يتعلق به من مرض أو عجز أو بطالة أو شيخوخة وحتى عند الوفاة نص الدستور (المادة ١٨) على الميراث كحق تعظمه الشريعة الإسلامية والميراث عنصر هام لضمان الترابط والتراحم الأسرى عبر الأجيال المتعاقبة وخاصة اذا ما روعى ذلك التوزيع الشامل للميراث في الشريعة الإسلامية بحيث لا يمكن ان يكون المال دولة بين فئة قليلة من الفرية كما لو حصر في أكبر الأبناء (كما فعل التشريع البريطانى) ، أو قضى على جوهر فكرة الميراث حتى لا يرث شخص ثمار عمل غيره .

هذان هما الأمران اللذان اخترتهما للحديث كأصلين للسياسة الاجتماعية بصفة عامة ، وفي الكويت بصفة خاصة ، ذلك القدر الذي اتسع له المقام .



والآن - وفي ضوء الأصلين السابق ذكرهما - انتقل الى أمرين آخرين هما اللذان ان يحددان مقومات السياسة الاجتماعية في الدولة ، أولهما « نظام الحكم السياسى » أو « الديمقراطية السياسية » ، وثانيهما ما يعرف باسم « الديمقراطية الاجتماعية » وما يتضمنه من حقوق اجتماعية واقتصادية وثقافية .

وفيما يتعلق بالديمقراطية السياسية يلاحظ أنها هى الأقوم ظهورا (ولكنها سلبية الطابع) . فمن الثابت تاريخيا والمعقول منطقيا ان يظهر الاهتمام بهذا الشق السياسى من العلاقات الاجتماعية قبل غيره من صور هذه العلاقات ويرجع ذلك بصفة خاصة الى أن الناس في القرون الغابرة لم يكونوا معنيين بأمر عام قدر عنايتهم بتحقيق الطمأنينة على أرواحهم وعلى أعراضهم وحریاتهم ، وذلك لكثرة تطاول رجال السلطة حينذاك باسم أمن الدولة أو متطلباتها . ولهذا عنف الصراع وطال بين « الحرية » و « السلطة » كما غلب الطابع السلبي على مطالب الناس وأهدافهم بمعنى أنهم كانوا يطالبون بمجرد « إمتناع » السلطة عن أن تقهرهم أو أن تضع العقبات في طريق ممارستهم لحقوقهم أو أن تتغول على حرياتهم . لذلك انحصرت عناية الدساتير حيناً طويلاً في هذا الجانب الوقائى السلبي بصفة خاصة . فرصدت له الدساتير التقليدية معظم - ان لم نقل كل - نصوصها ، ولم تحظ بقدر يذكر من النصوص سائر المشاكل الاجتماعية أو سائر الجوانب لسياسة الدولة الاجتماعية ، ولهذا وصفت الدساتير الذى من هذا النوع بأنها دساتير « سياسية » فقط .

ولقد ظهرت أصداء اجتماعية لذلك الطابع السلبي للأفكار السياسية ، يذكر منها على سبيل المثال اسلوب الاسكان أو الحياة السكنية قديماً ، فقد سادت الناس حينذاك رغبة السكن في بيوت يكون الوصول إليها بحارات ضيقة حتى لايسهل

وصول الحاكم أو عماله لها باسم الأمن أو الجباية . كما كانت المساكن لكل عائلة تقريبا بوابة من الخارج حتى يستطيع القوم بقتلها أن يأمنوا شر رجال السلطة العامة .

هذا الوضع السياسى السلبى الوقائى قد تطور تبعا لتقدم الحركة الدستورية والمسيرة الديمقراطية ، فقد أحست الشعوب أن هذا القدر من الكسب الديمقراطى السياسى ليس كل شئ أو نهاية المطاف — حقا لقد تحقق الأمن ووضعت قواعد يعرف كل شخص معها ما له وما عليه ، ويتبين حدوده وحدود الحاكمين وأصبح يستطيع أن يسأل هؤلاء الحاكمين ولكن فوق ذلك كل راع مسئول عن رعيته ، مسئول لا ليكيف عنها أذى السلطة فقط وإنما ليمد الناس يد المساعدة الإيجابية في جميع النواحي الاجتماعية الأخرى في مأكلهم ، وفي مشربهم ، وفي تعليمهم ، وفي صحتهم . . وبالجمله في كل وسائل العيش والتقدم لتحقيق « دولة الرفاهية » أى الدولة التى تيسر أسباب السعادة والرخاء لبنيها . وهكذا عاد الناس بعد مرحلة تحقيق الديمقراطية السياسية يتطلعون باصرار الى كسب آخر هو « الديمقراطية الاجتماعية » المتمثلة في مختلف الخدمات وتحقيق العدالة الاجتماعية بين المواطنين ، فترأيت العناية بها تباعا في نصوص الدساتير ، وخاصة في القرن العشرين .

على أنه يجب ألا نغبط المرحلة السياسية الأولى في تلك المسيرة الديمقراطية ولا الجانب التقليدى من الدساتير المسمى بالجانب السياسى حقهما أو دورهما الاجتماعى فالدستور السياسى كما سبق القول هو بذاته تنظيم اجتماعى ، بل هو — كما ذكرنا — اسبق جوانب المجتمع بروزا وأخطرها شأننا ، كما أن الكفالة الموجودة في القسم السياسى من الدساتير لتنظيم الحكم تنظيمًا ديمقراطيًا هي التى ساعدت وتساعد على تمكين الأفراد من الحصول على المزايا الاجتماعية والاصلاحات الاجتماعية . آية ذلك مثلا — أنه في الدولة الديمقراطية التى تتمتع بحكم سياسى ديمقراطى ولو لم يتحدث دستورها عن حقوق اقتصادية واجتماعية — نجد أن رقابة المحكوم للحاكم ، أى رقابة الشعب للحكومة تحمل هذه الأخيرة على الاستجابة ما وسعها الجهد لرغبات المواطنين الاجتماعية أيضا . فالهدف

السياسى الذى تحققه الديمقراطية السياسية هو في ذاته اجتماعى من جهة لكون السياسة أمرا اجتماعيا كما سبق ، ثم هو من جهة أخرى مقدمة تعبد الطريق وتحت الجهود نحو الأهداف والخدمات الاجتماعية المتعلقة بالرفاهية والعمران حتى ولو تأخر تسجيل ذلك وتوطيده بمقتضى النصوص الدستورية . وهذا التسجيل الدستورى هو ما يمثلاً في الدساتير الحديثة الأبواب الخاصة بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

هذه النصوص الدستورية الجديدة تفرض على الدولة واجبات ايجابية - لا سلبية - تؤذيها للأفراد فهي اذن اجتماعية (بالمعنى الواسع الشامل للاقتصادية والثقافية) واجباية أيضا .

ومهما قيل في حداثة هذا التطور الاجتماعى للدساتير فلا يظن أنه غير مسبوق على الاطلاق . اذ ان من الدساتير القديمة ما تضمن بعض النصوص الاجتماعية (في القرن التاسع عشر ، بل وقبلة في القرن الثامن عشر) . ولكنها كانت نادرة ، ولم يظهر ذلك التطور بوضوح الا في القرن العشرين ، فدساتير القرن العشرين لم تكتف بتفضيل نظام الدولة السياسى وحده - أى نظام الحكم - وانما عنيت بأن تواجه في صراحة وبطريقة مباشرة المشاكل الاجتماعية . ولقد جاء دستور الكويت مثالا واضحا لهذا التطور . ففيه باب جديد لم يكن مسبوqa في كثير من الدساتير عنوانه « المقومات الأساسية للمجتمع الكويتى » وبه لم يعد الدستور سياسيا فقط وانما أصبح دستورا سياسيا اجتماعيا في آن واحد .

ويرى بعض الشراح بحق ان هذا النهج يجعل من الدستور في الحقيقة دستورين تضمهما وثيقة واحدة ، احدهما سياسى والآخر اجتماعى .

وفي الباب المذكور من دستور الكويت نجد - فيما نجد - أن « العدل والحرية والمساواة دعائم المجتمع ، والتعاون والتراحم صلة وثقى بين المواطنين » (مادة ٧) ، وأن - الاسرة اساس المجتمع ، قوامها الدين والأخلاق وحب الوطن ، يحفظ القانون كيانها ، ويقوى اوامرها ، ويحمى في ظلها الأمومة

والطفولة » (مادة ٩) ، كما نجد النص على العناية بالنشء (مادة ١٠) وبمحالات الشيخوخة والرضى والعجز عن العمل ، وكذلك التأمين الاجتماعي والمعونة الاجتماعية والرعاية الصحية (مادة ١١) ، كذلك نص الدستور على مراعاة قواعد العدالة الاجتماعية في العلاقة بين العمال وأصحاب الأعمال ، وعلاقة ملاك العقارات بمستأجريها (مادة ٢٢) . مع الحث على التعاون والادخار (مادة ٢٣) وجعل العدالة الاجتماعية أساس الضرائب والتكاليف العامة (مادة ٢٤) وتضامن المجتمع في تحمل أعباء الكوارث والمحن العامة والحرب (مادة ٢٥) .

هذه المقومات الاجتماعية ، مضافة الى نظام الديمقراطية السياسية في الدولة ، وعلى أساس أصلي من التوازن بين الفرد والمجتمع ، ومن جعل رباط الدولة روحيا قبل ان يكون ماديا ، بكل ذلك تتحدد السياسة الاجتماعية للدولة ، ومن بينها دولة الكويت .

كلمة

الاستاذ الدكتور مصطفى الخشاب

أبدأ أولاً بتقرير قضية اساسية مؤداها أن ليس ثمة سياسة اجتماعية واحدة لها أصول ومقومات ، ولكن من الناحية العلمية التحليلية ومن واقع الأمر ، أمام سياسات اجتماعية كثيرة متغايرة ومتمايزة لكل منها اصولها ومقوماتها والأيدولوجية التي تركز عليها والأفكار المسيرة لها وأهدافها الرائدة . لأن السياسة الاجتماعية في مجتمع ما هي بطبيعتها انبثاق اجتماعي ، تنبثق من طبيعة المجتمع ومن ظروفه وأحداثه وآماله وطريقته في الفكر والعمل والتطبيق . حتى ما يقال عن بعض السياسات الاجتماعية المعاصرة المفروضة بقوى ضاغطة أو المرسومة وفق أطر ايدولوجية معينة لابد من القيام حيالها بعمليات الترويض والاعلام والترشيد الاجتماعي للشعارات التي تنادى بها أو الافكار التي تركز عليها هذه الأنظمة حتى ينفعل بها العقل الحجمي وتصبح معبرة عنه ومنبثقة من وحى ظروفه ويؤمن بها الرأي العام في المجتمع . فاذا لم تنجح عملية الترويض والترشيد الاجتماعي واذا لم يتكيف المجتمع ثقافيا - فكريا وعملا - بمقدرات النظام المرسوم ، قامت الصراعات بين الفئات الاجتماعية وظهرت نذر المقاومة على مسرح الحياة الاجتماعية . وهذا يفسر لنا المؤامرات والانقلابات والمهزات السياسية والاجتماعية التي تحدث في كثير من الجمهوريات الناشئة ، مثل جمهوريات أمريكا اللاتينية أو في بعض البلاد الآسيوية والافريقية المستقلة حديثا والتي لم تستقر بعد في تحديد الأطر النظرية العريضة للسياسة الاجتماعية التي تريدها

هذا ، ومن الممكن الوصول الى قضايا عامة تفسر في ضوءها اصول ومقومات مجموعة كبيرة من السياسات الاجتماعية القائمة ، هذه القضايا ، انما تنبثق في نظري ، من مضامين الفلسفة التي أثيرت بصدد تفسير وظيفة الدولة ومحاوله

الكشف عن طبيعتها ، ففي مضامين هذه الفلسفة تعددت وجهات نظر كثيرة ، وتبلورت اتجاهات متميزة . وقد اشار الاستاذ الزميل المحاضر الى اتجاهين رئيسيين : أولهما الاتجاه الذي يتخذ الفردية ركيزة أساسية للهياكل العامة في السياسة الاجتماعية . وحول الفرد لا بد ان تتلاقى محاور كل هذه السياسة . وقد أتاح هذا الاتجاه نحو النظام الرأسمالى الذى ظهرت بداياته منذ ان انهار نظام الاقطاع في أواخر العصور الوسطى وحل محله نظام المدن التجارية الكثيرة . ثم جاءت فلسفة التجارين الاقتصادية فوضعت لبنات هذا النظام . ولما انتقلت أوروبا الى الثورة الصناعية وعصر الانتاج الآلى الضخم تعمقت جذور النظام الرأسمالى وتدعمت مقوماته وبلغ من السيطرة على مقادير العالم ومصائر الشعوب مبلغا لا تخاله متوفرا في أى نظام آخر .

اما الاتجاه الثانى فيعتبر الدولة غاية في ذاتها ، ويمجد من شأنها وينادى بالمزيد لتحقيق اشرافها وسيطرتها . ويبالغ في هذا الصدد لدرجة انه يعتبرها الكل الهائل وما الفرد الا ترس صغير دائر في دولابها . تذوب شخصيته وتمحى قدراته وامكانياته بل ووجوده الذاتى في هذا الكل الهائل .

ومن الملاحظ ان بعض المجتمعات تتبنى الاتجاه الأول ، وان البعض الآخر يتبنى الاتجاه الثانى . بيد ان الثابت تاريخيا ان أولهما كان أسبق ظهورا وأوسع انتشارا وأعماق أثرا كما أشرت فيما سبق .

غير أن التطورات التى حفلت بها الحياة الاجتماعية منذ بدايات القرن الثامن عشر والتحويلات بعيدة المدى في الظروف العمرانية والاقتصادية والسياسية والثقافية ، والذبذبات التى هزت صور المجتمعات التقليدية على أثر الثورة الصناعية وانتشار المذهب الانسانى واشتداد النزعات القومية . هذا الى تطرف هذه النزعات القومية فأصبحت روحا استعمارية نازعة الى التوسع والاحتكار مما أدى الى قيام حروب اقليمية وعالمية زالت في غمارها امبراطوريات وانتشرت في ركابها ايدولوجيات ومذاهب فكرية وتيارات انحلالية هذه الأمور وما اليها

أدت الى تعقد العلاقات الفئوية والاجتماعية واضطراب الحياة الاقتصادية وانخفاض مستويات المعيشة والحياة لاسيما بالنسبة للفئات الكادحة التي لا تملك حيل التقدم التكنولوجي الا قوة ابدانها . ومن ثم ، قويت تحركات العنف والتحدى والصدام المسلح ولا سيما في البلاد التي تهيأ لها حكومات مستنيره تستطيع الوصول الى حلول وسطى بين قوى الانتاج الصاعدة الى الاحتكارية بصورة رهيبه ، وبين قوى العمل النازلة الى اسفل درجات السلم الاجتماعى .

وكان من الطبيعى ، والحالة هذه ، ان يرتفع نداءات الاصلاح وتدوى صيحات الانقاذ ، وتسيل أقلام المفكرين والكتاب . ومن ثم ، رأت طائفة كبيرة من رجال الاصلاح الاجتماعى ومن زعماء السياسة ان الأمر يتطلب تعديلات جذرية عميقة في بناء السياسة الاجتماعية القائمة . وأجمعوا على ان هذه التعديلات تكاد تتركز في ثلاثة :

أولهما : تحويل ملكية رأس المال المنتج الى قوة جمعية .

وثانيهما : محاولة الحد من الملكيات الخاصة وتحديدتها تحديدا كليا أو جزئيا .

وثالثهما : زيادة تدخل الدولة تدخلا مباشرا لتنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وارسائها ارساء سليما على قواعد أدنى الى تحقيق العدالة والمساواة .

وعلى أثر انتشار هذه الأفكار الرائدة كمحاولة أولى لاصلاح المعقد من شئون الحياة السياسية والاقتصادية أصيبت النظرية الفردية أو « الاتجاه الفردى » بنكسة قاتلة وراح انصاره يقومون بحملات دعائية مضادة .

وقد أعطى المد والجزر الفكرى ، والأخذ والعطاء التحليلى ، والتحدى والرد عليه ، أعطى كل هذا الفرصة لقيام مدرسة أكثر اعتدالا تنادى « بالتلاقى حول حلول وسطى » بحيث لا تغالى المجتمعات في الأخذ بالمذهب الفردى ، ولا تتركب من الشطط في محاولة القضاء على النظم القائمة . والتف حول هذا الاتجاه الوسط

لفيف من رجال الاجتماع ورجال الاقتصاد وأخصهم بالذكر مدرسة الأكاديمين الاقتصاديين من اساتذة الاقتصاد في ألمانيا . فقد أيد هؤلاء جميعا فكرة التلاقي عند نقط اعتدال وحلول وسطى للمتناقضات والصراعات الاجتماعية والطبقية . وهذا الوسط العدل ليس نقطة هندسية بين طرفين متناقضين في المصالح والأهداف ، ولكنه ما تحكم الظروف بأنه كذلك - بمعنى انه يكون أحيانا نحو الفردية ، وأحيانا أخرى نحو الاشتراكية وأفضل انا شخصا ان أسمى هذا الاتجاه المعتدل بمذهب التضامن الاجتماعي أو اصحاب النظرة الاجتماعية في تفسير وظيفة الدولة .

وقد بنى اصحاب هذا الاتجاه مذهبوا اليه على اساسين :

الأساس الأول : هو الابقاء على الحريات والحقوق الأساسية للفرد . مثل الحريات العامة والخاصة وحق الأمان الاجتماعي وحرية التعاقد وحق الحياة في أسرة . مع تدعيم نظام الأسرة باعتبارها الخلية الأولى في بناء المجتمع . ولإصلاح المجتمع الكبير وهو الدولة الا اذا كانت الخلية الأولى وهي الأسرة بمنأى عن كل انحراف ومدعمة بكل امكانيات الفرد والمجتمع .

والأساس الثاني : هو تقوية الدولة وزيادة اشرافها وسيطرتها على المشروعات التي تنوء بها المجهودات الفردية والتي يتجه الانتاج فيها الى الاحتكارية والسيطرة على سوق العمل والانتاج . هذا الى زيادة تدخلها لتنظيم العلاقات الاقتصادية التي ساءت بين قطبي الرحي في عملية الانتاج الآلى وهما العمل ورأس المال .

وقد لقي هذا الاتجاه المعتدل ارتياحا كبيرا من جانب كثير من الدول الصناعية والنامية على السواء حتى التي لا توصف بأنها دولا اشتراكية . فطعمت سياساتها الاجتماعية وهياكلها الاقتصادية الرئيسية بكثير من المبادئ التي تنادى بها هذه النظرية المعتدلة التي تذوب في مضامينها أو على الأقل تتميع بعض المتناقضات في الاتجاهات المتطرفة . ولذلك لجأت مثل هذه الدول الى « اجراءات توفيقية » تتمثل في زيادة فرض الضرائب التصاعدية ، والحد من الملكية الفردية وتأمين بعض أو كل المرافق والمشروعات التي تصل فيها الاحتكارية الى درجة لا تتيح

صالح العام . هذا الى القيام بطائفة كبيرة من مشروعات الرعاية والتنمية الاجتماعية ، ووضع طائفة أخرى من التشريعات المتعلقة بنظم الضمان والتأمين والتكافل الاجتماعى والتشريعات العمالية والصناعية وما إليها من التشريعات التى لا بد من القيام بها للقضاء على نذر المقاومة والصراع بين فئات المجتمع .

وقد حققت هذه النظرية الاجتماعية نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية بعيدة المدى ، أهمها :

١ - حقق للشعوب قدرا غير يسير من العدالة الاجتماعية فضيق عن هذا الطريق من الفواصل الطبقيّة ، وخفف الى حد كبير من حدة التزمّت بين فئات المجتمع . وقضى بذلك على أهم أسباب الحقد والحسد الاجتماعى بين أبناء الوطن الواحد .

٢ - وقف هذا المذهب المعتدل سدا منيعا يحول دون انتشار الحركات الاشتراكية والتيارات المتطرفة العنيفة . فخفت حدة هذه التيارات وانحصرت محليا . ولم يتح لها ما كانت ترمى اليه من سرعة الذبوع والانتشار ومن العمل على قلب النظم القائمة رأسا على عقب .

٣ - انقذ هذا المذهب النظرية الديمقراطية من الانهيار لأن هذه النظرية بحسب مبادئها التقليدية ما كانت لتقوى على مجابهة الانقلابات السياسية والصراعات المتزايدة القائمة على اساس العمل المباشر (الثورة) .

٤ - كان هذا المذهب عاملا هاما في تقوية روح التضامن الاجتماعى وذلك بفضل مانبه اليه من ضرورة تعزيز المشاركات الوجدانية وعواطف حب الخير وتوضيح الرؤيا أمام طبيعة الوجود الاجتماعى ومقومات البناء الاجتماعى الذى يركز بصفة اساسية على درجتى التوحيد والتكامل في الفكر والعمل والهدف .

٥ - بفضل هذا الاتجاه قامت الدول بتنفيذ مشروعات واسعة النطاق للرعاية والانعاش الاجتماعى ووضع مخططات هادفة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية فشعرت الشعوب بالارتياح والاطمئنان الاجتماعى والانتقال الى حياة أفضل .

وبالإضافة الى هذه النظرة الفلسفية والمذهبية لأصول ومقومات السياسة الاجتماعية ، يمكننا ان ننظر الى الموضوع من زاوية اخرى لا تقل عن الزاوية التى تحدثنا عنها أهمية وذلك فيما يتصل بمقومات السياسة الاجتماعية بصفة عامة.

غنى عن البيان ، ان الفلسفة بكل مضامينها — سواء ما يتعلق بفلسفة الدولة أو بفلسفة الأخلاق والـ———— والكونيات ، قد نشأت في أحضان الدين وتربت في المهاد الدينية . فليس لنا ان نذكر — ومن حقنا ان نذكر — ان الدين . وأى دين — يعتبر المعين الأساسى الذى استقت منه ولا تزال تستقى منه الشعوب كل مقومات سياساتها الاجتماعية .

ان الدين ، وكل دين ، انما جاء لاسعاد البشر وتنظيم العلاقات بين البشر بعضهم والبعض الآخر ، وبين البشر والقوى القدسية التى يتجهون اليها بالعبادة . وكل دين انما يدعو الى الحرية والأخاء والمساواة وتحقيق العدالة والتكافل الاجتماعى في ارقى الصور وأرفع المستويات . فكلما كانت السياسات الاجتماعية أكثر التصاقا واقترابا وتحقيقا لقيم الدين وأحكامه ووصاياه ، كانت أكثر تطبيقا لمبادئ الحرية والعدالة والمساواة وهى الغايات المشودة واللبنيات الأولى الضرورية للحفاظ على سلامة النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والبعد بها عن الهزات التى تعصف بها من حين لآخر . هذا ، الى ان استناد هذه المقومات الى قيم دينية ، يزيدها رسوخا في نفوس الأفراد ، ويجعلها اسبر غورا في مشاعرهم الجمعية ، كما يجعل الافراد أكثر طواعية وانصياعا لما تمليه عليهم لأننا نعرف يقينا ان النظام الدينى من أخطر النظم الاجتماعية ومن أقواها شأنا ومن ابلغها اثرا في رسم المقومات الاساسية لسلوك منطقي . كما نعرف يقينا ان ليس ثمة عاطفة انسانية ارسب في نفس الانسان من العاطفة الدينية . ومن ثم ، فان كل ما يوحى به الدين وكل ما يأمر به الدين ، وكل ما ينصح به الدين ، لاشك انه يكون موضع الطاعة التلقائية وليست الطاعة المفروضة بالقانون .

وتنطوى كل الديانات ، ولا تؤثر دينا على دين ، على قيم ومبادئ تعتبر من أهم المقومات الأساسية التى نستقى منها السياسات الاجتماعية والسياسية لأن ما

من دين الـ وأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويوصى بالتكافل والتضامن الاجتماعي في أرقى صورته ويركز على المساواة والحرية والعدالة ويدعو الى التنظيم الاجتماعي البناء الذي يحقق أسمى الغايات الانسانية .

فمثلا الدين الاسلامي : دين اجتماعي ، والنظام الاجتماعي والسياسي جزء من الدين . ولا يقل اهتمامه بالسياسة الاجتماعية وتنظيم المعاملات اصولا وفروعا عن اهتمامه بالعقائد والعبادات . وقد جرى حديثنا المتواتر على القول ان الدين عند الله هو المعاملة . ولعلنا نعرف مبلغ اهتمام الدين بوضع تشريعات دقيقة وتفريعات أدق لكثير من النظم الاجتماعية والعلاقات المنظمة لحياة الأفراد في المجتمع في الحريات العامة والخاصة ومدى تحقيق الأمان الاجتماعي وفي الحقوق العامة والمدنية وفي شئون الأسرة والاقتصاد ونظام الحكم وموازن الحكم الصالح ومقوماته وأهدافه مما لا يتسع المقام للكلام فيه .

حتى العبادات الاسلامية ، ولو أنها في حقيقتها تقرر العلاقة بين الانسان والذات الالهية ولكنها تحمل في مضامينها كل مقومات وأصول السياسة الاجتماعية المحققة لسلامة بناء المجتمع . فالصلاة مثلا هي حرص على المجتمع من الجرائم لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . والحج تعارف اجتماعي ومن أبلغ الوسائل لتحقيق التوحد الفكري والعاطفي والوحدة المتكاملة في الاهداف والآمال . والصوم تطهير لذات الفرد وسمو بعواطفه وأحاسيسه لأن الرقي الذاتي اساس الرقي الاجتماعي . والزكاة تكافل وتضامن اجتماعي في أرقى صورته وتنطوي على تربية للضمير الاجتماعي لأنها تجعل الآحاد مندمجين في الحياة الاجتماعية لأن السهم حق معلوم قبل المجتمع : الفقير في كنف الغنى ، والمريض في رعاية المعافي ، والشيوخ في حماية الشبيبة . حتى الكفارات فان اداءها وفرضها ينطويان على اعتذار اجتماعي عما لحق المجتمع من خروج على قيمه وأوضاعه . وبمعنى اجتماعي حديث هي دفاع اجتماعي ضد سلامة النظم ، هذا ، الى تعميق مضامين النظم والقيم الاجتماعية في الضمير الاجتماعي .

وفي ضوء التحليل المتقدم والاعتبارات التي اشرت اليها ، فاني على صواب ان اعتبر الدين من اقوى الروافد التي تغذى الاصول والمقومات العامة للسياسات الاجتماعية ، ففي معينه الذي لا ينضب وفي رحاب تعاليمه ووصاياه وأحكامه نقرأ صورة فذة أخذه لما ينبغي ان تكون عليه السياسة الاجتماعية المنشودة .

واذا كنت قد ضربت أمثلة مما جاء في الدين الاسلامي ، لا يفوتني ان ألمح الى بعض مجاعات به المسيحية قبل الاسلام من مبادئ وقيم ترسي الهياكل الاساسية للسياسات الاجتماعية . فالمسيحية في هذا الصدد لا تقل شأنًا عن الاسلام . فقد نادت في فجر قيامها بأن الله سبحانه وزع انواره على عباده بالتساوي . فليس من عبد وحر ورقيق وسيد ، وفقير وغني ، ووضع الآباء الأول حدودا لما ينبغي ان يكون عليه الحكم الصالح وحدودا للطاعة الاجتماعية والسياسية : ونادى مفكروها بأن النظرية المسيحية اذا كانت قد قبلت نظام الملكية الفردية على ما هو عليه ، فذلك لأنه نظام قائم والعبث به يؤدي الى توترات واضطرابات قد تنال من وحدة العالم المسيحي ، هذا الى ان الملكية في ذاتها اصطلاح اجتماعي نافع وتؤدي وظيفة اجتماعية ولكن اذا عز على الشعب ان يجد اقواته الضرورية ، وانقلبت الملكية شرا اجتماعيا ، فان الشعب في حل من يمين الطاعة والولاء للحاكم السياسي الشرعي (سان اوغسطين) .

هذه الاشارات السريعة تدلنا على ان المسيحية كالاسلام كانت اشتراكية الاتجاه بمعنى انها تتلاقى مع ما يمكن ان نسميه الاتجاهات الاشتراكية اليمينية المعتدلة .

ويحضرني في هذا الصدد ، تأييدا لما ألمحت اليه ، أن أول رسالة ترشيديّة نشرها عالم مسيحي كبير هو الفيلسوف (كليمنت) زعيم المدرسة المسيحية الاسكندرية كانت بعنوان « من ذلك الغنى الذي تكتب له النجاة ؟ » وكانت اجابته في الرسالة على هذا السؤال في غاية الوضوح والصراحة : « بع كل ما تملك وتصدق به على الفقراء » . وقد اثارت هذه الرسالة ثائرة العالم المسيحي الغربي

وأحدثت هزة عنيفة في اقتصادياته فاضطر (كليمنت) تحت تأثير من البابوات ان يعدل الى حد ما في مضمون اجابته وأعاد نشر رسالته بعنوان : « من هو ذلك الغنى الذى تكتب له النجاة ؟ » وأجاب « بع كل ما تملك وتصدق به على الكنيسة » وذلك باعتبار ان الكنيسة في النظرية المسيحية هي الشعب المسيحى بأكمله . وقد استغل هذا التحليل من جانب كليمنت أسوأ استغلال وكان أول ركيعة لما جرى به العرف في التاريخ المسيحى حتى وصلت أملاك وأوقاف الكنيسة المسيحية حتى عصر نابليون الى ثلث أملاك أوروبا .

وحماذى القول ، ان الدين الذى يدعو الى أرقى المثل وأسمى القيم ، ويوصى بكل المقومات الضرورية للحرص على البناء الاجتماعى في أكمل وأدق الصور ، ان الدين الذى يدعو الأفراد الى محراب واحد وإلى كعبة واحدة ومواقف متكاملة ، لاشك انه يمثل « مقولة » من « المقولات » الأساسية التى تستمد منها مقومات وأصول السياسات الاجتماعية

السِّيَاسَةُ السُّكَّانِيَّةُ
وَالْتَّخْطِيطُ لِتَمْنِيَةِ الْمَوَارِدِ الْبَشَرِيَّةِ

كلمة

الدكتور محمد علي الشناوي

أولاً : السياسة السكانية

المقصود بالسياسة السكانية هو أن تتخذ الدولة موقفاً واضحاً محدداً تقرر بمقتضاه اتجاهها العام من الناحية الديموجرافية وتحدد بموجبه أهدافها القريبة المباشرة وغاياتها البعيدة المدى . . . وتوفر عن طريقه الوسائل اللازمة لتحقيق هذه الاهداف . . . وبذلك تقضى على الارتجال والعشوائية والتخبط . . . ولا يمكن التحدث عن التخطيط في مجتمع من المجتمعات في غيبة السياسة السكانية لأنها من أهم مقوماته بل هي حجر أساسى ودعامة ضرورية لا يمكن التخطيط بدونها . . . فالسكان هم دعامة الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أى مجتمع وهم يمثلون الصورة الحية النابضة التى تعكس واقع هذا المجتمع ونوع الحياة فيه ونوع المشكلات التى يعانى منها . ولا بد للمخطط في المرحلة التى تسبق اعداد الخطة أن يبدأ بمعرفة البنية السكانية وأن يحيط بأهم عناصرها .

ومن الحقائق المسلم بها أن التنمية بمفهومها ومحتواها ومستواها الذى ستحدث عنه الليلة لا يمكن أن تتحقق عن طريق القرارات العفوية التى يكون طابعها الارتجال والاجتهاد والتعجل لمواجهة المواقف الوقتية والظروف الآنية ولا يمكن الوصول إليها في غياب سياسة سكانية طويلة المدى واضحة المعالم محددة الاهداف تضمن للمجتمع تطوره ونمائه وتقيه من التردى في المزالق والمخاطر في الحاضر أو المستقبل .

المشكلة السكانية :

تعتبر المشكلة السكانية من أهم المشكلات التي تعرقل مسيرة الدول النامية وهي في طريقتها للقضاء على التخلف الاقتصادي والاجتماعي خلال النصف الثاني من القرن العشرين . وتمثل التنمية الاقتصادية في احداث تغييرات جذرية في هيكل الاقتصاد القومي بهدف تحقيق زيادة مستمرة في متوسط دخل الفرد الحقيقي خلال فترة زمنية معينة بحيث يستفيد منها معظم أفراد المجتمع وقد يحدث أن يزيد الدخل القومي بنسبة معينة ويزيد عدد السكان بالنسبة التي تستوعب الزيادة في الدخل القومي . ويرتب على ذلك أن يبقى دخل الفرد على ما كان عليه لان دخل الفرد هو عبارة عن خارج قسمة الدخل القومي على عدد السكان . وهكذا يبدو بوضوح انه لا يمكن التحدث عن تنمية اقتصادية الا اذا زاد الدخل القومي بنسبة أكبر من النسبة التي تستهلكها الزيادة السكانية حتى يمكن تحقيق زيادة في متوسط دخل الفرد .

ومن المعروف أن هناك حجم أمثل للسكان وهو ذلك الحجم الذي تكون عنده الانتاجية النسبية للفرد أقصى ما يمكن ومن ثم يكون متوسط دخل الفرد أقصى ما يمكن فاذا كان عدد السكان في الدولة أقل من هذا الحجم فإن الزيادة في عدد السكان تكون في هذه الحالة مطلوبة بشرط أن تكون مصحوبة ببرامج متكاملة لتنمية الموارد البشرية ولتحريك القوى العاملة وتطويرها وتدريبها والارتفاع بمستواها . . عندئذ تؤدي الزيادة السكانية الى زيادة متوسط دخل الفرد . . ويرجع ذلك الى امكان توفير القوى العاملة اللازمة المدربة المتخصصة وامكان استغلال أفضل للموارد الطبيعية والاقتصادية والارتفاع بالمرافق العامة بطريقة اسلم واتساع حجم السوق و . . . الخ .

ولكن الواقع أن معظم الدول النامية تعاني من الضغط السكاني بمعنى أن عدد السكان فيها قد تجاوز الحجم الأمثل في ظل الاوضاع السائدة فيها بحيث يصبح استمرار تزايد السكان بمعدلات مرتفعة معوقاً أساسياً من معوقات التنمية الاقتصادية والاجتماعية لانه يؤدي الى تحويل جزء كبير من النشاط الاقتصادي

الى انتاج السلع الاستهلاكية دون السلع الانتاجية وزيادة حدة مشكلة البطالة المقنعة ، وزيادة عدد السكان الذين ينتمون الى فئة السن غير المنتجة وزيادة المبالغ المخصصة للانفاق على الخدمات العامة كالـتعليم والخدمات الصحية والمرافق ، وخلق عدد من المشكلات . مثل مشكلات التوظيف والاستخدام والاسكان والمواصلات وغيرها من المشكلات التي يحتاج حلها الى انفاق جزء كبير من الدخل القومي .

لقد أجريت عدة دراسات لتحديد الأسباب التي تؤدي الى ارتفاع معدل المواليد وتبين منها أن أسباب هذه الظاهرة تعود الى عدة عوامل أهمها ما يلي :

- ١ - انخفاض الحد الأدنى لسن الزواج ولا سيما بالنسبة للفتيات .
- ٢ - انخفاض تكاليف تربية الاطفال .
- ٣ - سيادة الانتاج الزراعى أو الاقتصاد الـبدوى واعتبار الاطفال مورداً اقتصادياً للأسرة في ظل هذا النوع من الاقتصاد السائد .
- ٤ - ارتفاع نسبة الامية .
- ٥ - انتشار فكرة العائلة الكبيرة حيث يسود الاعتقاد بأن قوة العائلة تتوقف على عدد أفرادها .
- ٦ - ارتفاع معدل وفيات الاطفال .
- ٧ - الرغبة في انجاب مولود ذكر بسبب نظام الميراث .
- ٨ - تعدد الزوجات وانتشار ظاهرة الطلاق .
- ٩ - التفسير الخاطىء للتعاليم الدينية .
- ١٠ - التفاوت الصارخ في توزيع الدخل .
- ١١ - عدم انتشار وسائل تنظيم النسل .

جاء في تقرير لهيئة الأمم المتحدة أن عدد سكان العالم سيريد من ٣,٥٠٠ مليون عام ١٩٦٩ الى ٦,٠٠٠ مليون عام ٢٠٠٠

السنة	عدد سكان العالم بالمليون
١	٢٥٠
٥٠٠	٣٠٠
١٢٠٠	٣٥٠
١٥٠٠	٤٠٠
١٨٠٠	٨٥٠
١٨٥٠	١٠٠
١٩١٥	١٧٠٠
١٩٤٠	٢٢٠٠
١٩٦٩	٣٥٠٠
٢٠٠٠	٦٠٠٠

من هذا الجدول يتضح أن عدد سكان العالم قد تزايد في خلال الـ ١٥ قرناً الأولى من التقويم الميلادي من ٢٥٠ مليون إلى ٤٠٠ مليون أي أن نسبة الزيادة في ١٥٠٠ سنة لم تزد على ٦٢٪ في حين تزايد عدد سكان العالم خلال الفترة من ١٥٠٠ إلى ١٩٦٩ من ٤٠٠ مليون إلى ٣٥٠٠ مليون أي أن نسبة الزيادة خلال ٤٧٠ عاماً قد تضاعفت أكثر من ١١ مرة .

ويسكن حالياً ٧٠٪ من مجموع سكان العالم في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية (٢٥ مليون) وستزيد هذه النسبة عام ٢٠٠٠ وسيصبح عدد سكان آسيا ٣٥ مليون نسمة أي مثل عدد سكان العالم عام ١٩٦٩ .

إن الزيادة السكانية الهائلة التي حدثت في الدول النامية لم يصحبها تطوّر اقتصادي ملائم ولم ترافقها زيادة في الموارد الاقتصادية . . . في حين نجد في البلدان المتقدمة أن تطوّر الوسائل الصحية وما نتج عنها من زيادة في السكان قد

سار جنباً الى جنب مع تطور التقدم الاقتصادى — بل كان نتيجة له الى حد كبير — أما في البلدان السائرة نحو النمو فنجد فيها فرقا واضحا بين تطور استخدام الوسائل الصحية الحديثة ونتائجها السكانية وبين تطور التقدم الاقتصادى وموارد المعيشة ومن هنا تبدو المشكلة الرئيسية التى تواجه هذه الدول وهى مشكلة التوفيق بين امكانيات الاقتصاد وبين الاوضاع السكانية .

وقد نشأت المشكلة السكانية في الدول المتخلفة نتيجة لتحسن الاحوال الصحية مما أدى الى انخفاض معدلات الوفيات مع ثبات معدل المواليد . . ذلك أن الزيادة الطبيعية للسكان في الدولة في فترة معينة هى الفرق بين المواليد والوفيات فيها خلال فترة زمنية محدده . . وكل دراسة جديده عن السكان لا بد أن تؤدى الى ضرورة تعريف الناس بأنفسهم ومواردهم كى يتدبروا واجباتهم نحو أطفالهم الذين يمنحونهم الحياة . وينبغى على الدول النامية التى بها ضغط سكاني أن تدرك هذا قبل أن تصل زيادة السكان فيها الى حد خطر وقبل فوات الوقت المناسب لتعمل ما تنقذ به نفسها من المصير المظلم . . . اذ أن معظم الدول النامية لديها امكانيات محدودة جدا للادخار فيكون الميل فيها للادخار ضعيفا ويزداد ضعفاً كلما ازداد ضغط السكان تبعاً للزيادة المطردة كل عام . ويترتب على ذلك أن يصل تكوين رأس المال في هذه الدول الى درجة من الضعف لا تسمح بتوفير رأس المال اللازم لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية للدولة .

وتختلف المشكلة السكانية من بلد الى آخر وليس هناك حل مطلق ينطبق على جميع البلدان المتخلفة والسائرة في النمو . . . ولكى يتخذ أى بلد موقفا سليماً من هذه المشكلة ينبغى أن يطرح الاسئلة التالية : —

- ١ — ما هى الزيادة المتوقعة في عدد سكانه خلال ١٠ — ٢٠ سنة ؟
- ٢ — ما هى الهجرة المطلوبة إليه والمحتملة منه ؟
- ٣ — ما هى الاستثمارات الضرورية للارتفاع بمستوى الدخل القومى وزيادة الدخل الفردى واستيعاب الزيادة السكانية ؟

٤ - ما هي الاستثمارات اللازمة لاجتياز فرص عمل للزيادة السكانية المتوقعة وزيادة الانتاج الفردي بنسبة معينة ؟

٥ - هل تسمح الموارد الاقتصادية القومية بتحويل هذه الاستثمارات وهل يمكن للمساعدات الخارجية أن تسد العجزان وجد ؟

وفي حالة الاجابة السلبية على السؤال الاخير لابد للبلد أن يتجه الى الحد من الزيادة السكانية .

وتواجه الدول النامية مشكلة كبيرة في مواجهة هذا الضغط السكاني اذ يقع عليها في هذه الحالة مسئوليتان كبيرتان أولهما توفير وسائل الحياة الضرورية من سلع وخدمات وفرص عمل ومرافق لهذه الاعداد المتزايدة من السكان كل عام وثانيهما العمل على رفع مستوى المعيشة المتدنى فيها وتقليل المسافة الهائلة التي تفصل بينها وبين الدول التي سبقتها في التنمية .

فالحل الاقتصادي للمشكلة السكانية يفترض توظيف جزء هام من الدخل القومي في مشروعات التنمية ويجدر بنا أن نشير الى أن أى زيادة سكانية بمقدار ١ ٪ في السنة تحتاج الى توظيف ٣ - ٥ ٪ من الدخل القومي في مشروعات التنمية وهذا يعنى أن الزيادة السكانية السنوية اذا كانت ٢.٥ ٪ فان هذه الزيادة تحتاج الى توظيف ٧.٥ - ١٢.٥ ٪ من الدخل القومي في مشروعات التنمية وتوظيف مثل هذه النسب في مشروعات التنمية ليس بالامر السهل دون شك .

نخلص من ذلك أن الحل الاقتصادي لمشكلة الانفجار السكاني في الدول النامية يحتاج الى موارد اقتصادية ومالية هائلة والى مشروعات استثمارية وامكانيات ضخمة تعجز تلك الدول عن توفيرها ومن هنا فان **الحل السكاني** يفرض نفسه على تلك الدول . . على أن الحل السكاني بدوره ليس يسيرا ولا سيما في البلدان المتخلفة فالحد من النسل يصطدم بعقبات كثيرة اقتصادية واجتماعية وثقافية ودينية . . ويزيد من حدة المشكلة السكانية في الدول النامية فتوة السكان . . أى وجود نسبة عالية من الاطفال والشباب دون سن العمل فيها . . فنجد أن نسبة

الاطفال والشباب دون الخامسة عشر في الدول العربية قد وصلت الى ٤١٪ بينما لا يتجاوزون في بلد كالسويد نسبة ٣٠٪ وتعليم مثل هذه الاعداد الفتيه واعالتهأ أمر صعب يصطدم بالامكانيات المالية المحدودة في هذه البلدان .

المخططون لابد لهم قبل اعداد خطة للتنمية من جميع البيانات والمعاومات حول أوضاع البلد في مختلف وجوها لكي يبنون عايتها الخطة ويتمون على أساسها تنبوءاتهم واستراتيجيتهم وعلى رأس هذه المعلومات يهتم المخططون بالمعلومات السكانية المتصلة بالهرم السكاني العام وبمعدل الزيادة السكانية وبالتنبؤ بعدد السكان خلال مرحلة الخطة وبتوزيع السكان على فئات العمر والنوع والمناطق الجغرافية وبعدد السكان العاملين وتوزيعهم على قطاعات النشاط الاقتصادي والمهني المختلفة ومعدلات الهجرة الداخلية والهجرة الخارجية .

ان الاوضاع السكانية ومكوناتها ومشكلاتها لها صلة مباشرة بالصورة التي يمكن بها أن تتحقق التنمية لانها تلعب دورا كبيرا في العملية التخطيطية .

تأثير التنمية في الاحوال السكانية :

من المعروف أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية تؤدي الى انخفاض كل من معدل الوفيات ومعدل المواليد ويرجع ذلك للاسباب الاتية : —

من حيث انخفاض معدل الوفيات :

١ — اتباع الاجراءات الوقائية كالتطعيم والتحصين ضد الامراض المستوطنة والوقائية واستخدام المبيدات للقضاء على الحشرات التي تساعد على انتشار الامراض الوبائية كالكوليرا والتيفوس والملاريا .

٢ — زيادة الانتاج الزراعي وتوفر الطعام والغذاء مما أدى الى القضاء على المجاعات التي كانت تعاني منها الدول المتخلفة والتي كان يذهب صحتها عدد كبير من السكان .

٣ — تقدم العلم والطب والجراحة والوسائل العلاجية بوجه عام .

٤ — ارتفاع المستوى الصحي نتيجة تحسن مستوى التغذية وانخفاض نسبة الامية وتوفر المساكن الصحية والمياه الصالحة للشرب .

ومن حيث انخفاض معدل المواليد :

١ - ان انتشار التعليم يؤدى الى انخفاض معدل المواليد لان الفرد المتعلم يكون في مستوى يسمح له بالتفكير والتخطيط لمستقبل أسرته فيلجأ الى تقليل عدد أولاده حتى يستطيع أن يعتنى بهم وبتعليمهم وبتوفير مستقبل أفضل لهم .

٢ - ان انخفاض معدل الوفيات نتيجة للتنمية يؤدى الى انخفاض معدل المواليد اذ يشعر الفرد بأن كثرة الانجاب لتفادى أو لتعويض الوفيات الكثيرة لضمان أن يبقى بعضهم على قيد الحياة لم يعد له ما يبرره بعد أن يلمس عمليا أن معدل الوفيات بين الاطفال قد تناقض بصورة كبيرة .

٣ - تحرير المرأة وتعليمها وخروجها للعمل خارج المنزل واكتسابها الحقوق المدنية يؤدى الى تأخير سن الزواج والى اتجاهها نحو تحديد النسل .

٤ - التحول من الحياة الريفية والبدوية الى الحياة الحضرية يغير اتجاهات السكان نحو كثرة الانجاب بسبب ما تتكلفه حياة المدينة من مصروفات باهظة .

٥ - التقدم الاقتصادى والرغبة في اقتناء السلع وشراء الاشياء التى لم يكن يحتاج اليها الفرد في حياته الريفية أو البدوية مثل السيارات والثلاجات والمكيفات فضلا عن احتياجه للانفاق على وسائل الترفيه كل ذلك لا يمكن معه اتجاه الفرد الى كثرة الابناء لما في ذلك من أعباء عائلية كثيرة .

القوة البشرية :

تعرف القوة البشرية بأنها جميع الافراد القادرين على العمل المنتج بصرف النظر عن رغبتهم فيه أو كونهم يعملون أو لا يعملون أو عملهم نظير أجر معين أو بدون أجر والذين تقع أعمارهم بين حدين أدنى وأعلى (١٥ - ٦٥) وبذلك يعتبر خارج القوة البشرية حسب هذا التعريف جميع الاطفال الذين هم دون سن العمل وكبار السن الذين تضطربهم الشيخوخة للتقاعد عن العمل وكذلك الافراد عاجزون عن العمل بسبب المرض أو العجز .

أما القوة العاملة فتقتصر على الافراد القادرين على العمل والمشتغلون فعلا وكذلك المتعطلين مؤقتا عن العمل ولكنهم راغبون في العمل قادرون عليه وباحثون عنه وكذلك أفراد القوات المسلحة ان لم ينص على استبعادهم وقصر الحصر على القوى العاملة المدنية فقط . . . وبذلك يستبعد من قوة العمل طلبه المدارس والجامعات ، ربات البيوت ، نزلاء السجون والمصححات ، والزاهدون عن العمل من المستكفين الذين يعيشون على ما تدره أملاكهم وعقاراتهم من أرباح دون أن يشتركوها في ادارتها .

والسكان في كل بلدهم الثروة البشرية وأهم عناصر الانتاج فيه اذ لا يمكن بدونهم استغلال الموارد الاخرى أو استغلال عناصر الانتاج الأخرى واستثمارها ومن هنا كان توفر العنصر البشرى كما وكيفا هو الذى يحقق الاستغلال الامثل لعناصر الانتاج الأخرى .

وكثرة السكان أو قلتهم في بلد ما يرتبط بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى فيه ارتباط الانتاج بالاستهلاك . . . وعلى أى حال فان ظاهرة الكثرة أو القلة السكانية هى في حقيقتها ظاهرة نسبية تتوقف على مجموعة من العوامل منها مساحة الرقعة التى يعيشون عليها ونسبة المساحة العمرانية والمساحة الزراعية وكميات الموارد المتاحة الظاهرة منها والكامنة ونوع هذه الموارد وصفات السكان ومميزاتهم ومستوى المعيشة ونوع النشاط الاقتصادى والمستوى الحضارى وغير ذلك . . . فقد تضيق رقعة ما من الارض بشكائنها مع أن الرقعة المماثلة التى يعيش عليها عدد مماثل من السكان لا تعتبر مزدحمة بهم بسبب كفاية الموارد والامكانيات لا احتياجات السكان في الثانية وقصورها في الاولى وبسبب اختلاف نوع احتياجات السكان في كل من الرقعتين واختلاف مستوى المعيشة ودرجة الطموح والتطلع الى مستويات أعلى من الحياة واختلاف أساليب الفن الانتاجى في الرقعتين . . .

ثانياً - التخطيط لتنمية الموارد البشرية

التخطيط هو ذلك الأسلوب العلمى الذى يستخدمه المجتمع ليحدد بموجبه ملامح المستقبل القريب والبعيد بحيث يوائم بين امكانيات المجتمع المتاحة وموارده المستقبلية وبين احتياجاته ومتطلباته في الحاضر والمستقبل وليحقق عن طريقه الاهداف العامة للمجتمع في التقدم الاقتصادى والاجتماعى . . . أى أن التخطيط أداة أو وسيلة أو طريقة عمل علمية حيادية يمكن استعمالها في جميع النشاطات الانسانية ولتحقيق مختلف الاهداف . .

فالتخطيط اولا وسيلة وليس هدفاً في حد ذاته . . فهو أداة للوصول إلى أهداف معينة وأسلوب عمل لتحقيق هذه الاهداف بأقل تكلفة وأقصر وقت وهو أسلوب يستند إلى أسس ومبادئ علمية مقرر وهو جهد عقلاى يتطلب معرفة وخبرة ودراية وهو وسيلة حيادية يمكن استعمالها لتحقيق مختلف الاهداف في مختلف المجتمعات .

اما الخطة فهي مجموعة القرارات والبرامج والمشروعات والتدابير والاجراءات والتنظيمات التى تتخذ من أجل تحقيق أهداف معينة . . ومنطلق التخطيط هو الروح العلمية التى قوامها دراسة الاشياء لمعرفة قوانينها بغية التأثير في مجراها وتسييرها تسييراً يتلاءم مع الاهداف القومية وذلك عن طريق التدخل الادارى لنشكّلها تشكّلاً جديداً يسمح بخلق ظروف جديدة يمكن بمقتضاها تحقيق الاهداف المرجوة .

والتنمية تعنى في أساسها النمو الذى يصاحبه التغيير الهادف القائم على أساس من الدراسات والبحوث الانمائية . . . والبحوث الانمائية لا تأخذ بالنظرة المنفردة في التحليل ولا بالتفسير الواحد الضيق للاشياء . . ولا ترد الظواهر إلى سبب واحد منعزل لأنها تأخذ بالتفسير الدائرى المتداخل الذى ينظر إلى ارتباط الظواهر

بعضها ببعض والذى يقيم بين هذه الظواهر صلة سببية تكشف العلاقة بين الاسباب والمسببات صلة تقوم على الاخذ والعطاء . . . على التعاون والتكاتف لتحقيق الهدف المشترك ومن هنا فان التنمية السلمية لا يمكن أن تكون تنمية اقتصادية بمعزل عن التنمية الاجتماعية أو العكس لان التنمية اما أن تكون متكاملة ومترابطة في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية وإلا فقدت أغراضها وفشلت في تحقيق أهدافها في تنمية الانسان .

فالتخطيط الشامل له جانبه الاقتصادى وجانبه الاجتماعى والجانبان يمثلان وجهى العملة بحيث تفقد العملة قيمتها اذا فقدت أحد وجهيها . . . ومثل هذه النظرة الشاملة المتكاملة إلى التنمية وإلى دور البشر في خلقها ودفعها وإلى دورها هي في تنمية الانسان والارتفاع بكفاءته وخبرته ومستوى رفاهيته هي النظرة التي أخذت تسود منذ بدء عقد التنمية الاول في الستينات وهي النظرة التي يجب أن يكون لها السيادة اذا أريد للتنمية أن تحقق النمو الذى يصاحبه تغيير هادف . .

ان تنمية البشر هي رأس كل تنمية وأساس كل تقدم لان الانسان هو المحرك والدافع إلى خلق التنمية وإلى تفجير سائر الثروات بعلمه وقدرته ومهارته وخبرته . . بل هو القادر على خلق الثروة والكشف عنها .

وتنمية الموارد البشرية بمعناها الواسع هي عملية بناء المعرفة والمهارات وتطوير القدرات والخبرات والارتفاع بمستوى طاقات العمل والملكات الفكرية لكل الناس في المجتمع . . . وبمعنى آخر هي عملية خلق الرجال وتكوين القادة القادرين على اطلاق شرارة العمل الجمعى المبدع وتحريك الطاقات الخلاقة . . . طاقات المعرفة ، والدراية ، والكفاءة ، لاستخراج ثروات أوطانهم ، والارتفاع بطاقاته الانتاجية وزيادة الدخل القومى . . والمجتمع العربى - شأنه في ذلك شأن الدول النامية يحتاج أول ما يحتاج إلى روح المبادرة وروح الخلق والابداع وإلى الفكر الرائد الجريء الذى ينتقب ويبحث ويتغلب على صعوبات المادة والحياة .

اما أساليب التخطيط المعمول به في اكثر من البلاد العربية ما زال قاصراً عن تحقيق أهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبعيداً عن الوصول إلى التنمية الانسانية العديقة . . . ويجب أن ننبه إلى أن التخطيط ليس عصاً سحرية تستطيع أن تغير البلاد والعباد وإلى اننا لا نستخرج من التخطيط كمخرجات Inputs الاحسب المدخلات Outputs التي نستخدمها في تكوين أطاره ومحتوياته . . ولا نحصل منه الا بتمدر ما نتيحه له من قيادة مؤمنة وأهداف واقعية وسياسة واضحة واستراتيجية بناءة وموارد كافية وامكانيات وافية ومشاركة جماهيرية فعالة . . .

والتخطيط الذي نتحدث عنه ليس أى تخطيط وانما هو تخطيط قادر على أن يحرك بنية المجتمع المتخلفة ليطلق منها طاقات التقدم ويمنحها قوة الدفع المستمر ليحيلها بنية ديناميكية حية قادرة على النمو الذاتي المتزايد للانطلاق نحو آفاق جديدة من التقدم والنماء وهو أسلوب علمي أخذت به الدول الاشتراكية والدول الرأسمالية على حد سواء وتبنته معظم الدول النامية باعتباره وسيلتها الفعالة للقضاء على التخلف والوصول إلى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

لماذا التخطيط لتنمية الموارد البشرية ؟

١ - خلال ربع القرن الماضي ظهرت نتائج بحوث علمية كثيرة شدت الانتباه إلى النظرة الحديثة للتنمية البشرية على أنها نوع من التوظيف لرأس المال لان لها عائداً ومردوداً اقتصادياً . . . وانحسرت النظرة القديمة التي كانت تنظر إلى التعليم والتدريب والسكان والصحة وخدمات الترويج والرعاية الاجتماعية باعتبارها مجرد خدمة تقدم للمواطنين واستهلاكاً لرؤوس الاموال وليست استثماراً لها وقد ترتب على ذلك الاهتمام بالتخطيط لتنمية الموارد البشرية باعتبار أن رأس المال البشرى هو أغلى الموارد القومية وأعزها وهو أكثر رؤوس الاموال عطاءً اذ لا سبيل إلى

الارتفاع بالاقتصاد والانتاج والدخل القومى ما لم نعد العنصر البشرى
الاعداد الذى يسمح له بتسيير عجلة الاقتصاد ويستجيب لحاجات المجتمع
الحديث المتزايدة من مهندسين واطباء ومعلمين واداريين وفنيين
ومتخصصين وعلماء مبدعين لما هو لاء جميعاً من دور هام وأساسى في
تحقيق التنمية القومية .

٢ - التجارب التى مرت بها بعض الدول التى بلأت إلى التخطيط خلال العقدين
الماضيين . . فقد ركزت تلك الدول استثماراتها على التصنيع وعلى
المشروعات الاقتصادية على أساس الافتراض بأن التنمية الاقتصادية هى
أساس كل تنمية . . وأن النمو الاقتصادى يؤدى لا محالة إلى التقدم
الاجتماعى . . هذه التجارب تشير إلى أن السبب الرئيسى في عدم تحقيق
الاهداف العامة المحددة لخطتها كان يكمن في قصور الموارد البشرية وفي
تدهور مستوى التنظيم والادارة . . . هذه التجارب أكدت بما لا يدع
مجالاً للشك بأن التخطيط للتنمية لا يمكن أن يحقق أهدافه الا عن طريق
التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة المتكاملة .

٣ - بالرغم من زيادة الاهتمام في السنوات الاخيرة في الدول العربية بالتعليم
والتدريب غير أن هذا الاهتمام اتجه إلى الكم دون الكيف وإلى المظهر
دون الجوهر فهى تعاني من نقص المدرسين المؤهلين الأكفاء . . وعدم
كفاية وسائل توجيه التعليم إلى النواحي العلمية . . ومن طرق التدريس
التقليدية . . ومن المناهج القديمة التى تحتوى على برامج لا تتمشى مع روح
العصر . . ومن المعامل التى تفتقر إلى الاجهزة العلمية . . والورش التى
ينقصها المعدات الحديثة . . والمكتبات التى لا تضم المراجع العلمية
الاساسية . . ومن عدم الاهتمام بالتوجيه المهنى وترتب على
ذلك بطبيعة الحال تخريج مجموعات من الشباب غير معدين لحياة المستقبل .
غير مدربين على متطلبات العمل . . غير قادرين على تطبيق الافكار
النظرية على الواقع العملى

ولقد شاركت جامعاتنا المجتمع في تخلفه ولم تنجح في احداث تغيير حقيقى في العقلية العامة للدارسين فيها وهى عقلية ما زالت تنقصها الحركة وتحكمها الرواسب الموروثة والمحاكاة البلهاء فجامعاتنا قامت وما زالت تقوم على الافتراض البالى بأن العلم هو مجموعة من المحفوظات المقدسة يدخلها الطالب بعد أن خضع بغير رحمة لصنوف عديدة من الازهاب الفكرى وبدلا من أن يجد فيها مجالا للتخلص من آثار عملية الغاء ذاتيته التى لاحقته في البيت والمدرسة يكتمل فيها انغلاقه على معلومات سينسأها مع الزمن ويبقى بعدها غير قادر على التفكير الحر أو التعبير السليم .

فجامعاتنا تعتمد على التلقين وتعتبر مهمتها قد اكتملت إذا أنبتت نتائج الامتحان أن الطلبة قد أجادوا حفظ المعلومات التى تلقوها عن اساتذتهم . . وهذه الفكرة موروثة عن جامعات العصور الوسطى التى تميزت بطابع كهنوتى فرض عليها التسليم بحقائق مطلقة يحفظها التلاميذ عن أساتذتهم . وبالرغم من أن الجامعات العريقة في الدول المتقدمة قد تخلت عن هذا الاسلوب فإن جامعاتنا التى نقلته عنها في مرحلة سابقة لا زالت مكبلة به تحت ضغط الافكار التقليدية والعدد الهائل للطلبة وضعف الامكانيات . . . اما اذا نظرنا إلى الجامعة كموسسة تهدف إلى قيادة التغيير في المجتمع وادخال العصرية والترشيد في حياته فان وظيفتها الاولى ينبغى أن تكمن في تزويد الطالب بوسائل التفكير العلمى والتعبير السليم سواء في مجال تخصصه المحدد أو في نظرتة العامة إلى الظواهر المحيطة به . . وهذه وظيفة لا يمكن تحقيقها على أساس الحفظ والتلقين مهما بلغ المضمون . . بل تحتاج على العكس إلى تدريب الطالب على المناقشة الحرة والبحث العلمى في قاعات البحوث وحلقات المناقشة إلى جانب امداده بجد أدنى من المعلومات الاساسية عن طريق المحاضرات . وبالرغم من الجهود التى بذلت في كثير من الدول العربية في السنوات الاخيرة لعلاج هذه المشاكل الا أن الحاجة ما زالت ماسة إلى الاخذ بالاسلوب التخطيطى للتغلب على هذه الصعوبات

وحتى يمكن اعداد الشباب وتدريبه وتنمية قدراته ليكون عدة الحاضر
وأمل المستقبل .

٤ - المشكلات الاجتماعية تتميز بالتشابك والترابط والتداخل بحيث تؤثر كل
منها في الأخرى وتتأثر بها في صورة دائرية متصلة الحلقات ولذلك فان
الحلول التي تقدم لهذه المشكلات لابد أن تكون متكاملة متناسقة تجمع بينها
نظرة واحدة شاملة ويحيط بها اطار الخطة فكلنا يعرف أن أى مشكلة
اجتماعية تجر غيرها وأنه لا يوجد حل كامل لها الا من خلال طائفة من
الحلول تتناول هذه المشكلات جميعا .

وهكذا لانستطيع أن نرسم خطة لجانب واحد من جوانب المشكلة
الكلية أو أن نخطط لميدان واحد . . لان كيان المجتمع كيان عضوى
مترابط يعمل عمل الجسد الواحد ولا سبيل إلى علاج عضو من أعضائه
الا في اطار سائر الاعضاء ومن هنا كانت الاصلاحات الجزئية
التي تتناول بعض جوانب المشكلة اصلاحات عرجاء لا تؤتى أكلها وما
تلبث حتى تصطدم بالواقع . . ذلك لأن هذه الاصلاحات لم تنظر إلى
المسألة بكليتها ولم تنظر إلى الواقع في تداخله وتشابكه وترابطه وحاولت
التعدى لجانب واحد منها دون أن تدرك أن هذا الجانب جزء من كل ...
ومعنى هذا أن الوسيلة الناجعة للمشكلة هي في أن تصدر دوما عن نظرة
شاملة للموقف بكلياته وجزئياته وان تكون حلولنا الجزئية وليدة فلسفة
تخطيطية مقرررة ووليدة اهداف عامة محددة وذلك بوضع خطة واقعية
تحيط الموضوع من كل زواياه واقطاره وتحدد انعكاس كل تغيير في مجال
من مجالات التنمية على سائر المجالات .

٥ - هناك فقدان للتوازن بين النشاطات الاقتصادية والعمرانية من جانب وبين
الخدمات من جانب آخر وفقدان للتوازن في توزيع الخدمات بين المناطق
الجغرافية المختلفة وبين الذكور والأناث وبين جماعات السن المختلفة
وبين الطبقات الاجتماعية المتباينة . . . وفقدان للتوازن بين الجانب الكمي

والجانب الكيفي في هذه الخدمات . . . وفقدان للتوازن بين الخدمات التي تقدمها القطاعات المختلفة (التربية والتعليم والتدريب) . . . وهناك فوق ذلك كله فقدان للتوازن بين العرض والطلب على القوى العاملة ويتمثل ذلك في النقص الكبير الذي تعاني منه بلادنا العربية في بعض المهن الاستراتيجية في الوقت الذي تشكو فيه من زيادة اعداد المتعطلين من الكتبه والعمال غير المهرة والتخطيط لتنمية الموارد البشرية هو الاسلوب الذي يمكن بمقتضاه تحقيق التوازن المطلوب .

٦ - ظهور عيوب كثيرة ومشاكل متعددة في التنظيم والادارة . . . فتعيين الموظفين وترقيتهم لا يعتمد على الكفاءة والقدرة بقدر اعتماده على المحسوبية والاقدمية والشخص المناسب لا يوضع في المكان المناسب ، والمرتبات غير كافية والطرق التنظيمية ناقصة والكفاءات الادارية قليلة فضلا عن المركزية الشديدة والبيروقراطية العقيمة . والأساليب الروتينية التي عفا عليها الزمن . . . هذه الامور تمثل عقبات خطيرة يجب العمل على علاجها دون تأخير إذا أريد لخطط التنمية أن تحقق أهدافها في توفير مستقبل باسم وغد مشرق سعيد .

٧ - أن التنمية الخلاقة التي تدفع المجتمع الى مرحلة الانطلاق هي التنمية الذاتية التي تقوم على تعبئة الموارد المحلية وتحريكها وحسن استخدامها وهو أمر لا يمكن أن يتحقق دون استجابة الجماهير الواعية بدورها في معركة البناء والتنمية . . . المستعدة لتقديم الشخصيات . . . القادرة على المشاركة الإيجابية في عمليات التخطيط والتنفيذ . . . المدركة لمسئولياتها في ازالة التناقضات الاجتماعية وحسم الصراعات الطبقية المؤمنة بمثلها وقيمها الروحية في تحقيق معادة الانسان . . والتخطيط لتنمية الموارد البشرية هو الاسلوب الذي يسمح بتحقيق مثل هذه التنمية الخلاقة .

٨ - ووراء هذه المبررات جميعها مبرر عام مرده هذا الايمان المترأيد الذي بدأ يشيع في عصرنا . . وهو الايمان بالتخطيط بوجه عام واعتباره وسيلة

المجتمعات لسيطرة الانسان على مقدراته وتحكمه في مستقبله ومستقبل الأجيال الصاعدة بالقدر الممكن للوصول الى الازدهار والتقدم .

تحديد الأهداف العامة

وتقرير استراتيجية التنمية

١ - تعتبر عملية تحديد الأهداف العامة هي نقطة البدء الأساسية ولا يمكن الوصول اليها الا عن طريق البحث والدراسة العلمية . وليست عملية تحديد أهداف الخطة عملية فنية بحتة يختص بها خبراء التخطيط وحدهم بل هي عملية فنية سياسية . . . فإلى جانب كونها عمل فني من حيث اعتمادها على دراسات وبحوث فنية تحدد موارد المجتمع وامكانياته في الحاضر والمستقبل وتقدر احتياجات هذا المجتمع ومتطلباته . . فهي أيضا عمل سياسى لأن الساسة هم المسئولون عن رسم السياسة العامة وترجمة آمال المجتمع وتطلعاته وتحديد حجم التضحيات ومستواها وهم الذين يبدون السلطة الضرورية النهائية في اصدار التوجيهات العامة لاعداد الخطة. ويشارك في تدارس هذه الاهداف في تحديدها فمختلف الأجهزة السياسية والنيابية والشعبية والنقابات والاتحادات وغيرها من منظمات المجتمع قبل أن يصدر بها قرار من السلطة العليا في الدولة . . وتختلف درجة المشاركة باختلاف الانظمة السياسية والاجتماعية وباختلاف مراكز القوة السياسية والاقتصادية . وتختلف الاهداف العامة للخطة باختلاف عدد من العوامل أهمها :

- الفلسفة الاجتماعية للتخطيط في المجتمع .
- الاهداف القومية الأساسية .
- الموارد المتوفرة والامكانيات المتاحة .
- نوع المشكلات التي يواجهها المجتمع .
- المستوى الاقتصادي والاجتماعى والسياسى والثقافى للمجتمع .

- درجة الطموح ودرجة الاستعداد للتضحية أو المجتمع .
- المدة المحددة لتحقيق الاهداف .
- ٢- ولا يقف الأمر عند تحديد الغايات أو الاهداف العامة التي تكون عادة غامضة ومبهمة وتحتاج إلى تعيين أدق لحدود هذه الغايات وفي هذه المرحلة تساؤلات كثيرة منها .
- ما هو المقصود برفع مستوى المعيشة ؟ هل يعنى إتاحة فرص استهلاك السلع المعمره أو إتاحة قدر أكبر من الخدمات ؟
- ما نوع المستوى الذى نستهدفه ؟
- كيف نحقق هذا المستوى المستهدف ومتى يمكن الوصول اليه ؟
- ما هو نوع التحسن المطلوب في المستوى الصحى وكيف ومتى يمكن الوصول اليه وما تكلفه ذلك ؟
- هل يمكن تحقيق استخدام كامل للقوى العاملة كيف ومتى ؟
- ما هى نسبة الذين يمكن قبولهم في التعليم الابتدائى ومتى يمكن استيعاب جميع الأطفال في التعليم الابتدائى ؟
- هل نعطي الأولوية للتعليم الابتدائى أو الاعدادى أو الثانوى العام أو أو الفنى أو التعليم العالى ؟
- ماهو الشكل المناسب المطلوب تحقيقه في اليوم التعليمى ؟
- ما هى الأماكن المتوفرة لاعداد المعلمين والأبنية المدرسية والوسائل التعليمية والمناهج اللازمة ؟
- ما هى أنواع التدريب اللازمة للتنمية البشرية على المستويات المختلفة ؟
- هل هيكل الأجور والخوافز يساعد على تشجيع تنمية المهارات النادرة وحسن استخدامها ؟ وما هى الاجراءات التي يمكن اتخاذها في هذا الشأن في حدود الموارد المهمة ؟

الاجابة على هذه الاسئلة وغيرها تمثل الحدود العريضة لرسم استراتيجية التخطيط لتنمية الموارد البشرية وهي تعين حدود هذه التنمية ومداها والمدة اللازمة لتحقيقها والتكلفة التي تتطلبها . .

٣ - ومما لا شك فيه أن استراتيجية التنمية البشرية تتطلب بالدرجة الاولى تحليلا علميا من الناحيتين الكمية والكيفية للعلاقات والروابط التي تربط بين مؤشرات التنمية . وتحليلا موضوعيا للموقف الحاضر ولاحتياجات النمو الاقتصادي والتقدم الاجتماعي في المستقبل القريب والبعيد في حدود الموارد المتاحة والأهداف القومية وفي ضوء أوليات واضحة محددة بالصور التي تؤدي إلى الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة لتحقيق أقصى قدر ممكن من أهداف التنمية .

ويلاحظ في بلادنا العربية أننا في تحديدنا للأوليات في الميدان الاجتماعي بصفة هامة نهتم بحساب تكلفة البرامج والمشروعات دون اهتمام بحساب العائد منها . . وحبذا لو بذلت بعض الجهود للعمل على بحث امكانية تطبيق طريقة تحليل التكلفة والعائد Const/Benefit Analysis وطريقة درجة فعاليتها Degree of Effectiveness في اعداد المشروعات الاجتماعية لتقدير القيمة الاقتصادية والاجتماعية لكل مشروع حتى يمكن ترتيب أولويات المشروعات داخل القطاع الواحد ومقارنة القيمة الاقتصادية ودرجة الفعالة للمشروعات في القطاعات المختلفة وتحديد الحجم الأمثل للمشروع ووضع أسس علمية أمام السلطات المسؤولة لاختيار المشروعات في الخطط القومية .

٤ - من المعروف أن الوسائل المتاحة لتنمية الموارد البشرية في المجتمعات محدودة ولهذا فان جميع الدول تجد لزماً عليها أن تلجأ إلى أسلوب الاختيار في استخدام ما لديها من وسائل محدودة . . ويتم هذا الاختيار حسب أوليات محددة تقرر على أسس مختلفة قد تكون اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو دينية أو غيرها .

٥ - المشروعات والبرامج يجب إعدادها وتصحيحها بما يتفق وظروف المجتمع وموارده وقيمه وامكانياته ومع طبيعة المشكلة التي يراد حلها وليس على أساس المحاكاة والتقليد لما نراه في بلاد الغير ونعجب به تجنباً للتكاليف الباهظة وقلة الفعالية وصعوبة التكيف مع ظروف واحتياجات المجتمع .

٦ - أن مهمة تنمية الموارد البشرية تستلزم وجود جهاز كبير منظم
جهاز دائم قادر على القيام بمهامه الأساسية ليضمن لعملية التخطيط للبشر طابع الاستمرار أو الاتصال والتكامل والتناسق والتوازن والواقعية والشمول... ويجب أن يكون هذا الجهاز جزءاً من الجهاز المركزي للتخطيط القومي ضماناً للربط والتنسيق والتكامل العضوي والوظيفي بين خطط التنمية البشرية فيما بين قطاعاتها المختلفة وداخل كل قطاع منها وفيما بينها جميعاً وبين قطاعات الاقتصاد القومي وخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

كلمة الاستاذ فيصل المزيدي

ان كان عدد سكان الكويت نصفه كويتيون فالأسماء من هذه الحالة أن العاملين من الكويتيين هم ٢٣٪ فقط من عدد العاملين في الكويت، والأسماء من ذلك أكثر ايضاً ان المهنيين المؤهلين لا يشكلون حتى ٢٥٪ من المؤهلين العاملين في الكويت هذه كلها تعمل في مجتمع اصطناعي جداً ليس له مقومات أبداً ولذلك فهو مجتمع في نزول ولا يبقى .

عدد السكان ونوعيته من أهم مقومات الدولة وذلك من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

فمن الناحية الاجتماعية تقوم على هذه الحقيقة أسس تكوين مجتمع برمته - فاذا كان المجتمع مجتمعاً صناعياً فله مشاكل اجتماعية صناعية - واذا كان مجتمعاً زراعياً له مشاكل اجتماعية أخرى - وكل مجتمع معين له علاج يختلف فيه تفكير العلماء الاجتماعيين .

من الناحية الاقتصادية فالشخص الذي أعطى السكان أو قيمة العمل أكبر قيمة هو « كارل ماركس » الذي لم يدع أنه استلم نبوته من عند الله سبحانه وتعالى ويدين بهذه النبوة اليوم نصف سكان البشرية . واذا كان الحجم مهم فإن هذا الدين اليوم هو الدين السائد في العالم .

هذا الشخص أعطى قيمة العمل أكثر مما كان - انما قال ان قيمة كل شيء هو ما دخله من عمل انساني أو بشري أو تفكير بشري أي أن كل شيء لم يدخل فيه تفكير أو عمل ، هو شيء لا قيمة له ،

فهو خامل لا يمكن استعماله أبدا . لكن ضع فيه بعض الفكر ، ضع فيه بعض اليد ، يتحول الى شئ يمكن استعماله ولذلك قبل ان تضع اليد او التفكير فيه فهو لا قيمة له . ولكن هل هذا يمكن اعطائه قيمة ؟ لم يوافق على هذا جميع الاقتصاديين خاصة في النصف الثاني من سكان الكرة الأرضية الذين لا يدينون في دينه . انما من الناحية العملية — اذا لم يكن هناك سكان فليس هناك مشر . ولذلك نجد الكويت بقلة سكانها لا تشكل سوقا لكي تقوم أى صناعة أو أى انتاج يمكن ان يقوم في هذا اليوم خاصة وأن الصناعة وصلت أيضا حديثا بشكل اذا أردت أن ترخص وحدة انتاجية يجب أن يكون عندك سوقا كبيرا جدا وتنتج وحدات كبيرة جدا ولأسواق لا يمكن لمثل اسواق الكويت أن تدانيها .

من الناحية السياسية حجم السكان له مدلول غريب جدا . فالهند أكبر قيمة لها اليوم لأنها كبيرة فيها حوالي ٤٠٠ مليون نسمة . ماقيمتهم جميعا ؟ لا نعرف لكن العالم كله يعطى اهمية للهند لأن حجم سكانها كبير جدا . لو قربنا الى الكويت بعض الشئ نجاء ان ايران تدعى ان عدد سكانها كبير جدا بالنسبة للكويت والسعودية والعراق ولذلك يجب أن تزيد نسبة انتاج البترول أكثر من هذه الدول مجتمعة .

فاذن هناك تأثيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية لعدد السكان ونوعيته فماذا عملنا في الكويت ؟ هل فكرنا بقيمة السكان ونوعيتهم ؟ هل فكرنا في مستقبل الكويت وحاولنا ان نوجه عدد السكان ونوعيتهم الى مستقبل أفضل ؟

أدخلنا في الكويت أنظمة ديموقراطية والأنظمة الديمقراطية لها عيوبها بقدر ما لها من فوائد . انما أحد النتائج السيئة على الأقل خلال فترة الأربع سنوات الماضية هو تعطيل تحديد أى سياسة في الكويت ومنها التخطيط بشكل عام . فمجلس التخطيط عطل في الأربع سنوات الماضية وحتى مديره ترك البلاد وذهب يدرس في الخارج . جاء مجلس الأمة مرة ثانية وبدأت الناس تفكر بالعمل الجدى من جديد . طبعنا نحن هنا لا نعتقد أن على الحكومة مادام مجلس الأمة الذى انتخب بشكل ديمقراطى مادام يسير على هذا الشكل يجب ان يحل — أنا

أعتقد ان الديمقراطية هي أهم من أى حدث من هذا النوع وهذا ما اختاره الشعب مهما كانت سياسته ولنا نحن الذين ننتخب مجلس الأمة أن نحصد ما أتينا به . في هذه الفترة التي هي أربع أو خمس سنوات الذي قمنا فيه هو انشاء جامعة ليس الا ، جامعة بدون أى ارشادات أو أية اتجاهات — هناك اساتذة أتوا وهم من خيرة الاساتذة وهم بنوا وحاولوا ان يعلموا جيلا ولكن بدون توجيه فمثلا نحن سوف نتج جيولوجيين في الكويت ما يسد حاجة الكويت لمدة خمسمائة سنة قادمة وأين سيذهب هؤلاء ماداموا يشتغلون في الجيولوجيا سيفادرون الكويت للعمل في الخارج . ليست هناك أى خطة لدى الجامعة تقول الاساتذة ما نريد من هذه الجامعة ، من هم الناس الذين نريد تخرجهم ، هل هو مجرد عدد والسلام ؟ نحن نعلم ان في انجلترا وأمريكا سوف تكون نسبة الخريجين فيها ٥ ٪ الى ١٠ ٪ زيادة على ذلك سيكون عبئا على الاقتصاد الأمريكي والبريطاني . هل نعلم نحن اذا مشينا في هذه السياسة سوف يكون عندنا أكبر من هذه النسبة من الخريجين ؟ فالى أين سنوجههم ؟ هل لهم هنا مجال عمل في البلد .

اليوم سياسة الحكومة أنها تأخذ أى واحد كويتي في العمل . لكن اذا كان انسان لا يفكر وهو غير خريج فهذا مشكلته بسيطة جدا . تعطيه وظيفة وراء الطاولة ، يجلس ساكت . لكن ان يكون خريجا وفاهما سوف لا يسكت . وهذه نواة الثورة في البلد ، أنه عندما يكون عندك أناس متعلمون بدون عمل هم الناس الذين يقومون بأى حركة تهدم المجتمع والنظم التي نصبوا اليها . فلا بد من عمل — والناس دائما تلح — يجب أن نعين الكويتيين في الحكومة في الشركات ، في محطة الكهرباء وفي أى مضمار في الحياة . ولكن هذا ليس بسيطا ابدا . افرض ان مصنعا من المصانع أو أن محطة للكهرباء تحتاج الى ١٥٠ مهندسا وتخرج فعلا ٣٠ مهندسا . هل يمكن ان نضع الـ ٣٠ مهندسا هؤلاء مكان الـ ١٥٠ مهندسا . الـ ١٥٠ مهندسا هؤلاء فيهم أناس كثيرون يحتاجون لأن يكونوا موجودين هناك ، أن يكون عندهم خبرة قدرها ٢٥ سنة ، وهناك أناس لهم ٢٠ سنة و ١٥ سنة هؤلاء لا يمكن الاستغناء عنهم أبدا الا اذا أتيت بالمهندس

الكويتي وأعطيته هذه الخبرة كلها . فاذن أى محطة أو أى وحدة صناعية لا يمكن أن تستوعب أكثر من ٥ أو ٦ في جرعة واحدة وتحاول أن تدخلهم تدريجيا لأجل أن يحلوا محل الناس الذين يفارقون . فمثلا الشخص الذي عنده ٢٥ سنة يطلع بشكل تدريجي ويحل محله آخر بالتدريج . اذا كانت للكويت اليوم فيها ألف مهندس وخرجت ٥٠٠ مهندس فهناك ٥٠٠ مهندس ليس لهم وظائف وهم مهندسون مؤهلون من الجامعات وصرفت عليهم فلوس كثيرة .

في الادارة - الادارة اليوم أيضا اصعب جدا - فالكويت تبالغ جدا أن تقول أن هناك عندها ٢٠ اداريا قديرا . فهذا شئ جديد علينا بالمرّة . الادارة هو علم حديث جدا ونحن لم نبتدئ في أى شئ جديد الا من حوالى ١٠ أو ١٥ سنة . ووجود الاداريين الأكفاء في البلد قليل جدا . لذلك تصبح هناك ضرورة لوجود خطة سكانية تحدد مستقبل الكويت - أين يتجه ، هل هو متجه ناحية صناعية ام ناحية زراعية ؟ ما هى حاجيات البلد ؟ أهى المنافع العامة والخدمات العامة ؟ كم تحتاج من مهندسين وكم تحتاج من اداريين وكم تحتاج من اقتصاديين ؟ هذه كلها ضرورية في ايجاد أى خطة في الكويت . والذي أهم من ذلك انه ليست هناك في الكويت الكليات التى هى ما بين المدرسة الثانوية والجامعة . في العالم كله هناك كليات مهنية . معظم الناس تذهب الى هذه الكليات ولا تذهب الى الجامعات . الكليات هذه مثل الكلية الصناعية ، كلية التجارة كلية تخرج محاسبين معينين . والهندسة تنفرع منها أشياء كثيرة منها الميكانيكا والسيفيل (المدنية) والاليكترونيكا الكهربائية . الخ . ليست هناك عندنا أى خطة وليست هناك أية كليات - الكل يطلع من الثانوية ويصبوا ان يكون خريجا فهذه مشكلة تواجهنا وهى كبيرة جدا . والكويت اذا ما تحللها وتدرسها بشكل عادل فسوف نرى اننا لا نحصل على الكويتيين الذين يهيئون العمل وسوف لا نحصل على الكويتيين الذين يفتشون على الوظيفة وحتى ولو وظفتهم فسوف لا يحصلون على شغل منتج ومن ثم فسوف لا يكون الناس راضين على الوضع في الكويت وبعدها ينعكس التأثير على المجتمع في الكويت كله .

الدِّفاع الاجتماعي ضد الجريمة

كلمة

الدكتور عبد الوهاب حومد

مقدمة :

منذ الازمنة السحيقة ، تتعرض الانسانية لعديد من الأوبئة ، تخيفها وتنقص عليها عيشها ، وتقضى مضجعها . وكانت تنف مكتوفة الأيدي أمامها تنظر الدمار الذى تحدثه ، دون أن تبدى أو تعيد . ولكنها في وقت ما ، أخذت تتحرك ، تفكر ، تتسأل عن أسباب هذه الأوبئة ، وعملت بعد التساؤل ، أجالا وقروناً ، حتى وفقت في مكان وتسعى جاهدة لتظفر ببغيتها في مكان آخر . فقد وفقت في القضاء على بعض الأوبئة ، التى كانت تفتك بالبشر فتكاً ذريعاً ، وحدثت من شروور بعضها الآخر ، وهى تأمل أن تجد وسائل الوقاية من البعض الذى استعصى عليها حتى الآن . والعباقرة من العلماء يفاجئوننا كل يوم بالجديد والمذهل . حتى بعض كوارث الطبيعة ، أخذت تسلسل قيادها ، كالصواعق ، في انتظار أن تساعد الأبحاث العلمية ، والأقمار الصناعية على إيجاد الوسائل التى تقضى على ويلات بعضها الآخر ، الذى لا يزال مستعصياً ، أو تحد من ويلاته ، كالزلازل والأعاصير الجاثمة المدمرة ،

إلاوباء الجريمة ، الذى نشأ مع نشأة المجتمعات الأولى ، وتمرد على كل داء ، وتمنع على كل أسلوب من أساليب المعالجة ، ولا يزال البشر في أيامنا ، فريسة أنيابه القاطعة ، كأنما يتغذى بكل ما يتترس الناس ضده من دواء ، ليندفع في استنفحال ، واتساع ، وتفاقم .

والاجرام ، الذى يتم الأطفال ويرمل النساء ، ويقض المضاجع ، ويورث الأحقاد ويؤجج الضغائن ، ويتسبب في مآسى خلقية ، وفي استلاب الأموال من أصحابها ، محتاجين وغير محتاجين ، يلقي عبثاً مالياً ثقيلاً على المجتمعات ، ويرغمها على انفاق الكثير للوقوف في وجهه ، والحد من شرووره ، كاقامة السجون ، وإيجاد المحاكم ، وإنشاء جهاز ضخيم من شرطة ورجال أمن وحراس ، وإطعام السجناء واكسائهم ، ثم انه يتسبب في حرمان الانتاج القومى من أيد عاملة ، لو بقى أصحابها شرفاء أحراراً ، لكانوا ساهموا في تنمية الثروة القومية ، بقسط يتناسب ضخامة وأهمية مع عددهم المترايد . وقد حاول بعض

الباحثين اعطاء فكرة عما تلحقه الجريمة من دمار اقتصادى ، فاعياهم الأمر ، ولكنهم مع ذلك ، قدموا أرقاماً مذهلة^(١) . وكذلك يتسبب الاجرام ، في هز كيان الأسر الوادعة ، تلك التى أصيب ربها ، وتلك التى جنى ربها على غيره أيضاً ، اذ كثيراً ما يتشرد صغارها ، ويظلون بدون معيل كاسب ، أو مشرف ، يرعاهم ويسدد خطاهم ، فتتخطفهم أيدي السوء والفساد ، ويأتون ، بقضهم وقضيضهم ، يرفدون بور الجريمة ، ويزيدون من الخطر على المجتمع .

ومنذ أقدم الأزمان ، حتى لا نحدد الزمن الأسود منذ فعله ولدى آدم ، والبشرية تسعى جاهدة لمحاولة القضاء على الاجرام ، أو الحد من ويلاته ، اذا عجزت عن استئصال شأفته . وقد استعملت ، لذلك ، مختلف الأساليب . فقد أغرقت الذين زرعوها فيها الفتنة ، وأقامت لهم مجالس النيران ، تلتهمهم أحياء ، وصلبتهم ، وخنقتهم ، وجزت أعناقهم ، وقطعت أوصالهم ، وسجنتهم وصادرت أموالهم ، ودمغتهم بالعار ، ومع ذلك لم تظفر ببيغيتها ، وانما اليوم لا تزال تفكر في أمرها ، وقد يطول بها التفكير كثيراً أيضاً . فهل الاجرام ، حالة لازمة لحياة الاجتماع ، لا يمكن أن تنفصل عنها ، بمعنى أنها موجودة في تكوين المعاشية الاجتماعية ، لا يستطيع المجتمع عزلها والانفراد بها وستظل ألصق به من أى ظاهرة اجتماعية أخرى ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؟

هذا ما يؤكده بعض العلماء^(٢) ، ولكن هؤلاء قلة لحسن الحظ ، أما الكثرة الكاثرة ، فيحلمون بمجتمع قليل الجرائم ، ولكنهم لا يخفون أن الوصول إلى هذا المجتمع لن يتم غداً أو بعد غد ، بل انه سيحتاج إلى جهود مضنية ، على المستوى العلمى ، بحثاً وتنقيباً ، وعلى المستوى الاجتماعى ، في تعدد مناحيه وتشعباته . بل ان فريقاً من الطبائيين ، كالشيوخين الأول ، كانوا يبشرون بمجتمع دون جريمة ، اذا حطموا الدولة والقانون ، وقضوا على التملك الفردى .

(١) انظر الأستاذ سذرلاند في كتابه مبادئ علم الاجرام ، ص ٢١ ، حيث يقدر دمار الجريمة بستة مليارات دولار سنوياً .

(٢) كالا اجتماعي الشهير دوركهايم .

وانه لمن المسلمات البديهيّات ، أن كل من يدرس ظاهرة مقلقة ، حار في أمر التخلص منها ، أن يسعى إلى معرفة أسبابها : فإذا عرف السبب ، ركز على اجتثاثه وأبطال مفعوله ، ليقضي على الظاهرة ، على العرض ، الذي ينبعث عنه ، ويتسبب منه .

ومادام المجتمع في حرب ضد الجريمة ، فانه ، سواء أكان مدافعا أو مهاجما ، فانه لا بد له من الاعداد جيّداً لخوض غمارها ، ودراسة حالة العدو واستراتيجيته . ومجتمعات اليوم ، كما هو واضح من الاحصاءات ، تتقهقر أمام جيش الاجرام ، وتقهقرها أظهر في أماكن منه في أماكن أخرى .

ولن أعيد هنا الاحصاءات التفصيلية التي تشير إلى تفاقم الحال ، ولكنني أجد مفيداً أن أشير إلى بعض احصاءات جديدة ، يمكن أن تعتبر تكملة لها ، تأكيداً محزناً لما كنت قلته ، محاضرة عن تفاقم الاجرام المجتمعات المعاصرة قبل سنتين^(١) .

فقد ذكر وزير داخلية بريطانيا M. ROY JENKINS ، في المؤتمر الوطني الثاني ، الذي عقد في كامبريدج بتاريخ ٢٩ - ٦ - ١٩٦٦ ، للبحث في مشاكل الاجرام ، أن « عدد الجرائم أخذ يزداد منذ سنوات عديدة ، زيادة واضحة ، في إنجلترا وفي أوروبا الغربية ، وان مسئولية قلب هذه الظاهرة تقع على كاهلي ، ولكنني أعلم أنها مهمة شاقة جداً ، وليس من السهل تحقيقها في القريب العاجل » .

وفي الحلقة التي عقدت في معهد القانون المقارن في باريس ، وحضرها أستاذان جزائريان سوفياتيان ، هما A. PIONTKOVISKIJ و S. L. ZIVS المساعدان العلميان في معهد الدولة والقانون ، للتابع لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي ، وجه سؤال إليهما عن وضع الاجرام في بلدهما ، فقالا : « ان المجتمع الاشتراكي يهتم وحده بالقضاء على الجريمة ، وسوف ينجح في ذلك ،

(٢) راجع محاضرتنا التي ألقيناها في الموسم الثقافي للعام الجامعي ١٩٦٩/٦٨ ص ٢٢٥ .

حين يبلغ المرحلة الشيوعية : وإذا كان الغربيون يرون ذلك وهما ، فإن الاشتراكيين يرونه حقيقة . غير أنهم يعترفون أنها مسألة ضخمة ، لا يمكن الوصول إلى تحقيقها في أيام وسنوات . . .

وأجابا على سؤال آخر بقولهما : ان البشرية احتاجت إلى عدة آلاف من السنين ، لتنتقل من مجتمع يقبل الرق ، إلى المجتمع البرجوازي ، ويأملان ألا تحتاج البشرية إلى خمسة آلاف سنة لتتقضى على الاجرام ^(١) .

وعلى الرغم من قلة المعلومات لدينا ، عن تحرك الاجرام في البلاد الاشتراكية (الشيوعية) ، فإن الذى يستلقت النظر ، أن قانون جمهورية روسيا السوفيتية الصادر عام ١٩٦٠ ، عاقب أفعالا لم تكن معاقبة قبلا ، مثل عدم مساعدة الأبوين المحتاجين ، وعدم اغاثة الملهوف في حالة الخطر ، والتهديد بالموت ، وبعض الجرائم الموجهة ضد حقوق المواطنين في نطاق السياسة والعمل ، وتخريب الأموال ، والاضرار بالأفراد ، والتسول والتشرد ، كما انه شدد بعض العقوبات التي وجدها رحيمة ، مثل عقوبة القتل ، وخطف الأولاد ، والذم والقذح . ويعللون هذا الاتجاه بأنه « لا يجوز لأحد أن يخرق القانون في المجتمع الاشتراكي » . ومن الملاحظ أن الروس ، منذ موت ستالين ، أخذوا يتراجعون إلى مبدأ شرعية الجرائم والعقوبات ، الذى تبناه في قانون عام ١٩٥٨ ، بعد أن كان ملغى في قانون عام ١٩٢٦ ، وترتب على هذا المبدأ قبول مبدأ هام ، من مبادئ القوانين البرجوازية ، وهو مبدأ أن الأصل براءة الذمة ، وذلك بالقائم عبء الاثبات على عاتق النيابة العامة ^(٢) .

ولكن يبدو أن الاجرام ازداد عندهم ، وشعروا بخطرهم ، حتى أنهم اضطروا إلى من سلسلة من القوانين ، لمكافحة الأعراض الجنائية المستفحلة .

(١) لخصت هذه الحلقة في مجلة العلوم الجنائية ١٩٦٣ ، ص ٣٤١ وما يليها .

(٢) انظر الموضوع الذى كتبه الأستاذ الأمريكى J. HAZARD ، أستاذ القانون المقارن في جامعة كولومبيا ، في المجلة المذكورة ، ١٩٦٤ ص ٢٩٣ ، بعنوان : القانون الجزائي السوفييتي ودولة كل الشعب .

ففي ٢٤ شباط ١٩٦١ صدر قانون يشدد العقوبات على مخالفات العملة الأجنبية ، التي تصل إلى الموت في بعض حالاتها .

وجاء في قانون ٢٥ آذار ١٩٦١ ، أنه يجوز تطبيق عقوبة الاعدام في بعض الجنايات الخطيرة ، كسرقة أموال الدولة ، وتزيف العملة من قبل محترفين .

ونص قانون ١ تموز ١٩٦١ على تشديد عقوبة المضاربة على العملة الأجنبية حتى تصل إلى الاعدام .

وفي ٢٠ شباط ١٩٦٢ ، نص قانون جديد على رفع عقوبة المرتشي إلى الموت ، اذا كانت ظروف الرشوة فظيعة جداً ، كما رفعت عقوبة الاغتصاب الجنسي الذي ترتكبه عصابة ، أو يرتكبه عائد ، أو كانت الضحية قاصرة ، إلى الاعدام أيضاً .

والذين يرتكبون هذه الجرائم لا يعودون معتبرين من طبقة العمال ، لأنهم ينتقلون حكماً إلى صف طبقة أعداء الشعب .

وتدل الاحصاءات على أن حكم الاعدام نفذ في ١٣١ شخصاً من أجل جرائم اقتصادية فقط ، ما بين تموز ١٩٦١ وشباط ١٩٦٣ . واستفحال الجريمة في العالم الغربي أكثر ظهوراً . ويكاد يلامس في امريكا خاصة نقطة الخطر . فقد نشر في واشنطن في شباط ١٩٦٧ تقرير هام عن الجريمة ، وضعت له لجنة تحقيق حكومية حول تطبيق قانون العدالة وهيئة القضاء ، وتشكل من ١٩ عضواً و ١٧٥ مستشاراً و ٦٣ معاوناً ، ومئات من المساعدين الآخرين .

ومن هذا التقرير يتضح أنه مثل أمام المؤسسات الجزائرية عام ١٩٦٥ مليوناً مواطن أمريكي ، وأن ٤٠ ٪ من الشباب لوحقوا في حياتهم ، من أجل احدي الجرائم ، غير مخالفات السير .

ويلاحظ التقرير ، أنه أجريت بحوث واسعة لدى ضحايا الاجرام أنفسهم ، وتدل هذه البحوث ، على أن الاجرام يحدث خوفاً كبيراً في الأواسط الأمريكية . فقد دلت التحريات في مدينتين كبيرتين على ما يلي :

٤٣٪ لا يجروون على الخروج ليلاً من مساكنهم

٣٥٪ يرفضون الاجابة على التليفون

٢١٪ يركبون السيارات العامة ، اذا خرجوا في الليل

٢٠٪ يفكرون في الهرب من جيرانهم خشية أن يقعوا ضحية جريمة .

وقد قدم أصحاب المسارح في نيويورك مؤخراً موعد افتتاح مسارحهم ساعة واحدة ، لتبدأ الحفلات الساعة ٧,٣٠ مساءً ، على أمل أن يعود الناس إلى رؤية التمثيليات ، التي هجروها خشية الخروج ليلاً من بيوتهم ، تفادياً من التعرض إلى قبضة المجرمين !

ويؤكد التقرير المذكور أن الأحداث الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ - ١٧ سنة ، يشكلون ٢,٤٪ من مجموع السكان ، ولكنهم يرتكبون ١٢,٨٪ من مجموع الاجرام . وتدل الدراسات على أن نسبة هؤلاء الأحداث ، سترتفع خلال العشر سنوات القادمة حتى يصبحوا ٢٣٪ من مجموع السكان . وهذا أمر أخذ يقلق السلطات العامة كثيراً .

وفي الحال الراهنة للاجرام في أمريكا ، نجد أن عدد الذين حاكمهم القضاء الجزائي (حسب احصاءات الشرطة) ، كما يلي :

عام ١٩٦٤	كان عددهم	٤٦٦٠٠٠
عام ١٩٦٥	«	٥٠٤٠٠٠
عام ١٩٦٦	«	٥٤٠٠٠٠
عام ١٩٦٧	«	٥٩١٠٠٠

وتقول المعلومات الاحصائية أن عدد الذين لوحقوا جزائيا في الولايات المتحدة ، قد تضاعف خلال ١٧ سنة . وفي فرنسا ، ارتفع عدد الشكايات ، من ٣ ملايين شكوى عام ١٩٦٠ إلى ٨ ملايين عام ١٩٦٦ ، كما يقول وكيل النائب العام لدى محكمة النقض في المؤتمر الذي عقدته جمعية علم الاجرام الفرنسية في مدينة مونبيلييه في شهر ايلول ١٩٦٨ ^(١) .

وتدل الاحصاءات على أن عدد المحكوم عليهم (ارتفع ما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٥ ، نسبة ٣٩٪ في الجنايات ^(٢) . و ٣٠٩٪ في الجنح ، أما الأحداث فقد زادت نسبتهم ١٣١٪ (من ١٨٠٠٠ الى ٤٣٧١٤) .

وفي مجلة العلوم الجنائية (عام ١٩٦٩ ص ٢٠٨) يذكر الاستاذ Susini ، أن الشكايات زادت بنسبة ٢٢٩٤٪ وجرائم الاعتداء المسلح زادت بنسبة ٨٦٪ ، والسرقاات الكبرى زادت بنسبة ٤٤٪ ، حتى سرقاات السيارات زادت بنسبة ٨٢١٪ .

وانه لأمر مذهل حقاً أن نرى أن الاجرام بواسطة السيارات يرتفع هو أيضاً بدوره بصورة متزايدة جداً ، وتشير الاحصاءاات الشرطة إلى أن جرائم القتل والاصابات الخطأ ، في فرنسا ، سارت على الشكل التالي :

عام ١٩٤٩	كان العدد	٢٠٤٠١
عام ١٩٥٤	« «	٥٦٨٤٠
عام ١٩٥٩	« «	٧٨٧٨٧
عام ١٩٦٢	« «	٩٨٧٥٢

وهذه الزيادة في الجرائم تفوق كثيراً نسبة الزيادة في السكان .

(١) جريدة Le MONDE عدد ١٦ ايلول ١٩٦٨ .

(٢) انظر R. CHARLES ، تاريخ القانون الجزائي ، طبعة ١٩٦٩ ، هامش (١) ص ١٢٦

وقد درس بعض الباحثين عام ١٩٥٤ عدد الوفيات بالنسبة إلى كل ١٠٠٠٠٠ سيارة ، وحصلوا على الأعداد التالية (١) :

في النمسا	٢٤,٥	موت
في ألمانيا الغربية	٢٢,٨	
في سويسرا	١٦,٧	
في إيطاليا	١٥,٦	
في الولايات المتحدة	٦	

وقد علق أحد الأدباء على ظاهرة السيارات التي تقتل كل عام في فرنسا وحدها ١٤٠٠٠ شخص ، بقوله أن كثيراً من الحروب ، لا تقتل ٣٥٠٠٠٠ شخصاً ، إذا اندلعت الحرب كل ٢٥ سنة مرة .. وهذا الرقم يزيد كثيراً عن ضحايا أفتك الأوبئة .

وفي مقدمة البلاد العربية التي لديها احصاءات عن تطور الاجرام ، مصر ، وتظهر هذه الاحصاءات أن الاجرام لا يزال في تقدم مطلق . فقد ذكر الاستاذ التوفى في كتابه علم الاجرام الحديث (٢) أن عدد المتهمين في جرائم القتل وحدها ارتفع من ٤٠٠٦ عام ١٩٥٦ إلى ٤٤٤٧ عام ١٩٥٧ ، وعدد المتهمين في جنایات السرقة ، ارتفع من عام ٩٢٤ عام ١٩٥٦ ، إلى ١٠٧٤ عام ١٩٥٧ . وهذه الأرقام للجنایات (ولا تدخل فيها الجنح) .

وقد تفنن المجرمون في ارتكاب الجرائم ، وأصبحوا خطراً وبيلاً يهدد كيان بعض المجتمعات حتى أن الرئيس الأمريكي نيكسون أعلن ما أسماه « الحرب الشاملة على الجريمة » ، وقدم مشروع ميزانية للكونجرس يطلب فيها تخصيص مبالغ هائلة لمكافحة الجريمة .

(١) وقد عقدت عدة مؤتمرات لدراسة هذا النوع من الاجرام ، نذكر منها ، مؤتمر فيينا السابع لعلم الاجرام عام ١٩٥٧ والمؤتمر الثامن (بروكسل عام ١٩٥٨) ، وكذلك المؤتمر الفرنسي السابع لعلم الاجرام (ليل ١٩٦٦) ، والمؤتمر الرابع لمديرى معاهد البحث الاجرامى (سترازبورغ ١٩٦٦) .

(٢) انظر كتاب الأستاذ محمد التوفى ، علم الاجرام الحديث عام ١٩٦٠ .

ولكى تكون الصورة أكثر شمولاً ، أرى أن أشير إلى ماجاء في تقرير الناطق باسم الأمم المتحدة ، في افتتاح المؤتمر الدولى الثالث للقانون الجزائى ، المنعقد في ستوكهولم عام ١٩٦٥ ، حول الاعباء التى تفرضها الجريمة على المجتمع الحديث .

فقد ذكر أن إنجلترا انفقت عام ١٩٦٣ مبلغ ١٠٠ مليون جنيه « للكفاح ضد الجريمة ومعالجة المجرمين ، وأنفقت البلاد السكندنافية مبلغ ١٥٠ مليون دولار على « مصالح الشرطة والسجون » ، وبلغت نفقات ولاية نيويورك وحدها مبلغ ٦٦٥ مليون دولار في نفس هذا العام ، وهذا المبلغ يأتى ، من حيث ضخامته ، في المرتبة الثالثة ، بعد التعليم والضمان الاجتماعى .

حتى أن الدول المتخلفة ، ابتليت بهذه المأساة ، فالتقرير المشار اليه يذكر أن نيجيريا ، مثلاً ، رصدت لميزانية الجريمة ، مبالغ تفوق كثيراً ميزانية الصحة العامة ، وأن الباكستان خصصت لمقاومتها مبالغ تفوق جميع ما تخصصه لجميع مراحل التعليم .

وفي احصاء حصلت عليه بشأن تطور الاجرام في الكويت ، يتضح أن الجنايات التى نظرت فيها المحاكم الكويتية ، زادت من ٥٨٧ جناية عام ١٩٦١ إلى ١٥٣١ عام ١٩٦٧ ، وأن عدد الجنح ارتفع من ٢٥٦٨ عام ١٩٦١ ، إلى ٣٠٧٤ جنحة عام ١٩٦٦ .

وجميع ما وقع تحت نظرى من احصاءات عالمية ، يدل ، بما لا يدع مجالاً للشك ، على أن الجريمة ، في أيامنا ، تندفع بحنون لكسب مواقع جديدة ، من آخر مظاهرها خطف الأحداث والنساء للحصول على فدية مالية ، وهو من احط أشكال الاجرام ، وأن المجرمين أخذوا يستغلون تقدم العلم والتكنولوجيا في تنفيذ جرائمهم ، لاتقان ارتكابها ، وطمس معالمها وتضليل العدالة . والعصابات المنظمة ، التى عاثت عدة عقود من السنين ، ثم خبت جذوتها ، عادت بقضها وقضيضها ، تهز كيان بعض المجتمعات ، وترهب الشرفاء من

الناس ، بالقتل وبالاتجار بالرقيق الأبيض والسموم المخدرة^(١) ، إلى درجة أن الرئيس جونسون ، اعترف في تقرير له عام ١٩٦٧ ، بأن الجريمة المنظمة تتجاوز في قدرتها قدرة الحكومات الشرعية ، وأن الرئيس الحالى نيكسون يستعد لتوقيع سلسلة من القوانين « تتضمن اعلان الحرب الشاملة على الجريمة المنظمة وعلى الارهابيين^(٢) » .

وهذه صورة قائمة بالتأكيد ، ولكنها تصبح أكثر قتاماً وأشد كآبة للنفس ، اذا أضفنا إلى ما قلناه ، أن الاحصاءات التى بين أيدينا ، والتى تنشرها السلطات القضائية ، لا تمثل الحقيقة الاجرامية الا تمثيلاً جزئياً فقط . ذلك أن ما يصل إلى القضاء (وهو الاجرام القانوني) ، نسبة متواضعة مما يصل إلى علم الشرطة من جرائم ، (وهو الاجرام الظاهري) ، وهذا نفسه لا يمثل الا نسبة لا تزيد على ٣٠ ٪ في أكثر الحالات تفاوتاً من الاجرام الحقيقي ، وهو الاجرام الذى يرتكب فعلاً ، ولا يصل إلى علم السلطات ، اما لأن المعتدى عليه يخشى الانتقام ، فيفضل السكوت ، أو لانه بائس من العدل والعدالة ، فيطوى جانبيه على همومه ، ويحتسب ظلامته عند الله ، أو لانه لم يجد أثراً يهديه إلى المجرم . ان القاضي ، ظل الله على الأرض ، وهو منصوب لاحقاق الحق ، وكل مظلوم يطمع في نزاهته وحياده ، فاذا مس استقلاله ، أو خيمت على سمعته ظلال الشك ، أصبح غير صالح للقضاء . ومن هنا كانت جنائية الأنظمة التى جرت القاضى إلى حماة السياسة ، جنائية لا تغتفر ، لأنها وضعت موضع تهمة لا يستطيع أن يدفعها عنه ، فأطمعت الشرير بمحاباته ، وأياست الشريف من عدله . وقد وجد بعض صغار النفوس من القضاة تربة ناسبتهم ، في عهود الفساد ، فتمرغوا في حمائها ، وتخلوا عن رسالتهم المقدسة .

ومنذ الأزمنة الممعة في القدم ، حاول الانسان أن يدافع عن نفسه وعن مجتمعه ، ضد جيش الجريمة ، ولكن مفهومه عن الجريمة ، تطور كثيراً في

(١) أعلنت شرطة مكافحة المخدرات في امريكا أنها اعتقلت في العام الماضى أكثر من ١٥٠٠٠ مهرب أفيون وحشيش هيروين ، بينهم أكثر من ٣٠٠٠ امرأة .

(٢) جريدة Le Monde الفرنسية في ١٨ / ١٠ / ١٩٧٠ ص ٤ .

مراحل التاريخ . وقد رسم العلماء الباحثون هذا التطور ، مروراً بالنصوص القديمة ، كالأساطير الشعبية والكتب المقدسة لدى الشعوب الغابرة ، والقوانين القديمة ، كالقانون السالى وقانون حمورابى البابلى الذى يعود تاريخه إلى سنة ٣٠٨٣ قبل الميلاد ، وبالشعوب البدائية ، التى لا تزال تعيش على الفطرة الأولى ، في بعض مجاهل العالم ، والتى حافظت على أعرافها وتقاليدها ، وانتقلا إلى تشكل الدول ، بمفاهيمها الأولى ، وخاصة حين أصبح الدين مصدر تشريعها الأول ، إلى الثورة الفكرية في القرن الثامن عشر ، التى خطت بالعلوم الخنائية خطوة جبارة إلى مرحلتها الفلسفية ، ليستقر مفهوم الاجرام في أيامنا ، في مرحلته العلمية الراهنة .

واقدمت تخلصت البشرية ، بعد نضال مرير ، من كثير من المفاهيم ، التى نراها اليوم نشازاً وشذوذاً . تخلصت مثلاً ، من اعتبار الجريمة لعنة أطلقتها روح شريرة ، تقمصت جسد الفاعل ، فكانوا ، من خلال ضرب المجرم ، يرمون إلى ضرب هذه الروح المسحورة ، وتخلصت من المفهوم المادى للجريمة ، اذ كانوا يعاقبون مرتكب الجريمة بطريق الخطأ ، أشد من معاقبة المجرم المتعمد ، لأن ركن النية لم يكن واضحاً لديهم ، وتخلصت من مفهوم المسؤولية الشاملة ، التى عاثت اكبر فساد وتخريب في المجتمعات القديمة ، لأن الذى كان يرتكب جريمة ، كان يجعل كل ذويه مسئولين عنها ، ويعرضهم إلى خطر الانتقام الجماعى ، وفقاً لقواعد الثأر .

وقد حفلت كتب الأدب العربى القديم ، بأشعار شتى ، تتغنى بالثأر . ويقال انهم كانوا يعتقدون أن من يقتل ولم يؤخذ بثأره ، تخرج من رأسه هامة ، تنادى على قبره « اسقونى فانى صديقه » .

ويروى أن شاعراً اسمه مفلس الفقعى قال ، يحرض قومه :
وان أخاكم قد علمت مكانه بسفح قبا تسقى عليه الأعاصر
له هامة تدعو اذا الليل جنها بنى عامر هل للهلل ثائر ؟

وكان من عادة الجاهليين ، أنهم يحرمون على أنفسهم النساء والطيب والغزل والقمار الى أن يدركوا ثأرهم . قال تأبط شرآ :

فادر كنا الثأر منهم ولما ينج ملحين الا الأقل
حلت الخمر وكانت حراما وبلاى ما ألمت نحل

وقد نهى الاسلام عن هذا التعامل الظالم ، بقوله تعالى : « يأيتها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانى بالانى .

وكذلك نخلصت البشرية ، في رحلتها الطويلة ، من عقوبات لا نرى لها اليوم معنى ، وهى عقوبات الجحاد والحيوان .

ففي قوانين أفلاطون أن الجحاد إذا سقط من تلقاء نفسه على شخص وقتله ، وجب قذفه خارج البلاد

قد حملت شريعة موسى ، الحيوانات والجحادات مسئولية جزائية . وهذا أمر يلفت النظر^(١) . كما أن هذه الشريعة قبلت مبدأ المسئولية الجزائية الشاملة .

ففي التوراة أن الرب عاقب آشان وجميع بني اسرائيل معه ، وبقره وحميمه ونعاجه وخيمته وكل ما يملكه ، وألقى بهم في النار ثم رجمهم ، لأنه استولى على أشياء محرمة .

بل انهم في أوروبا ظلوا يقيمون للحيوانات محاكم ، حتى القرن السابع عشر ، حتى ذاعت شهرة أحد المحامين ، Barthelemy CHASSENNEE ، في دفاعه عن جردان اتهمت باتلاف محاصيل منطقة Autumn .

تد أنف الاسلام من هذه الأساليب التطيرية ، أقام قبل الف ومئى سنة من تحرك الثورة الانسانية في القرن الثامن عشر ، المسئولية الجزائية على مبدأ التكليف ، وهو الادراك .

(١) أنظر EXODE الفصل XXI من ٢٨ - ٣٢ .

لم يصل الى علمي ، الا حادثة فريدة ، هي أن أحد القضاة اسمه الربيع العامري ، أمر بقتل كلب ، لأنه قتل أحد الكلاب . فهجاه أحد الشعراء بقوله :

علمت بأن الله حق لقاءه وأن الربيع العامري رقيق
أقاد لنا كلبا بكلب ، فلم يدع دماء كلاب المسلمين تضيع

وكان الشاعر الهاجى على حق في هجوه ، لأنه ليس في كتاب الله ولا سنته نبية سند لهذا المذهب العجيب ، الذى لا يدل الا على شذوذ صاحبه ، ومن قواعد مجلة الأحكام العدلية ، أن « جناية العجماء جبار » .

وفي جميع مراحل حياة البشرية ، عمدت المجتمعات الى الدفاع عن نفسها ضد الجريمة ، ونوعت الأساليب فيها ، ولكنها كانت دوما تمنى بالفشل وتصاب بالخيبة ، وينقضى جيل اثر جيل ، ولكن العجز عن مقارعتها يظل الحقيقة الثابتة . ونحن اليوم نشهد هجمة اجرامية عارمة ، في جميع أنحاء العالم ، متقدمة ومتخلفة ، قاصية ودانية ، الأمر الذى جعل كل انسان يتساءل عن نهاية المطاف لهذه الظاهرة المخيفة ، ويفكر في الوسائل المجدية الى يدافع المجتمع عن نفسه بها

ولقد شغلت مسألة الدفاع الاجتماعى بال جميع المفكرين ، منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ، بل وخاصة في يومنا هذا .

وهذا التعبير نفسه ، « الدفاع الاجتماعى » هو تعبير حديث نسبيا ، كدلالة بذاته على مدى الاهتمام بخطر الجريمة ، لأن بعض الفقهاء المعاصرين ، يريدونه تسمية لمذهب جديد ، غايته تحصين المجتمع ضد خطر الجريمة . واذا كانت الغاية هذه ، لا تصلح أن تكون موضوعا لخلاف جدى ، فان قواعد هذه المذاهب ، والوسائل الى يعتمدوها لتحقيق هذه الغاية المثلئ ، هي الى تضع كبار الفقهاء ، بعضهم في مواجهة بعض .

ولو استقرأنا المداليل الى عناها الفقهاء ، من استخدام تعبير « الدفاع الاجتماعى » ، لوجدنا بحق الهوة الى تفصل بينهم .

ومن المؤكد أن أول معنى لهذا التعبير ، هو المعنى الشائع ، الجارى على كل لسان ، وهو معنى « حماية المجتمع من الجريمة عن طريق استخدام العقوبات الراجرة » .

وقد استعمله ، في هذا المعنى ، الفقيهان الكبيران Vidal et Magnol (في كتابهما الممتاز cours de droit criminel et de science pénitentiaire الطبعة التاسعة ج ١ رقم ١٥) ، حين كتبنا :

« ان مقتضيات الاخافة والدفاع الاجتماعى ، أوصلت الى القسوة الزائدة ، والاكثر من العقوبات العنيفة » .

وقد استعمله الأستاذ Jean Signorel (في كتابه الصادر عام ١٩١٢ بعنوان : Le crime et la defense sociale ، ص ١٣٣) ، بهذا المعنى ، بل وبرر هذا المذهب بحماسة ، حين قال :

« ان دور القاضى الجزائى هو أن يطمئن الأخبار ، ويوقع الرعب في قلوب الأشرار » ، ونصح القضاة بأن يكونوا أكثر شدة مما هم عليه .

والدفاع الاجتماعى ، بهذا المعنى ، هو سياسة عملية ، تعتمد القوة والبطش ، لا رهاب المجرم ، وتحذير الآخرين ، الذين تسول لهم نفوسهم مخالفة قواعد السلوك التى ارتضاها المجتمع لنفسه .

وانطلاقا من هذا المبدأ ، تفننت المجتمعات القديمة في مطاردة المجرمين ، ومحاولة القضاء عليهم . فكانت عقوباتها ، تتصف بأنها تحكيمية ، لعدم وجود قوانين وضعية ، أو لعدم كفايتها . وقد كان من حق القاضى أن يشدد العقاب ، الى أقصى درجاته ، بما في ذلك الحكم بالموت . وكانت العقوبات تختلف بين المجرمين ، بحسب خطرهم على النظام ، وبحسب وضعهم الاجتماعى وانتماؤهم الطبقي . ولذلك كان أخطر المجرمين هو المجرم السياسى ، الذى كانوا يعتبرونه عدوا للمجتمع ، وليس مجرما فقط . وأخيرا كانت العقوبات القديمة تمتاز بعنفها الذى لا هوادة فيه .

فقد كانت عقوبة الاعدام مثلاً ، مقررة في القرون الوسطى ، لعدد كبير من الجرائم ، كالألحاد ، والبدع Rérésie ، والسحر ، والزنا ، وانتهاك حرمة الأشياء المقدسة ، والمس الشيطاني Démonomanie ، وغيرها من الجرائم التي بلغت ١١٥ في فرنسا ، و ٢٠٠ جريمة في انكلترا ، بينها بعض السرقات البسيطة . وكانت هذه العقوبة تطبق بسخاء فعلى . ويروى أن أحد قضاة القرن السابع عشر ، واسمه Cartzov كان يفاخر بأنه اصدر خلال ٤٠ عاماً ، عشرين الف حكم بالاعدام .

(انظر : محمد عبدالله محمد ، بسائط علم العقاب ص ٣٦) .

مع أن الشريعة الاسلامية لم تنص على الاعدام ، الا في التصاص عن القتل ، والا في الردة ، وهى ترك الاسلام والخروج عليه ونحن نشهد اليوم دعوة واسعة لالغاء الاعدام نهائياً . وكانت طريقة تنفيذها ، مما يقشع له البدن : فقد كانت لديهم وسيلة الدولاب ، وتمزيق الأوصال ، والحريق في نار حمرء . . . وقد ترك لنا الفقيه القديم MUYARD DE VOUGLANS وصفاً لاعدام رجل نصف مجنون ، اسمه « داميان » آتهم بمحاولة قتل الملك لويس الخامس عشر^(١) ، يدل على الدرجة التي انحطت اليها الغريزة البهيمية الانسانية .

وخشية أن يستعمل الدفاع الاجتماعى في هذا المعنى ، قاومه كثير من المفكرين المعاصرين ، ذهاباً منهم إلى أنه يناقض مبدأ الضمانات الأساسية التي يجب توفيرها لصيانة حرية الفرد وكرامته . ومن أبرز الذين أبدوا تخوفهم منه الأستاذ ريمون سالى Saléilles أستاذ القانون الجزائى في جامعة باريس ، حين كتب يقول :

« ان القاضى في النظام القديم كان مستخدماً لتأمين الدفاع الاجتماعى » أى لتأمين حماية المجتمع ، باتباع الوسائل التحكيمية . ووقف هذا الموقف نفسه ، الأستاذ الكبير « غارسون » ، وهو معاصر لسالى ، حينما دخل في مناظرات عنيفة مع العالم الجزائى الألمانى فون ليست ، أحد ثلاثة أسسوا مذهب الدفاع

(١) انظر كتابا ، الحقوق الجزائية العامة ، الطبعة السادسة ص ١١٠ .

الاجتماعى المعاصر ، ليدافع عن روح وفلسفة ثورة ١٧٨٩ الفرنسية ، متهماً بشدة على التداير الوقائية التى أخذت تحتل مكانها في الفقه الجزائى ، وعلى الأحكام غير محددة المدة .

وقد ذهب الأستاذ غارو^(١) مذهباً مماثلاً لزملائه الكلاسيكيين ، حين أكد أن فكرة الدفاع الاجتماعى قديمة جداً ، وكل ما في الأمر أن أنصاره يحاولون تجديد العقوبة بتسميتها « رد فعل الكيان الاجتماعى ضد الجريمة » .

وحين قامت المدرسة الوضعية L'Ecole positiviste التى أسسها ثلاثة من الفقهاء الايطاليين ، هم لومبروزو ، وفري ، وغاروفالو ، في الربع الأخير من القرن الماضى ، قلبت ظهر المجن للمدرسة التقليدية السائدة ، والتى يعتبر الايطالى بكاريا ، والانكليزى بنتام ، رجلها العظمين ، وهاجمت القواعد التى قامت عليها تلك المدرسة ، وبصورة خاصة ، قضية الحرية المعنوية . فقد كانت المدرسة الأولى - التقليدية - تقرر وجود الحرية في كل انسان ، وبالتالي ، تعتبر المسؤولية الجزائية ، منبعثة عن ارادة المجرم الحرة . أما المدرسة الوضعية فقد نفت هذه الارادة الحرة ، وبالتالي المسؤولية المعنوية الناشئة عنها ، واعتبرت الجريمة ثمرة تضافر عوامل بيولوجية واجتماعية ، لا حرية ولا ارادة للمجرم فيها ، ولذلك فان مسؤوليته عن الجريمة مسئولية اجتماعية محضة . وعلى هذا الأساس ، أطلقت تعبير « الدفاع الاجتماعى » على الهدف الجديد للعقوبة التى نادى به هذه المدرسة ، وهو اتخاذ تدبير وقائى من قبل المجتمع ، ضد شخص برهن على خطورته ، لشل قدرته على الأذى الاجتماعى ، وذلك باقصائه المدة التى تقتضيها حالته في مؤسسات خاصة سموها Manicômes ، أو باجثائه نهائياً ، بالقضاء عليه .

وحين نقرأ ما كتبه أنريكو فرى خاصة ، يجب أن نفهم من تعبير الدفاع الاجتماعى عنده ، هذا المفهوم الأساسى ، وهو « حماية المجتمع » .

(١) في كتاب الشهير Traite theorique et pratique de roit penial ، ١٩١٣ ج ١ ص ٨٣ .

وينعكس أثر هذا الاتجاه تشريعياً على القانون الجزائي السوفييتي لعام ١٩٢٦ ،
الذي رفض تعبير العقوبة ، واستبدالها بتعبير « تدابير الدفاع الاجتماعي ، لحماية
النظام الذي أقامته سلطة العمال والفلاحين ضد كل فعالية خطيرة » .

ولكن المنهج العلمي ، الذي سارت عليه المدرسة الوضعية ، في اعتمادها على
الدراسات الأنثروبولوجية ، وابتعادها عن الفرضيات القانونية المجردة ،
ساعدت ، فيما بعد ، على ظهور مدرسة الدفاع الاجتماعي .

ويمكن القول أن هذه المدرسة أنشئت بسعي ثلاثة من كبار القانونيين هم
فون ليست الألماني ، وفان هامل ، الهولندي ، وأدولف برنس البلجيكي عام
١٨٧٩ ، عندما أسسوا « الاتحاد الدولي للقانون الجزائي » . وما يستلقت النظر ،
أنه صدر في نفس هذه السنة ، قانون الجزء الايطالي الشهير المعروف بقانون
زنارديلي ، وهو اسم واضعه ، بوحى من العلامة الكبير الأستاذ Carrara
الذي كان من أعنف خصوم الاتجاه الوضعي . . .

وقد نصت مبادئ الاتحاد على أن « علم الجزء يجب أن يستوحى » نتائج
الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية » ، وأن « العقوبة ليست الوسيلة
الوحيدة للكفاح ضد الجريمة » .

ولكن هذا الاتحاد ابتعد عن مبادئه الأولى ، مع الزمن ، لأن الأستاذ فون
ليست ، وهو قانوني متضلع من القانون ، لم يستطع أن يسير طويلاً مع فكرة
الدفاع الاجتماعي ، لأنه يتضارب في كثير من مواقفه ، مع قانون العقوبات .
ولذلك أنقرط عقده عام ١٩١٤ .

وظل الأستاذ البلجيكي أدولف برنس وفيما لمبادئ الاتحاد الأولى ، متحمساً
لها ، ولذلك دعاه أحد غلاة هذه الحركة « الأب الحقيقي للدفاع الاجتماعي » .

وقد شرح برنس نظرية الدفاع الاجتماعي ، كما يفهمها ، في كتابه الذي
وضعه عام ١٩١٠ باسم « الدفاع الاجتماعي وتغيرات القانون الجزائي »
(La défense sociale et les transformations du droit pénal)

فقد انتقد هذا المؤلف المدرسة التقليدية ، بعدم كفاية مبدأ المسؤولية المعنوية ، أى باختيارها مبدأ الحرية المعنوية ، واقامة مذهبها الجزائى عليه . فالفاعل عندها . في الأصل حر في ارتكاب جريمته ولذلك فان مسؤوليته عنها كاملة . ولا يعفيه من المسؤولية الجزائية ، الا اذا ثبت أنه كان فاقدا لهذه الحرية ، في حالات القصر الجزائى ، والجنون والاكراه والدفاع الشرعى . ويرى برنس ، أن هذا الاختيار مستحيل ، لا استحالة اقامة الدليل على حرية المرء . وعاب على هذه المدرسة أيضا تبنيها العقوبات الحائزة للحرية القصيرة المدة ، عندما تبنت مبدأ « المسؤولية المخففة » . وعنده أن هؤلاء الذين تكون حرية اختيارهم ناقصة ، لضعف في ادراكهم ، هم أخطر المجرمين . فالافراج المبكر عنهم ، يعرض أمن المجتمع للخطر ، ويتركه دون حماية ضد أكثر المجرمين خطرا .

ولهذا النقد أساس من الصحة . ذلك أن المدرسة التقليدية ترغب في جعل العقوبة متناسبة مع الخطأ المعنوى المنسوب الى المجرم ، وهذا هدف مجرد وغير حسى ، ثم انه مطلق يستحيل تحقيقه بصورة عادلة . ومادامت العدالة الجزائية ، من عمل القضاة ، وهم بشر يتأثرون حين تقدير العقاب بمؤثرات شتى ، منها الفكرة الى كونها لأنفسهم عن المجرم ، ومنها ذلالة المحامى ، وسوابق المتهم ، ومنها ثقافتهم الشخصية ، وأمزجتهم الخاصة وكثرة القضايا التى ينظرونها ، فانها لا يمكن ان تكون ، مع الاسف ، الا عدالة نسبية .

ولذلك ، يرى برنس ، احلال مفهوم الحالة الخطرة état dangereux محل المسؤولية المعنوية . وتستخلص المحكمة الحالة الخطرة ، من دراسة شخصية المجرم ، الى لا تكون الجريمة الى ارتكبتها ، الا عرضا من الأعراض الدالة عليها . والعلماء اليوم مختلفون في تعريف الحالة الخطرة . وقد اختار قانون العقوبات السورى مثلا في المادة ٢١٠ تعريفا معتدلا حين قال : « المجرم الخطر هو كل شخص اقرف جريمة اذا كان يخشى أن يقدم على أفعال أخرى يعاقب عليها القانون » . وهو تعريف ، رغم اعتداله — لأنه لا يسمح للمجتمع أن يتعرض للشخص الا بعد ان يرتكب أول جريمة على الأقل — شديد الغموض ،

وإذا أسيء تطبيقه ، فإنه يعرض الحرية الفردية للمآسى . ولذلك يفضل بعض العلماء تحديده صراحة في نصوص القانون .

وترى الدكتورة SOLANO الأستاذة في جامعة LIMA ضرورة حصر حالات الخطر في الزمر التالية فقط :

(١) التشرد (٢) البغاء (٣) تعاطى المخدرات (٤) اللواط (٥) القصر .
ويضيف علماء آخرون (١) اللصوص المحترفين (٢) وناقصي المسؤولية الذين تدل حالتهم النفسية عن استعداد ثابت نحو الجريمة (١) .

ولمكافحة الحالة الخطرة - على فرض امكانية اكتشافها - ينادى مذهب الدفاع الاجتماعي هذا ، بإطالة مدة الحبس بالنسبة للخطرين . وهؤلاء الخطرون في رأى الأستاذ برنس هم :

- الشواذ Les anormaux ، وهم الذين يحتلون موقعا بين العتلاء والمجانين .

- والعائدون أو المعتادون .

ولكنه يصر على أن كل تدبير وقائي ضد المتهم ، يجب أن تقوم به السلطة القضائية وحدها ، وبذلك يكون مفهوم الحالة الخطرة عنده ، مفهوما قانونيا . ومن باب احتقاق الحق ، يجب أن نشير الى أن برنس ، لم يكن أكثر من منظم لمذهب الدفاع الاجتماعي . أما الفكرة نفسها ، فإنها كانت أسبق منه . وقد سبقت الإشارة الى أن المدرسة الوضعية ، هي التي أدخلت الثورة الكبرى في العلوم الجزائية ، حين أقامت علم الاجرام ، على أساس علمي أنتربولوجي ونادت بإبدال العقوبات بالتدابير الوقائية . وليست المدرسة الوضعية وحيدة في هذه الحلية . فقد واكبها فقهاء أفذاذ ، يأبى في مقدمتهم الأستاذ KARL STOSS واضع أول مشروع للقانون الجزائي السويسري عام ١٨٨٣ ، الذي تبنى مبدأ اجتناب المجرم أو اقصاءه في حالات معينة : والذي أصبح فيما بعد ، قانون عقوبات سويسرا الحالي (١٩٣٧) بعد ادخال تعديلات عليه .

(١) انظر كتابا الحقوق الجزائية العامة ، الطبعة السادسة ص ٤٦٠ .

بل ان بعض القوانين ، المستوحاة من فكرة الدفاع الاجتماعى ، قد صدرت قبل كتابه هذا بسنين طويلة ، نذكر منها على سبيل المثال قانون الاقصاء الفرنسى لعام ١٨٨٥ ، وبموجبه يتم نقل بعض المجرمين الى مستعمرة الغويان الفرنسية في امريكا الجنوبية ، والقانون النرويجى لعام ١٩٠٢ والقانون الانكليزى لعام ١٩٠٨ « Prevention of crime Act »

ولحسن الحظ ، انتشرت ، فيما بين الحربين العالميتين ١٩١٩ - ١٩٣٩ مبادئ التدابير الوقائية ، في أكثر القوانين العالمية ، انتشار النار في الهشيم ، ونسقتها بعض هذه القوانين تنسيقا رائعا . نذكر منها قانون الجزاء الايطالى ١٩٣٠ والدانمركى ١٩٣٠ وقانون الدفاع الاجتماعى البلجيكي ١٩٣٠ والقانون السويسرى ١٩٣٧ والبرازيلى ١٩٤٠ وفي هذا العام يضع بعض الفقهاء الفرنسيين مشروع قانون للدفاع الاجتماعى . وتأثرت البلاد العربية نفسها بهذا التيار ، فأخذ القانون اللبنانى بالتدابير الاحرازية عام ١٩٤٤ ، وأخذ بها القانون السورى عام ١٩٥٠ ، واحتفظ بها مشروع قانون العقوبات الموحد لمصر وسورية عام ١٩٥٩ ، وقانون أصول المحاكمات والاجراءات الجزائية الكويتى في المواد ٢٣ - ٣٥ . ولكن التشريع الكويتى ادخل تدابير الوقاية الحقيقية في المادتين ٦٦ - ٦٨ من قانون الجزاء تحت اسم العقوبات التكميلية الاضافية .

وحتى القوانين التى لم تأخذ صراحة بنظام التدابير الوقائية ، أخذت ببعضها دون أن تسميها بهذا الاسم ، فأدخلتها تحت اسم عقوبات تكميلية أو عقوبات اضافية .

فقدان ولاية نيويورك عام ١٩٢٦ أجاز اعتقال مجرمى العادة مدى الحياة إذا صدرت ضدهم سلسلة محددة من الأحكام . وطبقت بعض الولايات الأمريكية الأخرى (مثل كاليفورنيا وميشيغان) الاعتقال الطويل على مجرمى الجنس .

غير أن مرحلة سياسة الدفاع الاجتماعى الذهبية ، بدأت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية فتمتد تعرضت حقوق الانسان وكرامته ، في ظل الأنظمة الديكتاتورية في روسيا وألمانيا النازية ، وإيطاليا الفاشية خاصة إلى أقبح أساليب العنف

والتحكم ، وعوامل المجرم السياسى ، وهو عادة مجرم شريف ، معاملة العدو ، الذى يجب القضاء عليه بكل الوسائل . وبانتهاء تلك الحرب ، وإعلان حقوق الانسان عام ١٩٤٨ ، تنفس الصعداء ، ودغدغ المفكرين حلم اقامة المجتمعات الفاضلة .

وقد تبنت جميع الدول العربية ميثاق الأمم المتحدة ، واعترفت ، بالتوقيع عليه ، بأنها تقبل بما تضمنته من ضمانات قضائية وانسانية ، للانسان والمواطن .

ولكن الذى حدث عمليا ، أن حلم العرب لم يدم طويلا ، لأنهم ماكادوا يستفيقون من هول الحرب ، حتى فوجئوا بغزوة صهيونية استعمارية استيطانية لامثيل لها في التاريخ ، وقامت أنظمة تسلطية في عديد من بلادهم ، أفرغت القانون من محتواه ، ومارست عسفا وظلما لا مبرر لهما ، ولا تزال مناظر حمامات الدم ، في بعضها ، ماثلة في ذاكرة هذا الجيل .

وفي مثل هذه الأجواء ، يخنق العلم ، لأنه لا يجد له متنفسا . وقديما قال المتنبي : وآية السيف تمحو آية القلم .

وليس عن ذهول ، أننى أسقطت من دراستى حركة الدفاع الاجتماعى بمفهومه العلمى والتقنى ، عندنا ، وانما لأن الفكر لا يخصب في أجواء القمع ، وقد طال أخذه بالخنق ، ولذلك ، لم أجد الا القليل أستطيع أن أفدمه . وليس ذلك عن عقم ، ولكنها عمليات اجهاض ، لست أدري لصالح من تم ، ولا تزال ترتكب ، وكأنها تجرى وفق مخطط رهيب مدروس .

وقد تداعى في الغرب ، عدد من الفقهاء ، في أعقاب تلك الحرب الطاحنة التى « ارتكبت فيها أفعال ضد الانسان تلطخ شرف هذا العصر كله » ، كما يقول الاستاذ انسل ANCEL في كتابه « الدفاع الاجتماعى الجديد » (ص ٨٧) ، ليجددوا تراثا ضخما ، وليبعدوا التفكير في الجريمة ، باعتبارها فعل انسان ، أى ليدرسوا سبل الوقاية منها ومعالجتها ، على أساس جديد باعتبارها مسألة اجتماعية .

وهكذا ظهرت حركة جديدة للدفاع الاجتماعي ، بوجه جديد ، ورسخت جذورها في مؤتمر سان ريمو ١٩٤٧ وأعلن تشكيلها في مؤتمر لياج عام ١٩٤٩

وهذه الحركة الجديدة ، مدينة بانتعاشها إلى محام ايطالي من جنوة ، هو الاستاذ غراماتيكا . وغايتها أنها تريد أن تجعل من الدفاع الاجتماعي مذهبا مستقلا ، ثم أنها تريد ادخال روح انسانية جديدة إلى المؤسسات الجزائية .

وهكذا تظل إيطاليا ، كما يقول عنها أحد أساتذتنا ، « وطن القانون الجزائي » وفي المؤتمرات التي عقدت من أجل مذهب الدفاع الاجتماعي ظهر تياران متضاربان :

الأول : يتزعمه الايطالي غراماتيكا^(١) ، الذي ينادى بالغاء القانون الجزائي جملة وتفصيلا ، واحلال مؤسسة الدفاع الاجتماعي محله ، ويرفض مفهوم الجريمة ، لأن هذا المفهوم لا ينبه المجتمع إلى الفرد الا من خلال جريمته . وفي رأيه أن الفرد هو المهم وهو أساس النظام السياسي كله ، كما يرفض مفهوم المجرم ، لأنه لا يوجد مجرم وغير مجرم ، وإنما يوجد انسان فقط . وقد يكون هذا الانسان لا اجتماعيا ، ولذلك له حق على المجتمع أن يؤهله ، لا أن يعاقبه . وهو يرغب أن يزيل عن العقوبة فكرة اللوم الاجتماعي ، وهو في هذا يتفق مع المدرسة الوضعية .

الثاني : يتزعمه المستشار الفرنسي آنسل ، الذي يرفض كل فكرة قانونية مسبقة ، ويرى مسألة الجريمة ، مسألة فردية ، لا يمكن حلها الا بالنسبة لكل مجرم على حدة . انه ينطلق من الرجل ، الراهن ، المحسوس ، وليس الرجل المجرد ، الفرضي ، أي الرجل العقلاني ، كما تخيله ديكاكارت ، أو الرجل الألعبوبة في يد العوامل الحيوية أو الاجتماعية ، كما وصفه الوضعيون .

(١) انظر كتاب الأستاذ أحمد فتحي مرور ، سياسة الدفاع الاجتماعي ١٩٦٩ ص ٧٦ ومايلها . وكتاب الأستاذ غراماتيكا ، الدفاع الاجتماعي La Defense sociale ، مكتبة Cujas الفرنسية ١٩٦٤ .

ولذلك يطالب آنسل بإنشاء « ملف الشخصية » ، الذى يتضمن كل شئ عن المجرم ، على أن يقوم به أطباء وعلماء نفس ، وعلماء اجتماع وعلماء اجرام وغيرهم وبتعبير آخر ، انه يريد أن يحل محل نظام المسؤولية القانونية منهجا طبيا اكلينيكيًا . وليس معنى ذلك أنه يرى كل مجرم مريضا كلا ولكنه تأثر بما انتهى اليه علم العصر ، من تنوع « الجينات » الموجودة داخل الكروموزومات ، كما أنه يلج على فردية الأنسجة ، وتنوع الأمزجة ، وتأثير الافرازات الغددية والعصبية في سلوك الانسان وتصرفه .

ولهذه الاعتبارات ، يريد أن يطلق يد القاضى في اختيار ما يراه مناسباً للمتهم ، فله أن يفرض عليه عقوبة ، وله أن يتخذ ضده تدبيرا من تدابير الاحراز . ولكنه يشترط أن يتم ذلك ، ضمن حدود القانون ، وفي أقصى الضمانات القانونية الممكنة . ويمتاز اتجاه آنسل ، بروحانيته ، لأنه يقبل مبدأ الحرية المعنوية اساسا للمسؤولية الجزائية ، وباعتماده على التفكير العلمى لمعرفة أسباب الجريمة العضوية والنفسية والاجتماعية ، كما يمتاز برأيه الواضح بأن المجتمع لم يوجد الا بواسطة الانسان ومن أجله . وهو يتمسك ببقاء قانون الجزاء ، ويقول بوجود تعاونه مع علم الاجرام ، والدفاع الاجتماعى الجديد الذى وضعه هو .

وقد تعذر على مؤتمرات الدفاع الاجتماعى ، أن توفق بين هذين الاتجاهين ، وانتهت الى اتخاذ مقررات ، وافق عليها المؤتمرين جميعا عام ١٩٥٤ ، اعتبرت برنامج الحد الأدنى للمذهب الجديد .

ومن أبرز قواعد هذا البرنامج المناداة بضرورة احترام القيم الانسانية ، وذلك بأن نقتنع بأننا لا يمكن ان نطلب من المجرمين ان يسلكوا سلوكا لا تشوبه شائبه . اذا نحن لم ننصرف حيالهم تصرفا يطابق قواعد المدنية المعاصرة ، وضرورة اقامة القانون الجزائى على قواعد علمية سليمة ، دون التقوقع على الغيبات ومسائل ماوراء الطبيعة مثل مبدأ الاستعادة في المساهمة الجزائية ، وهذا لا يعنى الاعتماد على التدابير التى اثبتت التجربة العملية المحضنة نجاحها ضد المجرمين . وهذه التدابير يجب ان تبقى مرنة جدا ، لتظل متلائمة مع تقلبات شخصية الفاعل ،

وخاصة اثناء تنفيذ العقوبة . ومن جملة اهداف هذه المدرسة ان يتحقق للمجتمع « قانون جزاء انساني » ، وأن تتحقق حماية المجتمع عن طريق حماية جميع أعضائه ، وأن يختار التدبير الاجتماعي لاصلاح المجرم وتأهيله . فاذا كان قانون الجزاء ينظر الى الوراء أى الى الجريمة ، فان الدفاع الاجتماعي ، ينظر الى المستقبل ، أى الى اعادة دمج الفاعل في المجتمع .

وقد وجهت الى حركة الدفاع الاجتماعي انتقادات هامة ، هذان ابرزهما :

١ - انها تفتح الباب واسعا لعودة الأنظمة الدكتاتورية .

٢ - انها تنزع الصفة القانونية عن قانون الجزاء ، بشكل متطرف .

ولهذه الأسباب رفض واضع قانون الاجراءات الفرنسي الجديد لعام ١٩٦٠ ، أن يأخذ كثيرا من مبادئ الدفاع الاجتماعي . ولكنه مع ذلك أخذ بعضها ، معتبرا ان التطرف فيها مغامرة كبرى ، لا يجوز الاندفاع فيها ، بسبب حرصه الشديد على احترام الحرية الفردية وكرامة الانسان . ولكن الأنباء تشير الى ان وزير العدل الفرنسي ، اصبح ميالا الى اصلاح النظام العقابي ، مستلهما في ذلك اربعة تقارير تنادى باصلاحات جذرية (١) .

ونود أن نشير الى موضوعين من مواضيع الاجراءات الجزائية كما يعالجهما الدفاع الاجتماعي .

(أ) فصل الدعوه الجزائية إلى مرحلتين

١ - المرحلة الاولى مرحلة المحاكمة :

في هذه المرحلة تجرى المحاكمة بصورتها المألوفة الاعتيادية ، أى يجب اثبات ارتكاب الفعل من قبل الفاعل . ونقول اسناده اليه ، وتبين أن هذا الفعل يقع تحت طائلة نص قانوني من نصوص قانون الجزاء .

(١) انظر كتاب الاستاذ أحمد فتحي سرور ، سياسة الدفاع الاجتماعي ١٩٦٩ ص ٧٦ ومايلها .
وكتاب الاستاذ غراماتيكا : الدفاع الاجتماعي La defense sociale ، مكتبة Cugas الفرنسية
: ١٩٦٤

ومن المؤكد ان هذه المرحلة ، رغم محافظتها على الطابع القانوني ، تثير مع ذلك عديدا من الصعوبات ، يقف القاضي امامها حائرا (والقانون أيضا) .

وحسبي أن اذكر هنا ببعض هذه الصعوبات ، التي نلاحظ فيها ان المتهم يقع فعلا تحت وطأة القانون ، ولكن لا يمكن ان نوكد بأنه شخص خطر يجب اتخاذ أشد الاحتياطات للوقاية منه .

فلو وجد شخص في حالة ضرورة ، واعتدى على القانون ، فانه يمكن ان يعفى اذا تحققت شروطها (المادة ٢٥ من قانون الجزاء الكويتي) .

وليس من اليسير دوما تقرير هذه الحال :

فهناك حالات صارخة لا يهتز لها الضمير العام ، ولا يطالب بالمعاقبة ، كالأم التي ظلت جائعة مع أولادها أياما ، واضطرت أن تسرق خبزا . والذي يكسر باب الجار في حالة حريق ، للنجاة أو المعاونة .

ولكن توجد حالات يشق على القاضي تقديرها :

فالفريقان ، اذا ألقى احدهما الآخر في الماء لانتقاذ نفسه . والنجاة على اللوح الخشبي الصغير — هل يكون مجرما خطرا ؟ أم انه يعفى من كل عقاب ؟

وقصة الباخرة الفرنسية التي غرقت عام ١٨١٦ ، واضطر عدد من الناجين على زورق نجاة ، ظلوا أياما صائمين في البحر دون طعام تتقاذفهم الأمواج ، الى اغراق بعض رفقاءهم المشرفين على الموت نخلصا من اطعامهم ، الذي ارادوا أن يحتفظوا به لأنفسهم ، لا تزال تعطى كمثال عن عدم المعاقبة دون تبيان الأساس القانوني الصحيح لذلك ، ولكن هذا المسلك ليس مقبولا بصورة عامة . فالانكليز رفضوا تقبل هذا الحل في حادثة الباخرة التي غرقت عام ١٨٨٤ ، وقتل بعض الناجين رفيقا لهم ، بعد عشرين يوما من جوع مبرح ، فقد حكمت عليهم المحكمة بالاعدام . ولكن الملكة استعملت حقها

الدستورى في ابدال الحكم بعقوبة حبس بسيطة (ستة أشهر) وكان تعليل المحكمة لحكمها انه لا يوجد قانون على الأرض يمكن ان يسمح بالقتل في مثل هذه الحال .

ومشكلة اخرى ، تصادف في كل يوم . هى أمر الأمر فلو نفذ موظف أمر رئيسه وهو يظن ان عليه ان يطيع الأمر دون مناقشته ، وارتكب جرما من جراء تنفيذ الأمر ، فهل يكون مسئولا . وفي أى الحدود ؟ مع الملاحظة ان هذا الأمر ، كما يكون في النطاق العادى ، يكون ايضا في النطاق العسكرى .

فهل يجب على الموظف الصغير - أو الجندى - ان ينفذ الأمر غير المشروع ، تنفيذًا لواجب الطاعة ، أم يمتنع عن تنفيذه قطعًا ورفضه . وماذا يكون الحل ، اذا ظن الأمر مشروعًا ، لأنه يكتسب مظاهر تغلف عدم المشروعية ؟

وهذه الحالات وأمثالها ، نضع القضاء أمام مشاكل كبرى ، لأن عليه ان يقرر ليس فقط ان الفاعل ارتكب الفعل ، وانما يجب عليه ان يقول ايضا بأنه مسئول أو غير مسئول أخلاقيا .

فاذا طبقت مبادئ الدفاع الاجتماعى ، فانه الأرجح ان يقال ، بأنه مادام الهدف هو حماية المجتمع من شخص يمثل خطرا عليه ، فان هذه الحالات لا تمثل خطرا مطلقا ، ثم ان تأهيله مثل هذا الشخص يكاد يكون غاية في السهولة . بل انه قد لا يحتاج الى تأهيل .

ومن الجائز ايضا ان يرد الاستاذ آنسل على هذا ، بأنه يترك للقاضى - وبالتالى لنص القانون ، ان يتصرف بحسب المبادئ القانونية ، وصلاحيه التقدير المتروكة له ، لأنه يرى هذه المرحلة ، مرحلة المحاكمة ، قانونية تخضع لأحكام قانون الجزاء .

فهذه المرحلة لا تثير - على ما يبدو - مشاكل كبرى بالنسبة للدفاع الاجتماعى .

٢ - المرحلة الثانية مرحلة تنفيذ العقوبة :

وهذه المرحلة هي التي تهم أكثر من أى شئ آخر حركة « الدفاع الاجتماعى الجديد » لأنها وهنا ممكن الخطر الحقيقى . فالنائب العام فى الكويت مثلا ، هو الذى يقرر منح الافراج أو الغاء . وهذا هو دوره القانونى البارز فى مجال العقوبة . أما السجون ، كمؤسسة عقابية واصلاحية ، فانها تابعة لوزارة الداخلية يديرها ضابط من ضباط الشرطة . مرتبط بمدير السجون ، وهو من موظفى وزارة الداخلية . والغالب ان تكون نظرة هؤلاء الى السجن ، انه مكان لجمع الخطرين ، والمحافظة عليهم الى ان تنتهى مدة عقوبتهم أو يفرج عنه شرطيا ، فيطلقون سراحه ، دون أى اعداد للمستقبل .

(ب) قاضى الاشراف على تنفيذ العقوبة

ان أمر احداث وظيفة هذا القاضى أمر مهم جدا .

فكونه من القضاة ، الذين يتمتعون بالحصانة ، يجعله أكثر استقلالا من رجال الادارة والشرطة . ثم ان تكوينه القانونى وممارسته القضائية يحافظان على وحدة الدعوى الجزائية فلا تبدأ قانونية ، وتنتهى ادارية .

وتختلف صلاحيات هذا القاضى باختلاف النص القانونى ، الذى سيحدثه — فمن الجائز ان يكون قاضيا للاشراف على تنفيذ العقوبة ، وهو بهذه الصفة يستطيع ان يباشر امورا كثيرة داخل السجن وفي حقل تنفيذ العقوبة ، وفي جواز التعديل في طريقة التنفيذ .

ولكنه يظل مرتبطا بالمحكمة التى اصدرت الحكم وهذه تظل مرجعا له فى المسائل الجدلوية . فمثلا ، فى نطاق الافراج الشرطى ، يكون دوره فى تقديم تقرير مفصل عن حالة المسجون لتقرير المحكمة قبول الافراج او رفضه (وهذا يقتضى نقل اختصاص الافراج الشرطى من النائب العام الى المحكمة ، اذا أريد جعله قضائيا بحتا) .

ولكن من الجائز ان يكون هذا القاضي قاضى تنفيذ للعقوبات وليس فقط للاشراف على تنفيذها وفي هذه الحال يكون له دور أخطر وأهم . فيكون من اختصاصه منح الافراج الشرطى وتقصير العقوبة - وابدالها بتبديير اكثر فائدة وربما يكون من اختصاصه اطالة المدة اذا ثبت له ان السجين ولا يزال يمثل خطراً على المجتمع وانه لا يصلح بعد للاندماج فيه وقد عرفت التشريعات المقارنة سابقا ، صورا من حالات الاشراف القضائى على تنفيذ العقوبة ولا سيما في عقوبات الاحداث ، والمتسممين بالمسكرات او المخدرات وبعض حالات الامراض العقلية .

وذهبت بعض الدول في تعميم هذا الاشراف .

ففى ايطاليا مثلاً ، وضعت المؤسسات العقابية كلها تحت اشراف وزارة العدل بالقانون رقم ١٨٩٠ الصادر عام ١٩٢٣ ، وبسط قانون العقوبات الايطالى لعام ١٩٣٠ ولائحة المؤسسات العقابية لعام ١٩٣١ ، اشراف القضاء على العقوبات وعلى التدابير الاحترازية ايضا .

وفي قانون الاجراءات الجزائية الفرنسى ، الذى اصبح نافذا منذ عام ١٩٦٠ ، استحدث الشارع وظيفة قاضى التنفيذ . وكان هذا عملاً يمتاز بجرأته وجدته ، لأنه بسط صلاحية على جميع العقوبات (وليس عقوبات الاحداث فقط . كما كانت الحال منذ ١٩١٢) .

وقد عم هذا النظام ، وانتشر في بلاد عديدة ، مثل بلجيكا والنرويج ويوغوسلافيا والبرازيل وتتنج البلدان الاشتراكية ، كبولونيا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا الى هذا الاتجاه .

ونفذت الفكرة الى البلاد العربية ، فأدخلته مصر في مشروع قانون الاجراءات الجنائية ووظيفة « قاضى التنفيذ » (المواد ٣٨٩ - ٣٩٢) ، وحددت وظيفته في المادة ٣٩٠ وهذا نصها الذى يلخص فكرة الاشراف القضائى على تنفيذ العقوبات

« يختص قاضى التنفيذ دون غيره بالفصل في جميع المنازعات المتعلقة بتنفيذ العقوبات والتدابير ، واصدار جميع الأحكام والقرارات المتعلقة بها . وبالإفراج تحت شرط والغائه وبالفصل في اشكالات التنفيذ ورد الاعتبار . وتكون الأحكام والقرارات والأوامر نهائية . وتقدم الى قاضى التنفيذ التقارير المتعلقة بتنفيذ التدابير وعليه زيارة المنشآت العقابية وأماكن تنفيذ التدابير التى تقع بدائرة اختصاصه كل ثلاثة أشهر على الأقل » .

وواضح أن الشارع الفرنسى والشارع المصرى ، اقتصر على قاضى التنفيذ فقط ولم يختارا المذهب الايطالى ، الذى يفرق بين قاضى التنفيذ وقاضى الاشراف على التنفيذ .

وفي هذه المرحلة يحسن - بل ويجب - إيجاد جهاز فى خاص يعمل بالتعاون مع قاضى التنفيذ للحصول على اكبر فائدة في تطبيق العقاب . وهذا الجهاز بحكم طبيعة الأشياء ، يجب ان يضم بعض رجال الدين ورجال علم الاجرام والأطباء وعلماء النفس وعلماء الاجتماع . ويكون للقاضى حق الاشراف على اعمالهم وحق اتخاذ القرارات التى يراها مناسبة .

ذلك ان الدفاع الاجتماعى يهتم كثيرا بشخصية المجرم وينادى بدراساتها « بفحص علمى دقيق » لى يمكن التعرف عليها جيدا ، وتتخذ حيالها الاجراءات المناسبة كما يهتم بازالة صفة الصراع القضائى بين الخصوم ، لأنه في نظره صراع لا مبرر له ، واحلال التعاون فيما بينهم لما فيه خير ومصلحة تأهيله . فكرامة الانسان وتنمية شخصيته يجب ان تظلا هدف العدالة الجزائية . ولو كان هذا الانسان مذنباً . وفي هذا رد على الذين يزعمون ان الدفاع الاجتماعى يطوح بالحرية الفردية ، لأن انصار الدفاع الاجتماعى يعتبرون ان كل تدابير الاصلاح يجب ان تتصف بالروح الانسانية التى لا يهتمها التكفير عن الخطأ ، وانما يهتمها فقط حماية المجتمع ، بالتوفيق بين اعتبارات حرية الانسان وكرامته ، وبين احتياجات الدفاع الاجتماعى الذى يهتم جدا بصالح المجموع وحمايته . وفي سبيل تحقيق هذه الغايات ، لا يريد الدفاع الاجتماعى نفس قانون

العقوبات ، كما أهتمته بذلك إخصامه ، لأنه يريد الإبقاء على المؤسسات القانونية التقليدية ولكن بعد تخليصها من القانونية الشديدة التي تحجب شخص المجرم ، وإطلاق يد القاضى (والفريق الفنى الذى يساعده) فى اختيار التدابير الأنسب له ، عقوبة كان أو تدبيراً وقائياً ، وهذه دعوة مغلقة حقاً ، وإن كانت مغلقة بدعوى جعل العقوبة وسيلة تربوية ، لغرس فكرة التعايش مع الآخرين فى نفس المجرم ، لأنها - فى الواقع - انحراف من الوظيفة العدالية إلى الوظيفة الاجتماعية .

ومنذ سنوات قليلة أخذت الأمم المتحدة تهتم بمسألة الدفاع الاجتماعى أيضاً . فى عام ١٩٦٤ عهدت إلى اللجنة الاجتماعية التابعة للمجلس الاجتماعى والاقتصادى مهمة مقاومة الجريمة . وقد مارست هذه اللجنة نشاطها تحت اسم « برنامج الدفاع الاجتماعى » .

ويعمل جهاز الدفاع الاجتماعى فى الأمم المتحدة على تطوير سياسية جزائية دولية ، تستهدف أهدافاً اجتماعية ، وفى إطار برنامج عملى . وقد أخذت على عاتقها تنظيم النشاطات الضرورية لتحقيق هذه السياسة على المستوى العالمى ، وتقديم المساعدة الفنية ، ونشر المعلومات عن الدفاع الاجتماعى .

ومن المحقق ، كما ينص البند الأول من أهداف هذا الجهاز ، أن الأمم المتحدة تعتبر الجريمة مشكلة اجتماعية ، وليس مشكلة قانونية .

وفى هذه النظرة ، تتفق فلسفات الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى وهما قل أن يتفقا على شىء .

ولكن الشىء الذى يجب لفت النظر إليه ، هو أن برنامج الأمم المتحدة يهتم ، خاصة بالتأكيد على الوظيفة الاجتماعية للعقوبة وعلى إعادة تهذيب المجرم ، لإعادة تأهيله ودمجه فى المجتمع .

ومن مظاهر نشاط الأمم المتحدة ، في هذا المضمار ، انشاء « معهد أبحاث الدفاع الاجتماعي » الذي أنشأته الأمم المتحدة في روما ، بالاتفاق مع الحكومة الإيطالية بتاريخ ٨ مايو - أيار ١٩٦٨ ، الغاية منه « إيجاد سياسة للدفاع الاجتماعي على اسس علمية » ومن مهمات هذا المعهد مساعدة البلاد المتخلفة في مكافحة الاجرام . وقد حضر مديره المستر غالوى إلى الكويت في أواخر عام ١٩٧١ ، ونصح بانشاء معهد اقليمي لدراسات الدفاع الاجتماعي . وقد علمت ان هناك صدى ايجابياً لهذا الاقتراح .

ولم تبق الجامعة العربية بعيدة تماماً عن التيار العالمي . فقد دعت إلى عقد حلقات للدفاع الاجتماعي ، عقدت أولها في دمشق ، والثانية في القاهرة عام ١٩٦٩ ، وقد تقرر فيها ضرورة دراسة المجتمع الذي ينتمى اليه المجرم ، واجراء فحوص يولوجية ونفسية واجتماعية في المجتمع ، وأوصت بقبول التدابير المانعة للجريمة ، قبل وقوعها ، وبالاهتمام الجنائية .

والمهم في عملها ، أنها اعتبرت أن مصطلح الدفاع الاجتماعي ، يشير إلى السياسة الاجتماعية والجنائية التي تركز على دراسة الجريمة والمجرم عل ضوء تقدم العلوم الاجتماعية والانسانية .

وفي ربيع ١٩٧٠ عقد في مدينة الكويت المؤتمر العربي لمنع الجريمة ومعاملة المذنبين . وقد بحث فيه سياسة الدفاع الاجتماعي ، وتوضحت العلاقة الوثيقة بين خطة التنمية الاقتصادية وبين هذا الدفاع الاجتماعي ، وتقرر لزوم الاعتماد على البحث العلمي ، وضرورة مشاركة الجمهور في مقاومة الجريمة ومعالجة أسبابها ، وتقديم النصح بوجوب انشاء مراكز بحوث مستقلة أو مرتبطة بالجامعات ، لأن الجامعات لم تعد تستطيع التحرك بسرعة ، بسبب انهماكها بالتعليم وزيادة اعداد الطلبة بكثرة زائدة . ومن أبرز هذه المعاهد في البلاد العربية ، المركز القومي للبحوث في الجمهورية العربية المتحدة وهو هيئة مستقلة عن الوزارات ويدير مجلس ادارة ، له سلطة الوزير .

وفي قناعتى ، أن سياسة الدفاع الاجتماعى ، بمفهومها الجديد ، تستطيع أن تنسجم مع السياسة الجزائية في الشريعة الاسلامية . ففي شريعتنا نوعان من العقوبات : الحدود ، وهى عقوبات مقدرة . وقد ورد عن الرسول عليه السلام قوله « ادروا الحدود بالشبهات ما استطعتم » . ولذلك رفض عمر بن الخطاب أن يقطع أيدي غلمان لحاطب بن أبى بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة وأكلوها ، ووبخ ابنه ، وقال له : اما والله أنكم لتأملونهم وتجيعونهم ، حتى ان احدهم لو أكل ما حرم الله لكان له حلالا . وامتنع رسول الله ان يرحم زانياً محصناً اعترف له بجريمته ، فقال له : هل توضحأت حين أقبلت ؟ قال : نعم قال : هل صليت معنا ؟ قال : نعم قال : اذهب فقد غفر الله لك . (من محاضرة الأستاذ علي حسب الله ، الشريعة الاسلامية شريعة كاملة ، الموسم الثقافي بجامعة الكويت ١٩٦٨ - ١٩٦٩ ص ١٤٧) .

والنوع الثانى ، عقوبات غير مقدرة ، وهى التعزير . وهذه متروكة لرأى القاضى . وما دام من حقه أن يختارها حسب حالة المتهم ، وحسب الأمل في صلاحه ، فإنها تتسع تماماً لكل تطوير واصلاح علميين .

من هذا العرض نجد أن البشرية دافعت عن نفسها ضد الذين ينتهكون القواعد التى ارتضتها المجتمعات نبراساً لحياتها وسلوكها ، بردود فعل اجتماعية تطورت كما يلى :

١ - نظرية الجزاء

وكان هدفها اذاقة المجرم ألماً يضارع الألم الذى اذاقه لضحيته . وهذا هو الصدى المباشر لغريزة حب الانتقام ، باعتباره احساساً انسانياً .

٢ - نظرية الردع

ومعناها أن يستعمل المجتمع العقاب ، كوسيلة للردع الخاص ، وهو ردع المجرم نفسه من معاودة الجريمة ، وللردع العام ، وهو اخافة الآخرين حتى لا يقارفوا الجريمة .

وفكرة الردع قائمة على التسليم بمبدأ الارادة الحرة .

٣ - نظرية التكفير

وهي تنطلق في الأصل من فكرة دينية . وقد اتخذ مجمع شالون سورسون ، الكهنوت في القرون الوسطى قرارا اعتبر فيه العقوبة « طبا حقيقيا للروح » . وأساس هذه النظرية أن المجرم يكفر عن خطيئته بالعقوبة التي يتحملها ، وباجراءات المحاكمة التي تؤله بعرضه على الناس ، ووقوفه موقف الفرد الشاذ في مجتمعه ، المنبوذ منه . وتلعب التوبة عن قناعة دورها في التفكير عن الذنب ، ومحاسبة النفس .

٤ - نظرية حماية المجتمع

وعندها أن المجتمع يتكون من أفراد ، وعلى كل فرد أن يراقب نفسه . فإذا أساء سلوكه ، وخرق قواعد المجتمع ، كان من حق المجتمع أن يلجأ الى كل التدابير المناسبة ، مهما كانت عنيفة ليحمي نفسه . وكانت غايته هذه الحماية ، ولا شئ سواها ، وجميع الوسائل التي تحقق هذه الغاية ، تلقى كل كل ترحيب .

٥ - نظرية التأهيل

وملخصها أن العقوبة لايمكن أن تكون هدفا لذاتها ، وقد ثبت أنها لاتمنع العود ، وأنها تخلق في المحكوم عليه روح الحقد على المجتمع ، وخاصة إذا كان يشعر أنه مظلوم ، وأن الخوف منها يزول بانتهاء مدتها . ولذلك فان العقوبة - في رأيها - قد أفلست . والدليل على ذلك كثرة الجرائم ، وخاصة جرائم العود .

ولهذا فانه لابد من عمل شئ ، وهو اصلاح المجرم . واعداده للعودة إلى المجتمع ، بعد أن تقتلع من نفسه بذور الشر ، أن أمكن ، وهو في الغالب من الحالات ممكن .

والى هذه النظرية تتجه سياسة الدفاع الاجتماعي المعتدلة . فهي تطالب المجتمع أن يعرف أسباب الاجرام ، ويزيلها ، عن طريق نشر الثقافة ، وتوزيع الثروة

القومية توزيعاً عادلاً ، وتأمين الخدمات الأساسية للمواطنين ، كالتعليم والرعاية الصحية ، وتقوية الشخصية ، والمساواة الحقة أمام القانون ، وأكثر الوسائل الترفيفية البريئة ، كالملاعب الرياضية للشباب ، والندوات الاجتماعية . وأحب أن أخص التربية الدينية باهتمام خاص ، في نطاق الأسرة والمدرسة . واني لمقتنع أن التربية دافعت عنه في المؤتمر الدولي الأول لمكافحة الجريمة ، المنعقد في جنيف عام ١٩٥٥ ، أو كنت يومها رئيساً للوفد السوري ، وأقر هذا الاقتراح بالاجماع

والواقع أنني ، وأن كنت لا أنكر دور العوامل البيولوجية في الاجرام ، الا أن أسباب الاجرام الكبرى في نظري هي أسباب اجتماعية في الغالب من الحالات ، وفي يقيني أن الانسان يتعلم الجريمة من وسطه كما يتعلم الفضيلة .
وقديما قال المعري :

وينشأ ناشئُ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجبي ولكن يعلمه التدين أقربوه

لذلك فان ما يحصن المجتمع به نفسه ، هو أن يسهر الآباء على أبنائهم ، ويبدلوا لهم النصيح ، ويحيطوهم بالرقابة ، وأن تحسن الدولة اختيار أجهزة الأمن وأجهزة القضاء ، وأن يتعاون المواطنون جميعاً على احباط المشاريع الاجرامية ، ويكونوا خير عون في ذلك للدولة .

وحين ترتكب الجريمة ، وسوف تظل الجرائم ترتكب إلى آمام بعيدة ، طالما بقي شذوذ في تكوين المجتمع ، واستمرت في قلب الانسان عواطف الحقد والكراهة والحسد ، وظل المرء عرضة لأمراض الجسم والعقل ، فان دور الدفاع الاجتماعي ، يجب أن يستهدف ، إلى جانب اذاعة المجرم المأ ، اصلاحه وتقويم اعوجاجه ، لاعادته عنصراً شريفاً إلى المجتمع . وهذه مهمة شاقة فعلاً ، لأنها تتطلب اعادة نظر جذرية في أجهزة السجون ، تكويناً وانتقاء واختصاصاً ، وفي سائر وسائل التربية والتأهيل .

فكثير من المجرمين عاثرون ، وليسوا اعداء للمجتمع . ولذلك فانه كان على حق من قال : « ان لكل مجتمع ما يستحقه من المجرمين »^(١).

انى علم أننى لم أوف الموضوع حقه ، لأن الوقت المخصص لمحاضرة عامة ، لا يمكن أن يتسع لأكثر من ذلك ، فقد كان على أن أبحث أسباب الاجرام ، ومواقف المدارس الكبرى منه وألقى نظرة فاحصة على تدابير الوقاية ، وموقف القائلين بالعقوبات منها ، ولكنى حرصت على أن أبقى منسجماً مع أهداف رابطتكم الاجتماعية ، فأعرت هذه الناحية الاجتماعية عناية أوسع ، ومررت بالمسائل القانونية والعلمية مروراً مستعجلاً ، حتى لا تتحول المحاضرة إلى موضوع قانونى ، قد لا يدخل في اهتمامكم .

واذا أردت أن أختم هذا الموضوع ، بأمنية ، فهى تسليط النور على هدف الدفاع الاجتماعى في مقاومة الجريمة . ان هذا الهدف ، لم يعد مجرد حماية المجتمع من المجرمين ، ولا حماية المجرمين من المجتمع ، ولكنه يجب أن يحقق حماية المجتمع ، حتى ينعم بأكبر قدر من الطمأنينة ، وحماية المجرم ، باعتباره خلية من خلايا هذا المجتمع ، من واجب المجتمع - ومن حق المجرم - أن تعمل الدولة على تهذيبه وتأهيله ، لتعيده إلى حياة شريفة ، صالحة .

وكل عقوبة ، وكل تدبير ، لا يكون هذا هدفه ، يظل تحكم القوى في الضعيف ، والمنتصر في معركة الجريمة بالمنكسر ، ثم تظل الفائدة منه ، قليلة اذا لم تكن معدومة .

ان العقوبة وحدها تعزل الفرد وتجعله عدواً للمجتمع ، وهى قد تولد الخوف في نفسه عند الحكم بها ، ولكن هذا الخوف يزول بزوالها ، ثم انها لم تستطع الوقوف في وجه العود ، الذى أخذ يقضى مضاجع الناس في كل مكان ، وانها -

(١) فى التقرير الذى قدمه النائب العام الأمريكى Ramsey Clark الى اللجنة الفرعية لمجلس الشيوخ الأمريكى ، بتاريخ ٢ تموز ١٩٦٨ ، وطالب فيه بألغاء عقوبة الاعدام تعرض الى مسألة تأهيل المجرم ولاحظ بشجاعة ان ٩٥ ٪ من ميزانية العدالة ينفق على الاعتقال ، ولا يخصص للتأهيل الا ٥ ٪ فقط .
(أنظر مجلة العلوم الجنائية الفرنسية ١٩٦٩ ص ٧٢٧ ومايلها) .

لوحدها - تعرقل جهود المجتمع للوقاية من الاجرام ، لأن كثيراً من المجرمين لا تنفعهم العقوبة بسبب مرض عقلي او اخلاقي او خلل وظيفي .

لذلك كان لا بد للمجتمع من تطوير سلاح المعركة ، ولكن في حدود معقولة ، وباتزان وبدون طفره ، ودون ان ينسب مفاهيم واقعته .

يجب أن يكون هدف الدفاع الاجتماعي ، حماية المجتمع وحماية الفرد في آن واحد ، طالما أمكن ذلك ، ويجب ان تكون الوسيلة إلى ذلك ، المنجزات العلمية ، وليست العواطف والنزوات ، أو الفكر القانوني المجرد .

وهذا هو أصحاب الارادات الخيرة والغيورين على مجتمعاتهم ، الشعاعين بانسانيتهم .

وختاماً ، أود أن أشكر معالي الأخ الاستاذ عبدالعزيز الصرعاوى ، على كريم دعوته لى ، لالقاء هذه المحاضرة ، وأشكركم جميعاً على حسن استماعكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

الرعاية الاجتماعية للأسرة والطفولة والشباب

كلمة

الأستاذ الدكتور محمد عثمان نجاتي

مقدمة :

كل تخطيط للرعاية الاجتماعية في أى مجتمع من المجتمعات يجب أن يقوم على دراسة دقيقة لحاجة الأفراد في هذا المجتمع ومشكلاتهم . ولهذا فإن الرعاية الاجتماعية تختلف من مجتمع الى مجتمع آخر تبعاً لاختلاف حاجات ومشكلات الأفراد بل اننا نتوقع في المجتمع الواحد نفسه ان توضع برامج للرعاية الاجتماعية لكل قطاع من قطاعات الأفراد في هذا المجتمع فربما حاجات ومشكلات شباب الجامعة تختلف عن مشكلات وحاجات طلبة المدارس الثانوية كما تختلف عن حاجات ومشكلات العمال ، ولهذا فإن أى تخطيط للرعاية الاجتماعية لا بد ان تسبقه الدراسة الدقيقة المسمية لمشكلات وحاجات الأفراد الذين نريد ان نخطط الرعاية الاجتماعية لهم .

ولهذا فسأقصر قولى عن ما ينبغي ان تكون عليه الرعاية الاجتماعية في قطاع معين من قطاع الشباب في المجتمع الكويتى . قطاع الشباب الذى سعدت بالتعامل معه طوال اقامتى في الكويت وهو شباب جامعة الكويت والذين استطعت في دراسة استطلاعية أن أتلمس كثيراً من مشكلاتهم وحاجاتهم ولهذا فأحاول أن استعرض ما أمكننى الوصول اليه في هذه الدراسة الاستطلاعية البسيطة من مشكلات وحاجات ذكرها شباب جامعة الكويت أنفسهم . ثم بعد ذلك سأعرض الى ما هى الرعاية الاجتماعية الواجبة لمقابلة مثل هذه المشكلات والحاجات للشباب الجامعى في المجتمع الكويتى .

وأعتقد أن مثل هذه الدراسة يجب أن تتكرر في كثير جداً من قطاعات الشباب في المجتمع الكويتى . يجب ان ندرس فعلاً مشكلات وحاجات طلبة المدارس الثانوية وكذلك يجب أن ندرس مشكلات وحاجات العمال في المجتمع الكويتى . هذه الدراسة الواقعية الميدانية هى الأساس السليم الذى يمكن عليه أن نخطط الرعاية الاجتماعية الكفيلة برعاية المواطن في المجتمع الكويتى .

تتلخص الدراسة الاستطلاعية في سؤال وجيه لمجموعة من الطلاب والطالبات في جامعة الكويت طلب فيه منهم أن يذكروا جميع المشكلات التى يعانون منها في جميع نواحي حياتهم الاجتماعية والأسرية والشخصية . وطبعاً اتبعت طرقاً

منهجية خاصة للوصول الى هذه المشكلات بشئ من الصراحة حيث طلب منهم ألا يذكروا اسماءهم اطلاقا . وجمعت هذه المشكلات ثم حللت وخرجنا من هذه الدراسة بمجموعة من مجالات مشكلات اساسية يعاني منها شباب جامعة الكويت . وفي الحقيقة لقد ذكر كثير جدا من المشكلات ، ولكننا استبعدنا كل مشكلة ذكرها أقل من ٥٪ من مجموع عدد الطلبة الذين جمعت منهم البيانات وذكرنا فقط المشكلات التي ذكرها أكثر من ٥٪ من الطلبة . مجموع الطلبة الذين جمعت منهم هذه البيانات هم ٢٣٣ طالب وطالبة ، انها عينة صغيرة نسبيا وأتوقع أنه حينما تكرر هذه الدراسة على عينة كبيرة سنحصل الى معرفة أدق وأشمل بمشكلات الشباب .

انحصرت المشكلات الرئيسية في بعض المجالات هي :

- ١ - مشكلات التوافق الدراسي ، فهناك مشكلات كثيرة جدا تتعلق بتوافق الطلاب في دراستهم .
- ٢ - مشكلات التوافق النفسي . المشكلات النفسية والاضطرابات النفسية التي يعاني منها الشباب .
- ٣ - مشكلات البيت والأسرة والعلاقات الاجتماعية والأسرية بين الآباء وبين الأبناء .
- ٤ - المشكلات الخاصة بتنظيم أوقات الفراغ .

سأتناول بإيجاز كل مجال من هذه المجالات الكبيرة التي تتناول نقاطاً فرعية .
فمثلاً نبدأ :

أولاً - مجال مشكلات التوافق الدراسي :

مشكلات التوافق الدراسي تتضمن خمس مشكلات فرعية :

- (أ) المشكلة الفرعية الأولى هي عدم الميل للاستذكار فقد ذكر كثير من الطلبة أنهم يعانون من ضعف الميل للاستذكار . ذكر هذا حوالي ٢٢٪

من مجموع الطلبة والطالبات . ومن الأمثلة التي ذكرها بعض الطلبة أنه لا يوجد عندى ميل للمذاكرة . أجد صعوبة في عملية المذاكرة . لا توجد عندى رغبة في الدراسة والتحصيل . اشعر بكثير من الملل في المذاكرة وهكذا . وكان مجموع الطلاب الذين ذكروا هذه المشكلة أكثر من مجموع الطالبات . فحوالى ٣٣ - من الطلاب ذكروا هذه المشكلات في مقابل ١٤ - فقط من الطالبات .

(ب) المشكلة الثانية في هذا المجال هو عدم ملائمة جو المنزل للدراسة . ذكر حوالى ١٣ - من مجموع الطلاب والطالبات أنهم يعانون من أن جو المنزل غير ملائم اطلاقا لعملية الاستذكار .

(ج) والمشكلة الفرعية الثالثة التي ذكرها بعض الطلبة عدم قدرتهم على استغلال وقتهم استغلالا مفيدا في عملية الاستذكار . فحوالى ١٤ ٪ من الطلبة وعدد متساو من كل من الطلاب والطالبات تقريرا ذكروا أنهم لا يستطيعون استغلال وقتهم استغلالا مفيدا في عملية الاستذكار وفي مقال لاحدى الطالبات قالت : ان مشكلتى اننى لا أعرف كيف استغل وقتى . انه يضيع دون ان استفيد منه ، وهذا نموذج من النماذج الكثيرة التي قيلت في هذا الموضوع .

(د) والمشكلة الفرعية الرابعة : هذا المجال هو عدم التوفيق بين مسئوليات الأسرة والدراسة ويبدو ان هذه المشكلة خاصة بالطلبة المتزوجين . ومن أمثلة ما قالوه في هذا الصدد :

« أبذل جهدا كبيرا في التوفيق بين العائلة والجامعة مما يؤدى الى القلق » من مشكلاتى الهامة عدم وجود الوقت الكافى لمراجعة دروسى وذلك لانشغالى في المنزل مع الأطفال .

(هـ) والمشكلة الأخيرة في هذا المجال هو الخوف من الامتحانات . والخوف من الامتحانات مشكلة شائعة بين تلاميذ المدارس الثانوية وطلبة الجامعة وقد ذكرها عدد كبير من مجموع الطلبة .

ثانيا : نترك الآن مجال التوافق الدراسى وننتقل إلى المجال الثانى وهو مشكلات التوافق النفسى :

فقد ذكر كثير من الطلبة والطالبات مشكلات تتعلق باتزانهم الانفعالى واضطرابهم النفسى . والمشكلات الفرعية التى تدخل فى هذا المجال هى : عدم القدرة على تركيز الانتباه وهى مشكلة نرددت كثيرا بين الطلبة . وكثرة أحلام اليقظة . وعدم الثقة بالنفس . والاحساس بالضيق والتعاسة وعدم الاتزان الانفعالى .

سأتكلم الآن عن كل واحدة من هذه المشكلات الفرعية :

(أ) فأولا عدم الثقة بالنفس وهى من المشكلات التى ذكرها كثير من الطلبة فى هذا المجال . ومن الغريب ان الطلاب كانوا أكثر من الطالبات شكوى من هذه المشكلة . فقد ذكر ١٥٪ من الطلاب فى مقابل ٦٪ من الطالبات أنهم يشكون من عدم الثقة بالنفس . من أمثلة ما قاله الطلبة فى هذا الصدد : « أشعر بعدم الثقة بالنفس » . « أخاف من سخرية الناس واستهزأهم » ، « ارتبك عند مقابلة شخصية كبيرة » « أشعر بالخجل عند التحدث الى الناس » وهكذا . . .

(ب) المشكلة الأخرى الفرعية هى الاحساس بالضيق والتعاسة . وهذه الناحية تتعلق بالصحة النفسية . فقد ذكر عدد من الطلبة أنهم يحسون بالضيق والتعاسة . فمثلا قال بعض الطلبة : « يضايقنى شعور بالضيق والتعاسة » « أشعر بضيق مستمر مع عدم معرفة السبب » « أشعر بالضيق فى الوقت الذى يكون فيه الناس فى غاية السرور » « أشعر بحاجة شديدة الى البكاء » « أشعر بالحزن فى معظم الأحيان » .

(ج) عدم الاتزان الانفعالى . ذكر حوالى ٧ - من مجموع الطلاب والطالبات بأنهم يشعرون بعدم الاتزان الانفعالى . فمثلا يقول بعض الطلبة :

« انى أثور بسرعة لأتفنه الأسباب » . « انى أغضب بسرعة » . « اب
ما يضايقنى هو عدم القدرة على كبت حالات الانفعال مع الأصدقاء » .
« يضايقنى الشعور بالقلق » . ويبدو كذلك من النتائج ان الطالبات كن
على وجه عام أقل من الطلاب شكوى من عدم الاتزان الانفعالى . وفي
الحقيقة اننى لا أستطيع ان أقول ان الطلاب أكثر اضطرابا من الطالبات
لأنه من الجائز جدا ان بعض الطالبات لم تصرحن بهذه المشكلات وربما
كان الطلاب أكثر صراحة فتكلموا عن مشكلاتهم بأسهاب .

ثالثا - المجال الثالث من المشكلات الرئيسية هو مشكلات البيت والأسرة :

كلنا نعلم ما للعلاقات الأسرية من أهمية في تكوين شخصية النشئ ولا بد
ان تكون العلاقة بين الآباء والأبناء علاقة سوية وسليمة قائمة على التفهم
حتى يمكن للنشئ الكويتى ان ينشأ بشخصية متكاملة . من الغريب جدا
ان طلبة وطالبات الجامعة شكوا شكوى مرة من سوء العلاقات الأسرية
في البيت الكويتى :

(أ) ومن المشكلات التى ذكرها الطلبة هو عدم التفاهم بينهم وبين والديهم .
ومما قالوه في هذا الصدد هو : « لا يوجد تفاهم بينى وبين والدى » .
« عدم فهم الآباء لأبنائهم » . « عدم ثقة الوالدين بالشباب » . فتاة
قالت « ان الفتاة في مثل سنى (وهى فتاة ناضجة في جامعة الكويت)
تشعر بتباعد كبير بينها وبين والدها فهو يصبح كشخص غريب عنها » .
هذا نموذج من المشكلات الى ذكرها الطلبة .

ومن المشاكل التى ذكروها ايضا في هذا الصدد « عدم وجود جو من
الصراحة بين أفراد الأسرة » . « عدم السماح للأولاد بالمشاركة في
الحديث » « تحقير الأب لابنه أمام الناس » . « الخصام بين الوالد
والوالدة » . « انعدام الانسجام في البيت » .
هذه نماذج من أقوال الطلبة أنفسهم تدل على صورة من الشكوى التى
ترددت في اقوال الطلاب في هذا المجال .

(ب) كذلك شكوا بعض الطلاب والطالبات من سيطرة الوالدين في الأسرة الكويتية . قد يكون من الطبيعي في بيئتنا العربية المحافظة ان يكون للأب سيطرة كاملة على الأسرة لكن يبدو أن الفتاة تشعر بهذه السيطرة أكثر من الفتى . فقد ذكر ١٢ ٪ من الطالبات أنهن يعانين من سيطرة الوالدين في مقابل حوالي ٧ ٪ من الطلاب .

ومن نماذج الاقوال التي قيلت في هذا الصدد : « من الأمور التي تضايقني سيطرة الأب وحببه لفرض رأيه » . « يحاول والدى دائما السيطرة على رغم هذا السن الذى وصلت اليه » . « عدم اتاحة الآباء الفرصة لأبنائهم بابداء رأيهم في حرية وصراحة » . « تضايقني معاملة الوالدين للأبناء على أنهم أطفال » . « تضايقني شدة القيود التي تفرضها الأسرة على الفتاة » . « تضايقني ارغام الاسرة للفتاة على الزواج من أحد أقربائها » .

(ج) ومن المشكلات التي ذكرها الطلبة في مجال العلاقات الأسرية ايضا عدم ثقة الأسرة في الفتاة . وقد ذكر ذلك حوالي ٩ ٪ من الطالبات في مقابل حوالي ٢ ٪ من الطلاب . من أمثلة ما قيل في هذا الصدد : « عدم اتاحة الفرصة للفتاة لكي تبدي رأيها في حرية وصراحة » . « تشكو من عدم موافقة الوالد على زيادة الصديقات » . « عدم السماح للبنات بالخروج من البيت » . « عدم السماح للفتاة في الاشراف في الرحلات » . « تمسك الآباء بتقاليد لبس العباءة » هذا بعض ما قيل في هذه الناحية .

(د) وكذلك من المشكلات الفرعية في هذا المجال : اهمال الوالدين للأبناء ، فبعض الطلاب والطالبات شكوا من أن الآباء في الأسرة الكويتية يهملون ابناءهم اهمالا تاما ولا يراجعونهم في دراساتهم ولا يهتمون بأمورهم ولا يناقشون معهم مشكلاتهم . ومن أمثلة ما قيل في هذا الشأن : « عدم اهتمام الآباء بالأبناء وعدم ملاحظاتهم لهم أثناء الدراسة » . « عدم جلوس الآباء مع الأبناء وتتبع مشكلاتهم » . « عدم رقابة الآباء للأبناء بسبب الانشغال بأمور تافهة » . « عدم وجود الحنان والرعاية من جانب الوالدين » . « كثرة الاعتماد على المريات » .

(هـ) وهناك شكوى أخرى ذكرها بعض طلاب الجامعة فقد اشتكوا من اختلاف المستوى الثقافي بين الآباء والأبناء وهذا يسبب نوعا من الصراع وعدم التفاهم

رابعاً : المجال الرابع من المشكلات الرئيسية هو تنظيم أوقات الفراغ :

فقد شكوا كثير من الطلاب والطالبات من عدم قدرتهم على تنظيم أوقات الفراغ وبالرغم من اننا جميعا نعرف مقدار اهتمام الدولة باعداد الأندية والمجتمعات الرياضية والمخيمات الكشفية ومعسكرات العمل ، ولكن مع هذا لا زال قطاع كبير جدا من الشباب يشكون من عدم امكانهم تنظيم اوقات الفراغ وتشكو الطالبات من هذه الناحية أكثر مما يشكو الطلاب . ومن أمثلة ما قالوه في هذا الصدد : « عدم وجود وسائل للترفيه في الكويت » . « يضايقني عدم وجود أماكن ترفيهية » . « ان الشاب في الكويت لا يعرف كيف يقضى أوقات فراغه حيث أن أماكن التسلية قليلة في الكويت » . « لا توجد أماكن مناسبة أو نوادي تقضى فيها الفتاة أوقات فراغها مما يجعلها تمل حياتها التي تمضي بشكل روتيني » . ويبدو فعلا ان معظم المجهودات التي تبذل لتنظيم الفراغ في الكويت متوجه للشبان وقد اهملوا الفتيات في هذه الناحية اهمالا تاما . ومن الشكوى ايضا في هذه الناحية ان بعض الشباب قالوا :

« اننا عاجزون عن استغلال أوقات الفراغ » .

هذا استعراض سريع لبعض المشكلات التي ذكرها بعض شباب جامعة الكويت. اذا أخذنا هذا في الاعتبار وأنها عينة محدودة وربما هناك مشكلات أكثر من هذا فما هي خطة الرعاية الاجتماعية الى ينبغي ان نעدها لنواجه مثل هذه المشكلات .

في تقديري ان مشكلات التوافق الدراسي الى ذكرها الكثير من طلبة الجامعة (ولاشك لو اننا عملنا هذه الدراسة لطلبة المدارس الثانوية لوجدنا مشكلات أكثر

مما ذكر (يشير الى ضرورة العناية في أى برنامج للرعاية الاجتماعية بالارشاد والتوجيه التربوى وهو للأسف يحظى بقليل من الاهتمام في مجتمعاتنا العربية بصفة عامة ولكنه من الضروري جدا ان نبذل عناية في ايجاد الاختصاصيين المدربين ليقوموا بعملية الارشاد والتوجيه التربوى للطلبة المتخلفين دراسيا سواء في المدارس الثانوية أو في الجامعة . وبينت كثير من الدراسات في الدول الغربية ان تأخر التلاميذ الدراسى لا يرجع في كثير من الحالات الى قلة الذكاء وانما يرجع الى بعض العادات السيئة في المذاكرة أو في النوم أو في تنظيم أوقات الفراغ . أو ضعف الطموح - أو ضعف الدافع . وقد وجد وأنه بشئ من التوجيه والتدريب يمكن ان نحول التلميذ من متخلف دراسيا الى متفوق دراسيا حينما ندفعه ونمسه ونعلمه كيف يقرأ وكيف يذاكر وكيف يعد مذكراته وكيف يستعد للامتحان فنحن محتاجون فعلا في مدارسنا الثانوية وفي الجامعة الى هؤلاء الاختصاصيين الاجتماعيين المدربين الذين يقومون بالارشاد والتوجيه التربوى .

ومن المشكلات التى ينشأ عنها التخلف الدراسى عدم العناية بميول التلاميذ حينما يختارون تخصصهم الدراسى . فالتلميذ في المدارس الثانوية يختار دراسته الأدبية أو دراسته العلمية لا على اساس مدورس - وانما على اساس اجتهادى - بالمصدفة - على حسب الأصدقاء - أو وفقا لميل الآباء - وهذا خطأ كبير جدا . كذلك قد يختار التلميذ بعد ذلك نوع التخصص الجامعى أو الكلية بطريقة عفوية - وهنا لابد ان يلعب الارشاد والتوجيه التربوى دورا كبيرا جدا في دراسة ميول التلميذ وقدراته - حتى يوجه الى نوع الدراسة التى تكون أكثر ملاءمة له . واذا فعلنا ذلك فاننا لاشك سنقضى على جزء كبير جدا من مشكلات التخلف الدراسى في المدارس الثانوية وفي الجامعة .

وانى أعتقد ان بلادنا العربية لا زالت تهمل فكرة التوجيه المهني بصفة عامة وأعتقد أن أية رعاية اجتماعية في أى وطن عربى ، لابد ان تعنى بالتوجيه المهني للشباب في قطاعه المختلفة بحيث تنشأ مراكز توجيه مهني يستطيع أن يوجه الشباب الى الأعمال التى تكون أكثر ملاءمة لهم ، وبذلك نستطيع ان نقضى على

البطالة ونقضى على التخلف الدراسى والتخلف في المهنة ، ونقضى على ضعف الكفاءة وهو مرض تشكو منه كثيرا في بلادنا العربية لأننا لا نضع الرجل المناسب في العمل المناسب ولكي نتلافي ذلك لابد ان نعنى بالتوجيه المهني عناية دقيقة جدا .

وقد سبقتنا البلاد الغربية في هذا الصدد . ففي معظمها توجد مراكز توجيه مهني تقوم بتوجيه الشباب الى الأعمال التي تكون أكثر ملائمة لهم . وبينت بعض الدراسات أنه حينما وجه بعض الشباب العاطلين في بعض البلاد الغربية توجيهها مهنيا سليما استمروا في أعمالهم الجديدة مدة طويلة وقلت البطالة بين هؤلاء الشباب . هذا في تقديري ما يجب ان يعمل لمقابلة مشكلة التخلف الدراسى .

أما فيما يتعلق بمشكلات التوافق النفسى ، فأعتقد ان أى برنامج للرعاية الاجتماعية لابد أن يعنى بالصحة النفسية للمواطن . اننا نهم كثيرا بالمستشفيات وبالصحة البدنية فقط ونهمل الصحة النفسية . بينما في تقديري - وأنا لست متعصبا لمهنتي كأخصائى نفسى - ان الصحة النفسية لاتقل اهمية ان لم تكثر اهمية عن الصحة البدنية .

كثير من الاحصائيات بينت ان حوالى ٧٠ ٪ من المرضى الذين يترددون على المستشفيات لعلاج امراض بدنية مختلفة لا يعانون في حقيقة الأمر من أمراض بدنية وانما مرضهم الحقيقى هو الاضطراب الانفعالى أو القلق النفسى وهو الذى يظهر في صورة أمراض بدنية . اذن لابد ان نعنى بمشكلة الصحة النفسية . وفي تصورى أنه لابد أن يكون في المجتمع الناضج والمتطور اخصائى نفسى مدرب بكل مدرسة بحيث يستطيع ان يحل المشكلات النفسية للتلاميذ . وكما ان هناك قبل ان تستفحل وقبل ان يصل الطالب الى الجامعة وهو مثقل بالأعباء النفسية والقلق ، وحينما تزايدت المشكلات النفسية عند الطالب فإنها تقضى على كفاءته العقلية وعلى كفاءته المهنية . ويصبح شخصا عاطلا مهما تعلم فالقلق النفسى يعوقه عن تأدية دوره في المجتمع ، وهذه ناحية لابد أن يعنى بها المجتمع والأسف نحن نهمل هذه الناحية اهمالا كبيرا جدا . ولذا فاني اقترح العناية بهذا الأمر وذلك بانشاء عيادات نفسية خارجية بالمستشفيات كمستشفى الصباح والمستشفى الأميرى . حقا انه توجد

في الكويت مستشفى للأُمراض العصبية والعقلية والنفسية ، لكن هذا لا يكفي لأن هناك كثير من الشباب يخشى الذهاب لهذه المستشفيات حتى لا يوسم بالجنون وحتى لا يعرف انه مريض عقليا أو نفسيا . وان انشاء وحدات خارجية للعيادات النفسية ملحقه بالمستشفيات العامة سيسجع الشباب على التردد عليها .

وفيما يتعلق بمشكلات العلاقات الأسرية والمنزلية التي شكى منها الطلبة فانها من أكثر المشكلات صعوبة ذلك لأن علاج المشكلات الأسرية في المجتمع الكويتي يحتاج في الحقيقة الى تغيير شامل في هذا المجتمع . انه يحتاج الى نشر الثقافة والتعليم والوعي التربوي بين الآباء الكويتيين وتفهمهم لوسائل التربية الحديثة وان نتائج ذلك لا يمكن ان تظهر سريعا ، ولا بد ان يحدث التطور الاجتماعي تدريجيا حينما يزداد التعليم والثقافة والوعي بوسائل التربية الصحيحة . لكن مع ذلك فاننا لا نستطيع ان نتنظر حتى يحدث مثل هذا التغير الاجتماعي بعد أجيال . ولكن نستطيع أن ندفع عجلة التغير الاجتماعي ببعض الاقتراحات التي أريد أن أذكرها .

في اعتقادي ان وسائل الاعلام مثل الاذاعة والتلفزيون والصحف يمكن أن تلعب دورا كبيرا في هذا ، بأن تركز مجهود كبير جدا على مثل هذه المشكلات التربوية الأسرية . ولقد وجدت بداية لهذا الاتجاه في بعض المسرحيات التلفزيونية كلنا نريد الاكثار منها بحيث يكون هناك تخطيط لتأليف المسرحيات والأفلام والكتابات المختلفة بحيث تعالج جميع المشكلات الأسرية والتي يتبصر الآباء والأمهات الكويتيات بهذه المشكلات وتوجههم الى الطرق الصحيحة لحلها . وأعتقد انه لا بد من أن نستفيد من مجالس الآباء والأمهات في المدارس في هذه الناحية اذ أنها تلعب دورا ضئيلا جدا حيث أنها تجتمع مرة أو مرتين في السنة لبحث موضوعات شكلية وسطحية ليست لها قيمة . وأعتقد انه بنوع من التخطيط تصبح مجالس الآباء والأمهات ندوات تحل فيها المشاكل الأسرية ويوعى فيها بوسائل التربية الصحية ولا مانع من أن يشترك الأطفال والآباء في عرض المشكلات وحلها .

المجال الآخر من المشكلات التي ذكرها الطلاب والطالبات هي مشكلة تنظيم أوقات الفراغ . . انا اقدر المجهود الكبير الذي تبذله وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في انشاء النوادي الرياضية والمخيمات الكشفية ومعسكرات العمل وكل هذا ولكن يبدو ان هذا ليس كافيا كما ظهر من هذه المشكلات . اذ أن معظم ماتقوم به وزارة الشؤون الاجتماعية يخصص في المحل الأول الشبان فقط ولكن لابد ان نغنى أيضا بالفتاة وكيف تفضى وقت فراغها . في تقديري أنه من الضروري ان تنشأ الأندية الرياضية الخاصة بالفتيات . صحيح هناك جمعيات نسائية وجمعيات ثقافية ولكنها نغنى فقط بالخدمة الاجتماعية وهذا لا يشبع مطلقا رغبة كل الفتيات الكويتيات ، وليس من المعقول ان نهتم بتنظيم أوقات فراغ الشبان ونهمل تنظيم أوقات فراغ الفتيات ولذا فاني أقترح بأن نبتدى بالاهتمام بالنواحي الرياضية والاجتماعية للفتيات بانشاء أندية رياضية خاصة للفتيات تزاوّل فيها الرياضة البدنية . وأقترح كذلك الاستفادة من المدارس في هذه الناحية . اذ أن معظم مدارس الكويت بعد الدوام المدرسي تكون معطلة . ونحن نستطيع ان نجعل كل مدرسة ناديا رياضيا واجتماعيا يشرف عليه مدرسون ومدرّبون أكفاء بحيث يقضى التلميذ وقت فراغه تحت اشرافهم . ويمكن أن ننشئ بكل مدرسة قاعة كبيرة جدا للاستذكار ومكتبة أيضا بحيث يمكن للتلميذ الذي لا يستطيع ان يذاكر دروسه في البيت ان يذاكر في هذه القاعة تحت اشراف أخصائيين نكون مهمتهم الاشراف على التلاميذ في دراستهم ومساعدتهم في حل مشكلاتهم . بهذه الطريقة يمكن أن نجذب كثيرا جدا من الشباب الى تنظيم أوقات فراغهم بهذه المدارس .

كل رعاية اجتماعية من هذا النوع وكل تخطيط لا يستطيع ان ينجح بدون أن نهتم بالشخص الذي سيقوم بتنفيذ هذا البرنامج . وحينما نقول مثلا أن التربية في البلاد العربية مختلفة فاننا نقول ان المعلم هو المتخلف وحينما نريد أن نحسن التربية يجب أن نغنى باعداد المعلم وكذلك حينما نريد أن نضع أى برنامج جديد للخدمة الاجتماعية لا بد أن نعد القادة الذين يستطيعون تنفيذ برامج الرعاية الاجتماعية . وهذه مشكلة يجب أن نوليها اهتماما كثيرا وأعتقد أن الرعاية

الاجتماعية أيضا لا بد أن تبتدىء من المدرسة لأن المدرس نفسه لا يكون دوره فقط أن يدرس التلاميذ كيف يحسب وكيف يقرأ ويكتب ولكن حينما نعد المدرس اعدادا كافيا يصبح مدرس ومربيا ومشرفا اجتماعيا يستطيع أن يتلمس المشكلات الاجتماعية التي تواجه التلاميذ حينما تحال إلى المشرف الاجتماعى إذ لا بد أن يكون هذا المدرس على درجة كبيرة من الوعى والفهم والثقافة . والرعاية الاجتماعية تحتاج إلى القادة الاجتماعيين الذين يستطيعون أن يبذلوا ويضحوا . خدمة هذا المجتمع . انها تحتاج إلى نوع من القادة الذين يستطيعون أن يخدموا المجتمع باخلاص ووفاء .

الرعاية النفسية للطفل وقيمتها الاجتماعية

كلمة

الأستاذ الدكتور محمد أحمد غالي

مقدمة :

الرعاية النفسية للطفل من أهم جوانب الرعاية الاجتماعية الضرورية في هذه المرحلة . وبالرغم من أن الكثير مما يجب أن أطرقه أنا قد طرقة الأساتذة والزملاء إلا أنني أعتقد أن موضوع الرعاية الاجتماعية للطفل فريد في بابه يحتاج إلى دراسة خاصة وواسعة . انه موضوع هام جداً لأنني حينما اتناول موضوع الرعاية الاجتماعية النفسية للطفل انما أتحدث عن الرعاية لى ولكم ولكل كبير في المجتمع اذا أخذنا بما يسير عليه علماء سيكولوجية النمو من أن الطفل أب للرجل . فالرجل في سلوكه وشخصيته هو فعلاً صورة أخرى من طفولة تعكس ما تعرض له فيها من مشكلات أو تحلف نتيجة الرعاية الاجتماعية النفسية التي سأتجه بها الآن اتجاهاً جديداً .

تعريف الرعاية الاجتماعية للطفل :

وإذا كان لا بد أن أبدأ بتعريف آخر للرعاية الاجتماعية أشتقه من التعريفات التي قبلت مسبقاً وهي أن الرعاية الاجتماعية توفير كل الامكانيات لمعاونة الفرد لمواجهة مشكلاته وحاجاته في مختصر ما فهمته منها إلا أن هذا التعريف الذي سوف أسوقه وان لم يخرج عن التعريف السابق ولكنه يمكن أن يبرز تعريف الرعاية الاجتماعية ومفهومها الاجرائى الاجتماعى النفسى بأن هذه الرعاية تتضمن توفير أكبر قدر من الامكانيات والتسهيلات الاجتماعية والمادية والنفسية لتحقيق أحسن الظروف لنمو الفرد وتطوره تطوراً ينتقل به من كائن بيولوجى صرف إلى كائن بايو اجتماعى وهذا طبعاً يمثل زاوية أخرى من فهمنا للرعاية الاجتماعية وهي زاوية الرعاية النفسية للطفل .

والرعاية الاجتماعية للطفل لها صفة تجعلها مختلفة عن رعاية الأسرة ككل وعن الرعاية الاجتماعية للشباب أو الرعاية الاجتماعية كمشروعات وتنظيمات .

ان الرعاية الاجتماعية النفسية للطفل تحددها ظروف معينة . أولها : أن طفولة الطفل البشرى أطول من طفولة أى كائن وكلما ارتقى المجتمع البشرى طالت هذه الطفولة . إذ أنه حينما كان المجتمع البشرى يعيش على الرعى أو الزراعة كانت الطفولة آنذاك تمتد خمسن سنوات بعدها يصبح الكائن منتجاً

وعاملاً فعالاً وتنتهى بذلك أو تكاد طفولته . أما الآن فإن الطفولة أطول لأنها تبلغ الواحد والعشرين من العمر لأننا إذا أرسلنا الابن في بعثة للخارج مثلاً تبقى طفولته إلى الخامسة والعشرين ، فهو طفل محتاج إلى رعاية دائمة من الأسرة وغيرها ، رعاية اجتماعية اقتصادية ونفسية .

ثانيها : ان الطفل البشرى يمتاز أيضاً عن الكائنات الأخرى بصفة أخرى وهي أنه عاجز ضعيف تتأخر الكثير من استعداداته وقدراته إلى وقت لاحق كالمشي والكلام والكسب والقدرة على التفاعل الاجتماعى . فهى لا تأتى بمجرد الميلاد مباشرة كما يحدث للكائنات غير البشرية . والطفل البشرى لذلك يحتاج إلى توفير امكانيات تعلمه أساليب التوافق الاجتماعى الملائمة حتى يتحول كما قلنا من كائن بيولوجى إلى كائن بايو اجتماعى في نهاية الأمر يستطيع أن يعيش متوافقاً مع الأوضاع والقيم والتقاليد الاجتماعية التى يعيش فيها .

كذلك تمتاز الطفولة البشرية بأن الكائن يتعرض فيها لضغوط ضرورية . واجبات تستلزمها عملية التطبيع الاجتماعى الضرورية لنقل تراث وقيود الحياة البشرية اليه ، للحد من طبيعته واندفاعيته .

والتطبيع الاجتماعى يقوم أساساً على حد حريات الطفل ، وتنظيم عمليات اشباعه لحاجاته ، مما يعرضه للاجباط ، خصوصاً وأنها عملية يتم بها امتصاص الطفل لما يلزم ويقبل من العادات المرعية بنظام من الثواب والعقاب .

وفي طفولة الكائن البشرى يشعر الطفل بكثير من وطأة الاجباط وما يصاحبه من صراع نفسى وتأزم . ومع ذلك فهو لا يملك من الاستعدادات ما يساعده على التعبير عن مشاعره ، أو التنفيس عن ثوراته وتأزمه ولذلك فهو يعانى مما يعانى منه ، ولا يملك :

— لا طريقة رد العدوان

— ولا أسلوب التعبير عن مشاعره

ولذلك فالانسان البشرى أكثر الكائنات معاناة من معاملة المشرفين على تنشئته دون أن يملك أساليب الدفاع عن نفسه .

هكذا تقول « كان هورثي » انه يعاني منذ طفولته من العيش في عالم مليء بالعداء والعدوان .

ومع ذلك فهو يكبت ما يتنازعه من عدوان مضاد ويعيش في صراع الرغبة في العدوان المضاد ، والخوف بسبب شعوره بالعجز ، العجز الشديد أمام العالم الخارجى .

هذا ما يسمى بالصراع الأساسى أو المصدر الأول للقلق الأساسى .

فلو تعرض مع ذلك لضغوط أخرى كالحرمان أو غيره ، كان ذلك مما يعمق مشاعر القلق ، ومعانى العجز التى يعيش فيها وتؤثر في شخصيته في مستقبل الأيام .

هذه الحقائق التى نشهدها تحدد ماهية الالتزامات الواجبة علينا نحو هذا الطفل حتى نكفل له رعاية اجتماعية طيبة . أول هذه الالتزامات هو أنه طالما أن الرعاية لن تصل إلى الطفل مباشرة أو هو لن يسعى إليها فلا بد من وجود عملاء معينين يكفل اليهم المجتمع أمر رعايته اجتماعياً ونفسياً سواء أكان ذلك في صورة مادية كالخدمات الصحية أو غيرها أو رعاية اجتماعية نفسية صرفة . هؤلاء الوكلاء هم طبعاً أفراد الأسرة وعلى رأسهم الأب والأم . ثانياً لا بد أن تكون الرعاية الاجتماعية طويلة متصلة بطول طفولة الطفل ، اذ طالما أنه طفل ، اذن هو يحتاج إلى رعاية اجتماعية وبصفة مستمرة لذا يجب أن تقدم الرعاية الاجتماعية للطفل بصورتها أو بجانيبها أو بوجهيها المادى والنفسى معاً وبصورة مناسبة للإنسان في مراحل نموه المختلفة يعتبر فيها أن الطفل كائن بشرى يجب أن تقدم له هذه الرعاية كفرد من البشر . مثلاً لا نقدم له الرعاية الطبية على اعتبار أنه مجرد آلة يحمل إلى الطبيب ويأخذ الدواء إلى غير ذلك من الأساليب بدون أن يعنى ذلك أنه بشر ، بل يجب أن يكون المناخ المحيط باعطائه هذه الرعاية التى توفرها الدولة أو الهيئات أو المؤسسات هو المناخ النفسى السليم الذى يجب أن يكون ملائماً للنمو النفسى السليم للطفل . وليس من واجب الأسرة أن

تعنى بتعليم الطفل أساليب التوافق الاجتماعى ، وهى العملية المعروفة بعملية التنشئة الاجتماعية أو التطوير الاجتماعى ، بطريقة آلية بحيث تهدر الأسرة في ذلك مقومات الأمن أو احترام الذات أو الحب والتعاطف أو النجاح . ان هذه الخدمات كلها تفشل في تحقيق غايتها ما لم تكن مغلفة بغلاف من الرعاية النفسية .

كل هذا يودى بنا إلى استنتاج هام وهو أن الرعاية الاجتماعية لها جانبان :

أولاً : جانب مادى ، وثانياً : جانب اجتماعى نفسى . أما الجانب الاجتماعى النفسى فإنه يمثل جانباً له وزن أكبر في الرعاية الاجتماعية لأن الكثير من الحاجات المادية قد يسلو عنها الانسان بعض الشيء أو بعض الوقت ولكنه قلما يستطيع الاحباط ان يحدث في الأمور النفسية — كاحباط حاجته للأمن أو احباط حاجته للحب أو النجاح أو التقدير وغيرها من الحاجات . وتعتبر رعاية الطفل اذن نفسياً واجتماعياً وظيفية رئيسية للأسرة . وكلما حققنا للأسرة رعاية اجتماعية انعكس هذا الأمر بالتالى على الطفل بطريقة أو بأخرى ولكن في دراستى للرعاية الاجتماعية للطفل — سأركز في هذا الحديث على محورين رئيسيين :

المحور الأول : علاقة الطفل بأمه وحاجته إلى حبها وكيف ان اهدار هذه الحاجة أو تهديدها يعتبر اضراراً في أهم شق من جوانب الرعاية الاجتماعية النفسية المؤدية للنمو النفسى السليم لدى الطفل .

والمحور الثانى : أساليب التنشئة الاجتماعية على اعتبار أهمها ضرورة حيوية اجتماعية لتطبيع الطفل لنقله من كائن بايولوجى إلى كائن بايواجتماعى . هذه التنشئة الاجتماعية Socialization ضرورة اجتماعية تمارسها الأسرة أولاً وقبل كل شيء ، وقد تقع الأسرة في أساليب تنشئة خاطئة قد تجعل النمو النفسى للطفل ينحرف عن الطريق السوى . وأحب أن أشير هنا إلى أننى حينما بدأت أفكر في هذا الموضوع دفعتنى الرغبة في بحثه بعمق إلى قراءة بعض الكتب

الأجنبية . وللعلم هناك كتاب كتبه مؤلف اسمه « جون بولبي ^(١) » (رعاية الطفولة ونمو الحب) والكتاب الآخر كتبه « جيمس بو سارد ^(٢) » (الجانب الاجتماعي في نمو الطفل) ولكنني وجدت أن عالمنا العربي منذ أقدم العصور ملئ بالتوجيهات الجميلة للرعاية الاجتماعية للطفل وحمايته وتنميته النمو السليم من قديم الزمان وحديث الأيام . ففي العصر الحديث أجريت دراسات عديدة في مجتمعات عربية عن الاتجاهات الوالدية في تنشئة الأطفال وقام بها الاساتذة في جامعات جمهورية مصر العربية وأجروا بحثاً على الأطفال للدراسة أثر أساليب التنشئة المختلفة في حياتهم وكيف تختلف أساليب التنشئة حسب المجتمعات والمستويات الاجتماعية والاقتصادية من طبقة لأخرى وأثر ذلك في النمو النفسي للطفل ^(٣) . كما وجدت أيضاً أن الدين الحنيف وعلماء الاسلام قد ملأوا الدنيا بالحديث كثيراً عن النمو النفسي للطفل وسأذكر بعضها في مجرى الحديث ثم أعود إلى الحديث عن المحورين الأساسيين الذين ذكرتهما وهما : علاقة الطفل بأمه وكيف أن اضطرب هذه العلاقة يسيء إلى النمو الطبيعي للطفل ويهدر الرعاية الاجتماعية المفروضة في الطفل عن طريق العملاء المسؤولين أمام المجتمع وهما الوالدان .

وفي حديث للامام أبي حامد الغزالي في كتابه « احياء علوم الدين » الجزء الثامن من المجلد الثاني ، باب بعنوان « بيان الطريق في طباعة الصبيان أو نشوئهم وضرورة تأديبهم وتحسين أخلاقهم » وهو يكاد يكون تحفة علمية في موضوعات وأساليب التربية والتطبيع الاجتماعي والتنشئة والرعاية الاجتماعية نقلت إلى كتب الغرب وكتبت في الكتاب الأحمر المعطر ونقلت إلينا مرة ثانية في أسلوب مختلف وأخذنا ننقلها إلى أبنائنا على أنها ثقافة غربية ، وعلم جديد . والواقع أن

(1) Bowlby, J : Child care & the Growth of love. Pelikan Book 1959.

(2) Bossard, I. H. the Sociology of child Development. Hrperd Brothers. New York, London 1948.

(٣) د . محم عباد الدين اسماعيل وآخرون :

الاتجاهات الوالدية في تنشئة الطفل

دار المعرفة ديسمبر ١٩٥٩

أصولها وضعت عندنا أولاً وقبل كل شيء . ومن أهم ما جاء فيها : « اعلم أن الطريقة في تطبيع الصبيان وأوكدها والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهره نفسية ساذجة خالية من كل غش . وهو قابل لكل ما نقش على قلبه ومائل إلى كل ما يحال به اليه : فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في الثواب أبواه . وان عود الشر وأهمل أهمل البهائم شقى وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالى له . قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة . . إلى آخر الآية » وصيانة الصبي أن يؤذبه أبوه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء فلا يستعمل في حضائنه الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال . فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه : فاذا وقع عليه الصبي نبتت طبيعته من الخبث فيميل طبعه إلى ما يماثل الخبائث » . هذا يدلنا على أهمية دور الأم في تنشئة الأطفال وتوصيل الرعاية الاجتماعية بمعناها المحدد في أول الحديث اليهم . هناك أمور كثيرة منها : آداب الطعام وقد تحدث فيها الامام عن كيفية تعليم الأطفال آداب الطعام وهذا يدخل تحت باب التطبيع الاجتماعي ، أو عملية ادخال القيم والعادات المرغوبة إلى الطفل بحيث يمتصها وتصبح جزءاً من كيانه النفسى وتنظم شخصيته .

ومنها : تنمية الرجولة وهذا يدخل تحت تربية الذات والثقة بالنفس كما أشار إلى ذلك الاستاذ الدكتور عثمان نجاتى ومنها أيضاً : التعليم واكتساب المعارف المختلفة ويدخل تحت جوانب الرعاية الاجتماعية والخدمات التى نقدم للطفل .

ويمكن تلخيص أقوال الامام الغزالى بما يأتى :

عن الحياء بقول الامام :

ومهمه رأى فيه من مخايل التمييز ، فينبغى أن يحسن مرافقته ومراقبته . وأول ذلك ظهور الحياء عليه ، فانه اذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء مغايراً ومخالفاً للبعض .

أليس في ذلك الكثير مما تتحدث عنه كتابات الغربيين في موضوع تكوين الضمير نتيجة عملية التطبيع وتغليب العقل والمنطق على الاندفاع والاشباع المطلق . أنها عملية الضبط الداخلي للنوازع الانسانية مما يكسبه الطفل نتيجة عملية التطبيع الاجتماعي .

وعن آداب الطعام :

يقول الامام : يجب أن يعلم الصغير كيف يسمى على الطعام ، ولا يحدق النظر اليه ، ولا يسرع في الأكل ، بل ويأكل قليلا ولا يكثر ، فان كثير الأكل شبه البهائم ، كما يجب أن يعلم عدم الاهتمام به ، أو المبالاة بنوعه أو كميته .

هذا مجال آخر من مجالات التطبيع الاجتماعية واكتساب العادات المرغوبة .

وفي تنمية حسنات الرجولة :

يقول الامام يجب على الوالد أن يحبب إلى الوالد من الثياب البيض دون الملونة ، وأن يقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين ، ويستنكر على الصبي الثوب من حرير أو ابريسم أو من لون غريب ، وانه يجب اليه الابتعاد عن صبيان يسمعون ما يجب من أمور غير مرغوبة اجتماعياً .

هذه صورة رائعة من صور وقاية الطفل من عوامل قد تبرز البذور الأولى لانحراف سلوكه خاصة فيما يتعلق برجولته . وهي أيضاً موضوع نكرر طرقة في موضوعات التربية الجنسية ومصادر المعرفة الجنسية وإلى الخطورة على حياة الطفل ، فيما يتشدد به كتاب وأدباء وعلماء الغرب ، ونحن اليها أسبق وفي علمها أعرق .

وفي مجال التثقيف والتعليم :

يرى الامام : أن الطفل يعلم بالمكتب (الكتاب) حيث يعلم القراءة والكتابة ويسمع حكايات الأبرار ليتعلم منها حب الصالحين ويكتسب من صلاحهم ما يصلح به دينه ودنياء .

هذا هو الاقتداء بالمثل في تكوين الاتجاهات النفسية فيما يدعيه علماء الغرب من سبق بعلوم النفس والتربية .

ومن الأبواب الأخرى في باب التطبيع الاجتماعي التي كتب عنها الامام أبو حامد الغزالي - الثواب والعقاب في التطبيع الاجتماعي - يقول : ثم مهما ظهر من الصبي من خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به . ويمدح بين أظهر الناس فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكشفه ولا يظهر الأب له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على فعله ولا سيما اذا ستره الصبي واجتهد في اغفال فعله فان اظهار ذلك عليه ربما أن يفيد حسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة فعند ذلك ان عاد ثانية فينبغي أن يعاقب سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له اياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وان يطلع عليك في مثل هذا فتفصح بين الناس . كذلك تكلم الأمام عن هبة الوالدية وما يجب أن تكون عليه هذه الهبة ليكون الوالد مثلاً طيباً للأبناء يحتذى بالسلوك .

تكلم أيضاً عن الآداب والمهارات الاجتماعية التي يجب أن ينقلها الآباء إلى الأبناء - فيقول الامام : « يمنع من أن يتكبر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو شيء من مطامعهم وملابسهم . يمنع من أن يأخذ من الصبيان أي شيء بدا له حشمة ان كان من أولاد المحتشمين بل يعلم أن الرفعة في الاعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لو لم وخسة ودناءة وان كان من أولاد الفقراء يتعلم ان الطمع والأخذ مهانة وذلة وان ذلك من دأب الطلب فانه يبصبص في انتظار لقمة الطمع .

هذا هو مبدأ الأخذ والعطاء الذي يدعيه علم الغرب ويدعى أنه من أهم مبادئ تنمية الاتجاهات الاجتماعية المرغوبة .

ان مبدأ الأخذ والعطاء يعتبر واحداً من القيم التربوية العديدة التي أبرزها الامام على أنها جانب تطبيعي ضروري يمتصه ويمارسه الطفل ليغلب في سلوكه الايثار على الأثرة ، والقناعة على التذلل والتطفل .

عادات المجالس :

ألا يبصق أو يتمخط في مجلس ، كل هذه تدلنا على جوانب التطبيع الاجتماعي التي أبرزها العالم الامام .

اللعب والترفيه :

وهذا يجرنا إلى المشكلات التي ناقشها الامتاذ الدكتور نجاتي . وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب - أن يلعب لعباً جميلاً ليستريح اليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب - فان منع الصبي من اللعب واستمر في ارهاقه في التعلم دائماً - فان التعلم الدائم يميت قلبه ويبطل ذكائه وينقص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً .

هذا هو الجانب الهام في التربية الحديثة التي تعتبر اللعب نشاطاً تربوياً حيث تنادي بالمبدأ القائل :

وينبغي ان يعلم طاعة الوالدين . . . الخ ومهما بلغ سن التمييز فينبغي ألا يسامح في ترك الطهارة وهي من القيم الدينية وكيف يجب أن يتشرب بها ويتعودها كالصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ويحجب لبس الديباج والحريير والذهب ويعلم كل ما يحتاج اليه من حدود الشرع ويخوف السرقة وأكل الحرام . . الخ .

مسئولية الآباء عن انحراف الأبناء ، وفي ذلك يقول الامام : « . . . فاذا كان النشوء صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثراً ناجعاً يثبت في قلبه كما يثبت النقش على الحجر وان وقع النشوء بخلاف ذلك حتى ألف الصبي الفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والترين والتفاخر ، نبا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن تراب اليابس . فأوائل الأمور هي التي يجب أن تراعى فان الصبي بجوهره خلق قابلاً للخير والشر جميعاً وانما ابواه يميلان به إلى أحد الجانبين » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

لقد أردت أن أشير إلى ذلك لأوجه النظر إلى ما في ديننا الحنيف وأبحاث علماء الاسلام من موضوعات كثيرة عن الرعاية الاجتماعية .

ولقد اهتمت الدراسات جميعاً النفسية وغير النفسية بالرعاية الاجتماعية في المحورين اللذين ذكرتهما آنفاً . أما عن المحور الأول وهو علاقة الطفل بأمه فانها علاقة اذا تهددت فلا يعرف كيف تؤدي إلى اضطراب النمو السليم على اعتبار أنه المحصلة النهائية لكل رعاية اجتماعية للطفل .

واهتمت أيضاً بعمليات التطبيع الاجتماعي ومحور الطفل / الأم من المحاور المهمة جداً في كل الدراسات بل ان « جون بولبي » كتب في معظم كتابه الكثير عن علاقة الطفل بالأم وعن مشكلات الحرمان المختلفة وتأثير هذا الحرمان في نمو الطفل . ويعتبر اتصال الطفل بالأم عاملاً هاماً من عوامل شعور الطفل بالأمن ، واشباع حاجته إلى الأمن النفسى - واشباع حاجته إلى الانتماء الطيب . ان الأسرة كلها يجب أن تركز الاهتمام الأكبر على دور الأم في هذا المقام لأن أى اضطراب في علاقة الطفل بأمه يجعل نمو الطفل نمواً يميل به غالباً إلى الانحراف .

كيف أو لماذا يحدث الحرمان من الأم ؟ قد يحدث الحرمان من الأم بسبب خارج عن الارادة - منها مثلاً الموت - أو فقدانها في حادثة أو كارثة - أو غير ذلك . أو أن تكون الأم قد أصيبت بما يعجزها عن أن تقوم بدورها الصحيح كأم .

وقد يحدث الحرمان من الأم بصورة أخرى حينما تتجه الأم إلى العمل طول الوقت وهذا نوع من أنواع الحرمان يضاعف أثره تماماً ، حين تكون الأم موجودة بالجسد دون الروح وصورة أخرى من صور الحرمان - الحرمان من الرضاعة - فمن المعروف في دراسات كثيرة أن الرضاعة من الأهمية بمكان وأنها ليست فقط ذات أهمية كبرى من الناحية الجسمية والبيولوجية ، بل انها أيضاً مصدر كبير من مصادر الأمن النفسى للطفل وهناك اتجاه في المجتمعات الراقية والمجتمعات التي توفرت لها امكانيات مالية لا بأس بها إلى اهمال هذا

الأمر على اعتبار أنه يسبب تشويهاً للأم ومشكلات للأم خاصة في حالة الأم التي تعمل . . الخ ونحن في ذلك نهمل أمراً هاماً وهو حاجة الطفل إلى الأمان كما يراه في صدر أمه الحاني — ولو نظرنا إلى أي طفل نشعر بما يهدد أمانه أو يخيفه نجد أول ما يهرب لا لأبيه بل أولاً يهرب إلى الأم — هذا ملوك ناجم عن الارتباط الشرطي الكبير بين عملية الارضاع وما يعقبه من ارتياح وبين الشعور بالأمن والدفء العاطفي . ان اسناد هذه العملية إلى غير الأم يسبب الكثير من الاضطرابات في النمو النفسي ويجعل الرعاية الاجتماعية المفروضة على الأم — أمراً مهدداً إلى حد كبير . ويترتب على ذلك اضطراب في النمو العاطفي للطفل .

ووقاية للطفولة من آثار الحرمان أيضاً في مسائل الحرمان من الرضاعة . نرى الدين قد أكد ذلك تأكيداً واضحاً فيقول الله تعالى : « والوالدان يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » أي ان الوالد يطعم الزوجة ويكسوها اثناء الرضاعة بالمعروف . فاذن الرضاعة : أمر مهم جداً تؤكدها كل الأديان وتنظم علاقتها ومسئوليتها جميع القوانين السماوية والوضعية .

هناك أيضاً آية أخرى « حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي » . . إلى آخر الآية .

والحقيقة ان احتضان الأم للطفل وارضاعه أمر مهم جداً — أكدته جميع الأديان كما أن ابتعاد الأم عن هذا العمل الجليل بحجة أو بأخرى من حجج المدنية الحديثة فيما يتعلق بالحفاظ على الشكل والمنظر — يصبح اهداراً للخدمة أو الرعاية الاجتماعية للطفل .

هناك مظهر آخر وهو أن بعض الأمهات يقدمن كل رعاية مادية للطفل من مأكل وملبس وطب وما إليها ، ولكنهن لا يبدن له التعاطف صريحاً واضحاً — فاذا طلب طعاماً مثلاً دلوه على طعام بشيء من الجفاف ليس فيه من الأمومة

الشيء الكثير . هذه بعض مظاهر الحرمان من الأم وفي كثير من الحالات تكون الأم موجودة بجسدها وهي غير موجودة مع الطفل بنفسيتها أو روحها وتتهدد بذلك حاجة الطفل الرئيسية إلى الأم . ويحضرني في هذا قول الشاعر :

ليس اليتيم من انتهى ابواه من نكد الحياة وخلفاء ذليلاً
ان اليتيم من ابتلى أمّاً تخلت أو أباً مشغولاً

هذا هو اليتيم الحقيقي الذي يبرز اليتيم النفسي قبل اليتيم المادى أو بعد الأبوين .

وسأبرز بعض الأشياء البسيطة جداً فيما يختص بهذا الموضوع . هناك دراسات عديدة أجريت على نتائج الحرمان من الرعاية الأمومية وكانت هذه الدراسة اما دراسة مباشرة لسلوك الطفل المحروم من الرعاية أو دراسة تراجعية لاطفال أو كبار كان يظهر عليهم اضطراب سلوكى . كان الدارسون يعودون بهم إلى طفولتهم فيجدون أنهم حرموا من الرعاية الأمومية ، أو يجرون دراسة تتابعية يتابع فيها الدارس أطفالاً محرومين من الرعاية الأمومية إلى ما بعد ذلك من مراحل النمو .

وهناك دراسات دقيقة على اطفال في سن ستة أشهر وضعوا في دور الأيتام واللقطاء وثبت من الدراسة أنهم أقل في بدء التدريب على الكلام واللغة لأنهم كانوا يعاملون معاملة القطيع وليس لهم رعاية أمومية فردية لكل فرد .

وعلى المستوى الاجتماعى كانت هناك دراسة أخرى على أثر الحرمان من الأمومة ومقارنة ذلك بالرعاية الأمومية . أجريت الدراسة على أطفال من مجموعة غير منتقاة عشوائية على أطفال المدن ومجموعة غير منتقاة عشوائية من أبناء الريف - مجموعة من الأطفال المودعين بالمؤسسات غير الشرعيين وليس لديهم أية رعاية أمومية . وتبين من هذه الدراسات أن مظاهر النمو في جميع اتجاهاته كانت أسرع في المجموعة الأولى من أبناء أصحاب الوظائف العليا ثم يليها معدل نمو أبناء المدن ثم نمو أبناء الريف ثم الأطفال المودعين في المؤسسات . أى أن الأطفال الذين أودعوا المؤسسات كانوا ممن تعثر نموهم النفسى بشكل واضح ، وكانوا في ذلك أكثر من الفئات الأخرى تعثراً في النمو .

دراسة أخرى على ١٨٢ طفل ، ٨٣ منهم أودعوا مؤسسات و ٣٩ كانوا محرومين من الأم ولكنهم أودعوا بيوت الايواء المختلفة أو بيوت التبني . وبدأت الدراسة على هؤلاء الأطفال منذ أن أودعوا لدى السلطات المختلفة في سن شهرين وكانت الرعاية الصحية والغذائية كلها واحدة في الحالتين فيما عدا أن مجموعة الأبناء الذين عاشوا في بيوت كانت لهم رعاية أمومية أكبر من الآخرين - وكانت النتيجة أنه بعد اجراء اختبارات ذكاء عليهم - تبين أن أبناء بيوت التبني أو الايواء - كان ذكاؤهم أعلى بالرغم من أنهم أيضاً محرومين من الأم الحقيقية . وهذا يدلنا على أن الأم أو بديل الأم يلعب دوراً هاماً في النمو النفسي للطفل حتى في الجوانب التي يغلب أنها موروثية .

وهناك دراسة أخرى لسن أكبر لحوالى ٣٤ طفلاً - يتراوح سنهم بين ٣٤ شهراً و ٣٥ شهراً - نصفهم أودع في المؤسسات والنصف الآخر أودع في بيوت الايواء - وكانت جميع مظاهر النمو عادية عند أطفال المؤسسات ولكنها كانت أكبر في جميع أنواع المقاييس في حالات الاطفال الذين أودعوا في بيوت التبني والايواء .

لا شك أن وجود الأم أو الأم البديلة - له أهمية كبرى في توصيل الرعاية الاجتماعية إلى الطفل كما نراها من الجانب النفسى . وحرمان الطفل من أمه يؤدي إلى نتائج سيئة جداً لنمو الطفل - كانت نتيجة دراسات عديدة موجودة للآن . فالطفل المحروم من الرعاية الامومية يبدو شديد الهدوء - غير سعيد . مثل هؤلاء الأطفال تكون استجاباتهم الانفعالية والحركية والنفسية غير واضحة أى لا يستجيبون للمثيرات التي تسر الجميع . بنفس طريقة الطفل العادى . ويبدو على الاطفال الذين حرموا من الأمومة الانسحاب من كل ما يحيط بهم أو يتعرض لهم من خبرات جديدة . ويبدو عليهم نوع من الخمول التام - ينام الطفل كثيراً - وهو غالباً قليل الحركة متبلد ، أغلبهم يفقدون الشهية وينقص وزنهم - تبدو عليهم حالات الأرق واضحة - هؤلاء الأطفال الذين تربوا في المؤسسات المختلفة أكثر ما تظهر عليهم هذه الأعراض عند الانفصال من الأم بعد علاقة

سعيدة دامت من ٩ إلى ١١ شهراً . وقد كانت هذه الدراسة من الدراسات التي حققت التشخيصية الاكلينيكية بعد دراسة أجريت على ٩٥ طفلاً من أطفال المؤسسات .

دراسات ميدانية :

نحب هنا أن نشير إلى نتائج دراسة ميدانية قام بها المتشرف بالحديث اليكم . فقد أجرى دراسة على ٢٠٠ من أطفال المدارس الابتدائية والمتوسطة ممن تتراوح أعمارهم بين سن العاشرة وسن الثالثة عشرة أى في أواخر مرحلة الطفولة المتأخرة ومشارف سن البلوغ ، وهم من تلاميذ مدارس القاهرة .

وأجريت على الأطفال دراسة اكلينيكية استعمل فيها القياس النفسى ، وقورنت هذه المجموعة التجريبية بمجموعة ضابطة متماثلة معها .

أما المجموعة التجريبية فكانت جميعها من أبناء أمهات مشغولات عن الأبناء أو حرموا أمهاتهم لواحد من الأسباب الآتية :

١ - الطلاق أو الانفصال أو الهجر

٢ - الموت

٣ - الاغتراب

٤ - اشتغال الأم بعمل كل الوقت أو بعض الوقت .

وقد استعمل في هذه الدراسة مجموعة ضابطة مكونة من ٢٠٠ طفل أكد البحث الاجتماعى أنهم عاشوا كل حياتهم تقريباً في أحضان الوالدين ، خاصة الأم (هنا صرف النظر عن الغياب المؤقت لمدة لا تزيد عن أسبوع) .

ولقد أثبت البحث جميع عوامل الذكاء ، والسن والمستوى الاجتماعى الاقتصادى ، وكذلك المستوى التحليلى (السنة الدراسية) في المجموعتين .

ولقد استعمل في هذه الدراسة مقياس الصحة النفسية اقتباس واعداد الدكتور محمد عماد الدين اسماعيل وآخرين .

وكان من أبرز نتائج الدراسة ما يأتي :

كانت الفئات الأربعة في المجموعة التجريبية أكثر بعدا عن الصحة النفسية .

وكان ترتيب المجموعات الأربعة من حيث نقص درجة الصحة النفسية كالآتي :

كان أكثر المجموعات الأربعة تعرضا لعدم الصحة النفسية :

- ١ - مجموعة من حرّموا من الأم بسبب الطلاق أو الهجر .
- ٢ - تليها مجموعة من حرّموا من الأم بسبب الاغتراب أو الاشتغال .
- ٣ - تليها مجموعة من حرّموا من الرعاية الامومية بسبب الموت .

وفي دراسة المستوى التحصيلي تبين أن الفئات الأربعة من المجموعة التجريبية كانت أكثر تعثرا في الدراسة من المجموعة الضابطة رغم أنها متماثلة معها في الذكاء . وربما يرجع ذلك الى ما تعانيه هذه المجموعة من اضطرابات نفسية وقلق بسبب هجر الأم أو الحرمان منها .

كذلك أجرى على أفراد المجموعتين اختبار الشخصية للأطفال من وضع الدكتور عطيه محمود هنا . وقد تبين من الدراسة المقارنة لنتائج القياس أن فئات المجموعة التجريبية جميعا كانت تعاني من سوء التوافق الشخصي والاجتماعي بجميع مظاهره وبفروق نرى دلالة بينها جميعا وبين المجموعة الضابطة .

ولعل من أطرف النتائج التي حققتها الدراسة ما يأتي :

- ١ - وجود ارتباط ايجابي واضح بين عدد سنوات الحرمان من الأمومة وبين الاضطراب النفسي بصوره جميعا .
- ٢ - كان الحرمان المبكر (وقد اعتبر الحرمان من الأم مبكرا اذا كان قد وقع قبل بلوغ الطفل سن الخامسة) يرتبط ارتباطا ايجابيا عاليا بدرجة عدم الصحة النفسية وسوء التوافق الشخصي وسوء التوافق الاجتماعي .
- ٣ - ارتبطت مدة الحرمان ارتباطا ايجابيا بالاضطراب النفسي عامة ، وسوء التوافق خاصة .

٤ - كانت أفراد المجموعة التجريبية الذين يعيشون مع أم بديلة أقل تأثراً بالحرمان من حيث نتائجه في الصحة النفسية للطفل .

سن الحرمان الخطير :

نريد هنا أن ندرس ما هو سن الحرمان الخطير على الطفل ؟

الملاحظ أن الحرمان في السنة الأولى ليس له من خطورة لأن الطفل قد يجد الرعاية الاجتماعية عن طريق الأم البديلة سواء أكانت قريبة أو غير قريبة . وتكون حالة الحرمان أقل تأثيراً لأن الأم البديلة تقوم بكل حاجات الطفل . أما في السنة الثانية والثالثة فهذه أخطر سنى انفصال الأم عن طفلها . وتكون الاستجابة الانفعالية للأم عنيفة وفي صورة اكتئابية ولا تصلح الأم البديلة بل قد يعتدى عليها ويرفضها في سن الثانية والثالثة : يعاني الطفل الحزن الشديد المضني أياما وساعات من اليوم - قد يصل الى درجة من العصبية تجعله يرفض كل وسائل المسرة اذا أعطيناه حلوى أو شوكولاته أو ذهبنا به الى السينما - نجده يرفض كل هذه الأمور مادامت الأم قد انفصلت عنه وهو يعي هذا الانفصال . بعد فترة طويلة من الحرمان يصاب هؤلاء الأطفال بأفات نفسية شديدة عنيفة منها - التبول - التبلد الانفعالي والعدوان أحيانا نادرة .

والمهم ما يظهر على هؤلاء من أشكال سلوك الكوص كص الاصابع أو قضم الاظافر أو البكاء أو نوبات العصبية الطفلية
Nervous Tantrums

وقد يمارس الطفل علاقات جنسية خاطئة بحثا عن حب مفقود بأسلوب منحرف .

ان الآثار السيئة للحرمان من الأم حقيقة توصل اليها العلماء بعد دراسات عديدة . فبالإضافة الى ماسبق ايراده من نتائج أبحاث قام بها كاتب هذا المقال فان « جون بولبي » يورد لنا نتائج دراسات عديدة :

لقد أجريت دراسة على مجموعة من الأطفال الذين حرّموا من الأم بلغ عددهم ٩٥ طفلا وشخصت حالاتهم بعد الانفصال وتبين من الدراسة :

- (أ) أن أكثر الاطفال تعرضا للاضطرابات النفسية هم أولئك الذين يتعرضون للانفصال بعد علاقة سعيدة مع الأم لغاية سن ٩ - ١٢ شهرا . وقد ثبت من تلك الدراسة التشخيصية الاكلينيكية أن ٢٠٪ من المجموعة كانت استجابتها للانفصال بالاكتئاب الحاد ، ٢٧٪ استجابت له بالاكتئاب المعتدل وهذا هو الاكتئاب المعروف باسم Reactive depression ، وقد يفضى الى موت الطفل كمدأ بالمرض المعروف باسم Maramus .
- (ب) وجد أن بعضهم يعودون للشعور بالسعادة بعد استرجاع حنان الأمومة من الأم نفسها أو بديلتها .
- (ج) ان أغلب الأطفال حاولوا خفض توتر الحرمان وقلق البعد عن الأم وتهديد الأمن النفسى بتعلم أساليب توافق خاطئة ، كما بينا .
- (د) وخلاصة الآثار السيئة لهذا الحرمان ؛
- ١ - عداء مكبوت للأم حتى لو عادت وكرهية لها تسبب نوعا من الصراع اللاشعورى .
 - ٢ - رغبة ملحة في اقلال الأم أو الأم البديلة بشكل ظاهر يبدأ في صورة التصاق بالأم « Mother tighness » وغيره شديدة عليها ونوبات غضب مزعجة لو غابت عن ناظره .
 - ٣ - التصاق شديد - ولكنه سطحي بأى راشد يلعب دورا عاطفيا إيجابيا في حياة الطفل .
 - ٤ - الانسحاب التبدلى من كل ارتباط انفعالى أصيل أو دائم .
 - ٥ - وجد أن الجناح ينتشر بصورة أوضح بين أطفال هذه الفئة من المحرومين ، وكذلك أنواع الانحراف الجنسى في الطفولة والرشد . فقد وجد في دراسة أجريت على عدد من المشتغلات بالدعارة أو البغاء في لندن أن ٣٣٪ من العدد تقريبا كن أطفالا عاشوا في أسر محرومة من الرعاية الأمومية^(١) .

(1) Bowlly, J. Child care and the Growth of Love.

أهمية دور الأسرة في الرعاية النفسية للطفل وعوامل تهديده :

من هذا كله يمكن أن نتبين أهمية دور الأسرة ممثلة في الوالدين - وخاصة الأم - في الرعاية الاجتماعية للطفل ، كما يمكن تحقيقها من الزاوية النفسية أو زاوية ما تحققة الأسرة للابن من صحة نفسية ، لما توفره له من أمن .

الا أن الأسرة قد لا يتوفر لها ظروف أداء دورها المقدس بالصورة المرضية المؤدية لخلق جيل صحيح نفسيا . وقد يرجع ذلك لواحد من الأسباب الآتية :

(أ) ألا توجد جماعة الأسرة الطبيعية ، كما يحدث في حالات الولادات غير الشرعية أو الولادات غير المرغوبة التي قد تنتهي بالطفل الى أسرة غير طبيعية تتباه ، ويدرك مدى غربته فيها ان عاجلا أو آجلا .

(ب) وقد توجد الأسرة ، ولا تكون لها فاعلية في تأمين حياة نفسية هادئة للطفل لواحد من الأسباب الآتية :

١ - اسباب اقتصادية تحيط بعض الحاجات الضرورية كالطعام المناسب أو الكساء الملائم في حالات الفقر أو كثرة المسؤوليات أو اتساع نطاق الأسرة أو المشغولية المستمرة للأب للحصول على لقمة العيش فقط .

٢ - المرض المزمن للأب أو الأم أو كليهما وهذا مما يعطل الوالدين عن القيام بدورهما وخاصة الأم .

٣ - الاضطراب أو المرض النفسى أو العقلى لأحد الوالدين أو كليهما مما يشغلها بما يقلقهما عن اعطاء القدر الكافي من الحب والرعاية للأطفال .

٤ - المشكلات الأخلاقية التي تشغل الآباء عن الأبناء في حالات السيكوباتية أو ادمان الخمر أو الاشغال بالقمار أو الانحراف الجنسى للوالدين أحدهما أو كلاهما .

(1) Strange, J. Roy ! abnormal Psychology. McGrawHill Book Company I.N.C. 1965.

(ج) قد يعطل الأسرة عن أداء دورها حالات الأسر المهتمة التي لا تقوم بدورها بصورة مقبولة :

- بسبب النوائب الاجتماعية كالحرب أو المجاعة أو الفيضان أو الحريق .
- أو بسبب موت أحد الوالدين أو كليهما .
- أو بسبب المرض الذي يعزل أيهما عن الأسرة كالسل أو السرطان .
- أو بسبب السجن الطويل .
- أو بسبب الطلاق أو الهجران أو الانفصال .
- كذلك بسبب بعد الأب الطويل بسبب العمل أو مثله
- أو بسبب اشتغال المرأة كل الوقت كما يحدث في حالة الخدمة بالمنازل أو العمل كمضيفات أو مثلها .

ولهذا فإن من أهم ميادين الإصلاح للطفل والأسرة عامة كل ما يبذل في هذا المجال لتقليل تأثير هذه الأوضاع الخطيرة على الأسرة على وجه العموم ، وعلى الطفولة على وجه الخصوص .

هذه خلاصة الآثار السيئة التي نوجه الانتباه إليها فيما يتعلق بحرمان الطفل من الأم على اعتبار أن الأم مصدر ممتاز من مصادر توصيل الرعاية الاجتماعية بصورها كلها المادية والنفسية الى هذا الطفل الصغير العاجز .

التنشئة الاجتماعية والرعاية النفسية للطفل :

وفي الجزء الثاني من الحديث في هذا الموضوع - نتكلم عن أساليب التنشئة الاجتماعية باعتبارها عملية التطبيع الاجتماعي . وبما أن وظيفة الأسرة الرئيسية هي عملية تنشئة الطفل لذا يجب ان تهتم كراية اجتماعية لتنشئة الطفل اجتماعيا . اذ أنها تهدف أساسا لنقل الطفل الى كائن بايو اجتماعي . ومن أساليب التنشئة

ما تبدو أنها خاطئة وهى التى يجب أن أوجه النظر إليها على اعتبار أنها تهدد وظيفة اجتماعية كبرى تنشئة الطفل اجتماعيا ليكون انسانا كامل التوافق اذ لا يجب هنا أن ننسى أن الطفل أب للرجل وان كل ما يكتسبه من عادات وأساليب توافق في طفولته تثبت نسبة كبيرة جدا منها حتى بعد المراهقة . ذلك أن الطفولة تعبر عن المراحل المهمة جدا في تحديد شخصية الطفل . ومأسستعرض بعض الاساليب البسيطة التى قد تبدو غير ذات أهمية في تحديد شخصية الفرد .

أولها الصفح والتسامح الزائد^(١) :

وفيها يترك الآباء الطفل دون تحديد لما يجب أولا يجب . وقد يكون ذلك سلوكا يمارسه الوالد كعملية تعويضية . اذ ربما يكون الأب قد نشأ تنشئة قاسية فيريد أن يعوض ما حرم منه من ذلك في أبنائه فيتسامح جدا لأنه قاسى في طفولته كثيرا . قد يكون الولد نفسه ونوعه هو السبب . اذ ربما يكون الأب قد رزق عددا من البنات وليس عنده غير ولد واحد فيتسامح مع الولد كثيرا ويكون قاسيا على البنات لأنه لا يوجد غير ولد واحد هو المفضل عنده . وقد يكون الطفل كثير المرض فيؤدى ذلك الى عدم الشدة في الحد من سلوكه . وبعض الآباء المشغولين تكون مشغوليتهم مما يدخل ضمن أسباب التسامح الزائد . كذلك بعض الأمهات اللواتي يعملن طيلة النهار يتساعجن كثيرا في تنشئة الطفل بدافع حنان الأمومة . وتعويضا عن حرمان الطفل منهن . هذا التسامح الزائد له آثار نفسية اجتماعية سيئة جدا اذ يعطل توصيل الخدمة الاجتماعية الملائمة للطفل . اذ تتأخر عنده الحاسة الخلقية أو لا تنمو اطلاقا . أو تنحرف الحاسة الخلقية . وذلك حين لا يفرق بين الصواب والخطأ — فاذا خرج الى المجتمع بهذه الطبيعة المعتادة على التسامح وجد المجتمع مليئا بالقيود فانه يواجه بالصدمة النفسية ويشعر بالاحباط الشديد ، ولذا فان الآثار السيئة الناتجة عن التسامح الزائد لها أخطار كثيرة جدا ، حين يتوقع الراشد بعد طفولة سمحة متساهلة أن يجد العالم رهن اشارته والدنيا لا تحاسبه ، ويواجه بالعكس فيعانى كثيرا من الصراع النفسى والشعور بالخيبة وعدم الأمن .

(1) Over indulgence.

والنوع الثاني هو النبذ^(١) :

في حالة الأم أو الأب النابذين للطفل .

قد تبدو هذه العبارة غريبة بعض الشيء اذ كيف ينبذ الوالد ابنه؟ لكن الكثير من الآباء يبدو في سلوكهم من وجهة نظر الطفل نفسه ، أو في مشاعر الطفل ذاته أنه غير مرغوب فيه في المجتمع - كيف يبدو الآباء أمام الأطفال أنهم ينبذونهم؟

الطريقة الأولى - أن تكون حاجاته الأولية غير مشبعة وخصوصا اذا كان هناك اختلاف في المعاملة - واحد من الآباء معتنى بحاجاته ومطالبه والآخر غير معتنى به وقد يشعر الطفل بالنبذ عندما تقدم له حاجياته بصفة مستمرة أو عندما لا يجد العناية من الوالدين في مواقف المرض أو عندما يشعر بتمييز أحد أخواته عليه . : الخ

وأیضا انفصال الأم عن الأب - وخصوصا اذا حدث بعد الانفصال زواج الأم من آخر - زواج الأب من أخرى - فاذا ذهب هنا فهو مطرود منبوذ - واذا ذهب هناك فهو ايضا مطرود منبوذ وهو غالبا بعد ذلك ابن من أبناء السبيل ، أو هو شبه يتيم تخلى عنه أبواه ، فهو ينشأ على الشعور بالنبذ .

والتهديد المستمر بالعقاب - وكثرة التحذيرات تنمى القلق في الطفل ومنها الاذلال والنقد والاحتقار أمام الآخرين والتسميات الشاذة في البيت هذه كلها تشعر الطفل بأنه غير مرغوب فيه Not Wanted

والأم العصبية تلعب دوراً هاماً في ذلك حين تشعر الطفل بأنه غير مرغوب فيه أو منبوذ ، بما تستعمله من عبارات السب . أما عن النتائج التي تظهر في نمو شخصية هذا الرجل نتيجة هذه المشاعر أى حينما يصبح هذا الطفل رجلاً فإنه قد يتعلم عادة سيئة جداً لكي يعيش . هذه العادة هي الاستسلام والخنوع المذل لا يعارض ولا ينتقد ويصبح مستسلماً كل الاستسلام ، وهذه الطبيعة لا تجعله رجلاً ناقداً معارضاً مهما كان ما يقع عليه . قد يسبب للوالدين في عدوان لاشعورى -

(1) Rejection.

الاحراج - يقترف من الذنوب ما يخرج الوالدين ولكن المهم أن شعوره القديم بالنبذ يجعله يسعى لمن يسانده . ويطلب الحب الذي عاش متعطشاً له بكل الوسائل وقد يحىء هذا السلوك شائناً بحثاً عن الحب المفتقد .

وهناك من ناحية أخرى أمهات وآباء قلقون على الأبناء قلقاً شديداً ، وهذا القلق خطير وله حدان وإذا زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده . هذه هي الصورة الأخرى المضادة للنبذ وهي أسلوب الرعاية الزائدة Over protection

الرعاية الزائدة أو الحماية الزائدة :

المستمرة وقيام الأم بالعمل عن ابنها لا تعطى هذه الأساليب التربوية فرصة للطفل أن يتعلم - لأننا لا نتعلم من الصواب بقدر ما نتكلم عن الصواب والخطأ . فلا بد للطفل أن يخطئ ولا بد من أن يكون عندنا من التسامح ما يجعله يتلافى الأخطاء . كذلك قلما تنمو فيه الرغبة في تقرير شيء هذا بالإضافة إلى أن الرعاية الزائدة تمنى لدى الطفل شعوراً بالعجز والضعف ، ونوعاً من الكف عن كل مخاطرة ، فيصبح هيباً وجلاً .

كتب العالم « كامبرون » الكثير عن الرعاية الزائدة في تنمية القلق عند الأطفال . ويذكر أن ذلك هو النواة الأولى للقلق النفسى الذى يأخذ صوراً عديدة في الكبر منها مثلاً توهم المرض عند كثير من الناس كما ذكر الاستاذ الدكتور نجاشى . هنا تكون الاحباطات والفشل في العالم الخارجى الواقعى اذ حينما يقابل هذا الطفل الواقع تحت الرعاية الزائدة بهذه الاحباطات والفشل فانه يصبح مشكلة كبرى . فهو في رعاية زائدة يقوم الناس عنه بكل الأعمال . هنا نجد هذا الطفل يشب على التواكل والاعتماد على غيره ولا يتحمل المسؤولية ، ويهرب من العمل ، وهو كثير المطالب too demanding يعتبر العمل اضطهاداً والمسئولية مشكلة وهو هيب رجل يتحاشى التفاعل مع الغير . . الخ

العقاب المدنى :

وهو أيضاً من أساليب التربية الخاطئة ولا نقول انه ليس هناك عقاب بل نقول يجب أن يكون هناك عقاب ولكن فن العقاب فن كبير : متى وكيف ومن

نعاقب ؟ وأسلوب العقاب مهم جداً لكن آخر العقوبات التي يجب أن نلجأ إليها هي العقوبات البدنية ، لتسببه من آلام عضوية قد تكون مصدر تعلم الإنسان لأساليب توافق خاطئة . ولقد وجد من دراسات عديدة أن الاحداث قد انتشر بينهم كثير من أساليب العقاب البدني ، كما وجد أن العقاب البدني يخلق حالة من الصراع النفسي بين حب الوالدين وكرهيتهم ، خصوصاً وأن الإنسان يميل لتكرار العمل الذي عوقب عليه بدنياً .

هذا في نظري هو دور الأسرة الكبير في توصيل ما نسميه الرعاية الاجتماعية للأطفال وهي بهذه الصورة - وحتى تصل على أيدي الوالدين بشكل صحيح - يجب أن تكون في أسرة محكمة متماسكة لكن في كثير من الحالات تفشل الأسرة في تأدية واجبها في مجال الرعاية الاجتماعية للأطفال فقد تنحرف الأسرة عن أداء هذا الدور وخاصة دور الأم الهام لأسباب أعود فألخصها : منها أن الأسرة لا توجد في شكل جماعة طبيعية - أو أن توجد الأسرة وليس لها فعالية لأسباب قد تكون اقتصادية - أو المرض المعطل للآباء أو الاضطرابات العقلية أو النفسية أو الأخلاقية ، كما سبق أن بينا . والنوع الثالث من الأسرة التي تفشل في توصيل الرعاية الاجتماعية للأطفال - الأسرة المهتمة أو المنزل المهتم ولذلك لا يقوم بدوره لأنه تهتم بسبب نوايا اجتماعية كالحرب أو المجاعة أو بسبب موت الوالد أو بسبب المرض الذي يستلزم عزل الوالد أو السجن أو الهجران أو الطلاق والانفصال وهي آفات اجتماعية كبرى يجب أن نوجه إليها اجراءات الرعاية الاجتماعية لانقاذ الطفولة .

سيداتي سادتي ،

هذه في رأيي زاوية كبرى وليست كل زوايا الرعاية الاجتماعية للطفولة ، وانني أعتقد أنني بابرار الأخطاء والأخطار التي قد تتعرض لها الأسرة وهي تحقق الرفاهية الاجتماعية انما أبرز ضرورة العناية بالأسرة وتنشئة الطفل ويمكن تحديد مجالات عديدة يمكن عن طريقها أن نزيد الوعي لدى الآباء والأمهات ولدى الأبناء أيضاً بأهمية الرعاية الاجتماعية للطفل بنفس الأساليب السابقة .

ولكن هناك يجب أن نضيف شيئاً واحداً هو أن يفرد للطفولة وللآثار السيئة لحرمان الطفولة من رعاية الأم وحرمان الأطفال من التطبيع الاجتماعي بالطريقة المناسبة لا هي بالشديدة جداً ولا بالمتراخية جداً ولا بالمدلة جداً ولا بالحامية جداً لأن الفضيلة وسط بين الرذيلتين والخير وسط بين شرين فاحسان التربية واحسان التنشئة الاجتماعية بالصورة التي ذكرها القرآن الكريم وفلاسفة الاسلام هي احسن الوسائل لتحقيق رعاية اجتماعية فضلى لمجتمع أفضل ، يبدأ مجتمعا الأفضل برجالنا الصغار من الأطفال . واننى أورد هنا بعض ما جاء به القرآن والسنة في هذا المضمار حتى أبين أننا في ذلك انما نسير على هدى الاسلام الذى سبق كافة العلوم إلى ذلك .

— قال تعالى :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن اراد أن يتم الرضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف »
(البقرة ٢٣٣)

— وقال تعالى « ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير »

— وروى أن هنداً زوجة أبى سفيان قالت « يارسول الله ان أباً سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى ويكفى ابنى الا ما آخذ منه بغير علم » فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم « خذى من مال أبى سفيان ما يكفيك وولدتك بالمعروف » .

— وقال صلى الله عليه وسلم « من كان له ثلاث بنات فأنفق عليهن ، وأحسن اليهن حتى يغنيهن الله أوجب الله له الجنة البتة البتة » .

— وقال عليه السلام : « علموا أولادكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم »

— أوصى عبدالمملك بن مروان أبناءه قائلاً : « يابنى تعلموا العلم فان كنتم سادة فقمتم ، وان كنتم وسطاً سدتتم ، وان كنتم سوقة عشتتم » .

— وقال عليه السلام : « لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع » .

— وقال صلى الله عليه وسلم : « مانحل والد ولده أفضل من أدب حسن » .

— وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله واعدلوا في أولادكم » .

هذا ايها السيدات والسادة ديننا وهذه هي فلسفتنا وقيمنا القديمة الخالدة خلود الدين الخفيف ، وهؤلاء هم أبناؤنا ورثة تراثنا ، وحملة قيمنا ، ودرع مستقبلنا ، فإن أحسنا اليهم وأحسننا تربيتهم أحسنا اليهم ولأنفسنا . وان حدنا عن ذلك وجهنا مجتمعنا الى طريق الدمار وأبناءنا الى هاوية الاضطراب ، وعمت البلوى وساد الفساد .

لمزيد من القراءة والاطلاع في الموضوع :

١ - المراجع العربية :

- ١ - الامام ابو حامد الغزالي : احياء علوم الدين ، الجزء الثامن ، المجلد الثاني مطابع الشعب بالقاهرة ١٩٦٩ .
- ٢ - اوجست ايكهورن : الشباب الجامع ترجمة الدكتور سيد غنيم مراجعة د . اسحق رمزي دار المعارف بمصر ١٩٥٤
- ٣ - د . محمد احمد غالى : ديناميات السلوك غير السوى دراسات فى سيكولوجية العصاب والجناح مطابع الحلبوني بدمشق ١٩٧٢ .
مطابع الحلبوني بدمشق ١٩٧٢ .
- ٤ - د . محمد احمد غالى : حالات من العيادة النفسية - مطابع الحلبوني بدمشق ١٩٧١ الاتجاهات الوالدية فى تنشئة الطفل دار المعرفة ديسمبر ١٩٥٩
- ٦ - د . مصطفى فهمى : الصحة النفسية - دار الثقافة بالقاهرة الطبعة الاولى ١٩٦٣ .
- ٧ - دكتور وليم ك . منجز ومنزوليف : اضواء الطب النفسى على الشخصية والسلوك ترجمة الدكتور محمد احمد غالى .
مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٦٦

٢ - المصادر الاجنبية :

8. Burt, C. : The Young Delinquent University of London Press 1944.
9. Bossard, I. H., The Sociology of Child Development. Harper & Brothers, 1948.
10. Bowlby, G. Personality & Mental Illness. New York Emerson Book. I.N.C. 1942.
11. Bowlby, J. Child Care & the Growth of love Pelikan Book, 1959
12. Cameron, N. : The Psychology of Behavior Disorders. Q bio-social interpretation. Houghton & Mifflin Company 1947.
13. Hurlock, E. : Development/Psychology McGraw Hill Book I.N.C. 1959.
14. Hurlock, E : Child Development. .McGraw Hill Book Company INC. 1962.
15. Lewis, Hilda : Deprived Children. The Muffled Foundation. Oxford University Press. 1955.
16. Mussen, P. H. & Conger, J. J. & Kogan, J. : Child Development & Personality. Harper & Row. Second Edition 1966.

الرَّعَايَةُ الاجتماعية

في الكويت

كلمة

الأستاذ عيسى ياسين

مقدمه :

لقد أصبح موضوع الرعاية الاجتماعية بشكل عام يحظى باهتمام كبير في مختلف الأوساط الرسمية والشعبية وفي مختلف دول العالم وعلى صعيد المنظمات الدولية على أساس ان الرعاية الاجتماعية بمختلف اشكالها وصورها عنصر اساسي لتحقيق الاستقرار لجميع فئات المواطنين حتى يمكنهم ان يقوموا بدورهم الايجابي في تطور وتقدم المجتمع الذي يعيشون فيه . لا أريد ان أتحدث عن مفاهيم وأهداف الرعاية الاجتماعية بشكل عام فكلنا نعرفها وقد ألف عنها الكثير لكنني سأقصر حديثي عن نقطتين رئيسيتين : الأولى عن أهداف واتجاهات الرعاية الاجتماعية في الكويت ثم أتناول بعض الجوانب التطبيقية لهذه الاتجاهات من واقع الحال في الكويت .

قبل أن أبدأ في النقطة الأولى أود أن أتحدث عن بعض الحقائق التي تتعلق بالرعاية الاجتماعية في الغرب باعتبار اننا نعيش عالم مترابط متصل ولم يعد البعد الزمني قائم نتيجة لسهولة الاتصال والتقدم التكنولوجي فيما يتعلق بوسائل الاتصال على اعتبار أنه مهما كانت تجارب دول العالم فإننا لاشك سوف نستفيد منها فيما يتناسب وقيم وعادات وتقاليد مجتمعنا العربي .

فأولى هذه الحقائق التي نتجت عن اتجاهات الرعاية الاجتماعية في دول الغرب أن الرعاية الاجتماعية ظهرت في المجتمع الغربي للمساهمة في حل المشكلات التي نتجت عن التصنيع والتحضر بسبب زيادة نسبة الهجرة للمدن ونزول المرأة إلى العمل وتشغيل الأحداث . في ظروف صناعية واجتماعية سيئة تسببت في بروز بعض المشكلات الاجتماعية والصحية . هذا جانب ، والجانب الآخر ، ان المجتمع الغربي أو الرعاية الاجتماعية في المجتمع الغربي اتصفت بأنها تنظيم متحرك يتطور ويتشكل بمقابل الحاجات الجديدة كيفما ظهرت وأينما وجدت . الحقيقة الثالثة ان الرعاية الاجتماعية في مفهومها الحديث ظهرت في المجتمع الغربي لتذكر هذا المجتمع الذي اتسم بالمادية القاسية في جميع نواحيه ، أتت لتذكر هذا المجتمع بأهمية الانسان كإنسان لا كمجرد عنصر من عناصر الانتاج .

لذلك فإن سياسة الحكومات في مجال الرعاية الاجتماعية اقتضت عدم التدخل في نواحي الرعاية الاجتماعية بل تركت ذلك للهيئات انسجاماً مع فلسفة المجتمع الاقتصادية القائمة على التركيز على الفرد واعطائه حق تقرير مصيره وتشجيعه على الاعتماد على نفسه وغير ذلك من مظاهر الاهتمام بالفرد كوحدة قائمة بذاتها.

طبعي - السؤال الآن - هل يمكن لهذه الفلسفات أن تنسحب على مجتمعاتنا العربية؟ رأيي - وبشكل عام - لا ، على اعتبار أن الأوضاع في مجتمعاتنا العربية تختلف عن تلك السائدة في المجتمعات الغربية . مجتمعاتنا ما زالت في طور النمو صناعياً بعكس المجتمعات الغربية الضالعة في هذا الميدان . مجتمعاتنا ما زالت صغيرة في الامكانيات التكنولوجية لطاقتها البشرية وأيضاً ما زالت مجتمعاتنا العربية غامضة علينا . فنحن لا نعرف عنها من الوجهة العلمية الا القليل بعكس المجتمعات الغربية التي درست ومسحت وأجريت عليها كثير من البحوث .

أيضاً مجتمعنا العربي مجتمع له اصالة وحضارة وتقاليده وعادات وقيم تختلف تماماً عن المجتمعات الغربية . لكن طبعاً هذا لا يعني اننا نرفض رفضاً باتاً تجربة الآخرين . انما علينا ان ندرسها ونأخذ منها ما يتناسب وينسجم وأوضاعنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

ان اهداف الرعاية الاجتماعية في الكويت يمكن أن نستمدّها من المقومات الاساسية للمجتمع الكويتي الذي جاء على ذكرها دستور الكويت في الباب الثاني ، جاء في المادة السابعة الخاصة في العدل والحرية والمساواة والتعاون والتراحم في المادة الثامنة من أن الدولة تصون دعائم المجتمع وتكفل الأمن والطمأنينة وتكافؤ الفرص ، والمادة التاسعة التي نصت على ان الأسرة اساس المجتمع قوامها الدين والأخلاق وحب الوطن ، والمادة العاشرة المتعلقة برعاية الدولة للنش و حمايته من الاستغلال ووقايته من الاهمال الأدبي والجسماني والروحي ، والمادة الحادية عشرة التي نصت على ان الدولة تكفل المعونة للمواطنين في حالة الشيخوخة أو المرض أو العجز عن العمل ، كما توفر لهم خدمات التأمين الاجتماعي والمعونة الاجتماعية والرعاية الصحية . وأيضاً فيما

يتعلق بالمادة الثالثة عشرة التي تناول التعليم كركن اساسى في تقدم المجتمع تكفله الدولة وترعاه وايضاً فيما يتعلق بالمادة الخامسة عشرة حيث تكفل الدولة للصحة وتوفر للمواطنين الخدمات الصحية من وقائية وعلاجية . هذه هى تقريباً المواد التي حددها الدستور كإطار لأى سياسة اجتماعية ترسم لتحقيق الأهداف التي جاء على ذكرها الدستور . وكان لا بد بعد ذلك من خطوة أخرى تعمل على تجسيد الاتجاهات التي نادى بها الدستور ولذلك فقد صدرت قوانين وتشريعات تسهل على تجسيد هذه المواد التي جاء على ذكرها الدستور في صورة أحكام تشريعية وتطبيقية تناول كل الأمور التي تتعلق بحياة المواطنين . فجاء مثلاً قانون المساعدات العامة وقانون العمل وجاء قانون الوظائف المدنية وقانون الجزاء وقانون تنظيم القضاء وقانون جمعيات النفع العام وقانون التعاون وغيرها من القوانين التي تنظم جوانب الرعاية الاجتماعية للمواطنين وتحدد حقوقهم وواجباتهم .

نتقل إلى نقطة أخرى تتصل باتجاهات الرعاية الاجتماعية في الكويت وأولى هذه الاتجاهات كما أعتقد تناول بالاهتمام المجتمع المحلي أولاً وبالذات الأسرة لأعدادها لمجابهة المشكلات التي تزداد حداثتها مع التطور الاقتصادي والديمقراطي والحضاري .

الاتجاه الثاني - الاتجاه ببرامج الرعاية الاجتماعية لتشمل أكبر عدد ممكن من الناس مع التركيز على الأسرة وللطفولة والشباب من حيث الأولوية وهذا طبيعي ، باعتبار أنه في فترة من الفترات كان المجتمع الكويتي محتاج إلى جميع أنواع الخدمات بما فيها خدمات الرعاية الاجتماعية وعلى كافة المستويات وفي كل المناطق ولمختلف الفئات .

في الحقيقة هناك الكثير من العوامل التي يجب ان تراعى في موضوع الاتجاهات فهناك بعض المظاهر الموجودة في الكويت والتي من الممكن ان تؤثر في هذه الاتجاهات ويجب ان تعطى من الاهتمام الشيء الكثير - من هذه العوامل التي تؤثر على اتجاهات الرعاية الاجتماعية أن المجتمع الكويتي ينمو وبسرعة

كنتيجة للامكانيات المادية ولذلك اصبح من الواجب ان نفكر في تحديد مستويات متوازنة لهذه الرعاية باهتمام كبير . المسألة الثانية التي لها اهميتها هي التطلعات المستمرة ، صحيح ان الدولة تهى أنواعاً متعددة من الرعاية للأسرة والطفولة والشباب ، لكن الانسان بطبيعته يطالب إلى المزيد والمزيد وهذا شيء طبيعي ، لأن عملية التطور وعملية التغير السريع لاشك سوف يصاحبها ظهور احتياجات جديدة ولا بد أن تغطي هذه الاحتياجات عن طريق برامج الرعاية الاجتماعية لتكون مصاحبة للتطور السريع حتى لا يحصل اضطراب في الاهداف والاتجاهات وبالتالي ايضاً يجب ان يكون فيه توحيد للجهود حتى يمكن استغلال الامكانيات المتوفرة استغلالاً حسناً .

طبعي ان ما يهمنا ايضاً في مجال الرعاية الاجتماعية وهو الاحتياج إلى قوى بشرية فاذا كنا نهدف إلى زيادة الاسراع في معدلات الرعاية الاجتماعية لمصاحبة هذا التطور الهائل الذي يحدث بسرعة وقد لانحسه نحن في فترة من الفترات مباشرة ولكنه يحدث ، فسوف نحتاج إلى قوة بشرية من القادة والرواد قادرين على الارتفاع بالرعاية إلى مستوى الامكانيات الاقتصادية المتاحة - نقصد من ذلك توفير العناصر الصالحة لكل برامج الرعاية في مختلف صورها من حيث الاعداد ومن حيث التدريب على مختلف المستويات ومن حيث التخطيط والاشراف والتنفيذ والمتابعة والتقييم وأن تكون برامج التدريب متكاملة لكل أوجه الرعاية الاجتماعية التي تتناول الطفولة والأسرة .

الآن انتقل إلى واقع الحال بالنسبة للاتجاهات التي ذكرتها من حيث الرعاية الاجتماعية ، أتناول الرعاية الاجتماعية القائمة والاساليب المتبعة والأدوات والوسائل القائمة على تنفيذ أوجه الرعاية الاجتماعية . نبدأ في القطاع الحكومي - أول سمة نلاحظها - الاتجاه إلى لامركزية الخدمة يصور لنا واقع الحال .

فنحن نجد اذا اعتبرنا كل وحدة سكنية تنظيمية واقصد بذلك الضواحي التي نظمت - اذا اعتبرنا هذه المجموعات السكنية مجتمعاً محلياً لوجدنا انواع الخدمة التالية :

المدرسة بمختلف مراحلها - روضة ابتدائي متوسط ثانوي - وحدة صحية وبعض المناطق فيها وحدة مجمعة لرعاية الطفولة والأمومة . الوحدة الاجتماعية التي تتولى صرف المساعدات للحالات التي ينطبق عليها القانون ، نجد أيضاً مركز شباب وهو مكان يجد فيه الشباب كل الوسائل التي تمكنه بواسطتها تحقيق رغباته واحتياجاته . نجد أيضاً الجامع كمؤسسة تؤدي دورها في توعية وتدعيم واشباع العامل الروحي والخافي لرعاية الطفل تربوياً واجتماعياً .

بالنسبة للقطاع الأهلي نجد ما يلي :

جمعيات ذات اهداف اجتماعية وهي جمعيات تطوعية ، نجد جمعيات تعاونية ذات اهداف اجتماعية ووسائل اقتصادية . نجد النادي الرياضي في بعض المناطق المنتظمة وأيضاً في المناطق غير المنتظمة . نجد في بعض المناطق مجلس شعبي يمثل الاهالي ويمثل أيضاً بعض الجهات الرسمية - طبيعة الحال - هذه الخدمات ليست موجودة بصورة متكاملة في جميع مناطق السكن في الكويت ولكنها موجودة بصورة أفضل في المناطق المنتظمة .

اكن خدمات الدولة في جميع صورها الاجتماعية والصحية والتعليمية موجودة أيضاً في المناطق الاخرى غير المنتظمة لكن ما نحتاجه طبعاً هو التنسيق والتنظيم بشكل اكثر فعالية بالاضافة الى ضرورة قيام هيئات اهلية في هذه المناطق لتعمل على سد النقص في هذه الخدمات وخلق انواع جديدة من الرعاية تستلزمها ظروف هذه المناطق .

بالاضافة إلى ذلك هناك خدمات مركزية تستفيد منها الاسرة فمثلا توفير السكن هي خدمة مركزية والسكن كما تعرفون عامل ضروري لرعاية الاسرة وهناك اتجاه لجعل هذه الخدمة في بعض جوانبها لامركزية . هناك جوانب اخرى من الرعاية الاجتماعية تقدمها الدولة لبعض فئات المواطنين وهي الفئات الخاصة كضعاف العقول من اطفال ذكور واناث وتهدف الدولة من ذلك مساعدة الاسرة في التخفيف من اعبائها وهي خدمة غير مباشرة تقدم

للأسرة . هناك أيضاً رعاية الاطفال اليتامى ومجهولى الوالدين من حيث ايداع الاطفال في مؤسسات وزارة الشئون الاجتماعية والعمل ورعايتهم اجتماعياً ونفسياً وصحياً والعمل على ايجاد أسر -بديدة لهم . وهذا طبعاً تنظمه لائحة خاصة بالحضانة العائلية كما ان هناك نظام للتوفير والادخار خاص بفتة مجهولى الوالدين . هناك أيضاً رعاية الأحداث المنحرفين والمعرضين للانحراف حيث تقدم اوجه الرعاية المختلفة لهذه الفئة لاعدادهم مرة اخرى ليعودوا إلى المجتمع صالحين . هناك أيضاً رعاية كبار السن وذلك بايوأهم في مؤسسة الرعاية وفي هذا أيضاً تخفيف من العبء الذى قد لا تستطيع الأسرة تحمله .

الآن انتقل إلى بعض الاتجاهات التطبيقية لتطوير اوجه الرعاية في الأسرة والطفولة هذه تطلعاتنا إلى المستقبل — ماذا نريد نحن ؟ اولى هذه التطلعات هى تجميع أوجه الرعاية الحكومية التى تقدم للأسرة والطفولة والشباب في مؤسسة واحدة وهى ما نطلق عليه المركز الاجتماعى . ويشمل وحدة اجتماعية ومركز شباب وحديقة اطفال .

النقطة الثانية هى العمل على ان تخرج هذه المؤسسات المتخصصة لرعاية الشباب كمراكز لرعاية الشباب من نطاق حدود اسوارها إلى المجتمع بحيث تستخدم الشباب المنتمى اليها كقوة يمكن الاستفادة منهم في خدمة المجتمع — كذلك العمل على تطوير برامج وأنشطة حدائق الأطفال بحيث تتمكن الحديقة من خدمة الطفل وأمه في نفس الوقت . أيضاً تشجيع وتدعيم وتوسعة العمل في المشروعات المختلفة القائمة وتطويرها واعداد البرامج المختلفة في التشغيل الجزئى للشباب خلال عطلاتهم بالمؤسسات ومشروعات التنمية المختلفة . كذلك التوسع ببرامج الخدمة العامة وتنمية معسكرات العمل الاختيارية للشباب وتنمية وتطوير مركز اعداد القادة الرياضيين ليكون مركزاً لاعداد القادة لجميع فئاتهم ومستوياتهم وتخصصاتهم لمقابلة الاحتياجات المستمرة للكفاءات .

بقى أن أقول شيئاً أخيراً في هذا الموضوع وهذا الشيء يتعلق بظاهرة النمو السريع الذي ينموه مجتمعنا في الكويت . ولا أعني بذلك ان هذا النمو يجب ان يوقف وانما السؤال يتعلق بالكيفية التي يدعم بها هذا النمو بحيث يصل إلى كل أسرة وطفل وشاب بصورة متوازنة يحفظ للأسرة كيانها وتلبي في نفس الوقت احتياجاتها المستجدة ، وهذا طبعاً موضوع يتناول الكيفية التي يجب ان يخطط بها بغرض تحقيق المزيد من الرعاية والتنمية والحديث في هذا الموضوع يطول .

الرعاية الاجتماعية للأسيرة

كلمة

الأستاذ محمد همام الهاشمي

أيها الأخوة :

من الحقائق الثابتة التي لا تحتاج إلى مزيد من التأكيد أن الأسرة هي النواة والخلية الأساسية في المجتمع الانساني وثبتت التجربة التاريخية ذلك . فما من مجتمع انساني استطاع أن يستغنى عن هذا التنظيم الاجتماعي الذي ينظم العلاقة بين الرجل والمرأة ، ويسمح لهذه العلاقة المشروعة أن تؤتي ثمارها ذرية تتجدد بها حياة المجتمع ، ويتوارث أعضاؤها حضارته جيلا بعد جيل ، فوظيفة الأسرة اذن لا تقتصر على مجرد اشباع الاحتياجات الجنسية والعاطفية للزوجين ولكنها إلى جانب ذلك تنشئ وتربى وتحتضن النشأ وترعاه وتوصل فيه من القيم والمثل ما يحفظ على المجتمع استمراره وتطوره . كل ذلك عن طوعية تصدر عن الفطرة . . . فطرة الله التي فطر الناس عليها اعمارا للكون واستمراراً للجنس البشري ولولم تكن الروابط الاسرية صادرة عن الفطرة الكامنة في الطبيعة البشرية لاستطاعت المحاولات المتكررة من يوتوبية وثورية - على مر التاريخ أن تقضى عليها . وقد نشأ من النظم السياسية منذ القدم ما حاول استقطاب ولاء الفرد للدولة ويطالب بالألا يسمح المجتمع للمواطن بالانتماء إلى أى ولاء آخر . . ومن ثم فلم يكن للأسرة دور في جمهورية أفلاطون . . وخصوصاً بين الطبقة العليا المختارة والمهيئة لقيادة المجتمع . . . وهذا هو موقف الرفض الكامل لمفهوم الأسرة الذي يعتمد على خصوصية العلاقة بين زوج وزوجة وأولادهما . . وعلى مر التاريخ حاولت بعض الفلسفات والنظم السياسية أن تجتذب الولاء من نطاق العلاقات الأسرية كالمزديكية في القديم والنازية والشيوعية في التاريخ الحديث وكل فلسفة تعتبر أن الولاء المطلق للدولة ذو أهمية خاصة لا بد أن تقلل من شأن الأسرة وأن تضعف من الرباط الوثيق الخاص الذي يربط أفراد الأسرة ببعضهم البعض .

والعجيب أنه ما أن تخف حدة الضغوط المذهبية أو السياسية حتى تعود العلاقات الأسرية إلى سابق عهدها ، مع ما تخلفه هذه الضغوط عادة من صعوبات ومشكلات يعاني منها النشئ الذي تربى في ظل هذا الانفصال من اختلال عاطفي وتحجر في الاحاسيس والمشاعر .

ومن هنا كان القول بأن دور الأسرة ووظيفتها بالنسبة لأعضائها وبالنسبة للمجتمع تزيد اضعافاً مضاعفة عن دور ووظيفة أى عضو من أعضائها منفرداً .

من أجل ذلك أجمع علماء الاجتماع على أن الأسرة هى أهم النظم الاجتماعية بل هى قاعدة كل النظم الاجتماعية الأخرى . . وعلى هذا الأساس كان النظر إلى العلاقة الوثيقة بين الأسرة والمجتمع من حيث تأثير كل منهما بما يصيب الآخر من تغير أو تحول - نتيجة لظروف وأوضاع أيهما أو كليهما . . وأصبح هذا المقياس من وسائل تحليل الظواهر والمشكلات الاجتماعية في المجتمع .

ولعل أوضح دليل على ذلك ما نستمع اليه ونقرأ من صيحات التحذير التى ترتفع بين آن وآخر من الباحثين والاختصاصيين الاجتماعيين والنفسيين في المجتمعات الغربية - تحذر وتنذر وتوجه الأنظار إلى خطورة ما أصاب الأسرة الغربية من تفكك يهدد بالتقضاء على المجتمع بأسره . . وقد تعدت هذه الصيحات نطاق البحوث والكتب والدوريات المتخصصة إلى المجلات العامة . فقد صدر مثلاً عدد خاص من مجلة تايم الأمريكية في ٢٨ ديسمبر الماضى وهى تحمل على غلافها صورة رجل وامرأة وأولادهما وكتب تحتها بعنوان بارز الأسرة الأمريكية . . إلى أين .

لقد جندت المجلة لبحث موضوع الأسرة الأمريكية أكفأ باحثيها وخصصت هذا العدد من المجلة - لدراسة هذا الموضوع . . تقول المجلة أن الأسرة الأمريكية غارقة في شتى ضروب المشاكل الاجتماعية بما أصبح يهدد مستقبل الأمة الأمريكية بأسرها وأوردت المجلة أن هذا التقييم الخطير هو حصيلة ما انتهت اليه دراسات وبحوث أربعة آلاف من المتخصصين في شئون الأسرة والطفولة الذين اجتمعوا مؤخراً في البيت الأبيض . وذكرت المجلة أن من أهم التوصيات التى انتهى إليها هذا المؤتمر بناء على الأبحاث والدراسات التى نوقشت خلال اجتماعاتهم هو مناشدة الرئيس الأمريكى إقامة معهد يسمى « المعهد الوطنى لشئون الأسرة » يعمل من خلاله المربون والاجتماعية والنفسيون على تلافي أسباب التدهور السريع الذى تنحدر اليه الأسرة الأمريكية .

وتساءل مرجريت ميد في عجب . . هل تبقى الأسرة كوحدة اجتماعية بعد كل ما أصابها من انحلال . . ويرد عليها ريتشارد فارسون بغير تردد . . لم يكن للأسرة الآن وظيفة ولم تعد بالضرورة الوحدة الأساسية في المجتمع . . ويحذر بول يوبينو مؤسس المعهد الأمريكي للعلاقات الاسرية بأن تحلل الاسرة ينتهي إلى تحلل المجتمع بأسره ويضيف كارل بأن هذا هو ما حدث بالفعل في أثينا في القرن الذي أعقب الحرب اليولونيوية وفي روما في منتصف القرن الثاني بعد الميلاد .

ومن العجب أنه بالرغم من كل هذا الذي يصدر عن الدراسات الاجتماعية والنفسية من صيحات التحذير في المجتمع الغربي وما تطالب به هذه الدراسات من تغيير يعيد للأسرة تماسكها ويعترف بدورها في توطيد دعائم المجتمع ويطالب بمساعدتها في مواجهة مشكلاتها المزمنة والطارئة وأن تتخذ كل الوسائل المتاحة للمجتمع في أن تسود علاقات أفرادها او اصر المحبة والتعاون والراحم - فنقول أنه بالرغم من كل ذلك الاسرة العربية كما يذكر فردمان في كتابه عن القانون والمجتمع قد اصبحت مفاهيمها موضوعاً للتوتر الشديد والالاحاح على التغيير في نطاق الحضارة الغربية - الا أنها تكتسب شعبية في البلاد الشرقية نتيجة لما ران عليها من جمود خلال قرون عدة جعلتها تحاول أن تتمثل انماط الحضارة العربية بعد ان كيفت الاسرة حياتها مع المستويات والمفاهيم الغربية .

لا نريد من ذلك أن نتشفي فيما تواجهه الاسرة الغربية من شقاء وما يشعر الفرد في نطاقها من ضياع - وخاصة ما يتصل بالجيل الجديد . . ولكننا نريد ان نستفيد العبرة من تجربة تطبيق هذه المبادئ والافكار التي نتطلع إلى تقليدها حتى لا ننزلق تدريجياً إلى ما وصلوا اليه . . وأن نراجع مفاهيمنا وسياساتنا الاجتماعية على ضوء ما تؤدى اليه من آثار ونتائج على نظام هو أقدس وأهم نظمنا الاجتماعية التي تقوم عليها اركان مجتمعتنا ودعائمه .

يا أيها الأخوة :

انه بالرغم من أن السياسة الاجتماعية في أى مجتمع ديمقراطى انما تنبع من الأوضاع والقوى الاجتماعية المتفاعلة فيه ، وأنها ثمرة التوفيق بين تعارض المصالح وتصارع القيم وتباين الولاءات السياسية والايدولوجية والضغط الاقتصادي والحضارية .

فان هذا التفاعل والتوافق انما يتم في اطار من الاصول العامة والمقومات الاساسية التى أرتضاها المجتمع معبرة عن فلسفته الاساسية في فهمه لطبيعة العلاقة بين الانسان والمجتمع ، ونابعة من عقائده وتطوره السياسى والاقتصادى والاجتماعى والحضارى بصفة عامة .

ومن ثم فمن الخطر كل الخطر أن نسلك في صياغة سياستنا الاجتماعية سلوك التقليد للشرق أو الغرب .

- فظروفنا وأوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وبناء مجتمعنا وطبيعة القوى الاجتماعية المتفاعلة فيه تختلف جذرياً عن الظروف والايوضاع التى تتميز بها أى - مجتمعات أخرى شرقية أو غربية .
- ثم ان نوع وحجم مشاكلنا العلمية والاجتماعية والحضارية ، ومنابع تراثنا وما تطورنا اليه من خلال تاريخنا الطويل يختلف عنهم .
- وحتى في أخذنا بالنظام الديمقراطى الذى لا يخلو من تناقض المصالح والاتجاهات والقيم فسيظل اطار فلسفتنا العربية يختلف اختلافاً عميقاً عن الايدولوجيات الشرقية او الغربية .

ولعلى لا أجدنى محتاجاً إلى أن أحدثكم عن كيفية تطور المفاهيم في المجتمع الغربى من الاحسان الذى كان يمثله قانون الفقر البريطانى الشهير إلى مفهوم الدولة الحارسة وكيف تطورت الديمقراطية السياسية إلى ديمقراطية اجتماعية في القرن العشرين حين بدا للمصلحين أن نهاية المطاف هو تحقيق مجتمع الرفاهية

وذلك بتأثير ظروف الحربين العالميتين ونمو وتفاقم الفكر الاشتراكي . . وتغير مفهوم الدولة من عدو يخشى إلى مخلص محتمل . . فقد كفانى الدكتور عثمان خليل عثمان مشقة متابعة هذا التطور التاريخي في المجتمع الغربى الذى ننقل عنه ونتبنى مفاهيمه ويكفى أن نذكر أن الصراع حول الحريات المدنية الذى وصل قمته في القرن الثامن عشر هو محاولة للوصول إلى الحقوق السياسية . كانت الحريات المدنية تعتبر هى وسيلة تحقيق الحقوق السياسية في أوروبا عامة وبريطانيا خاصة . . كحرية الاجتماع والتعبير ثم تبع ذلك الصحافة ثم كان الصراع لاقرار الحقوق الاجتماعية التى كانت الوسيلة لتحقيق دولة الرفاهية - حين استخدمت الحقوق السياسية لضمان الحقوق الاجتماعية مما لم يتحقق الا بعد عام ١٩٤٥ وتمثل مثالا في صحة انورين ييفان بأن السكن والصحة والتعليم والخدمات الاجتماعية هى حقوق الميلاد لكل مواطن .

وأبشركم بأن شعارات جديدة قد بدأت ترتفع تشكك بأن مجتمع الرفاهية ليس الهدف النهائى أو نهاية المطاف كما كان يقال في الماضى . . وتنقسم هذه الاصوات بحسب الايدولوجية التى تحتفى خلفها بين المطالبين بما يعد مجتمع الرفاهية ، وغيرهم ممن يطالبون بالعودة إلى فكره دولة الخدمات الاجتماعية حيث تكون الدولة مسئولة فقط عن خدمات محدودة النطاق تقدم إلى عدد محدود من الناس هم المعوقين والضعاف في المجتمع . . بحجة أن على خدمات الدولة أن تقتلص بالتدرج كلما تمكن عدد متزايد من الناس من أن يرتفعوا دخلا عن الحد الأدنى لمستوى المعيشة ليصلوا إلى مرحلة الحرية في شراء الخدمات التى يحتاجونها حينما يحتاجونها واذن فقد تطورت المفاهيم بتطور الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من الاحسان إلى الديمقراطية السياسية . . إلى الديمقراطية الاجتماعية إلى مجتمع الرفاهية . . وتبدو الآن بشائر تناقص هذه الرعاية الشاملة التى يستظل الجميع بظلها إلى قصر الجهود على مساعدة الضعفاء في المجتمع للتحرر من الحاجة إلى هذه الخدمات . . . وان كان هذا الشعار يلقى مقاومة شديدة الا أن مجرد رفع شعار دفع ثمن الخدمة بدلا من شعار النصيب العادل للجميع لتحقيقه قد أصبح خاضعا للتغيير والتعديل وأن مفهوم دولة

الرفاهية قد بدأ يهتز بعد أن فشل مجتمع الرفاهية في تحقيق الآمال التي عقدت عليه في حل جميع المشاكل الاجتماعية . . . حيث كلف الدارسون على تقييم هذه المرحلة بجدية كبيرة في مختلف المعسكرات المذهبية .

ان ما يعنينا من كل ذلك هو أن نتوصل إلى الحقائق الآتية :

١ - ان البشرية احتاجت إلى آلاف السنين لتصل إلى الايمان بكرامة الانسان وحقه على المجتمع . . وأن التطور التاريخي يدلنا على أن وعي الانسان بأخيه الانسان يتطور من مرحلة إلى مرحلة على ضوء الظروف والاطوار الاجتماعية والسياسية والدينية داخل المجتمع وخارجه .

٢ - ان الرعاية الاجتماعية كما نتكلم عنها الآن لا تعني شيئاً واحداً بالنسبة للجميع وهنا أيضاً كان للتطور التاريخي وللظروف والاطوار الاجتماعية دخل في تحديد هذا المفهوم . . فبعض المجتمعات يرى في خدمات الرعاية الاجتماعية ضرورة لحماية المجتمع من المذاهب الهدامة . . باعتبارها تعالج مشاكل التنظيم الاجتماعي . . والبعض الآخر يرى أنها ضرورة للعدالة الاجتماعية .

٣ - والأمر الثالث أنه ما من مجتمع بشري في الحقبة الراهنة من القرن العشرين الا ولديه قدر ما من الرعاية الاجتماعية - على الدرجة والمستوى الذين يتناسبان حجماً ونوعاً مع ظروف ذلك المجتمع وأوضاعه الاقتصادية .

وكل هذه الظروف والاطوار هي التي تفرض نفسها ليس فقط على السياسات الاجتماعية لمجتمع ما في خطوطها العريضة ، بل أيضاً على كل ما ينبثق عن هذه السياسات من برامج ومشروعات في مختلف قطاعات الرعاية والتنمية الاجتماعية .

ولعل هذا التمهيد يدخلنا مباشرة إلى موضوع الرعاية الاجتماعية للأسرة عموماً وفي الكويت بصفة خاصة .

ان اصطلاح الرعاية الاجتماعية هو الترجمة للاصطلاح الاجنبى Sociale Wefare وهو مفهوم غربى ، لذا فمن الضرورى ان نتعرف على معناه في الاصل . ولن الجأ إلى القواميس والمعاجم لان الامم المتحدة كفتنى هذا الجهد حيث وردت تعريفات متعددة لهذا المفهوم في المؤتمرات المتخصصة .

فالخبراء الذين أعدوا تقرير الامم المتحدة عن تطور البرامج القومية للخدمات الاجتماعية عرفوا الخدمات الاجتماعية بأنها الجهد المنظم المقصود الذى يستهدف مساعدة الناس على التوافق في بيئتهم الاجتماعية . . عن طريق استخدام وسائل محددة لمساعدة الافراد والجماعات والمجتمعات على مواجهة احتياجاتهم وحل مشكلاتهم التى تتعلق بتوافقهم مع نمط متغير للمجتمع وعن طريق العمل التعاونى لتحسين ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية .

ووجهة نظر أخرى ترى أن هذا التعريف مقبول من حيث المحتوى ولكنه لا يعكس المعنى الرئيسى في تعبير الخدمات الاجتماعية ولا يتجاوب مع ما جرت عليه خبرات بعض الدول حيث يدل هذا المفهوم على معنى أوسع للبرامج الاجتماعية يتضمن التعليم والصحة والضمان الاجتماعى وتوفير الاسكان وتنمية القوى العاملة . . . أى ما يتضمن كل الوسائل الرامية إلى توفير الاحتياجات المادية والروحية للانسان إلى أقصى درجة ممكنة . . وهو ما يطلق عليه بالرعاية الاجتماعية في بلاد أخرى

هذا الخلط والتداخل يعكس اختلافات الاتجاهات القومية في النظر الى النظرية والتطبيق ومن ثم فالتعريف الذى تتبناه . وله ما له من تأثير على تنظيم وادارة خدمات الرعاية الاجتماعية أو الخدمات الاجتماعية . . والتعبير الذى استخدمه الدستور الكويتى في المادة ١١ يوحى بالاتجاه الى اعتبار الرعاية الاجتماعية هى الاطار الشامل الذى يتضمن خدمات مختلفة في الميادين الاجتماعية . . واذن - فنستطيع القول بأن الرعاية الاجتماعية هى الجهود المنظمة المقصودة التى تستهدف مساعدة الفرد والجماعة والمجتمع على اشباع احتياجاتهم ومواجهة مشاكلهم المعيشية في مجتمع متغير . على هذا الاساس يكون هذا التعريف هو الاطار الكبير

الذى يتضمن ما يسمى بالخدمات التعليمية والاجتماعية والصحية والاسكانية والروحية والاعلامية . . الخ . أى جميع أنواع الخدمات التى يقيمها الجهاز الحكومى وما يكمله من جهود تطوعية للنفع العام من الجمعيات والهيئات المنظمة

وننتهى من استعراض هذه التعريفات الى أن الرعاية الاجتماعية للأسرة هى تلك الجهود المنظمة المتصودة لمساعدة الأسرة كنظام اجتماعى فى المجتمع على اشباع احتياجاتها ومواجهة مشاكلها فى مجتمع متغير .

فما هى حاجات الأسرة - وما هى مشاكلها .

لكل انسان حاجات يسعى لاشباعها سعيا موصولا من مولده حتى مماته . . . والحاجات الاساسية للناس جميعا متشابهة . . ويرى مفور د أن حاجات البشر تنقسم الى نوعين :

١ - حاجات تتصل بالبقاء .

٢ - وحاجات تتصل بالاشباع .

وهما مترابطان لأن أحدهما يؤدى الى الآخر . . والحاجات الاخيرة هى ما تسمى بالحاجات الاجتماعية والنفسية .

فهل احتياجات الأسرة هى مجموع احتياجات أفرادها . . بالطبع لا . . فان الأسرة كما سبق القول هى أكبر من مجموع الافراد المكونين لها ولها من الوظائف ما هو أخطر وأعمق أثرا فى حياة أفرادها وحياة المجتمع من أثر كل فرد من أفرادها على حده .

وحاجات البقاء التى يحتاجها كل انسان ولا يستطيع ألا أن يعتمد فيها على غيره هى الحاجة الى الطعام والملبس والسكن ، أما حاجات الاشباع فهى من أهم الدوافع الى تكوين الأسرة وتتضمن الحاجة الى التواصل الانسانى والشعور بالامن والانتماء والتقبل . واذا كانت البيئة الاسرية هى المسئولة أساسا عن توفير

الحاجات النفسية والاجتماعية للطفل منذ مولده حتى يخرج الى المجتمع . . فان
الحاجات المادية او حاجات البقاء هى مسئولية رب الاسرة . . من جانب
ومسئولية المجتمع من جانب آخر .

فحينما يتوفر العمل لكل قادر عليه كان عليه أن يقوم بواجبه في اعادة غيره
من يسأل عن نفقتهم شرعا ، ليس فقط الزوجة والاولاد بل الاب والام وغيرهما
طبقا للتواعد الشرعية . . سواء الورثة أو الاصول على اختلاف المذاهب بشرط
ان يتوفر لديه مايفيض عن حاجاته الاساسية ؟؟ وبتعبير الرسول « ما كان عن
ظهر غنى » .

وبضمان النفقة للزوجة والابوين والابناء وكل ذى رحم يضمن المجتمع
اشباع الحاجات الاساسية لجميع أفراد الرعية - الافتتين - من لا رحم له ، ومن
تعجزه ظروفه عن العمل والكسب أو كان كسبه محدودا لا يكفي حاجته . .
وهؤلاء نفقتهم على بيت المال . . أى على الدولة ، وعلى ذلك فى حالة عدم
وجود من تجب عليه النفقة أو وجد وكان لا يستطيع الانفاق . . أوجب الشارع
الاسلامى النفقة على الدولة

ويفرق علماء المسلمين بين ما يعتبر ضرورة لكل فرد من أفراد الرعية وبين
الحاجات الاساسية للرعية كلها - أى المجتمع - وقد جعلها الشارع على الدولة
مباشرة ومنها التعليم والصحة والأمن - وهى منوطة بمسئولية الامام باعتباره
راعيا ومسئولا عن رعيته . . وبذلك - فايجاد اعمال للقادرين ينفقون منها على
حاجاتهم وحاجات من يعولون وضمان نفقة الفقراء ومن لاعائل لهم يحقق
للمجتمع الاسلامى ضمان اشباع الحاجات الاساسية لكل فرد من افراد الرعية .

وتتشعب مسئوليات ولى الامر من أصل القاعدة . ان المجتمع مسئول عن
حماية المواطن من كل ما يهدد، أو يوقعه في مهاوى الانحراف والضلال -
وبتعبير الامام الغزالى حماية عقله ودينه وعرضه وماله ونفسه . . وتحت كل بند
من هذه البنود يمكن أن تصنف جميع أنواع التدابير الاجتماعية في ميادين
الرقابة والرعاية والعلاج .

ولا نريد أن نزيل في هذه التفصيلات وان كانت المقارنة بين الفكر الاسلامي والذكر الغربي في هذا الموضوع من أهم الامور - حتى نستخلص منها سويا ما يتمود ساو كونا في توجيه مسار الرعاية الاجتماعية . . وعلى من تقع اعباء هذه المسؤولية .

ولعلكم لا حظتم ان الحكم الاسلامي يخلق بل ويفرض التكافل الاسرى بين من تجمعهم صلات الدم حيث يجعل كلا منهم مسئول شرعا عن رعاية من تجب عليه نفقتهم عن طريق الزكاة والتكافل على أى حال ثم يتوسع في التراحم بين الجيرة .

وفي رأي أن طبيعة الحاجات الاساسية لا تتغير في الزمان والمكان مهما تغيرت الظروف الاقتصادية او الاجتماعية . فهذه الظروف قد تخلق مشكلات معيشية جديدة ويمكن أن توسع نطاق الاحتياجات ولكنها لا تخلق الاحتياجات نفسها . لان الحاجات الاساسية تنبع من طبيعة الانسان . أنه يحتاج الى الطعام والملبس والمأوى ويحتاج الى التواصل والتفاعل الانساني مع غيره من البشر ومن ثم يحتاج الى التعليم والعمل والراحة والرعاية في المرض الخ ان هذه الحاجات الانسانية لا تتغير ولكن ما يتغير هو الطريقة أو المدى الذى تواجه به هذه الحاجات . . وكذلك ادراكنا لطبيعتها وكيف تنشأ وكيف يمكن اشباعها . . وما يبدو أنه حاجة جديدة ليس في الواقع الحاجة انسانية اصبحت اكثر الحاحا . او قد يكون تغير اتجاهات المجتمع نحوها من حيث الاعتراف مثلا بأنها تستحق أن تشبع . . فبعض الاحتياجات قد يكون واضحا جليا لدرجة يصعب تجاهلها كالحفاء والعشيش . . وبعضها الآخر قد يكون مستورا بعض الشيء بفعل مظاهر الرخاء البادية في المجتمع . . كفقير كبار السن مثلا . . والبعض الثالث لا يمكن التعرف عليه الا عن طريق الدراسات التى تكتشف بعض ما نشك فيه كاتجاهات التحلل الخلقي عند بعض الفئات أو الطبقات الاجتماعية او الاحتياجات النفسية لفئة من الاطفال ذوى الظروف الخاصة والبعض الرابع من الاحتياجات لا يكشف عن نفسه الا كاستجابة أورد فعل لما يقدم فعلا من خدمات أى حينما يبدأ العرض في مواجهة طلب كامن كمكاتب الاستشارات الاسرية أو بعض النشاطات المعينة في مراكز الشباب . . الخ .

وفي تقرير الامم المتحدة عن السياسة الاجتماعية نحو احتياجات الاسرة يذكر أن الاسرة كيان خاص واحتياجاتها أكثر من احتياجات افرادها والتقدير الواعي والمنظم لهذه الاحتياجات يجب أن يكون أساس السياسة الاجتماعية وأنه يمكن تحديد هذه الاحتياجات بطريقتين :

١ - الطريقة الديمقراطية التي تعبر مباشرة عن هذه الاحتياجات أو عن طريق ممثلين عنها أو منظمات تستطيع ان تتحدث بأسمها .

٢ - البحوث الاجتماعية التي يجب أن يشارك فيها العاملون في المجالات الاسرية كما ذكر التقرير أن دور خدمات الرعاية الاجتماعية هو احداث توازن معقول بين احتياجات الافراد واحتياجات الاسر وكذلك بين احتياجات الاسر واحتياجات المجتمع . . أى إيجاد توافق متبادل .

والشق الثانى من أهداف الرعاية الاجتماعية هو مساعدة الفرد والجماعة والمجتمع على مواجهة مشاكل توافقهم في بيئة اجتماعية متغيرة .

ان المشكلات التي تصيب الاسرة وتؤثر بالتالى على جميع أفرادها وعلى القيام بوظائفها خير قيام كانت لفترة طويلة مجال نقاش بين العلماء والسياسيين وينعقد الاجماع حول مثلث النكبات في المحل الأول وهو الفقر والجهل والمرض وهى أكثر ما تكون ارتباطاً ووصفاً للأفراد في المجتمع ولكنها ذات تأثير في قيام الفرد بدوره في نطاق الاسرة ويزيد عليها البعض مشكلات تترتب عليها أو ترتبط بها فالفقر قد يكون نتيجة ومحصلة للبطالة أو العجز أو للشيخوخة أو المرض أو الترميل فهذه الظروف اذن هى الاسباب والمنايع وهى تحتاج إلى وقاية وعلاج .

وهناك تفكك الاسرة بسبب الطلاق أو الهجر أو الترميل أو التخلف السكنى أو العجز أو الفقر . . وهى ذات علاقة بمصادر المشكلات وطرق الناس المعيشية وعلاقات افراد الاسرة ببعضهم البعض تتأثر بمستواهم الثقافى والجماعات المهنية التى ينتمون اليها وبالتشريعات السائدة في المجتمع وكذلك على العادات والتقاليد

من حيث واجبات وحقوق كل فرد في مواجهة غيره من الافراد وتوقعه لسلوك واتجاهات غيره من الافراد تجاهه . . كل ذلك له علاقة بما يمكن أن تواجهه الاسرة من مشكلات .

وقد تعرضت حلقة الدراسات الاجتماعية التي عقدت في ليبيا عام ١٩٥٩ إلى المشكلات التي تواجه الاسرة العربية فارجعتها إلى ثلاثة أقسام تبعاً لمصادرها

١ - المشكلات البيئية .

٢ - المشكلات الاسرية .

٣ - المشكلات الفردية .

مع تأكيد أن لكل من البيئة والاسرة والفرد تأثيراً عميقاً متبادلاً ، وتداخل مشكلاتها تداخلاً شديداً فيما بينها من حيث طبيعتها وآثارها .

والقصد من المشكلات البيئية تلك التي ترتبط بظروف المجتمع وأحواله الاقتصادية والاجتماعية معاً - من حيث توفر الموارد الاقتصادية وحسن استغلالها وعدالة توزيع غلتها وعلاقة كل ذلك بمستوى المعيشة والعمالة مما يؤثر على الاسرة وعلاقة افرادها . . كما يتناول هذا البند النتائج التي تترتب على التصنيع كتجزؤ الاسرة والمرونة الحركية المكانية كالهجرة إلى المدن وعمل المرأة المتروجة . . . الخ ويرتبط بهذا البند ايضاً التركيب السكاني في المجتمع وارتفاع معدل الوفيات وانتشار الامراض الوبائية والمتوطنة والمعدية .

ويندرج تحت بند المشكلات الاسرية : كل ما يهدد الترابط والتكامل والتعاون بين أفرادها لتحقيق الوظائف المنوطة بها التي لا تتحقق الا على أسس ومقومات عمادها التوافق والتكافل الاجتماعي والعلاقات الوثيقة وعدد المؤتمر عن هذه المشكلات - المنازعات الزوجية التي تقوم بسبب عدم التوافق بين الزوجين ، وسوء استعمال حق الطلاق ، وتعدد الزوجات واضطراب القيم الاجتماعية والروحية وصراع القيم بين الاجيال والجهل بالاسس والمقومات التي تقوم عليها الحياة الاسرية .

وتحت بند المشكلات الفردية التي تؤثر على الاسرة والمجتمع يدرج المؤتمر ظروف العجز والشيخوخة والانحراف والاجرام مما تتعدى نتائجها الفرد إلى الاسرة إلى المجتمع .

واذا كانت هذه هي المشكلات من حيث مصدرها فان عوامها ومسبباتها ترجع إلى نواحي سكانية (ديمغرافية) واقتصادية واجتماعية وتربوية وصحية ونفسية تؤثر في كيان الاسرة مجتمعة أو منفردة وتوقعها عن أداء وظائفها التي لا غنى عنها لتقدم المجتمع .

السياسة الاجتماعية في الكويت :

أن السياسة الاجتماعية في دولة الكويت تستمد منابعها من ثلاث عناصر اساسية :

١ - تاريخ الماضي : وهو صورة للمجتمع القديم قبل الخمسينيات وهي مازالت حاضرة في الازهان - وكان مجتمعا مسلما في عمومياته يأخذ بمقتضيات التكافل الاجتماعي ولو في صورته الفردية عن احساس الناس بالمسؤوليات المشتركة في مواجهة بعضهم البعض ، مع جهود تعاونية بمباركة الحكومة لتقديم الخدمات العامة التي يحتاجها الناس من تعليم وصحة .. الخ .

٢ - التطور الدستوري : وما انتهى اليه من قواعد ومقررات ترتبط ارتباطا وثيقا بالصورة التي ارتضاها المجتمع سبيلا وسطا بين الايدولوجيات المتطرفة في النظر إلى علاقة الفرد والمجتمع من جانب ووظيفة الدولة ودورها في حياة المواطن ورعايته وتعويضه عن أجيال من الحرمان - من جانب آخر . وقد استفادت المبادئ الدستورية في باب مقومات المجتمع وغيره من المواد التي تكون الشق الاجتماعي في الدستور من ميثاق الانسان الذي أعلن عام ١٩٤٨ والافكار الليبرالية في العالم الغربي .

٣ - النظام الديمقراطي منذ تشكيل المجلس التأسيسي الذي وضع الدستور حتى الآن وما تضمنه من ضغوط على سياسة الدولة للإصلاح والتطوير في

جوانب الحياة في المجتمع وعلى الأخص ما يرتبط منها بالخدمات التي كان يحتاجها الناس احتياجاً شديداً من تعليم وصحة وخدمات اجتماعية .

وتؤرخ البداية الحقيقية للسياسة الاجتماعية الجدية في الكويت وما يرتبط بها من تشريعات ومشروعات وبرامج منذ اعلان الاستقلال وبداية عمل المجلس التأسيسي الذي صدرت خلال اجتماعاته عام ١٩٦٢ أهم التشريعات الاجتماعية التي مازالت أهم معالم السياسة الاجتماعية للدولة حتى الآن وهي قانون المساعدات العامة وقانون الاندية وجمعيات النفع العام وقانون التعاون - وبدأ تنظيم الوزارات وتحديد اختصاصاتها كما بدأ تطبيق نظام التسجيل الصحي منذ ذلك الوقت وصدرت خلال هذه الفترة فورة من التشريعات بدأت تنظم كل مجالات الحياة والعلاقات في المجتمع .

ولعله من المفيد - بعد أن انقضى في قرن من الزمان على هذه البداية أن يقوم كل جهاز مختص بتقديم تشريعاته ومشروعاته وبرامجه ليرى ما ترتب على تنفيذها من سلبيات وإيجابيات ومدى ما حققته من أهدافها الاصلية في اطار من المبادئ الدستورية التي أملتتها أو تعتبر هذه المشروعات تحقيقاً لها .. ولعل مجلس التخطيط مطالب بالتعاون مع الوزارات على أداء هذا الواجب حتى تكون مسيرة السبعينات أكثر توفيقاً وأقرب مجابهة لما ترتب على السياسات السابقة من مشكلات عددها بيان رئيس الوزراء في ٢٤ - ٦ الماضي .

وكما تعلمون - فان استقرار النظم في حد ذاته يعتبر مشكلة حينما تستعصى على التغيير بحكم الالف والعادة .. ولذا كان من الضروري أن نواجه أنفسنا بالحقائق وأن تجعل النظم في خدمة المجتمع وليس العكس وهو ما يقتضى من الشجاعة والنقد الذاتي ما يتم عن اخلاص حقيقي للمصلحة العامة - ليس فقط لهذا الجيل ولكن للأجيال المقبلة أيضاً .

وسأحاول - بقدر ما يسمح به الوقت - أن أبدي بعض الملاحظات حول معالم اتجاهات ومنجزات خدمات الرعاية الاجتماعية في الكويت العقد الماضي

لنتبين هل استطاعت أن تعكس بصدق ما تضمنه الدستور من مقومات أساسية ولا أجدني محتاجا إلى أن أسرد عليكم بالتفصيل ما تضمنه الدستور في هذا السبيل من :

(أ) دعامات : هي العدالة والحرية والمساواة وتكافؤ الفرص .

(ب) ومن صلات داخل المجتمع : هي التعاون والتراحم والتماسك وهي من أخص مفاهيم الأسرة الواحدة .

(ج) ومن ضمانات : كحماية النشء من الاستغلال والاهمال الادبي والجسماني والروحي .

(د) ومن كفالات : في حالات الشيخوخة والمرض والعجز عن العمل والرعاية الصحية والمعونة الاجتماعية وخدمات التأمين الاجتماعي .

وأهم من ذلك كله ما جاء عن الأسرة - وهي موضوعنا - حيث ينص على أن :

« الأسرة أساس المجتمع قوامها الدين والاخلاق وحب الوطن يحفظ »
« القانون كيانها ، ويقوى أواصرها ، ويحمى في ظلها الأمومة والطفولة »

أيها السادة :

لقد كان من حظي أن عاصرت خدمات الرعاية الاجتماعية في الكويت وحينما أتكلم في تقييم هذه الخدمات أنما أعالج موضوعا عايشته وشاركت فيه ، وكما هي العادة في كل تقييم هناك جوانب ايجابية وجوانب سلبية . . وبالطبع فان خدمات الرعاية الاجتماعية لاتعمل في فراغ ولكنها تتأثر وتؤثر في الظروف والاوزاع الاجتماعية في المجتمع واذا كانت السياسة الاجتماعية كما يعرفها البعض هي توجيه القوى والاوزاع الاجتماعية في المجتمع الى المسار الذي لم تكن لتتخذه لو تركت الامور دون سياسة . فان تقويمنا للرعاية الاجتماعية في الكويت يستهدف الاجابة على الأسئلة الآتية :

١ - ماذا كانت أهدافها ؟

٢ - ما هي القيم التي تنطوي عليها ؟

٣ - ما هي نتائجها كما تبدت في هذه المرحلة - وهل حققت أهدافها ؟

٤ - وإذا كانت قد انخرفت عن مسارها المقرر - فما هي أسباب ذلك ؟

٥ - كيف نستطيع أن نتغلب على السلبيات لنحولها الى إيجابيات ؟

أولاً - أهداف الرعاية الاجتماعية في الكويت :

لعل الدستور هو الوثيقة الوحيدة المعلنة التي يمكن أن نستخلص منها الأهداف الأساسية للسياسة الاجتماعية ، فالهدف على مستوى المجتمع هو توفير حياة كريمة .

١ - أساسها : العدل والحرية والمساواة .

٢ - وطابعها : التعاون والتراحم والعدالة الاجتماعية .

٣ - ودعائهما : الأمن والطمأنينة وتكافؤ الفرص .

أما الأسرة - وهي مجال حديثنا فقوامها - هو الدين والاخلاق وحب الوطن ، يحفظ القانون كيانه ويقوى أوامرها ويحمي في ظلها الامومة والطفولة

وعلى القانون : أى كل التشريعات الاجتماعية التي تصدر فيما بعد استمداد من الدستور أى تنقيذ بأهداف الدستور :

١ - فعلى القانون أن يحفظ كيانه : وعلى ذلك فكل تشريع أو مشروع يسهم في تفتيت الأسرة وتجزئتها وتفككها إنما يتصادم مع أهداف الدستور

٢ - وعلى القانون أن يقوى أوامرها : وعلى ذلك فكل تشريع أو مشروع يساعد على تفكك أوامر التراحم بين افراد الأسرة إنما يتناقض مع أهداف الدستور

٣ - وعلى القانون أن يحمي في ظلها الامومة والطفولة : اى أن يساعدنا
في القيام بوظائفها بالنسبة للجيل الجديد من حيث تأصيل القيم والاستقرار
العائلى ومنح الامن والطمأنينة مما يساعد على تكامل الشخصية .

واذن فحينما ندرس القيم التى انطوى عليها تنظيم المدينة وضواحيها مثلاً
حينما شجعت هذه السياسة الاسر على التجزؤ للاستفادة بالمشروعات الاسكانية
المختلفة وحينما نجد المواد الخاصة بالنفقة الشرعية في قانون المساعدات العامة
معطلة بحيث يرفض الابن أن يتقيد بأبسط الالتزامات في اعالة والده ووالدته ،
وحينما تقصر اجهزة الدولة في التوعية بحقوق الآباء في مواجهة أولادهم وتشجع
بعض الاتجاهات الخاصة بصراع الاجيال ، وحينما تحرم الاسرة من خدمات
التوجيه والاستشارات الاسرية حتى لا يضيع الاطفال بين آباء مستهترين وأمهات
عابثات وحينما لا يتدخل القانون للحجر على الاب السفیه في بعثرة ماله أو اهمال
اطفاله أو هجر أسرته وترك الأم وحدها تواجه مشكلات لا قبل لها بها في تربية
الأولاد . . كل ذلك يصادم أهداف الدستور الا يضعنا هذا النص الدستورى في
مواجهة المسئولية امام عجز الأب لاسباب ذاتية أو بيئية عن القيام بمسئوليته -
بحيث ينظم التشريع وترسم المشروعات وسائل مواجهة تحلى هذا الاب عن
مسئوليته في رعاية أسرته سواء كان هجراً اجتماعياً أو بالرعاية والتوجيه وسواء
كان مستمراً أو مؤقتاً بسبب الزواج من أخرى أو الانصراف إلى ملذاته
ومسراته ، وكذلك حينما يعجز عن القيام بمسئوليته في التربية والتوجيه والقُدوة
لأسباب سلوكية كادمان الخمر أو المخدرات والاستغراق في العاب
القمار . الخ

ما دور التشريع بماله من ولاية اجتماعية على الاسر وكيف يتدخل المشرع
والاجتماعى والنفسى بالمعونة والعلاج . . والوقاية قبل استفحال الداء وتشرذ
الامهات والاطفال ؟

على أن مضمون العلاقات الاسرية لا يقتصر فقط عما يقوم بين أفراد الاسرة
من علاقات متبادلة - وقد رأينا كيف تدخل التنظيم في تجزؤها وتفتتها وكيف

تدخل التشريع في تحلل الافراد من التزاماتهم الاسرية تجاه المتكسبين - ممن تلزمهم نفقتهم كالوالد والوالدة . . والاولاد - وكيف امتنعت الاجهزة المختصة عن التدخل لحماية الاسرة من التفكك . ان العامل المشترك في كل هذا التقصير هو الرخاء والرفاهية الحديثة - فاذا كانت الدولة تمنح كبير السن والعاجز والارملة واليتيم مساعدات شهرية فلماذا تضطر القريب الملزم بالنفقة شرعاً على أن يدفع ما عليه . . ان مسئولية التكافل الاجتماعي لا علاقة لها بغنى الدولة أو غنى الحكومة . . ويستطيع التشريع أن يكمل ما يتقاضاه القريب العاجز أو كبير السن ممن تلزمه نفقته الشرعية .

ويستطيع التنظيم ان يشجع التماسك والترابط بشكل حديث يقلل من الآثار الضارة للتجزؤ - لا نطالب بيت واحد للعائلة كلها ولكن يمكن تشجيع جميع اكثر من قسيمة في جهة واحدة وأن نشجع نوعاً من المباني يساعد على الخصوصية ولكنه يمنع العزلة . ورب قائل يقول أن هذا حدث فعلاً . ولكن فيصلنا في ذلك نسبة من استفاد من القسائم المجمعة إلى القسائم الصغيرة . - فالاحصائية تقول أن عدد من حصلوا على قسائم من عام ١٩٦٠ حتى ١٩٦٨ لم يزد عن ٥٠ حالة من ٢٠٤٠٧ (أى حوالى ٢ في الالف) ؟

كنا نقول أن مضمون العلاقات الاسرية لا يقتصر فقط عما يقوم بين أفرادها من علاقات . . ولكن ايضاً فيما يقوم بين الجيرة من تعاون وتراحم من أهم سمات المجتمعات العربية فيما يسمى بالاحياء . . وبالطبع عاونت المشروعات الاسكانية على اختلال نظام الحوار القديم المستقر وانتقلت الاسر إلى مناطق السكن الجديدة دون خطة موضوعة . ولم يبذل جهد بعد انتقلهم في اعادة خلق الصلات الحوارية باستخدام المؤسسات الاجتماعية الحديثة في تنظيم المجتمعات المحلية - وبذلك امكن الا يعرف الجار جاره .

وقد يقال أنه في ظل الخدمات السابقة التي تقدمها الدولة لم يعد الجار يحتاج الى جاره حتى في حالة الكوارث العامة كالحريق . . فلن تكون هناك فزعة كما كان في الماضى . . ولكن هناك المطافي الحديثة . ولكن هل اصبح التعاون والتراحم

والضبط الاجتماعى المتبادل من المعانى والقيم التى لا يحتاجها المجتمع الحديد -
فى رأى بالعكس تماما . . ان المجتمع فى أشد الحاجة الى هذه المعانى والقيم التى
توحد أنماط السلوك وتجمع القلوب وتهىء للوحدة الوطنية أن تتسرب الى القلوب
والعقول .

وبذلك يصبح من أهم اهداف المرحلة القادمة ، حماية المجتمع وتقوية مناعته
وتعميق روابط تماسكه وتحليصه من الشوائب الدخيلة لتحقيق مستقبل أفضل

الخدمات العامة وأهداف الدستور من حيث التراحم والتماسك والتعاون :

سبق القول بأنه يجب أن يكون مناط تقييم أى تشريع او برنامج أو مشروع
هو ما يترتب عليه من آثار ونتائج اجتماعية بعيدة المدى من حيث الهدف
الاساسى للسياسة الاجتماعية كما ينص عليه الدستور من مقومات أساسية أهمها
التراحم والترابط والتماسك - لانه ما أن يتفكك هذا الترابط الذى يكون معالم
الاسرة الواحدة حتى تتهدد المجتمع الاخطار من كل جانب .

واذن فعلينا ان ندرس ونتبين الآثار الاجتماعية التى يمكن أن تترتب على
الرعاية الاجتماعية فى مختلف الميادين من حيث تحقيق هذا الهدف الاساسى :

- لقد تبينا مثلاً أن تعطيل واجب النفقة الشرعية على القريب الملزم بالنفقة
شرعا قد أوهن العلاقات الاجتماعية داخل الاسر ، وبينما أن تنظيم المدينة
واقامة مناطق السكن المنطقة خارجها لم يراع فى الاعتبار الاجتماعية
التي تعمل على التماسك الاسرى والجوارى .

- فان بيوت ذوى الدخل المحدود قد ساعدت تسمية ونمطا على أن تخلق
طبقة تشعر بالضعف اذ تنتمى الى طبقة دنيا فى المجتمع - هى طبقة ذوى
الدخل المحدود . . وقد بدأت تتضح نتائج هذه السياسة فيما يستشعره
سكان هذه البيوت من الشباب والجيل الحديد من الخلل والضآلة من أوضاعهم
السكنية مما يدفعهم الى تعويض هذا الاحساس بوسائل متعددة شعورية وغير
شعورية وتنفيس مباشر وغير مباشر ومنها الاستهلاك المظهرى ونقمة
ومرارة تنعكس على العلاقات الاجتماعية فى المجتمع فى صور متعددة .

أيها الأخوة :

وأظن انه قد حان الوقت الآن كي نحاول ان نستخلص اسباب سلبيات الرعاية الاجتماعية في الكويت حتى نكتشف ما اذا كانت كامنة في طبيعة النظم الاجتماعية في المجتمع بحيث يحتاج التغلب عليها إلى تعديلات جوهرية في هذه النظم وما يرتبط بها من سياسات ، ام انها من الظواهر العارضة التي يمكن التغلب عليها بالتشريعات والمشروعات التي لا تمس الجوهر .

وليس معنى الحديث عن السلبيات انها هي وحدها معالم الصورة اذ ان الايجابيات كثيرة ومن اهمها ان الكويت قفزت إلى مجتمع الرخاء والخدمات دون المرور على مجتمع الصناعة ، ولو احسنت الكويت استخدام هذه القفزة الرائعة وما حملته من خدمات ورعاية لفئات المواطنين واستطاعت ان تلج إلى مجتمع الصناعة من ابواب الرعاية الاجتماعية الشاملة لانتقت الكثير مما يرتبط بالتصنيع من توترات ومشاكل فردية واجتماعية - وعلى ذلك فالايجابيات اوضح من ان اشير اليها بالتفصيل ويكفي للدلالة عليها ان نقارن مستوى معيشة الفرد العادي في هذا المجتمع خلال العشرين سنة الماضية وهي تمثل جيلا واحداً في حياة أى مجتمع . .

فاذا عدنا إلى السلبيات نبحث عن اسبابها الحقيقية لوجدناها تنحصر تقريباً في ما يلي :

١ - افتقاد التوازن أو التناقض القائم بين التطلعات والآمال من جانب وبين الواقع المعاش من جانب آخر .

٢ - افتقاد التنسيق والتكامل في جهود الرعاية الاجتماعية .

٣ - غياب الاهداف ذات المدى الطويل .

اولاً : فتحت افتقاد التوازن بين الآمال والتطلعات من جانب والواقع المعاش من جانب آخر سجد سمات كثيرة لهذا التناقض واختلال التوازن .

(أ) فهناك التناقض بين الرغبة الشديدة للتقدم على جميع الجهات والتطلع الشديد لتقديم كل ما يحتاجه المواطنون من خدمات - وبين النقص الشديد في القوى العاملة الكويتية عدداً وكفاية الاستعانة بالقوى العاملة الوافدة دون تحديد سياسة سكانية مرنة مما اوقع المجتمع في مشكلات الصراعات والتوترات الاجتماعية وقلل من انتاجية القوى العاملة المستوردة ووقع الدولة من مشكلات اقتصادية واجتماعية لا تكاد تجد لها حلولاً واقعية حتى الآن ، أو حتى في المستقبل المنظور .

(ب) هناك التناقض بين الرحمة والرغبة في تحقيق العدالة الاجتماعية وتحقيق الرفاهية الاقتصادية للمواطنين - وبين الحزم الذي تقتضيه مصلحة الجماعة والفرد على المدى الطويل .

فنظام التوظيف يفتح الباب لكل من يرغب في الوظيفة الحكومية ولو لم يكن مؤهلاً لها ولو كان وجوده مجرد اضافة إلى التضخم القائم ثم يتقرر مد مدة الخدمة إلى سن السبعين . . لان مقتضيات الرحمة تقتضى ذلك . . ونحن نعلم ان الانتاجية الحكومية تقتضى رفع الكفاية الانتاجية لكل موظف والاختيار الدقيق للمرشحين للعمل في الاجهزة الحكومية . .

أى انه بدلاً من ان يكون اختيار الشخص للوظيفة فان السياسة المتبعة هي البحث عن وظيفة للشخص - وما مشكلة المتعطلين الا مثلاً على ذلك . .

- ومقتضيات الرحمة والعدالة تدعونا إلى رفع مبالغ المساعدات عاماً بعد عام حتى للفئات القادرة صحياً على العمل - بالرغم من علمنا ان المساعدة تساهم في الاتكالية والبطالة أو في القليل تقتل الحافز على العمل . . اذ ترتفع عن الحد الأدنى للاجور .

— مع ان المصلحة الحقيقية لمعظم هذه الحالات هو رفع كفايتهم الانتاجية وتوجيههم إلى الاعمال المنتجة — ليس فقط لمصلحة الانتاج الاقتصادى ولكن ايضاً بالنسبة لاوزاعهم الاجتماعية امام اولادهم واسرهم كعناصر منتجة في المجتمع . وبدلاً من ان يعمل فراشاً فيما تبقى له من حياة كان الاولى ان نكتشف قدراته وميوله ومهاراته لتوجيهها إلى عمل اكثر انتاجية .

— من هذين البندين وحدهما يتضح مدى التناقض واختلال التوازن بين الاصرار على التوظيف من جانب وبين التراخي الشديد في البرامج التدريبية لاعداد القوى العاملة الكويتية من جانب آخر مما يترتب عليه :

— مزيد من التضخم الوظيفى

— ومزيد من مساعدات العجز المادى

(ج) وهناك افتقاد التوازن بين الرعاية المادية من جانب والرعاية الشخصية من جانب آخر .. فالاهتمام والتركيز على الرعاية المادية للأسرة وليس على مشكلاتها الانسانية — ولو كانت هى السبب في الحاجة المادية .. فكمن من الاسر التى تتقاضى مساعدات حاولنا أن نساعدنا في موازنة ميرانيتها وتعرفنا على الاسباب الحقيقية لاختلال ايراداتها ومصروفاتها — واهتمنا بظروفها الاجتماعية والنفسية وعلاقات افرادها . لقد قامت برامج الرعاية الاجتماعية بالكثير لمواجهة الاحتياجات والظروف المادية للأسرة ، ولكن الادلة تشير إلى أن هذه السياسة قد صاحبها تخلف في الاطمئنان النفسى والسلوك الاجتماعى .. لاننا لم نستطع ان نقيم التوازن بين ارضاء احتياجات الجسد وبين تنمية العواطف الانسانية والروحية وحينما يبدأ المجتمع في التخلي عن العلاقات الشخصية يزرع الحقد والانانية والكره — وهو ما نأباه .

(د) وهناك التناقض بين مقتضيات الفخر والاعتزاز القومى من جانب وبين القيمة والمنفعة الحقيقية من جانب آخر . .

فتحن نفخر ونعتز بما نقيمه من مبادئ . . ونشيد ونحن ننظر الى الخارج لتقول أكبر وافخم واعظم . . ولا نهتم بالاحتياجات الحقيقية .

نبني مدينة رياضية تتكلف من عشرة ملايين دينار ولا ندري كيف سنستعمل منشآتها حينما ينتهى الاولبياد ، ولا نعلم عدد من تحتاجه آلاتها من العمال الفنيين — وهو عدد سيربو على الفى عامل بينما الطاقة الاستيعابية لمراكز التدريب المهني الحالية لاتزيد عن ١٥٠ عاملا كل عام وحتى لو زادت من أين تأتى لنا بالكويتيين المستعدين للعمل كعمال فنيين ؟

— وتصرف أكثر من ثمانية ملايين دينار على مجتمعات المعاهد الخاصة والمؤسسات الاجتماعية للفئات الخاصة . . بينما لم يزد نصيب التدريب المهني عن ربع مليون دينار .

— ومن التناقض الذى تقع فيه أن ما تخرجه المطابع من كتب وروايات انما تخاطب المثقفين — بل المستوى العالى منهم — مع أن نسبة الأمية في المجتمع تصل إلى ٦٩,٤ ٪ بين النساء و ٥٤ ٪ بين الكويتيين بصفة عامة وكأن هؤلاء وغيرهم من متوسطى الثقافة ليس لهم أى اختبار .

(هـ) وهناك التناقض بين حق هذا الجيل في الحياة المرفهة وبين النصيب العادل للأجيال القادمة .. فظالما ظلت الميراثية تسحب من النفط مباشرة كان هذا استهلاكاً لرأس المال الذى تستحق الاجيال القادمة نصيباً منه .

(و) وحتى على المستوى الفردى نجد اختلال التوازن بين الاستهلاك المظهري وحشد المنزل بالاثاث والتحف والكماليات دون أن يكون لارتفاع مستوى المعيشة انعكاسه الحقيقى على التربية والحنان الابوى ورعاية المصالح الحقيقية للصغار .

فالطفل لا يحتاج إلى ما نغرقه به من هدايا وملابس والاعاب واثاث بقدر ما يحتاج إلى دفء عاطفى وقدره سلوكية واحساس بالحب والامن والتعاطف .

كل هذه وغيرها — هى بعض مظاهر الخيرة بين مقتضيات الرحمة والعدالة والاجتماعية من جانب — ويبين الحزم الذى تقتضيه المصلحة العامة في الاجل الطويل من جانب آخر . . وقد كانت على سبيل المثال لا الحصر .. فهناك ايضا التناقض بين الاستهلاك والانتاج — لها يستطيع أن يتحدث فيه الاقتصاديون أفضل منى .

وما زلنا ايضا حائرين بين الحرية الشخصية حيث فوزى التناقض والتدخل بين مصالح الناس وبين الالتزام والمصلحة العامة وهى مصلحة الاغلبية حيث لا بد من قدر من التدخل والحزم والقرض على المواطن لمصلحته ومصلحة المجتمع ..

ومن ثم اصبح من الضرورى في هذه المرحلة من التقييم واعادة النظرة — ان تفسح المصالح الانية والعاجلة مكانها للمصالح العامة وطويلة الامد — وان يتنازل الرضى القصير المدى عن مكانه لارضاء الاحتياجات بعيدة المدى .

— وان تصبح رفاهية القلة رخاء الاغلبية ليس فقط من هذا الجيل بل من الاجيال القادمة .

ثانيا : افتقاد التنسيق والتكامل بين جهود الرعاية الاجتماعية بين الوزارات المختصة وبينها وبين جمعيات النفع العام :

(أ) فنحن لا نعامل الاسرة كوحدة وانما كاختصاصات وظيفية موزعة بين مختلف الوزارات وحتى داخل الوزارة الواحدة لانكاد نجد الصلة الوظيفية بين الخدمات التى تؤدى للأسرة الواحدة . . فملف المساعدات ليس له

علاقة بملف الاسكان في الوزارة الواحدة او بملف الصحة في وزارة اخرى او بملفات تعليم الاولاد في وزارة ثالثة . . او بملف انحراف احد الاولاد في وزارة ثالثة . وقد ادى هذا الاستقلال احيانا الى تضارب وازدواج وتداخل في الخدمة حتى داخل الوزارة الواحدة .

(ب) ومن مظاهر الانفصال بين سياسات الوزارات عدم وجود علاقة بين سياسات التعليم والتدريب - وسياسة تنمية القوى العاملة الكويتية بما يوشك ان يحقق فائضا من المتعلمين لا تحتاجهم اجهزة الدولة ولا القطاع الخاص او المشترك مع النقص الشديد في جوانب اخرى من الكفايات . ثم انه لا علاقة بين سياسات رعاية الشباب في كل من وزارتي الشؤون الاجتماعية والتربية - وكل منهما يعمل في هذا الميدان وبين البرامج الثقافية والتوعية التي تقوم بها وزارة الاعلام . وحينما تتعدد وتتضارب المصادر التي تمكن وتنمي القيم الانسانية في نفوس الجيل الجديد - فيما بين البيت والمدرسة ووسائل الاعلام المختلفة فلن تتوقع الا البلبلة والحيرة والضياح وخصوصا بين الشباب الذين لا يستطيعون ان يميزوا بحسهم الفطري بين هذه القيم . . ويكفي الاحساس بالتناقض الشديد بين مثاليات البيت والمدرسة وبين القيم التي توحى بها الافلام والمسلسلات الاجنبية التي تمتلئ بها برامج التلفزيون الذي غزا كل بيت .

(ج) ووزارات الخدمات لم تجمع رأيا بعد لتختار بين سبيلي المركزية واللامركزية . . وحينما اتجهت بعض الوزارات الى اللامركزية لم تفرض للمنفيذ المحلي من السلطات ما يعينه على البت في الامور المحلية - ربما لنقص مهارتهم في العمل مع الناس والتعاون مع باقي الخدمات للتنسيق على المستوى المحلي . .

(د) ونادرا ما تقيم المشروعات التي تقوم بها الوزارات حتى يحكم على جدواها على ضوء الاهداف التي اقيمت لتحقيقها او على ضوء سياسات الدولة - اما لان اهدافها اصلا لم تكن دقيقة التحديد ، او النقص بالمعرفة العلمية

بوسائل التقييم وربما لافتقار الدولة الى السياسات الواضحة التي تقود وتهدى القرارات والاعمال في مختلف القطاعات . . ويرتبط التقييم باقامة اقسام خاصة بالبحوث في الوزارات تحاول ان تحسس الاحتياجات الحقيقية للناس وتعيد النظر في البرامج والمشروعات على ضوء التجربة الواقعية والعائد الاقتصادي والاجتماعي والنفس لهذه البرامج والمشروعات .

(هـ) وحتى القليل الذي اشهر من جمعيات النفع العام لم تستطع ان تؤدى خدمة حقيقية في الميادين التي يحتاجها هذا العمل التطوعي ومنها سد الفراغات القائمة بين مختلف الخدمات المستقلة عن بعضها البعض . .

ثالثا : غياب الأهداف طويلة المدى والسياسات الواضحة التي تقود المسيرة إلى تحقيق هذه الأهداف :

بقدر ما تكون الاهداف واضحة محددة في عقول القادة والشعب بقدر ما تسود روح التعاون والتنسيق والحماس من كل جانب لتحقيق هذه الاهداف - ومن الطبيعي ان تصور كل فئة من فئات المجتمع لصورة مجتمع الغد بعد عشرين عاماً من الآن لا يتطابق بالضرورة مع تصور الفئات الأخرى ، اذ يرتبط تصور كل فئة بمصالحها كما تقدرها في الحاضر والمستقبل - ولكن الاجماع قدر الامكان على تصور واضح محدد للمستقبل طويل المدى هو الكفيل باخراج هذا المجتمع من الاضطراب والتخبط الذي يعتبر سبباً ونتيجة لكثير مما يعانيه من مشكلات وعلى ضوء هذا الهدف ، ومن خلال هذا التصور يسهل وضع السياسات السكانية والاقتصادية والاجتماعية . علينا اذن أن نحدد أولاً ماذا نريد ثم نعمل على بلوغ ما نريد خلال الزمن على مراحل تطول أو تقصر طبقاً للظروف .

وهنا فقط موطن المرونة . . وبذلك تطمئن النفوس وتستقر الامور وتعود لاستثمارات الباحثة عن الامان في الخارج ، وتنصرف العقول والسواعد لتعمل في سبيل هذا الغد المأمول . . يترتب على ذلك :

- ان يقتنع المواطن بأى سياسة حازمة تضع امكانيات الحاضر في خدمة الأجيال القادمة .
- ان يفكر المواطن في مصلحته من خلال مصلحة المجتمع ككل . . لأن أولاده وأحفاده جزء من مجتمع الغد .
- ان تتلاقى المصالح المتعارضة على نقطة ثابتة في الغد يعملون جميعاً على بلوغها . . وبذلك تتحقق وحدة المصير في ظل وحدة الهدف .
- يتيح هذا لكل اجهزة الدولة أن تضع مشروعاتها على بصيرة ، وأن يكون لوسائل الاعلام ان تستلهم هذه الاهداف في تأصيل القيم التي يحتاجها مجتمع الغد وتوجيه الرأى العام نحوها ، يشاركها في ذلك كل من البيت والمدرسة في نغمات متجاسنة تعزف لحناً واحداً .
- وبحماس جماعى يستطيع الشعب كله أن يشارك فيما يجرى وأن يتابعه وأن ينبه ممثليه في مجلس الامة إلى أى انحراف خرج مسيره المجتمع عن الخط الأمثل . . فقد نملك أن نختلف حول الوسائل المحققة لهدف ما ولكن يجب ألا نختلف حول الهدف ذاته .

الفروق الرئيسية بين القطاعين العام والخاص

كلمة

السيد هيثم الموشي

استعراض :

يجدر بي قبل ان اشرح الفروق بين القطاعين العام والخاص ان استعرض بايجاز الوضع الوظيفي في البلاد العربية والكويت الذي يعاني من امراض ادارية عديدة حتى انه ممكن القول ان جزءاً لا بأس به من تخلف العالم العربي يعود إلى تردى الادارة فيه . فمستوى الموظف العربي تحدده إلى درجة كبيرة ظروفه المعيشية الصعبة ومستواه البشرى كما وان نظام التعلم لدينا وخاصة في الجامعات ما انفك ينعكس بجلاء على نوعية الخريجين فجامعاتنا تركز على الكم وليس على النوعية ، ولا يزال معظم التعلم لدينا نظرياً لا يعد الموظف لظروف الحياة العملية ولا يتيح له المجال لاعتماد منهج البحث العلمى واستيعاب القضايا واستنباط الحلول العملية والتكيف مع ظروف العمل المتغيرة ابداً ، والقدرة على الاقتناع الهادئ ، والبرمجة الشاملة وان يتسم بالانفتاح العقلى ، والشجاعة الأدبية ، والتصرف بوعى وادراك في الظروف العصية ، وليكتسب ميرة التفانى في خدمة المجتمع فضلاً عن الخلق القويم وكرر القول بأن الخلق القويم هو محور الادارة فالصدق والامانة المطلقة والزاهة والتجرد والانصاف وروح الايثار والتحسس بالخدمة العامة والوفاء بالعهود والاخلاص للعمل واحترام الناس وتوقيرهم والتواضع الجمل كل هذه الامور مطلوبة من الموظفين وخاصة القياديين منهم اذ لا فائدة ترجى من عبقرى في الادارة يعانى من مشاكل شخصية معقدة ، ومهما كان مسؤول ما اختصاصياً بارعاً في حقل عمله لا فائدة ترجى منه ما لم يكن على درجة من الزاهة لا يرقى اليها الشك .

ولذلك لا نزال في العالم العربي نعانى من نقص واضح في طبقة الاداريين الناجحين الذين يستطيعون ان يكونوا المروؤسيهم خير قدوة .

كما وان انجاز الموظف العربي لا يزال يتسم بالبطء كما ان جودته ليست في المستوى المطلوب . وكثيراً ما نواجه بتقيضين اما قبول انتاج جيد كله ممعن في البطء ، او قبول انتاج سريع بدون أى جودة تذكر .

يعتمد القطاع الخاص في الكويت وفي البلدان الاخرى على عدة مميزات تجعله يختلف عن القطاع العام وفيما يلي استعراض مركز لأهم هذه الخلافات :

١ - يقوم القطاع الخاص بصورة عامة على مبدأ الانتاج المادى والربح والخسارة :

وفيه نسبة من المخاطرة . بينما يقوم القطاع العام على اساس مبدأ تقدم الدولة لخدماتها دون التركيز على الاعتبارات المادية على اعتبار ان مسؤوليات الدولة الدفاعية والاجتماعية والامنية والاقتصادية تجعل من ذلك امراً ضرورياً . ولذلك فمن غير الممكن ان يستمر موظف ما في القطاع الخاص اذا لم يحقق قسمه ربحاً في آخر العام بينما يختلف الامر في القطاع العام حيث يصعب قياس اداء الموظفين لخدماتهم بينما نستطيع بسهولة ان نقيس انتاج قسم التسويق في شركة ما وان نقارن انتاجه هذا العام بانتاج الاعوام الماضية من جهة وانتاج الشركات المنافسة من جهة ثانية ، بينما نجد انه من الصعوبة بمكان ان نقيس مثلاً مستوى اداء قسم معين في وزارة الخارجية .

٢ - الكفاءة :

يتطلب القطاع الخاص كفاءة مرتفعة وجهداً متواصلاً ومبادرة شخصية مستمرة واندفاعاً في اداء العمل والتطور والتكيف مع ظروف السوق وقدرة على تحمل المسؤولية ودرجة مرتفعة من الانضباط والتنظم بينما يتكون القطاع العام من جهاز كبير من الموظفين بحيث يكون الموظف مجرد برغى في آلة ضخمة يؤدى عمله الموكل اليه بدون ان تطلب منه هذه الصفات المميزة وبدون ان يفترض فيه ان يؤدى عمله بكفاية مرتفعة لان المردود في العمل هو للمجموعة او للقياديين فيها فالتركيز هنا هو على نتيجة عمل المجموعة . بينما يركز القطاع الخاص على نتيجة عمل الفرد او الافراد القلائل .

٣ - ساعات العمل :

يتطلب القطاع الخاص من العاملين فيه حداً ادنى من ساعات العمل لا تقل عن ثمانى ساعات مقابل ست ساعات في الحكومة والواقع ان الفارق الحسابي ليس ساعتين فحسب وانما هو معظم فترة بعد الظهر فبينما ينتهى دوام موظف الحكومة في الواحدة والنصف نجد موظف القطاع الخاص يعمل حتى السادسة

او السابعة . وفي المناصب القيادية في القطاع الخاص لا يوجد دوام محدد
فالمسؤول يداوم طالما لديه عمل لم ينجزه خارج ساعات الدوام بدون تقييد .
ناهيك عن الانضباطية المفرطة في بدء ساعات الدوام وانتهائه في القطاع الخاص .

٤ - جدية العمل :

ان نتائج العمل في القطاع الخاص واضحة وقابلة للقياس ، ورب العمل
لا يمكن ان يستمر بتشغيل موظف ما الا اذا كان مردوده اعلى من راتبه كما ان
رجل الاعمال لا يستطيع الاستمرار بتحمل خسارة فرع بدون ان يتخذ
الاجراءات التصحيحية اللازمة . ولذلك نجد موظف القطاع الخاص يعمل طيلة
الثمانية ساعات بجدية وبتكريس تام لعمله ان نتائج عمله لا بد ان تنعكس بشكل
مباشر على الانتاج .

اما موظف الحكومة فان عدم قابلية انتاجه للقياس الكمي الدقيق ، وتمتعه
بمكتسبات وظيفية كثيرة تجعله قادراً ان اراد على اضاءة جز كبير من وقت
دوامه . ولا حاجة بي لأن انوه باحدى الدراسات القيمة عن الانتاجية في القطاع
الحكومي والتي قدرت انتاج موظف الدولة بالكويت بربع ساعة يومياً بشكل
متوسط .

٥ - اختلاف مستوى التدريب والحوافز :

ان القطاع الخاص يتطلب من العاملين فيه فترة تدريب طويلة وقد تكون شاقة
مع اختصاص واضح في حقل معين ، والا اصبح وجود الموظف وعدمه سيان ،
فليس هنالك مجال واضح في القطاع الخاص لخريج في التاريخ او الجغرافيا
او العلوم السياسية وكذلك لا يوجد متسع من المجال لخريجي الاجتماعيات
والفنون ، وانما تبرز الحاجة إلى مهرة المحاسبين في حقول اختصاصية محاسبية
مثل محاسبة التكاليف الصناعية ، محاسبة المصارف او شركات التأمين ، التدقيق
والمراجعة الحسابية . . . الخ .

وبشكل عام يؤمن القطاع الخاص للموظف حوافز كثيرة للعمل والانتاج من
اهمها المنافسة المبدعة مع الغير ، وتحسين شروط العمل كلما تحسن مستوى

الاداء وبالمقابل قد لا يؤمن القطاع العام مثل هذه الحوافز الا في الوظائف القيادية . ويشجع القطاع الخاص طموح الكثيرين ويتيح لهم المجال لظهار قوتهم الابتكارية ويتيح لهم الحصول على قدر اكبر من المسؤوليات والصلاحيات ويتيح لهم اشباع حسهم المرهف للانجاز المبتكر ويبرز مميزاتهم الشخصية ومهاراتهم النادرة ويتيح لهم سكب روحهم وابداعهم في عملهم والحصول على الرضا بشقيه المادى والمعنوى . اذ يشعر المهندس الذى صمم سيارة أو اشرف على تنفيذ طريق بلدة الابداع والانجاز ، كما ان مدير شركة صناعية يستطيع ان ينظر بفخر إلى حساب ارباح الشركة آخر العام ، لان كلا منهما على يقين بأنه كان له فضل كبير في هذا الانجاز . . . ولكن كيف يستطيع مثلاً موظف الادارة المركزية في وزارة الخارجية ان يقيم تأثيره في دور السياسة الكويتية في الدبلوماسية العربية ؟

وبالمقابل لا نجد نفس الحوافز في القطاع العام اذ قد تكتفى فئة من الموظفين بان تقدم اقل قدر ممكن من العمل او هذا القدر من العمل الذى ينجزهم من الفصل من اعمالهم .

٦ - الشعور بالطمأنينة :

لا شك ان موظف القطاع العام يشعر بقدر اكبر من الطمأنينة فانهاء الخدمات في القطاع العام امر مستبعد جداً في الحكومة الا بعد اجراء التحقيق وبعد مخالفات واضحة تتعلق بسلوك الموظف او افشائه ما اؤتمن عليه ، كما ان العلاقات بين الموظف ورئيسه في القطاع العام هي اكثر موضوعية وقليلة التأثير بالمزاج الشخصى . وقد نجد موظفاً حكومياً نقل من دائرة إلى اخرى في حالات قليلة . ومن الجهة الاخرى نجد موظف القطاع العام لديه مميزات من تقاعد يؤمن له طمأنينة - فضلاً عن الاجازات من سنوية ومراضية ودراسية والعطل الرسمية الكثيرة .

اما موظف القطاع الخاص في البلاد العربية والكويت فلا يزال يشعر بأنه مرتبط مع صاحب المؤسسة وان مستقبله مرهون باستمرارية المؤسسة وبقاء

صاحبها كما ان مجمل الشروط التي يحصل عليها وخاصة عدم وجود تقاعد يؤمن له مستقبله ، وعدم اطمئنانه على بقاءه بعمله في كل الظروف يؤدي بمثل هذا الموظف إلى الشعور بحساسيات معينة قد تؤدي إلى تنقله من رب عمل إلى آخر وإلى تركيزه على المنافع المادية السريعة .

٧ - الولاء :

من الطبيعي ان يكون ولاء الموظف في القطاع الخاص إلى رب العمل بحيث يرتبط مثل هذا الموظف برب عمله ارتباطاً مباشراً . بينما يختلف الامر في القطاع العام لان ولاء الموظف ليس شخصياً وانما إلى المشرف الاداري الكبير والذي قد يكون وزيراً او مدير الادارة العام . وكثيراً ما يغير هذا الوزير او المدير ولذلك فان ظاهرة الولاء عند الموظف الحكومي هي اقل وضوحاً منها في القطاع الخاص وقد يرجع ذلك إلى المركزية الظاهرة في الدائرة الحكومية .

٨ - الراتب :

يعكس الراتب في القطاع القدرة الفعلية الانتاجية ولذلك فمن الملاحظ ان موظفي القطاع الخاص يتدوون عملهم برواتب اقل من رواتب القطاع العام الا ان الوضع يتغير بعد سنوات لأن فرص الترقية في القطاع الخاص جزيلة وهي مفتوحة لمن يثبت كفاءته ، اما في القطاع العام فان زيادات دورية ونسبتها المئوية ضئيلة الا ان هذه الزيادات شبه مضمونة .

٩ - رواسب العمل :

واخيراً يجب ان لا نغفل الدوافع التاريخية للقطاع العام والخاص اذ لا يزال مجتمعنا يعاني بعض رواسب المفهوم القديم بأن العمل اليدوي او التجاري اقل مستوى من الوظيفة بالقطاع العام التي تتيح لصاحبها - وخاصة في بعض المجالات حظاً وافراً من الابهة والمركز الاجتماعي من الصعب تحقيقها بنفس السرعة في القطاع الخاص . ولذلك نجد ان القطاع العام لا يجد مشقة في العثور على ما يحتاجه من الموظفين وربما ساعد في ذلك عوامل الطمأنينة والاستقرار لدى الموظف الحكومي .

تطوير وتنظيم الإدارة
في الكويت

كلمة

الاستاذ احمد توفيق

أولا : لمحة عن المشاكل التي واجهت عملية التنظيم في القطاع العام في الفترة الماضية :

من الواجبات الاساسية على كل حكومة في العصر الحديث أن تقوم بتعديل منظم في اداتها الحكومية كي تتلاءم باستمرار مع الحاجات المتطورة للمجتمع ولتصل عن طريق هذه التعديلات الى الاهداف الرئيسية التي تصبو إلى تحقيقها . وبالنسبة للكويت تعتبر فترة الاحد عشر عاما التي تلت صدور قانون الوظائف العامة المدنية البداية الحقيقية في ايجاد علاقة منظمة بين الموظف والدولة وهي تعكس تجربة من نوع فريد اذ حدث خلالها تحول تدريجي نحو الاخذ بالاسس العلمية لتنظيم الاداة الحكومية الا انه خلال هذه الفترة نلاحظ وجود عاملين مهمين كانا سبب تأخير الاخذ بهذا التطور وهما : أولا عامل القصور الذاتي ثانيا ما للتقاليد الثقافية والادارية من قوة واثار . العامل الاول : إذا نظرنا للتنظيم والادارة كعلم حديث نسبيا وخاصة من الناحية التطبيقية في الدول العربية ومن ضمنها دولة الكويت فاننا نلاحظ أنه لم يكن من السهل ايجاد المتخصصين بشؤون التنظيم الذين يمكنهم القيام بهذه المهمة خلال الفترة السابقة وهذا ادى بطبيعة الحال إلى تأخير الاخذ بهذه النظم ومن ثم تطوير الادارة الحكومية في الكويت تبعا لذلك . العامل الثاني : عن صدور قانون الوظائف العامة سنة ١٩٦٠ كان هناك استقلال شبه تقريبي لدى الجهات الحكومية المختلفة في اعمالها وهذا أدى بطبيعة الحال إلى صعوبة أخذ كل جهة حكومية بفكرة التنظيم معتبرة ذلك نوعا من التدخل في عملها الأمر الذي لا تميل اليه الطبيعة البشرية بسهولة اذ من الصعب أن يقتنع الانسان الذي يستقل تقريبا في عمله أن يقتنع بفكرة تطوير معين أو

تنظيم معين يأتيه من خارج جهازه ، ولا بد من مرور فترة طويلة نسبيا لتحقيق ذلك ، وهذا ما لمسناه في الفترة الماضية اذ بذلت محاولات من ناحية الديوان في سبيل اجراء هذا التنظيم ولكنها وبالرغم من كونها محاولات محدودة اقتصر على بعض الجهات الحكومية التي ابدت تعاونا الا أن هذه الدراسات لم تجد المجال المناسب لوضعها موضع التنفيذ لما افقدها الأثر المرجو منها بعد مرور فترة من الوقت عليها دون متابعتها بالتعديل اللازم .

ثانياً : الحلول المقترحة لبدء عملية تنظيم الادارة الحكومية :

وقبل أن ننظر إلى الحلول يجب أن نأخذ بعين الاعتبار عدة عوامل تؤثر تأثيرا مباشرا في خطة تطوير الاداة الحكومية وهي كون الدولة ملترمة بتوفير العمل لآبنائها كما أن معظم خريجي الجامعات والمعاهد العليا والمتوسطة يعملون لاختيار العمل الحكومي لانه اخف عبئا بالمقارنة مع مثيله في القطاع الخاص . فضلا عن أن معظم الخريجين الجامعيين هم في الفروع النظرية والقلة منهم في الفروع العملية وهذا عكس ما تحتاجه الدولة وهي لازالت في مرحلة النمو والتطوير . وأن التوسع العمراني السريع وبشكل افقي وبما يستتبعه من توسع في الخدمات في كافة المجالات هو السمة المميزة لدولة الكويت .

وللمساعدة في اتمام عملية تنظيم الاداة الحكومي والتخفيف من المشاكل التي ستواجه القائمين عليها يتعين على القطاع الخاص أن يساهم في استيعاب جزء من الخريجين تخفيفا عن كاهل القطاع الحكومي ، كما يجب تخطيط السياسة التعليمية بحيث يوجه الطلبة بنسبة أكبر إلى التخصصات العلمية .

بناء على ما سبق نجد أن تطوير الاداة الحكومية يتطلب :

أولا : وضع الوظيفة بعد تقييمها وتوصيفها في مكانها المناسب من البناء التنظيمي ويقتضى هذا حصر كافة الوظائف المدنية في الدولة وتحديد واجبات ومسؤوليات كل وظيفة ومكاتب التأهيل اللازم توافرها فيمن يشغلها ، ثم ثم تصنيف هذه الوظائف في مجموعات على أساس انواعها وتقييم وظائف كل

نوع على أساس درجة صعوبة واجباتها ومستوى مسؤولياتها وذلك لتحديد الدرجة المالية المناسبة التي توضع فيها كل وظيفة . وبعد ذلك تسوية حالات الموظفين وتحديد موقف كل موظف بالنسبة للوظيفة التي يشغلها بعد وصفها وتصنيفها وتقييمها .

ولتحقيق الخطوات السابقة يجب وضع خطة تركز على أساسين هما :
(أ) التدرج الزمني بحيث يتم انجاز كل خطوة في فترة زمنية محدودة
(ب) الميزانية السنوية كأداة لتظهر عن طريقها النتائج التي تنتهي إليها كافة الجهود في كل خطوة لتلتزم بها كافة الجهات في نظامها الوظيفي .

ثانيا : خلق الموظف الكفاء برفع مستوى ادائه : وهنا يجب أن يكون لدينا نوعان من الدورات التدريبية . الاول والهدف منه رفع انتاجية الموظف الحكومي بها إلى المعدل المناسب ويكون ذلك بالتوسع في الدورات القائمة حاليا حتى تغطي أكبر عدد ممكن من الموظفين . الثاني والهدف منه اطلاع الموظفين عموما والذين يتولون منهم الوظائف القيادية خاصة على كل مستحدث في مجال وظائفهم حتى لا تتخلف الادارة الحكومية عن المستوى اللائق بها .

كلمة

السيد عبد الله يوسف الفانم

عندما نتحدث عن الادارة وتطويرها لابد ان نبدأ من حيث هي الان ، والظاهرة الملفتة للنظر عند اول دراسة الادارة في القطاع الخاص بالكويت هي قلة اقبال الخريجين الكويتيين على العمل فيه ، واقصد بذلك الالتزام بالعمل فيه ، ولا يكفي ان يكون العمل جزئيا كمن يعملون في القطاع العام صباحا ، وفي القطاع الخاص بضع سويعات من بعض الايام بعد الظهر .

وما دام الانسان كان ولا يزال هو العنصر الاساسي في الادارة فانه من العبث التحدث عن تطوير الادارة بدون ان يتوفر لنا العنصر الاساسي فيها ، وهو الانسان ، ولذلك كان اختياري لهذا الجزء من البحث لهذا اليوم .

ان تدافع الخريجين الكويتيين - وهم عدتنا للمستقبل واثمن ما لدينا من رأسمال ، على العمل في وظائف الدولة ، وعزوفهم عن العمل في القطاع الخاص ظاهرة غير صحية ، وهي تتعلق بطبيعة العمل واحتياجات القطاع الخاص من جهة ، وكذلك بالمرزايا الخاصة التي يوفرها العمل الحكومي من جهة اخرى .

فالقطاع الخاص قطاع قائم بصورة عامة على مبدأ الانتاج المادي والربح والخسارة أي ان فيه نسبة ما من المخاطرة .

وبالتالي فهو يتطلب كفاءة مالية وجهدا مستمرا ، واندفاعا تاما ، ومبادرة شخصية مستمرة ، وقدرة على تحمل المسؤولية ، ومن ناحية اخرى نجد ان الانجاز في القطاع الخاص هو ، بطبيعته قابل للقياس بالوحدات المنتجة ، او الربح الصافي او المردود ، او ساعات العمل في حين ان الوظيفة الحكومية بطبيعتها هي خدمة عامة يصعب قياسها بنفس الدقة .

ان اوجه الخلاف بين القطاعين العام والخاص بمجملها التي شرحها الاخ هيثم تشير الى ان الخريج الكويتي يفضل حياة الدعة والراحة على حياة الجهد واثبات الكفاءة وتحمل المسؤولية ، ويحضرني هنا مثل على صحة هذا القول ، فقد سعت الحكومة طويلا لكي تنشئ الامم المتحدة معهدا للتخطيط الاقتصادي والاجتماعي في الكويت ولما نجحت في ذلك وتأسس المعهد ونظمت محاضراته في فترة بعد الظهر (أى بعد دوام الحكومة) لوحظ ان اقبال موظفي الدولة كان ضئيلا جدا وان نسبة الغياب كانت كبيرة .

ولكن عندما انتقلت ساعات المحاضرات الى فترة قبل الظهر واصبح الموظف الذى يدرس في المعهد له حق التغيب عن عمله ، زادت نسبة الاقبال والدوام . يعنى ان الموظف يريد ان يتعلم ولكن شريطة ان لا يكون هذا على حساب ساعات راحته .

والى جانب هذه الاسباب المنبثقة من طبيعة العمل في القطاع الخاص ، لانكر ان ثمة اسبابا تعود لاختلاف في ادارة هذا القطاع نفسه وهى :

١ - وجود فرق كبير في مستوى الرواتب وخاصة لدى التعيين بين القطاع العام والخاص ، وتكبر الهوة في الرواتب متى ما قارنا الانتاج الفعلي في الحكومة وانتاج الموظف في القطاع الخاص .

٢ - ومن جهة ثانية ، نجد ان التشريع الكويتي يسمح بالجمع بين الوظيفة العامة والتجارة (على عكس جميع التشريعات المماثلة في العالم كله تقريبا) ، وهذا يغوى الشاب الكويتي بالانضمام لجهاز الدولة قبل الظهر ، على ان يعمل بالتجارة بعد الظهر . ليكتشف ، بعد فوات الاوان ، ان عمله التجاري قد اصبح بأيد اخرى وانه لا يملك منه الا الاسم ، وبما انه يكون قد اعتاد حياة الوظيفة العامة تصعب عليه التضيحية بوظيفته للتفرغ لتجارته .

٣ - يسعى الانسان عادة الى تأمين العمل الذى يتطلب منه القليل من الجهد وساعات العمل وبنفس الوقت يعطيه اكبر مردود مادي بينما من الضروري

ان تتغير مفاهيم الشبان الى ان العمل شرف لايدانيه شرف ، وان العمل المنتج المبدع هو هدف في ذاته ، مهما كان مردوده ، وأكبر مثال على ذلك الفنانون الذين يرضون بأدنى مردود في سبيل استمرار حريتهم في العمل بشكل يرضيهم ويتناسب مع اهدافهم وطموحهم .

٤ - اعتقاد الخريجين الكويتيين ان مجرد كونهم كويتيين يعطيهم افضلية العمل في المناصب القيادية بدون ان يولوا الخبرة الاهمية التي تستحقها ، ونحن لا ننكر ان ابناء أى بلد احق بوظائفه القيادية ولكن شريطة ان تتساوى الكفاءة بشكل تضمن حسن سير العمل عندما يتولى ابن الكويت وظيفة كان يشغلها شخص آخر . واننى اعتقد انه ما دام الخريج الكويتى يجد حرجا في العمل تحت امرة شخص غير كويتى فانه من الصعب ان يتمرس الصحيح ويكتسب الخبرة المطلوبة في الادارة في وقت لم تعد فيه الادارة عملا يمكن توفره بالسليقة والوراثه .

٥ - وجود تباين واضح في تفكير جيل الخريجين الجدد مع آبائهم من المسكين بزمam القطاع الخاص . فصاحب المؤسسة أو المسؤول عنها أو رئيسها الذي وصل لوضعه الاجتماعي والمالي الحالي بعد جهاد طويل وتجارب كثيرة وخبرة غنية ، ينظر للخريج الجديد نظرة ابوة ، اكثر منها نظرة عمل وزمالة ، ويعطى للخبرة كل الوزن ويجرد الدراسة النظرية من معظم فضائلها . وبالمقابل نجد ان الخريج الجديد ينظر الى شهادته وكأنها نهاية المطاف في العالم والمعرفة ويبخس خبرة والده كثيرا من قيمتها ويقيم قرارات الوالد على انها اصداء من التاريخ . وهذه الهوة الكبيرة بين الموقفين تجعل الخريج الكويتى يتطلع الى القطاع الحكومى كمهرب من صدام حتمى مع عقلية الجيل الغابر . كما ان هذه الهوة بالذات تجعل الجيل الاكبر يتمنع عن اعطاء الخريجين الجدد جزءا من صلاحياته ولا عن تقسيم العمل والصلاحيه والمسؤولية بصورة صحيحة .

٦ - ان الكثير من المؤسسات في القطاع الخاص لا تزال تفتقد نظاما داخليا او قانونا وظيفيا يحكم علاقة الموظف بصاحب العمل بحيث تتبين للموظف بوضوح مسؤولياته وحقوقه . وشعور الموظف في القطاع الخاص بانه تحت رحمة صاحب العمل يقابله في القطاع العام قوانين تجعل من المستحيل انهاء عمل موظف كويتي ، واقصى ما يمكن ان يصيبه هو نقله الى وظيفة اخرى قد تكون احسن من التي يشغلها الان .

ومع علمي بان الموضوع قابل للجدل وتختلف فيه الاراء الا انني اقترح بعض الحلول لاجتذاب عدد اكبر من الخريجين الكويتيين الى القطاع الخاص تصلح ان تكون اساسا للنقاش .

١ - توعية الخريجين بدور القطاع الخاص والفرص الكبيرة التي يتيحها للعاملين فيه الذين يثبتون جدارة وكفاءة . ومخاطبة صفات الاقدام والشجاعة فيهم ليقبلوا على هذا القطاع . واقناعهم بضرورة بقائهم فترة معقولة لاكتساب الخبرة والمران عن طريق التدرج الوظيفي الى ان يصلوا الى المناصب القيادية عن جدارة حقيقية . وحينئذ يكون المردود المالى اكثر من العمل في القطاع العام .

٢ - تعديل كادر الرواتب في القطاع الخاص وخصوصا الشركات المساهمة بحيث يعطى الخريج الكويتي الجديد ما لا يقل عن الراتب الذي تعرضه الدولة . وانا اعلم ان في هذا تضحية من هذه الشركات الا انه لا توجد مكاسب طويلة المدى بدون تضحيات لفترة معينة .

٣ - الثقة بالخريجين الذين يثبتون كفاءة وجدارة واعطائهم صلاحيات كافية واشعارهم بمدى اهميتهم واهمية دراستهم وتبنيهم الى ان الشهادة الجامعية مع اهميتها لا تكمل الا بالخبرة .

٤ - اتخاذ الاجراءات والقرارات اللازمة لزيادة روح المسؤولية والانضباط في الوظيفة العامة كي لا يكون الخيار امام الخريج بين تقيضين اولهما راتب بعمل قليل في القطاع العام وراتب مقابل جهد كبير في القطاع الخاص .

٥ - منع الجمع بين الوظيفة والتجارة في عصر أصبح التخصص فيه ليس بين الوظيفة العامة والعمل الحر فقط بل في نوع واحد من مجال واحد في العمل الحر بحيث نفرض التخصص اما بالتجارة او بالوظيفة وبشكل يصبح فيه الموظف معتمدا بشكل فعلى على عمله .

٦ - قيام الاب باتاحة الفرصة لابنه ليتعلم عن طريق تفويضه بالادارة مع مساحته اذا اخطأ ضمن حدود معقولة وكذلك قيام الخريج بايلاء الخبرة وزنها وقيمتها الفعلية لان هدف العلم اصلا اكتساب خبرة الاجيال السابقة

٧ - اقامة مراكز لتدريب الخريجين الكويتيين تدريبا عمليا مثل مركز للتدريب على الاعمال المصرفية وآخر على الاعمال المحاسبية والتدقيق وثالث للاعمال الادارية العليا ، ورابع للتدريب على اعمال شركات التأمين او الملاحظة السخ

٨ - وضع نظم داخلية محكمة في مؤسسات القطاع الخاص تحدد دور العاملين وتقسم الصلاحيات والمسؤوليات فيه بحيث تؤدى الى تشجيع الخريجين الى العمل بالقطاع الخاص ضمن مسؤوليات محدده في ظل قانون عمل واضح

٩ - تطوير القطاع الخاص نفسه بحيث تطغى الشركات ذات الصبغة الجماعية « Corporate Bodies » على الشركات ذات الصبغة الفردية التي تتعرض باستمرار للزوال بذهاب مؤسسها او الرجل الرسمي الذي كان القوة الدافعة وراءها .

كلمة

الاستاذ محمد السبيسي

اولا - مفهوم الادارة العامة ومعنى التطوير .

ثانياً - التنظيم كعنصر من عناصر الادارة وبعض مبادئه كالتفويض وتبسيط الاجراءات والقيادة الادارية .

ثالثاً - الرقابة القضائية على الادارة .

رابعاً - بعض الاقتراحات مع الاشارة للبلدية .

تطوير التنظيم والادارة في الكويت : أربع كلمات كل كلمة منها تحتاج إلى جدل وحديث كبيرين الا أن ضيق الوقت لا يسمح لنا بذلك . الادارة قديمة جدا قدم الدولة ، بل وجدت قبل أن تنشأ الدولة ، والتنظيم عنصر من عناصر هذه الادارة وركيزتها الاولى واساسها . الادارة ليست عملية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولكنها متحركة وديناميكية وهذا لا يعنى أن نترك قديمنا ، فمن المبادئ القديمة مالا يتغير بتغير الأزمان (والكويت بلد عربي وجزء من الامة العربية التي لها ماضى وتراث ومن مظاهر هذه الحضارة وجود الادارة) .

الادارة تصور بحق مجتمعا قائما بذاته فهي تعكس مشاكل الناس ، فهل معنى ذلك انه إذا كان الناس ثابتين أو غير قابلين للتغيير أو متمسكين بمبادئ عامة معينة هل يحول ذلك دون التطور أو تطوير الادارة ؟ كلا فهي كما في البداية ليست عملية جامدة أو مرآة تعكس صورة بذاتها بل العبرة بما يمكن ان نضيفه على الادارة من حيوية ومبادئ جديدة قد تكون من الدول المجاورة أو التي تقدمت اذ لا يوجد ما يمنع من تطبيقها نظرا إلى شمول الانسانية باعتبارنا جميعا نشكل مجتمعا انسانيا يميل أو قد يأتي يوم يوجد فيه اتحاد وتطابق بين العالم اجمع .

ففى مجال التطوير يجب أن تكون الادارة العامة قادرة على أن ترتفع بمستوى المجتمع بحيث تهلى شعب المجتمع إلى ما تبتغيه الادارة من تحقيق الخير والنفع العام لجميع المواطنين .

وهذا هو تعريف الادارة طبقا لما عرفناه من اساتذة الادارة العامة باعتبارها تنظيم نشاط بشرى بقصد تحقيق هدف معين يتفق وسياسة الدولة في وقت بذاته .

اقول لازمتنى هذه الخواطر عندما فكرت ان اتحدث في بعض المبادئ التى المسها في الكويت وما عنّى الى من اقترحات لمعالجة ما أراه من وجهة نظرى انه يحتاج إلى علاج .

ابدأ ببعض جوانب تنظيم الادارة في الكويت على قصر المدة التى قضيتها في الكويت اقول أن النظام الادارى فيها يمتاز بالوضوح ، والبساطة بمعنى انه ليس نظاما معقدا . ويقوم اساسا على النظام المركزى يتمثل في الوزارات والمصالح والادارات المختلفة تعاونها بعض اجهزة مستقلة تعتبر مركزية كأجهزة رأى ، كادارة الفتوى والتشريع ، وديوان الموظفين ، أو اجهزة استشارية ، كالمجلس الاستشارى للاعلام ، وإلى جانب هذا يوجد لا مركزية بنوعيتها لا مركزية اقليمية تتمثل في بلدية الكويت حاليا ، اذ أعرف أن القانون أو مشروع القانون المقترح والمعروض حاليا على مجلس الامة يتجه إلى تعدد نظام البلديات بحيث تكون لكل محافظة بلدية . أما حاليا توجد بلدية واحدة وإلى جانب اللامركزية الاقليمية توجد اللامركزية المفقية وهى الهيئات العامة والمؤسسات العامة دون دخول في جدول بين الفارق بينهما لان الفارق غير دقيق أيضا في الكويت كما هو الحال في بلادنا العربية وتوجد بعض هيئات عامة ومؤسسات عامة كالبنك المركزى ، هيئة الشعبية للصناعة ، ومؤسسة الخطوط الجوية الكويتية . هذا هو النظام الادارى بمعنى الحكومى بأجهزته المركزية واللامركزية بنوعيتها . الى جانب القطاع العام والخاص الذى سيفضل زملائى بالحديث عنه .

الكويت شأنها شأن بلادنا العربية من سمات هيكلها الإداري نظام تركيز السلطة في يد الرئيس الإداري على مختلف المستويات . وقد يكون لهذا ما يبرره في السنوات الماضية بالنسبة لبدء الكويت ونهضتها ودفعها قدما إلى الامام انما اعتقد أن الحين قد حان لأن يقلل من شدة مبدأ تركيز السلطة ، والاتجاه الحديث في الإدارة العامة يميل إلى عدم المركزية وإلى توزيع الاختصاصات والسلطات ، بل فيما اعلم من قراءاتي إن الإدارة الأمريكية تفتخر بأن نظام تفويض السلطة مبدأ جوهري في جهازها الإداري وهو مبدأ إداري مجرد وحيد لو طبقناه في الكويت . إلا أن تفويض السلطة له قيود فيما يتعلق بالمسائل الرئيسية الهامة والسياسة العامة فلا بد أن يكون هناك تركيز للسلطة في يد الرئيس انما فيما عدا ذلك من الأعمال التنفيذية أو الأعمال الاستشارية فحيدا لو خفف من حدة هذا المبدأ بحيث تطبق تدريجيا وجزئيا مبدأ تفويض السلطة وعدم التركيز . والحقيقة أن هذه المسألة تتصل بعنصر هام هو القيادة الإدارية . لأن مبدأ القيادة الإدارية إذا كان مطبقا على كل مستويات اجهزة الإدارة فإن ذلك يساعد على تحقيق مبدأ توزيع الاختصاصات وعدم التركيز في السلطة . والفكرة من القيادة الإدارية ليس معناها أن يصدر الرئيس مجرد تعليمات بحيث يبيع قراراته بيعا اجباريا ، انما أساسها المشورة والتعاون بين المدير والصف الثاني والصف الثالث ومساعديه ومعاونيه . أما مشكلة اكتشاف القادة الإداريين فانما أمر اعتقد انه سهل في الكويت نظرا لطبيعتها الخاصة حيث أن الناس يعرف بعضهم بعضا والتنظيم الإداري حديث فيها ، فمن الممكن اختيار القادة الإداريين الذين يطبقون ويصلحون الإدارة في قمتها وعلى مختلف مستوياتها مع بعض الاقتراحات التي سأقولها في نهاية حديثي عن تنمية القيادة الإدارية .

من مظاهر الإدارة أيضا أو عيوبها التي يمكن أن نتخلص منها عيان يسمونها الشكلية والورقية بقدر الامكان يجب أن نبعد انفسنا عما يسميه اساتذة الإدارة بالشريط الأحمر . وهذا تعبير قصد به في الماضي ربط الأوراق السياسية دون ترتيب أو تنسيق بشريط أحمر يستغرق وقتا لفص هذا الشريط ولذلك سميت الشكلية بالشريط الأحمر . والهدف أن لا نباغ في سلسلة الاجراءات وكذلك

الشكلية الورقية كثرة الورق والمكاتبات فيما يمكن أن يحسم بحديث تلفوني أو حديث شفوي خاصة وان الاختراعات الحديثة والاكتشافات الحديثة أولى أن تطبقها في مجالات الادارة مثلا أن يوضع على كل مكتب هاتف يساعد في انجاز الاعمال دون تعطيل أو استغراق وقت أو مكاتبات عديدة كذلك تقدم علم علم الاحصاء واجهزته وآلاته يجب الاستفادة به من اتخاذ القرارات وتنفيذ الاعمال وعلى العموم كل ما يساعد على تبسيط الاجراءات المختلفة .

بالنسبة للرقابة كجانب من جوانب الادارة فاني سأقصر حديثي على الرقابة القضائية ، اشار الدستور الكويتي إلى هذا الموضوع في أحد نصوصه م ١٧١ ولكن لم يصدر حتى الآن القانون الذي ينظم عملية الرقابة القضائية ، وأن كانت هناك بعض مظاهر لها أو صور لها قاصرة على التعويض بالنسبة للاعمال الادارية تختص بها المحاكم العادية . وبالنسبة لمجالس التأديب في نظام الموظفين الحالي . عندما توقع عقوبة تأديبية على الموظف انتقصير أو خطأ اداري أو مالى يطعن في القرار أمام مجلس للتأديب ثم يطعن في قرار مجلس التأديب أمام محكمة الاستئناف العليا . لا نكتفى بهذا إنما حبذا لو نظمت الرقابة القضائية بصرف النظر عن أن تكون في صورة قضاء اداري لمجلس الدولة أو القضاء العادي القائم حاليا إنما بالمفهوم التضائي لابد أن يكون درجتان من درجتان التقاضي وأن يحق لكل موظف أن يطعن في القرار الصادر بتأديبه وهو نص كما قلت في الدستور يخول هذه الرقابة القضائية إنما نأمل أن يصدر قريبا قانون بشأن قضاء الاغاء كظهور من مظاهر الرقابة القضائية اللاحقة ، ويؤكد انه لا يكفي مهما احسن اختيار الافراد أو رتب التنظيم أو وضعت قواعد تشريعية واضحة ، لا تكفي انواع الرقابة الادارية . لا يجوز أن تكون المنظمة الادارية خصما وحكما في وقت واحد . أن الموظف هو أساس العمل في الادارة فلا بد أن نخططه بضمانات قضائية تتمثل في رقابة القضاء على أعمال الادارة بعد توقيع العتاب من السلطات الادارية ، كذلك اجل مشروع قانون الخدمة المدنية الجديد يتضمن نصا يقرر عدم مسئولية الموظف عن الخطأ المصلحي أو الخطأ المرفقي اسوة بكل التشريعات الحديثة حماية للعاملين وامانا لهم . وبالنسبة لبعض الاقتراحات دار

في ذهني بعض الاقتراحات أولها بالنسبة للكويت خاصة ، التفكير في اعداد دليل للتنظيم الاداري في الكويت يجمع كل أجهزة الادارة الموجودة وفروعها واختصاصاتها وبيانات كاملة عن الادارة تساعد الباحث في عدة أنواع من العلاج مثلها اختيار الاجهزة الادارية أو بعد الاجهزة الادارية عن التضارب في الاختصاصات التي قد تنشأ بين بعض اجهزة يمكن معرفتها من مثل هذا الدليل ببيان عدد الموظفين في كل وحدة ، مقياس الكفاءة ، مقياس الاداء ومقدار الانفاق العام هذا الدليل قد يساعد ، وحبذا لو بدئ به ونحن في مرحلة حديثة وقبل ان تتعقد الاجهزة الادارية وتتشابك فيصعب بعد ذلك وضعه . بالنسبة للاقتراح الثاني اعتقد أن له صلة بالناحية العلمية ويشرفنا استاذنا مدير جامعة الكويت في هذه الندوة ، ذلك انني اطلعت على المبررات الدراسية في جامعة الكويت خصوصا بالنسبة لمقررات الدراسات الانسانية فوجدت مادة الادارة العامة وهي غير مادة ادارة الاعمال - تدرس في كلية التجارة والاقتصاد في السنة الثانية ، في سنة واحدة ، وفي كلية الحقوق تدرس في السنة الرابعة وعلى ما أعلم استبعد مقررهما هذا العام . وأن وجود معهد الادارة العامة أو كلية للادارة العامة أو الاهتمام بدراسة الادارة العامة أمر حيوي ولازم في الكويت وهي رائدة لدول الخليج العربي كلها وحبذا لو نودى به لاننا في عصر يحتاج فعلا إلى دراسات قوية تقوم على أسس علمية ، في الكويت خصوصا لتنمية الادارة العامة ولتدريسها .

انني لا اتصور كلية مثل كلية الهندسة أو كلية العلوم لا تدرس فيها العلوم الالكترونية أو الفضاء كذلك لا اتصور كلية انسانية لا تدرس فيها الادارة العامة بالقدر اللازم الذي يتفق مع النهضة الادارية التي نجدها في العالم العربي والكويت باعتباره مجتمعنا الآن . وهذا اقتراح اسوقه أيضا بالنسبة للادارة العامة وتدريسها . ليس فقط في الجامعة بل حبذا كما وجد معهد التخطيط الاقتصادي والاجتماعي وثمراته ملموسة مقدره أن يوجد بجانبه أيضا معهد للادارة العامة يلحق به معهد أو قسم للادارة المحلية . صحيح أن الجامعة العربية انشأت منظمة للعلوم العربية الادارية وعقد مؤتمر هنا في الكويت

سنة ١٩٦٩ تابع لهذه المنظمة انما ليس كافيا . وعدم وجود معهد للإدارة أو دراسات إدارية ودراسات لاختيار القادة الإداريين في الكويت أمر يحتاج إلى نظر . في الجمهورية العربية المتحدة مثلا ثلاثة معاهد للإدارة وقد قرأت في صحيفة الاهرام اليوم أن مصر انشأت معهدا جديدا يسمى المعهد القومي للتنمية الإدارية يتولى تنفيذ الخطة القومية للتدريب الإداري على مستوى الدولة وتجميع الكفاءات وربط ذلك بالخطة العامة للدولة وحذا لو وجد مثل هذا المعهد في الكويت أو لو اهتم بالإدارة العامة في دراستنا الجامعية . وليس ببعيد أن نرى قريبا مجلة علمية للعلوم الإدارية وتنمية الإدارة العامة في الكويت .

بالنسبة لبلدية الكويت - هناك ايضا مشروع قانون مقترح في مجلس الأمة يتناول نقطة تتصل بالهيكل الخاص بالتنظيم الإداري للبلديات عموما واقترح أن يكون أعضاء المجلس البلدي أو أعضاء اللجنة المركزية للبلدية يجمعون بين الانتخاب والتعيين . لان البلدية هي أساس الديمقراطية المحلية وهي التي تكشف الأعضاء النيايين لمجلس الأمة على المستوى المركزي والقومي حذا أيضا لو شمل القانون أو المشروع الجديد نصا يوجب الجمع بين طريقة الانتخاب وطريقة التعيين .

السِّيَاسَةُ الإِسْكَانِيَّةُ وَالتَّوْطِيقُ

كَلِمَةٌ

الدكتور عبد المطلب البقاعي

مقدمة :

أن ما يعيننا في ندوتنا هذه هو الجانب السلوكي في سياسة الدولة الاسكانية لتحقيق التوطن والاستقرار من السكان العابرين الذين أقاموا تلقائيا في تجمعات هامشية اقامة عرضية ووقتيّة بطابع الاستقرار والديمومة والذين يرجعون بأصولهم إلى قبائل عرفت الترحال والتنقل طبيعة في طراز حياتها وعادة في مسائل تكسب عيشها .

لما كانت الكويت محاطة من جوانبها الثلاثة بالصحراء وكانت تمت بأصولها إلى أرومات بدوية فإن هذه الصحراء كانت ولا زالت معينا لا ينضب لهجرة مجموعات من سكانها البدو الرحل نحو الكويت التي هي مركز جذب شديد بما يتواجد فيها من أسباب للرزق والتكسب الدائم كلما دهمت هؤلاء السكان داهمة الجذب ولا مجال وقد تزايدت الهجرات بفتح مجالات جديدة للعمل فائقة الاغراء أثر ظهور النفط وتدفق عوائده على البلاد بكثرة مذهلة وسرعة فائقة التصور والتوقع ، كان من أثره توضع هؤلاء المهاجرين في الأماكن القريبة من آبار النفط وفي القرى القريبة منها وفي ضواحي مدينة الكويت التي توسعت مرافقها وامتد عمرانها وكثرت خدماتها في المجالات الحكومية والاهلية وقد نشأ عن هذا التوضع أو التوطن التلقائي مشاكل وتعقيدات لا حصر لها كان من أهمها « مشكلة العشيش » الذي اتخذ منه المستوطنون الجدد سكنا لهم والذي كان بدوره سببا لاقحام مشاكل جديدة تقتضي الحل السريع إلى جانب « مشاكل التطور العمراني » والازدياد السكاني « و » عوامل التغيير الاجتماعي « مما حدا بالدولة الى تبني سياسة اسكانية لمعالجة هذه المشاكل قائمة على الاستملاك والهدم والتعمير .

- الاستملاك بغاية التنظيم وانشاء طرق واقامة المرافق .
- الهدم بغاية التحسين والتجميل وازالة كل ما يعترض عملية التنظيم والبناء .
- التعمير بغاية استيفاء متطلبات التطور بانشاء الاحياء السكنية النموذجية على أحسن طراز وأكمل وجه .

وكان حلم العيش بمناظرها المؤذية وحالتها الصحية والحياة الرديئة الشغل الشاغل لحطة الدولة في تحقيق سياستها الاسكانية .

الا أن الاعتماد على الاسكان كوسيلة للتوطين والتحضير لا يقوم على أساس قويم ووجه صحيح الا إذا سبقته دراسات وافية عن التوطين وأساليبه والتحضير ومناهجه ليكون للاسكان هذا أثره في استقرار البدو واندماجهم في حياة المجتمع الذى يرغبون العيش في كنفه والاحتماء بظله والتمتع بخيراته وهذا الأمر لن تتوفر دواعيه الا إذا قامت بذهننا فكرة واضحة يتحدد معها مفهوم البدو والحضر مكانا وسكانا كما يتحدد مفهوم الوطن والتوطين لغة واصطلاحا ومنهجيا .

مفهوم الوطن :

فالوطن بحسب ما جاء في قاموس المحيط هو : منزل الإقامة ، وطن وأوطن : أقام ومواطن مكة : مواقفها ومواطن الحرب : مشاهدتها ، وتوطين النفس تمهيداً ووطنه على الأمر وافقه ، والميطان : يعنى الغاية التى ينتهى إليها

فهى تتضمن بهذه المعانى الإقامة والموافقة والتمهيد للطباع والغاية في القصد والزروع ، كما تتضمن معانى المواقف والمشاهد التى يقف فيها الناس ويشاهدون منها الاحداث خلال مقامهم في المكان والزمان .

وفي معجم Webster الانجليزى عبر عن كلمة وطن بكلمة Home وعنى فيها المنزل الذى يقطنه الانسان ويعيش فيه ويرعرع ويرتبط به قلباً وعاطفة Home is where the heart is وقريباً من هذا المعنى قال الشاعر العربى :

وحب أوطان الرجال اليهم
مأرب قضاها الرجال هنالك

أما في معجم لاروس الفرنسى فقد عبر بكلمة Patrie عن الوطن وعنى بها الناس والمكان معا فهى تعنى البلد الذى ولد فيه الانسان كما تعنى : مجموعة من الناس ارتبطوا فيما بينهم قلباً وارادة بأمة (ENSEMBLE des personnes qui sont associées entre elles de coeur, et de volonté en une nation) .

وهذه المعاني كلها التي تشمل عليها كلمة وطن تدل على مدى الروابط التي تدخل في نسيج الوطن من لحمه التراب وسدى الدماء التي تجري فيه وتتفاعل في وسطه في كل متحد ومنسجم ومتساوق .

القصد من التوطن والتوطين :

— التوطن والاستيطان هو إقامة فرد أو جماعة من الناس بأرض بقصد الاستقرار فيها أي باتخاذها وطناً لهم . وهذا المعنى يوافق المعنى الذي قصدت به كلمة Settlement الانجليزية و Standarization الافرنسية وان كان في الاولى معنى من معاني الاستعمار والاحتلال بأقامة مستعمرة أو مستوطنة Colonie في مكان ما بينما الكلمة الفرنسية تعني الاستقرار بمقابل الترحال (NOMADISME)

— أما التوطين وهذا بيت القصيد فهو عملية يقصد بها ضمن منهج معين وضع خطة سياسية محكمة لتهيئة مجموعة من الناس للاستقرار في وطن مابعد توفير جميع الامكانيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لاندماجهم اندماجاً كلياً في حياة المجتمع الذي أقاموا في جوانبه وسكنوا بين ظهرانيه ومن الطبيعي أن لا تتناول هذه السياسة أي أناس كانوا من حضر ومدن أو أهل ريف ومدن بل الذي يعنيه التوطين الافراد والجماعات من القبائل الرحل الذين اتخذوا البادية على مداها مقراً لحلهم وترحالهم ورعاية مواشيهم .

— أما الحضر فهم سكان الحاضرة وهي المدن والقرى والريف وهؤلاء لا يحتاجون في تنقلهم وتغيير مقارهم الى سياسة توطين قائمة على الاندماج والتحضير فنقل أهل الكويت بسبب التنظيم العمراني الى الاحياء النموذجية في الضواحي لا يقتضى قيام سياسة اندماج وتحضير بالمعنى الذي نقصده في عملية توطين وتحضير البدو

دراسة أحوال البدو في مجتمعاتهم القبلية :

ان دراسة أحوال البدو ووسائل عيشهم ضمن مجتمعهم القبلي هو ما يجب أن نبدأ به قبل القيام بعملية توطينهم ووضع خطة اندماجهم وتحضيرهم .

فالببدو هم سكان البادية وهى الارض البارزة الخالية من كل بناء وهؤلاء البدو هم أقوام رحل يهيمون حيث عن لهم الترحال وطاب بحثا عن الكأ والماء، طاعنين بيوتهم من الخيام على ظهور مطاياهم ينصبونها حيث طاب لهم المقام معتمدين على ماشيتهم في عيشهم : يغذونها من حشاش الارض ويحلبونها ويصرونها ويغتذون بلحومها ونتاجها ويتنفعون بصوفها وشعرها ووبرها في صنع ثيابهم وبسطهم وخيامهم ويبادلون بما فاض لديهم أهل الحضر لسد ما بقى من حاجاتهم .

ويقتضى سكن البادية الفسيحة الأرجاء القاسية الطبيعة نمطا خاصا من الحياة يتلأّم وذلك الامتداد الذى يطويهم في جنباته ويعزله عن غيرهم ويطبعهم بجنوته وقساوته (وفي الحديث الشريف من بدا جفا) كما يمدّهم بقيم ومثل تضطرها اليهم حياتهم كالكرم والجرأة والشجاعة والعزة والاباء والصبر على الطوى وضنك العيش والتفانى في صيانة العرض والشرف كما يمدّهم بكثير من المعلومات الخاصة ببيئتهم هذه كتتبع الاثر وعلم النجوم وحفظ الانساب ورواية الملاحم والاشعار كما يتقوى فيهم حب التفاخر بمآثرهم والتغنى بأيامهم في حروبهم ومنازعاتهم مما يقوى فيهم بلاغة اللسان وملكة نظم الشعر وهما مادة هذا التفاخر وأداة التعبير عنه .

كما ينتظمون في قبائل وعشائر يرتبط أفرادها بروابط الولاء والعصبية لها في مشاعرهم وأعرافهم وتقاليدهم وعاداتهم ونزعاتهم وفي صلات الدم والجوار وتحقيق المصالح والاهداف وهذه النزعة تتجلى في الزواج والاخذ بالثأر والانتصار لبعضهم بعضا ظلما ومظلوما وفي السراء والضراء .

وتتميز هذه العصبية من حيث تعدد اللون وقوة التأثير :-

فأولها وهى عصبية الولاء وهى التحاق شخص بآخر ومن قبيلة غير قبيلته وهى أقوى أنواع هذه العصبية

وثانيها هى عصبية الجوار وهى قبول جوار شخص مستضعف لحمايته ودفع الظلم عنه

وثالثها هى عصبية التقاليد وهى التمسك الشديد بعادات القبيلة وتقاليدها المتوارثة .

وهم في مجتمعهم طبقات :

١ - قبائل ذات أصل رفيع

٢ - قبائل بين بين لا ترتفع بأصالتها ومكانتها الى درجة الاولى

٣ - قبائل لا أصل لها ولا يعترف البدو لها بمكانة اجتماعية ولا يصاهرونها

وشيخ القبيلة يمثل المركز الاول وييده السلطة العليا ثم القاضي ثم المحكم من ذوى رأى والوجهه . ومساكن البدو تتكون من بيوت منسوجة من شعر الماعز أو وبر الجمال وتقوم على عمود واحد أو عمودين أو ثلاثة بحسب مكانة صاحبها وأهميته بين أفراد القبيلة وينقسم بيت البدوى عادة الى قسمين : بيت للضيوف وآخر للأسرة . وهؤلاء البدو الذين يقيمون في الصحراء ويضربون في فيافيها المترامية الاطراف وراء الكلاء والماء ليسوا كلهم سواء في مدى التنقل والضرب في الافاق بل غالبا مايحدد مدى تنقلهم بطبيعة النشاط الاقتصادى والاجتماعى الذى تغلفهم ظروفه فالرعاة هم أكثر من أهل الصيد والزرع جولاناً وأقلهم قراراً وأهل الخيل والابل والبقر أكثر ضرباً في الارض وأبعد انتجاعاً للكلاء من أهل الضأن والماعز الذين يحومون حول حوافي الصحراء يرعون حيناً ويزرعون حيناً آخر دون التجاسر على التوغل فيها بعيداً ولهم ديارات للرعى في الصحراء يرتادونها أيام الكلاء ومواسم المطر ومن هنا كان هؤلاء أكثر استعداداً وقرباً للتوطين أمام مغريات العمل المجزى الذى يتهاى لهم في أعمال الحفر والتنقيب وشق الطرق وتشيد البنايات .

فالبدو اذن ليسوا كلهم رفاق ترحال دائم بل ان منهم الرحل ومنهم أنصاف الرحل الذين يقتربون من الحواضر ويساهمون في نشاطها الاقتصادى فيستقرون في مواسم ويرحلون مع أغنامهم في مواسم أخرى ويتدرجون نحو الاستقرار الكامل بمقدار ما يوفر لهم من عمل مربح وسكن مريح وعيش مرئى .

والبدء باندفاعهم نحو مباحج المدينة والاستمتاع بخيراتها يشعرون وكأنهم الفراش يحوم حول الانوار ليحترق بحرارتهما ، ولهذا كان رد الفعل لمثل هذا الشعور هو الحنين الى صحرائهم والفكاك من أسر المدينة وقيود نظمها وطرائق عيشها للانطلاق في جنبات الصحراء يقودون أغنامهم ويتحكمون في وسائل عيشهم يسمرون ويطربون ويتراجلون أيام النضرة والخضار ويكدون ويجهدون أيام المحل والجفاف .

ومن هنا كان اندماجهم في الحياة القومية للبلد الذي يستقرون فيه صعباً وعسيراً

عوامل الاستقرار والتوطن :

إذ أن الاستقرار لا يمكن أن يكون غاية في نفسه كما انه من الصعب تصور حدوده فيما إذا كان بعيداً عن المبررات الاجتماعية التي تزيد من امكانات الجماعات الراغبة في التوطن والاستقرار وترفع من مستواهم المعيشي وتمهد لاندماجهم في الحياة القومية .

ولا شك بأن مثل هذا التوطن والاستقرار لا يمكن ادراكه الا في نطاق التغيير الذي يمكن ان نحدثه في هذا المجتمع المتحرك المتنقل البعيد عن اسباب التقدم بسبب انزاله الجغرافي عن المجتمعات الحضرية التي تجاوره ، ففي نطاق عمل مستمر ومتساوق التنظيم يمكن احداث مثل هذا التغيير ، وان كل تنظيم عشوائى لاحداث اية تغييرات اقتصادية واجتماعية لتأمين استقراره سيكون مكلفاً ان لم يك هباء .

والتنظيم المناسب هو التنظيم الواعي الذي لا ينقلهم فجأة من انماط حياة اعتادوها إلى انماط جديدة غريبة عنهم ولهذا كان ادخالهم في مشاريع أعمال تتحقق فيها سياسة انماء اقتصادى يجب أن يسبقه اعداد تدريجي للتغيير الاجتماعى يجعلهم أكثر قابلية للاندماج وأكثر انفتاحاً على المجتمعات الجديدة التي يستقرون في جنباتها ، كما أن الابقاء على بعض قيمهم واعرافهم للتقليدية التي تنمي من شخصيتهم وترفع اعتبارهم تجعلهم أكثر ترحيباً وقبولاً لعملية التنمية وأكثر استعداداً للتكيف مع عوامل التقدم .

ففى نطاق سياسة عامة لتنظيم يشيع الانسجام والتوازن والتكامل فيما بين طبقات المجتمع قديمة وحديثة على أسس من العدالة وتكافؤ الفرص وفى نطاق سياسة تدخل من القمة لتنظيم عملية التنمية وأخذ المسؤولية فى تحقيقها على جميع المستويات وفى حيز التخطيط السليم انما تكمن عوامل تقدم المجتمع وتضافر جهود افراده لصنع هذا التقدم وهذا التضافر لا يمكن أن يستوفى اسبابه الا إذا تحقق الاندماج بين جميع طبقات المجتمع الهامشية البدوية منها أم الحضرية الوطنية .

وعملية التنظيم هذه تقودنا للبحث :

أولاً - عن ماهية الاندماج وكيفية حدوثه

ثانياً - عن صعوبات الاندماج

ثالثاً - عن وسائل الاندماج وطرقه

كما تقودنا للبحث عن سياسة التدخل من قبل السلطة القومية لتنظيم هذا الاندماج وأخيراً عن مشاريع التوطين التى قامت بها الحكومة سواء على الصعيد الاسكانى والعمرانى أم على صعيد توفير سبل العمل والاحتراف المهنى .

أ - ماهية الاندماج وكيفية حدوثه :

الاندماج عملية يقصد بها اعادة التوازن بين مجتمعين اختلفت ظروف حياتهما نتيجة تصادم وصراع فى القيم والاعراف وانماط العيش وتقاليده وفى اختلاف تصور الأهداف والمراعى القريبة والبعيدة لتحقيق مستقبل أفضل ونشدان حياة أسعد .

وعملية التوازن هذه لابد لها من أن تمر بمرحلة انقسام وتجزئة للعناصر المتمايزة الداخلة فى تكوين الأنسجة العضوية والوظيفية مجتمعة ثم القيام بعملية اصطفاء وانتقاء من بين هذه العناصر المجزأة وتكييفها وتنسيقها للحصول على كل منسجم متكامل تختلف صفاته الجديدة عن صفات العناصر المختلفة التى اشتركت فى تركيبه وتصويره وخلقها خلقاً جديداً ليتقبل أوضاعاً ما كان ليتقبلها قبل ذلك فى أطواره السابقة .

فعملية الاندماج هذه اذن تمر بالمراحل التالية :

١ - الاختلال والاضطراب

٢ - التجزئة والانقسام

٣ - الاصطفاء والانتقاء

٤ - التكيف والتنسيق

٥ - الانسجام والتكامل والتوحيد

٢ - صعوبات الاندماج :

الا أن عملية الاندماج هذه تمر بصعوبات وعقبات تعترض سبيلها منها :

(أ) صعوبات في تغيير حياة البدو :

يعتمد المجتمع البدوى في حياته كما سبق ذكره على الرعى بصورة رئيسية ثم على الصيد ثم الى حد ما على الزراعة . وحياته هذه تحدد الى مدى بعيد تركيبه الاقتصادى كما تحدد قواعد سلوكه الفردى والاجتماعى وأنواع المهارات التى يمارسها والسلطة التى يعنو لها والطريقة التى ينتهجها في تجميع الثروة وتقسيم العمل كما تحدد الاعراف والتقاليد التى تنظم علاقات افراده وتنحكم في معاملاتهم وطرق تعايشهم وقواعد السلوك هذه هى التى تعطيه التركيب الاجتماعى المتميز والخاص به . فمما لاشك فيه أن اعتماد البدوى على الرعى أكثر أمنا لحياته وضمانا لعيشه من الاعتماد على الصيد الذى تحقيق به مخاطر جمه ومشاق جسيمة كما أنه أكثر تجاوبا مع تفكيره في طرق جمع الثروة ولهذا كان نمط الأعمال التى يمارسها ويركز عليها في نشدان الثروة وابتغاء اليسر هى التى تدر الربح الأوفى بالجهد الأقل فالرعى والصيد أكثر قبولا لديهم من العمل كليا أو جزئيا في الزراعة القبلية التى لا تدر الا ربحا ضئيلا في مقابل بذل جهد أكبر .

(ب) صعوبة تبدل ظروف العمل :

هذه الصفات تجعل البدوى يعانى صعوبات متفاوتة في التحول والانتقال من عمل الى عمل ومن منشط الى منشط كالتحول من العمل الرعوى الى العمل الزراعى العرضى فالعمل الزراعى الدائم الى العمل في المناجم والمحاجر الى العمل في الصناعة . كما يعانى صعوبة حتى في التحول من رعاية الابل الى رعاية الاغنام والعكس بالعكس فكيف يكون امره عندما يتحول من مجتمع رعوى الى مجتمع صناعى بصورة مباشرة من غير تهيئة واعداد ؟

(ج) صعوبة الاستقرار ببيوت ثابتة :

ان البدوى الذى اعتاد سكنى الخيام الى جانب دوابه ومواشيه ليجد نفس الصعوبة في التحول لسكنى بيوت ثابتة مستقرة مبنية من الأسمنت والطابوق ولهذا نراه كثيرا ما يتعد عنها ليجنى لنفسه عشة أو ليقيم في خيمة الى جانب البيوت الثابتة التى تملكها بقصد السكنى بها فاللدواب تظل جزءا من حياته والرعى وتربية الماشية طريقا أصيلا لنمط عيشه والعمل في نتاج الحيوانات من حلب وصر وغزل مهنة لنسائه . ولهذا كان استعماله للبيوت الثابتة مغايرا لأنماط حياته واغراض ما اعتاد عليه من عيشة فيجعل من المطبخ زرائب لدوابه ومواشيه ومن المغاسل مخضا للبنه ومن كوى الغرف معالف لدوابه وباحات المنزل مسرحا لغنمه ومن هنا كانت ظاهرة العيش في جوانب القرى وأطراف المدن لسكنى البدو لمن تيسرت لهم سبل العمل في الأعمال والمنشآت النفطية والمرافق الحكومية والأهلية هى الظاهرة التى رافقت التوطن التلقائى للبدو والتى مهدت لقيام مياسة اسكانية تهدم العيش لتبنى مكانها العقار الثابتة .

(د) صعوبة تقبل البدو في المجتمع الحضري الجديد :

الحياة الحضرية بما تقوم عليه من تركيب اقتصادى واجتماعى تجعل العلائق بين الافراد علائق تبادل في الخدمات وتعاون في تهيئة المرافق

والمؤسسات العامة التي تيسر للأفراد بمجموعهم أمنا واستقرار أو عيشا مواتيا في ظل نظام متقن ومتفق على أصوله ومقوماته .

هذا المجتمع الذي يتقاسم فيه الأفراد الاعمال المعاشية إنما يقوم على اقتصاد سوقي تتجمع فيه الخدمات الانتاجية ليجرى تبادلها في أسواق مجمعة فيما بين السكان الذين يتوافدون إليها من أحياء متقاربة قائمة بجوار هذه الأسواق أو من أماكن بعيدة من القرى والأرياف ، وهم في توافدهم هذا وتجمعهم ذاك يحتاجون لتنظيم علاقتهم وفي أداء مهامهم ليتبادل الخدمات إلى مرافق تيسر سبل ايصالهم لهذه الخدمات من طرق ووسائل نقل وأماكن راحة واستجمام وحماية لصحتهم وسلامتهم كما يحتاجون إلى قيام الأجهزة التي تطورهم في تقديمهم لهذه الخدمات أو في الافادة منها عن طريق تفويض المجتمع الذي ينظمون فيه ويتعاونون على صرفه بتوفير سبل النهوض بهم ومؤزراتهم في مجال التعليم والتثقيف وصقل المواهب .

فالذا توفر الماء والمناخ وعوامل الأمن والاستقرار في هذه المجتمعات المتعددة الصلات والشائج المتشابكة في الأغراض والمنافع استقرت في أماكن ثابتة وأشادت البيوت والأحياء السكنية والتجارية والصناعية وهذه المجتمعات المستقرة هي ما نسميه بأهل الحضر ونسمى مقارهم بالمدن ونسمى الأماكن المحيطة بما فيها من قرى وضياع بالأرياف وتركز السلطة التي تحكم هذه المدن والقرى والأرياف في مدينة يختارها الأفراد أما لأهميتها التجارية أو لموقعها الجغرافي أو لتفوقها العددي أو لعوامل تاريخه أو عسكرية جعلت منها عقدة المواصلات ومركز السلطات حقبا طويلة وتسمى هذه المدينة العاصمة التي تمارس منها الدولة سلطاتها الدستورية والتشريعية والتنفيذية والقضائية . ومع الزمن يتوضع هذا المجتمع على نمط من الحياة وأسلوب في العمل دائم التفاعل والانفصال يتطور بتطور وسائل العيش ويتقدم بتقدم أسباب الحضارة ويتكيف بفعل هذه العوامل بناؤه الاقتصادي والاجتماعي ضعفا وقوة .

فهناك دينامية حركة وتنقل في المجتمع البدوى يقابلها دينامية تطور وتغير وتكيف في المجتمع الحضري وهاتان الصورتان من الدينامية تصطدمان حيناً وتلتقيان حيناً آخر تصطدمان اجتماعياً في الطبائع والاعراف والتقاليد المتميزة . وتلتقيان في تأمين الموارد البشرية للمشروعات المتوافرة والثروات المستثمرة التي تحتاج الى أيد اضافية تكون الصحراء مقراً لها واصلاًها .

فالمجتمع الحضري لا يرحب كثيراً في تقبل البدو يدخلون في حياته ويعملون في مشروعاته الا بمقدار الضرورة بسبب ما هم عليه من قلة في المؤهلات ونقص في الامكانيات وتمسك بالتقاليد والاعراف تغلب فيها العصبية القبلية والزرعة العرقية ورفض للحوار مع البيئة التي يعيشون بين ظهرانيها حواراً ايجابياً يحقق التكامل والاندماج فيها .

وهذه الصعوبات يجب تذليلها لأنها في حدود الممكن فيما إذا أحكمت الوسائل وأدركت الطرق المؤدية للاندماج والتكامل إذ أنها صعوبات مؤخرة ملجمة وليست بصعوبات مانعة حاجزة .

٣ - وسائل الاندماج وطرقه :

كل وسيلة لاندماج البدو في المجتمع الحضري الذي يقيمون بين جوانبه لن تنجح اذا لم يتخذ العلم طريقة ونهجاً للوصول إلى هذا الاندماج بدراسة خصائص المجتمع البدوى ودراسة ظروف عيشه وانماط حياته ومقابلتها بخصائص المجتمع الحضري وظروف عيشه وانماط حياته وعوامل التجاذب والتناذب فيما بين هذين المجتمعين بالعمل على تشجيع الأولى وقهر الثانية وهذا العمل يقودنا إلى عملية اصطفاء الطريقة المثلى لاندماج وتكامل هذين المجتمعين في كل منسجم منصهر في بوتقة المجتمع القومي الكبير الذي لم شعثمهم وضم شتاتهم ليكونوا يداً واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً لتحقيق نمو المجتمع وتقدمه .

والخلاصة أن الطريقة المثلى للتوطين هي التي تقوم على سياسة اندماجية تكفل إيجاد التكامل الاجتماعي والاقتصادي فيما بين الأفراد في ظل مجتمع قويم التماسك وهذه السياسة لن يكتب لها النجاح الا اذا سبقت التوطين تهئية واعية واعداد تدريجي هادئ لعملية الاندماج سواء فيما بين أفراد المجتمع الذي نريد توطينه أو فيما بين أفراد المجتمع الذي نريد استحداث التوطين في جوانبه وثنايا طبقاته .

وهذه التهيئة تتطلب :

١ - مرور البدو بمرحلة استيطانية تنقلهم من مجالات الرحال والتنقل في فيافي الصحراء وبواديها إلى مجالات الاستقرار في مستوطنات رعوية - زراعية تنقلب بالتدريج إلى قرى تتوزع الاماكن الصحراوية القريية من تخوم المدن والتي تتوفر فيها امكانيات وجود الماء .

اذ ليس من المعقول أن تحيط الصحراء بنا وتمتد مسافات في اراضينا وتبقى هذه الصحراء قفراً موحشاً لا زرع ولا ضرع الا في الأوقات التي تجود بها السماء بالمطر في أماكن متفرقة من هذه الصحراء ولا سيما في عصر اقتحمت التكنولوجيا كثيراً من المصاعب والعقبات التي لم يكن للانسان قبل بها أو لتذليلها من سبيل . كما لا يعقل ترك جماعة من رواد هذه الصحراء الداخلة في حدود اراضيها يعيشون في ظروف صعبة من غير السعى لدفع عادية هذه الظروف عنهم وتوفير أسباب الحماية لهم والتقدم والنماء لمجتمعاتهم فاستئناس الصحراء وقلب وحشتها انساً واجب يدخل في صميم عمل الدولة في مزاوله سيادتها على هذه الأراضي .

٢ - نقل سبل الحضارة لهم وتجهيزهم بالكفاءات اللازمة من أجل استخدامهم في المشاريع الصناعية المتوفرة عن طريق الاعداد والتدريب والتوجيه .

٣ - التدرج بالأعمال التي يزاولونها بحسب ما يتوفر فيهم من امكانيات مع السعى لزيادة هذه الامكانيات وبالتالي زيادة انتاجيتهم بحسبها

كاستخدامهم في المشاريع الزراعية وأعمال التشجير وأعمال الحفر والبناء
وشق الطرق .

٤ - مساواتهم في الحقوق والواجبات بأفراد المجتمع الذى يندمجون فيه
وتعويدهم على التعامل معه والاختلاط في حياته بعيدين عن كل عزلة
وعصية .

٥ - اطلاعهم على وسائل استخدام المنجزات الحضارية على قدم المساواة مع
غيرهم من السكان وتعويدهم على استعمالها عن طريق التوعية والتعليم
والتثقيف والتوجيه بوسائل الاعلام المختلفة .

٦ - تهيئة الوسط الجديد لاستقبالهم وحسن معاملتهم واحترام مثلهم وقيمهم
بما لا يتعارض مع المثل والقيم التى يجب أن تسود المجتمع بكافة طبقاته
وملئه ونخله .

فتلطيف جو المجتمع الجديد وتلين صلابة الاعراب وتكييف طباعهم
بما يتناسب وظروف المجتمع الذى استقروا فيه هو ما يهيء لعملية
الاندماج ان تم على أحسن سبيل وأكمل وجه .

٧ - توفير المساكن الملائمة والتى تتفق ما أمكن مع أنماط حياتهم ومستواهم
المعيشى ومستلزمات المجتمع المستقر الثابت .

٨ - توفير أماكن خاصة لحيواناتهم والتدرج بإبعادها إلى اطراف المدينة
وفصلهم نهائياً عن العيش بجوارها في المساكن التى يسكنونها .

٩ - ادماجهم في المنظمات الثقافية والمهنية والرياضية والترفيهية .

١٠ - تطويعهم على تقبل القوانين والخضوع لأحكامها لتحل محل التقاليد
والاعراف السائدة بينهم واحلال الولاء للحكومة محل الولاء للقبيلة
والتفانى في حب الوطن بديلاً للتفانى في عصبية التقاليد والاعراف
والاحساب والأنساب .

وهذا كله لن يحدث الا بتدخل من القمة في تبني سياسة توطين قائمة كما قلنا على توخي استقرار دائم واندماج كامل في مجتمع تتساقط فيه الجهود وتتضافر لاستثمار موارد البلاد وثرواتها استثماراً يحقق المنفعة والقوة والرخاء والعدالة والحياة والمساواة .

وهذا لن يتم الا اذا سبقت عملية التوطين عملية تخصيص تقرب البدو في المستوى والمحتوى من المجتمع الذي يندمجون في وسطه ويتبادلون التأثير في أنماط حياته .

وعملية التوطين في الكويت مرت بمرحلتين متميزتين :

١ - توطن تلقائي نجم عن اغراءات فرص العمل المتاحة .

٢ - توطن حكومي متصل بسياسة انماء وتخصيص .

(١) التوطن التلقائي

كان لتفجير البترول في أرض الكويت وللانشاءات العديدة التي أقيمت لاستثماره في حقوله المختلفة أثر في تدفق للعمال من كل حذب وصوب للعمل في المشروعات المتاحة من حفر وتنقيب واستخراج وتكرير وتسويق . وكانت أجور العمل وظروفه بما تقدمه من مغريات رغد العيش ونعم الحياة سبباً في إثارة البدو للعمل في هذه المشروعات على العمل والعيش في صحراء يغلب في حياتها الجفاف وفي عيشها الخشونة والكفاف . وكان من أثر عملية الجذب هذه ان قامت تجمعات سكنية حول أماكن العمل في البترول وقرب للقرى النائية القريبة من آبارها ومحطاته ومستودعاته . وقد تحولت هذه التجمعات مع الزمن الى مدن وقرى تتوزع أماكن مختلفة من صحراء الكويت قاصيها ودانيها .

وكانت شركة (البترول) (كى . أو . سى) أى شركة نفط الكويت هي أول من بادر لاقامة بيوت لهؤلاء العمال واقامة المرافق والخدمات اللازمة لهم أن

في المقوع ووارة والصبيحة وأمغرة وأم العيش أو في القرب من أماكن التكرير والتسويق في بلدة الفحيحيل القديمة .

وقد بلغت بيوت العمال في هذه الأماكن حدا من البساطة والضيق لا يتناسب وضرورات العيش ولا تقاليد السكان ، إذ كان البدو في الأحياء العمالية يعيشون إلى جانب حيواناتهم من ماعز وضأن وبقري ، أماكن محرومة من الساحات والزرائب التي تسرح وتبيت فيها هذه الحيوانات .

ولهذا كنت كثيرا ما ترى نساء بدويات يجلسن متدثرات بملاءاتهن أمام بيوتهن وإلى جانبهن مواشيهن ترعى البرسيم والكأ وكأهن في مجتمع بدوي قروي صرف .

أما العمال المؤقتون والعمال الذين يشتغلون لدى المتعهدين فقد انشأت لهم الحكومة بعد ما ازداد حجم الأعمال الموكلة إلى المتعهدين بيوتا وبراكات في شرقي الأحمدى لاسكان المتزوجين والعزاب منهم .

العشيش :

ولما كانت هذه البيوت لا تفي بحاجة هؤلاء العمال وخاصة منهم الذين يعملون في أعمال مؤقتة أو الذين يزاولون مهنا تتطلبها الخدمات المتعددة التي يحتاجها هؤلاء السكان في معيشتهم ، فقد نشأت تجمعات سكنية تلقائية اتخذت من العشيش والخيام سكناً لها بسبب ضعف امكانياتها في بناء البيوت المناسبة من جهة ولاعتيادها على العيش بمثل هذه العشش والخيام في حياتها السابقة .

كما أن نمو حركة العمران في مدينة الكويت وضواحيها وتوسع المرافق الحكومية وانتشارها ، ولد طلباً متزايداً للأيدي العاملة رافقه هجرة بدوية أوسع إلى أطراف المدينة والضواحي قريبا من أماكن العمل المتاحة واتخذ البدو الوافدون من العشيش أيضا سكناً لهم في ثنايا الأحياء الحضرية وأحشائها مما زاد من تعقيد مشكلة العشيش وتفاقمها لدرجة أصبحت تهدد التقدم العمراني المنشود والتطور الحضاري المرتقب .

ازالة العشيش :

ولهذا بادرت الحكومة أول ما بادرت لدراسة وسائل ازالة هذه العشيش واستبدالها ببيوت ثابتة .

ففي الثامن من شهر اكتوبر عام ١٩٦٢ وجهت مذكرة من مجلس الوزراء لوزارة الداخلية بطلب تأليف لجنة من وزارة الداخلية ووزارة الشؤون الاجتماعية والعمل وبلدية الكويت لدراسة موضوع العشش الموجودة في المقوع على أن تتولى وزارة الداخلية دعوة اللجنة التي يرأسها محافظ المنطقة وتقديم نتيجة الدراسة لمجلس الوزراء لاتخاذ مايراه مناسبا بهذا الشأن . واجتمعت اللجنة المذكورة بنفس التاريخ المذكور أعلاه وبحث المواضيع التالية :

١ - رداءة مساكن العشيش من حيث الموقع والأوضاع الصحية والاجتماعية .

٢ - نقل الكويتيين من سكان العشيش الى عشش محسنة مجهزة بمجار للمياه في موقع بعيد عن الطريق العام تفاديا لحوادث الدهس وللمناظر الكريهة المؤذية التي تسببها هذه العشيش بأوضاعها الرديئة السيئة وبوجودها على الطريق العام قريبا من مدينة الأحمدى .

٣ - أن تفي هذه العشيش المستحدثة بأغراض الأسر والعزاب .

٤ - طرد السكان غير الكويتيين وازالة عششهم فورا .

٥ - قيام دراسة عن عدد العشيش باعتبار أن احصاءات ١٩٦١ كان قد فات عليها الزم من بسبب الاعداد المتزايدة من مكان العشيش خلال الفترة ما بين عام ١٩٦١ - ١٩٦٢ .

وفعلا قامت البلدية ببناء بعض العشش الجديدة ولكنها توقفت عن تنفيذ المشروع لعدم الاقبال عليه من السكان الكويتيين من البدو .

وقد قامت منذ عام ١٩٦٢ أيضا بحوث ودراسات لبدو الكويت في سبيل تنظيم عملية توطينهم وتحضيرهم كما قامت الى جانب ذلك لجنة من الشؤون

الاجتماعية وبنك الائتمان (التسليف والادخار) من أجل تنظيم عملية اسكان البدو في اطراف الكويت القريبة من المدن والقرى وأماكن العمل في حقول البترول ومنشآته .

الا أن هذه الدراسات اقتصرت على مسح جوى لم تستوف اسبابه وهو فيما اذا جاز لنا أن نسميه مسحاً جويًا لم يتعد القيام بجولة استطلاعية من قبل اعضاء اللجنة بواسطة طائرة هليو كوبتر لم تؤخذ فيها رسوم تجمعات خيام البدو وديارهم ولا رسوم طبوغرافية لمعرفة طبيعة هذه الصحراء من حيث وجود الوديان وأماكن تجمعات المياه . كما قامت في نفس العام دراسة من قبل الاستاذ ابراهيم الشطي وكان انذاك مراقبا للبحوث والعلاقات الدولية في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل تناولت بحث أوضاع بدو الكويت وحياتهم وأصولهم وطبقاتهم واعرافهم وتقاليدهم كما تناولت بحث الاسكان والتوطين والتفريق بين التحضير الذي يرافق عملية التوطين وبين الاسكان الذي هو حل مؤقت لا يرقى الى عملية التحضير التي تندمج فيها فئة من الناس بمجتمع أكبر تتطبع بطباعه وتتناسى بالتدرج ماكانت عليه من خصائص ومميزات .

كما أن المهندس المرحوم الدكتور سابا شبر تقدم بدراسة معمارية لتنظيم وتخطيط طراز البيوت المناسبة كما تقدم الأستاذ همام الهاشمي - الخبير الاجتماعي بوزارة الشؤون الاجتماعية العمل انذاك - بدراسة ديموغرافية اجتماعية عن سياسة الاسكان القومي .

(٢) التخطيط لمواجهة التوطن التلقائي

وكان من نتيجة هذه الدراسات أن تقدمت وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بخطة شاملة لمجلس الوزراء بتاريخ ١٤ - ٢ - ١٩٦٢ تقترح فيها بناء عشرة الاف بيت خلال ثمانى سنوات منها أربعة الاف لاسكان البدو من سكان العشيش الكويتيين وقد ووفق على هذه الخطة بتاريخ ٣٠ - ٤ - ١٩٦٢ وعهد الى بنك

الائتمان تمويل هذه العملية على أن تبنى في أماكن متباعدة من بعض القرى المتناثرة على أطراف البادية القريبة من الكويت ما بين الروضتين شمالاً إلى الشعيبة جنوباً وهذه المواقع هي :

- ١ - موقع قرب الفنطاس
- ٢ - موقع غربي الشعيبة
- ٣ - موقع قرب المتقوع
- ٤ - موقع قرب الصليبية والشعراوية
- ٥ - موقع جنوب قرية الجهراء
- ٦ - موقع قرب الروضتين

كما أنه في عام ١٩٦٣ قامت الوزارة المذكورة مع وزارة المالية - دائرة الاسكان - بدراسة^(١) عن التطور السكاني لمدينة الأحمدى والمناطق المجاورة لها وبيان متطلبات المنطقة من الوجهة السكنية مع دراسة الأوضاع الاجتماعية لسكانها وقد تناولت الدراسة مدينة الأحمدى وعلى وجه الخصوص القسم الشرقي منها والذي ألقى على حكومة الكويت تبعة الانفاق اللازم لبناء بيوت لسكن موظفي الحكومة والعمال لدى المتعهدين والمقاولين لأعمال الشركة في تلك المنطقة وقد تناولت الدراسة التجمعات السكانية في كل من المقوع والفنطاس والفنيطيس وأبو حليفة والفحيحيل وواره والصبيحية والشعيبة حتى الوفرة وقدمت خطة لتنفيذ مشروع بناء ٥٨٦ بيتاً مع ما يلزمها من مرافق وخدمات خلال فترة أربع سنوات وذلك بالإضافة إلى البيوت التي سبق وأنشأتها الحكومة في هذه المنطقة وعدد ٣٩٤ بيتاً و ٥ براكات تتسع لـ ٧٢٠١ عاملاً .

وفي تاريخ ٦ - ٩ - ١٩٦٤ تقدمت البلدية بمذكرة لمجلس الوزراء اقترحت فيه مشروعاً لحل مشكلة سكان العشيش لا يخرج في أهدافه وتطاعاته عن مشروع الخطة الثمانية لوزارة الشؤون الاجتماعية الآنف الذكر .

(١) تقرير للدكتور عبد المطلب البقاعي الخبير في وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل

ومما جاء في هذه المذكرة :

١ - ان وجود تجمعات سكانية على شكل عشيش في مختلف مناطق الكويت أمر يتنافى مع مدارج الرقي العمراني الذي حققته الكويت في نهضتها الحديثة .

٢ - عدم جدوى الحلول التي وضعت لانهاء مشكلة العشيش هذه في السابق بابعادهم عن الطرق العامة فقط .

٣ - يجب أن ينبثق الحل برفع المستوى السكاني لمن يعيشون فيها والأخذ بيدهم لتطوير مستواهم السكاني نحو الأفضل .

٤ - اقتراح على مجلس الوزراء بالموافقة على ما يلي :

(أ) تنظيم أربع مواقع في مختلف مناطق الكويت قريبة من التجمعات السكانية الحالية في الاراضي الأميرية .

(ب) أن تقوم البلدية بوضع تصميم مبسط ومنامب لببوت يراعى فيها تخفيض كلفة بنائها قدر الامكان يتم انشاؤها في المناطق المقترحة لنقل سكان العشيش اليها مع تزويدها بالمرافق الضرورية :

(ج) تقوم البلدية بالاشراف المباشر على بناء الببوت في هذه المواقع عن طريق المناقصة العامة ،

(د) تقوم البلدية بحصر شامل لسكان العشيش لنقلهم الى الببوت الجديدة حال انجازها وقد وافق مجلس الوزراء على هذه المذكرة بتاريخ ١٦ - ٩ - ١٩٦٤ وقد اقترحت البلدية مواقع جديدة تتمشى والمخطط الهيكلي العام للكويت لسنة ١٩٥١ وهذه المواقع هي :

١ - موقع جليب الشيوخ والعضيلية

٢ - موقع المقوع (بجوار المقوع الأصلي)

٣ - موقع الفحيحيل

٤ - موقع الجهرة

٥ - موقع واره

وقد قامت الدراسة السكانية لهذه التجمعات على الأسس التالية :

١ - دراسة اجتماعية : يقصد التعرف على عاداتهم وطرق معيشتهم وتصرفاتهم اليومية والمهن التي يحترفونها .

٢ - دراسة معمارية : لطراز البيوت المناسبة بحيث يحتوى كل بيت على ديوانية لها مدخل خاص بعيد عن مدخل الحريم ويحتوى أيضا على غرفتي نوم تطلان على اللوان وحوش البيت .

٣ - دراسة تنظيمية : وتشتمل على التخطيط والأبعاد التنظيمية ونسبة السكان والمرافق العامة .

وقد أنيط بينك التسليف والادخار تنفيذ بيوت ذوى الدخل المحدود كما أنيط بوزارة الشؤون أمر توزيع البيوت على المستحقين وتنظيم انتفاعهم بهذه البيوت وتملكهم لها وذلك بموجب القرار الوزارى رقم (٢) لعام ١٩٦٢ والذي عدل فيما بعد بالقرارين رقم ٥ و ١٣ لعام ١٩٦٧ .

الا أن هذه المشروعات كانت تتوخى بالدرجة الأولى التخلص من مناظر العشيش المؤذية ونقل البدو الى أماكن صحية مناسبة قرب المدن والقرى وأماكن العمل ليسهل تزويدهم بالماء والكهرباء وتوفير مختلف الخدمات الضرورية لهم .

أما التوطين عن طريق اقامة المشروعات الانمائية في أطراف الصحراء التي يتوافر فيها الماء فلم تكن موضع دراسة جادة حتى أن قامت وزارة الشؤون ببحث الموضوع مع وزارة الاشغال - قسم الزراعة في ٣ - ١٢ - ١٩٦٤ لدراسة أمر الاستفادة من محطات التجارب الزراعية للحراج والمراعى التي تنوى وزارة الاشغال اقامتها على أطراف الصحراء المحيطة بالكويت في عملية توطين البدو وتحضيرهم .

(٣) مشروع التوطين الزراعي للبدو

وبعد دراسة الأمر من قبل لجنة مؤلفة من مندوبى الوزارتين من حيث امكانيات توفير الماء للأماكن التى يتفق على موقعها من أجل توفير الأيدى العاملة لهذه المحطات من البدو سواء منهم الرحل أو المقيمين في العيشات اتفق على ما يلى : -

- الاستفادة من مياه المجارى بعد تصفيتها في عملية اقامة المستوطنات الزراعية
- أن يكون التوسع في اقامة هذه المحطات مرتبطا بالتوسع في حفر الآبار وبمشروع جلب مياه شط العرب .
- أن تكون هذه المحطات نواة لاقامة تجمعات سكانية على أطراف الصحراء المحيطة بالكويت بحيث يمتد حزام من الاشجار الواقية يحيط بالمساحات الواقعة ضمنها :
- قرى الجھراء والصليبية ومدينة الكويت وقرى العضلية وجليب الشيوخ وواردة والصبيحية وامغرة حتى مدينة الشعيبة .
- أن تقوم وزارة الشؤون بدراسة أحوال البدو في تلك المناطق ووسائل التحضير الواجب اتباعها في عملية توطين البدو في هذه المحطات .
- أن يتألف جهاز خاص يتولى الاشراف على عملية التوطين من الوزارات التالية :

- وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل
- وزارة الأشغال العامة
- وزارة الكهرباء والماء
- وزارة التربية
- وزارة الصحة العامة
- بلدية الكويت
- مجلس التخطيط

— أن تتقدم وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل برفع هذه التوصيات الى مجلس الوزراء حتى اذا ما أقرها تقوم كل ووزارة بتنفيذ ما يتعلق بها .

وعندما تقدمت وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بهذه المذكرة الى مجلس الوزراء وافق على مضمونها وأحالها الى مجلس التخطيط لدراسة الموضوع واتخاذ الاجراءات المناسبة من أجل البدء بتنفيذ المشروع .

وبناء على ذلك وجهت الدعوة الى الوزارات المعنية من قبل نائب مدير عام التخطيط للاجتماع صباح يوم الخميس الواقع في ١٠ - ٢ - ١٩٦٦ لدراسة الجوانب الاجتماعية لمشروع توطین البلدو الزراعي الذي تقدمت به وزارة الاشغال العامة - قسم الزراعة نتيجة لاكتشاف مصادر للمياه في منطقتي القشعانية وأم الشجاياء تكفي لا رواء ٤٠٠٠ كيلو متر من الأراضي المروية بالمياه الجوفية . وقد تقدم بمخطط هذا المشروع بعض المهندسين الاستشاريين السويديين .

وقد قام المشروع على الركائز التالية :

١ - توطین (٣٠) أسرة بدوية ممن اتصلوا بالحضارة وكان من الممكن استقرارهم والاستفادة منهم في انجاح المشروع .

٢ - ترشيح وزارة الاشغال العامة لبعض الموظفين الكويتين المتدربين على الاعمال الزراعية من ذوي الاصول البدوية للاقامة والعمل في المشروع .

٣ - بناء (٣٠) سكناً لهذه الأسر مع اقامة مسجد ومركز أمن ومستوصف ومدرسة ومركز اجتماعي ومكتب بريد وبيطرة ومركز زراعي وما الى ذلك من خدمات .

٤ - توصيل المياه للموقع يكون في السنة الثانية من المشروع .

٥ - يبدأ العمل الزراعي في القرية كما يبدأ الانتاج في السنة الثالثة من المشروع .

وبعد مناقشة المشروع توصل المجتمعون الى وضع تعديل بسيط روعيت فيه الى جانب عملية التوطین المخطط لها عملية توطین تلقائي بحيث : —

(أ) يكتفى بتوطين ١٥ أسرة فقط ممن تتوفر فيهم الصفات الواردة في المشروع
(ب) ويهيا سكن ١٥ أسرة بادئ ذي بدء من الأسر البدوية التي تتوطن تلقائيا
حول آبار المياه القريبة من المركز بحيث يتدرج في ادماج هؤلاء البدو في
المشروع حتى اذا تجاوز عددهم ١٠٠ أسرة بدئ في اقامة مشروع ثان
وثالث وهكذا حتى تعمّر المنطقة بعدد من القرى المحيطة بالمنطقة بمقدار
ما يتوفر فيها من مياه جوفية كافية وهكذا وعلى نفس الغرار تجرى الخطة
في بقية المناطق المختلفة لبادية الكويت بمقدار ما تسمح به الاكتشافات
المتابعة للمياه الجوفية .

(ج) يعدل الشكل الكلي للمشروع السويدي بحيث : -

١ - يكون هذا الشكل الكلي متفقا مع الاحتياجات البيئية ومع عادات
وتقاليد وقيم البدو ومع الظروف المناخية والجغرافية وقابلية التوسع
في المستقبل .

٢ - وأن يعدل في تصميم البيوت اذ أنها غريبة عن التصميم العربي
التقليدي ولا تتفق مع الظروف المناخية .

٣ - أن يعدل مركز الخدمات بحيث لا يجعل في وسط دائرة مقفلة
تضيق فيه المجالات وتتضارب فيه وضع المرافق ويعرض الأطفال
من أجل الوصول اليها للخطر .

٤ - أن يضاف الى المشروع مركز جمعية تعاونية استهلاكية - انتاجية
ويتوفر فيها الى جانب ذلك جميع أدوات الانتاج وقطع الغيار
اللازمة لها ليتحول المشروع الى مشروع زراعي تعاوني .

٥ - انشاء متحف صغير للأزياء والأمثال والحكايات الشعبية .

٦ - أن يلحق بالمستوصف صيدلية مجهزة بالأدوية الكافية وبالمدرسة
مكتبة مجهزة بكتب تفي بأغراض الصغار والكبار معا

٧ - الطلب الى وزارة الكهرباء والماء توفير المياه العذبة للرى .

كما تناول المجتمعون بالمناقشة موضوع الشروط التي يجب توافرها فيمن يختارون للانتفاع بالمشروع ان كان من بين الموظفين الكويتين ذوى الاصول البدوية من حيث : -

١ - تكوين الأسرة .

٢ - عدم ارتباط المنتفع بعمل آخر .

٣ - عدم تملكه لعقارات في الكويت .

أو ان كان من البدو المتوطنين تلقائيا حول آبار المياه القريبة من المشروع فيفضل منهم من كان من قبيلة أصولها موجودة في الكويت حاضرة وقرى .

(٤) مشروع المخطط الهيكلي لعام ١٩٧٠

وقد جاء المخطط الهيكلي لعام ١٩٧٠ ليحارب هذا المشروع الانمائى الاستيطاني برفضه المشروع جملة وتفصيلا . اذ بعد ما حذب في الفقرة (٢ - ١٨٥) من المجلد الأول لهذا المخطط اقامة ثلاثة أماكن لتجمعات البدو السكنية وهى : -

(أ) في العبدلى في الشمال

(ب) في الشقايا في الجنوب الغربى

(ج) في الجنوب من خور المفتاح في الجنوب

الا أنه في المجلد الثانى وفي الفقرة (٨٠ - ٣) منه رفض المشروع هذه التجمعات الخارجية البعيدة مسافات طويلة عن مدينة الكويت وقد برر هذا الرفض بالأسباب التالية : -

١ - عدم توافر الخدمات الاجتماعية من مدارس ومستشفيات في هذه الأماكن

٢ - عدم توفير اعداد وأنواع كافية من فرص العمل للبدو في مجتمعات جديدة تبعد مسافات طويلة عن مدينة الكويت .

٣ - توافر معظم الأعمال والخدمات التي يتطلبها البدو داخل المناطق الحضرية أو بالقرب منها .

واستنتج من ذلك أن السكان البدو المترايدين والذين سيرتفع عددهم من ١١٣ ألفا عام ١٩٧٠ الى ٢٤٩ ألفا في عام ١٩٨٥ يجب أن يجري ايواؤهم ضمن حدود المناطق الحضرية المتوسعة والمقترحة في هذه الخطة .

ان هذا الرفض بما ورد من أسباب له واستنتاج قام عليه علما فيه من تناقض لما اقترح سابقا في الفقرة (١٨٥ - ٢) من المجلد الأول من الخطة فانه يتجاهل أو هو لا يفرق بين عمليتين من صور التوطين :

١ - عملية تهجير ونقل من مكان الى مكان وجلب البدو الى أماكن المناطق الحضرية أو المناطق القريبة منها وادخالهم في حياة هذه المناطق مباشرة .

٢ - عملية استقرار واستيطان البدو الرحل في أماكن معينة من الصحراء للاستفادة منهم وهم بحالة رعوية - زراعية من امكانات المناطق التي يراد توطينهم بها تثبيتا لحدود الدولة وجعلها محطات لتجارب تحريج وزراعة ورعى ونقط مراقبة واشراف للأمن والشرطة لتأمين سيادة الدولة على كل جزء من أراضيها من جهة وللإستفادة من الثروة الحيوانية القائمة على الرعى في الاماكن الصحراوية القابلة للرعى وتنمية الثروة القومية فيها من جهة ثانية .

وكلتاها عمليتان لا تضارب بينهما ولا يمنع الأخذ بأحدهما الأخذ بالثانية باعتبارهما مختلفتان بالهدف والمقصد ، اذ الاولى تعتمد على سياسة اسكانية محضه بغرض التنظيم والتحسين وازالة العشيش بينما تعتمد الثانية على سياسة انمائية اقتصادية واجتماعية يقوم فيها التوطين على برامج الدمج والتحضير المسبق .

احصائيات بعدد العشيش

من الرجوع للاحصائيات المتخذة من تعداد ١٩٦١ يتبين لنا أن عدد العشيش كان لا يتجاوز الـ ١٠٧٠٤ عشة بينما قدر هذا العدد في عام ١٩٧٠ ما بين ١٥ - ١٧ ألف عشة على الرغم من انتقال كثير من سكان العشيش الكويتيين الى بيوت لذوى الدخل المحدود .

وقد تبين من احصائية عام ١٩٧٠^(١) أن سكان هذه العشيش ينقسمون الى الى فئات ثلاث : -

١ - كويتيون ويحملون الجنسية الكويتية .

٢ - غير كويتيين موظفين بوزارة الداخلية والدفاع .

٣ - غير كويتيين وغير عاملين .

وقد اقترح ابقاء الفئة الاولى والثانية في عششهم ريثما يتيسر بناء بيوت مناسبة أو يتم نقلهم الى البيوت المتلزم بها في مدينة الرقة .

أما الفئة الثالثة فقد اقترح نقلها الى الصليبية وازالة عششها فوراً .

ومن احصائيات عدد العشيش في أعوام ١٩٥٧ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ يتبين لنا أن عدد العشيش هذه بازدياد مستمر (أنظر الملحق) .

وقد اقتصرت الاحصائيات التي قامت بها وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل لعام ١٩٧٠ على تعداد عشش الأسر التي تحمل الجنسية الكويتية فقط والتي بلغت ٢١٥٢ عشة في مناطق الشدادية وجليب الشيوخ وصيهيد العوازم والناصرية والفروانية والعضيلية وخيطان والسالمية .

(١) احصاء ميداني قامت به وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في شهر سبتمبر عام ١٩٧٠

ومن الملاحظ في هذه الاحصائيات أن اعداد العيش التي تمتلكها الأسر غير منتظمة فبينما تمتلك بعض الأسر العديدة الأفراد عشة واحدة يمتلك غيرها عشا عديدة وهذا يؤكد بأن ثمة عملية استغلال واستثمار في بناء العيش وتأجيرها وتقوم بهذه العملية أربعة مشاغل لبناء العيش وبيعها جاهزة . وقد لاحظت اللجنة التي قامت بالبحث بأن أعدادا كبيرة من الكويتيين الساكنين في هذه العيش يستطيعون استئجار بيوت يسكنونها لكفاية دخلهم للسكن في بيوت لائقة تتوفر فيها الشروط الحياتية والصحية الملائمة .

وقد دللنا بالاحصائية رقم (٣) المتخذة من تعداد عام ١٩٦١ على أن العمل الذي يزاوله البدو ينحصر بالدرجة الأولى بالوظائف التالية :

شرطي ، حارس ، سائق ، عامل عادي ، فراش ، تاجر ، جندي . . أما الأعمال الفنية فلا زالت بعيدة عن أن يرتادها العمال البدو وان كان قسم كبير منهم قد انتسب الى مراكز التدريب التي أنشئت في مختلف الوزارات والتي تبشر بوجود طبقة عمالية على مستوى حسن من الكفاءة للقيام بالأعمال المتوفرة في المؤسسات الحكومية والأهلية المختلفة والتي ستجعل عملية الاندماج أكثر سهولة ورسوخا في المجتمع الكويتي الحديث .

ملحق باحصائيات العشيش

في اعوام ١٩٥٧ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٠

احصائية رقم (١)

عدد العشيش وعدد الاسر والافراد
ومتوسط عدد أفراد الاسرة لعام ١٩٦١ و ١٩٦٥

السنة	جملة العشيش	جملة عدد الاسر	جملة عدد أفراد الاسر	متوسط عدد أفراد الاسرة
١٩٦١	١٠٧٠٤	٨٥٣٧	٤٣٣٢٠	٥
١٩٦٥	١٠٩٨٧	١١٦٤٩	١١١٨٩٤	٦

احصائية رقم (٢)

جملة عدد العشيش وعدد الاسر
ومتوسط عدد الافراد بالعشيش حسب الجنس
لعام ١٩٦٥ في كل محافظة

المحافظة	عدد العشيش	عدد الاسر بالعشيش		متوسط عدد الافراد بالعشيش	
		كويتية	غير كويتية	كويتية	غير كويتية
العاصمة	٢٧١٤	١٧٠٣	١٥٩٨	١٢٧١٥	١٠٥٤٧
حولي	٥٧٨٦	٤٦٤٢	١٢١٤	٣٢٧٤٠	٦٧٨٥
الأحمدي	٢٤٨٧	١٧٧٥	٧١٧	١١٨٣٢	٣٧١٩
المجموع	١٠٩٨٧	٨١٢٠	٣٥٢٩	٥٧٢٧٨	٢١٠٥١

احصائية رقم (٣)
نوع الاعمال التي يزاولها البدوي في مناطق وارة
والصبيحية والمقوع وامفرة لعام ١٩٦١

نوع العمل	كويتي	غير كويتي	المجموع
عامل	٢٣٠	٣٠٠	٥٣٠
سائق	٢٧٩	٥٠	٣٢٩
شرطي	٣٨١	١٥	٣٩٦
حارس	٢٨٤	٣٦	٣٢٠
موظف	٥٥	١٣٠	١٨٥
تاجر	١٣٦	١١٢	٢٤٨
جندي	١٢٣	٣	١٢٦
راعي	٨٦	٣٤	١٢٠
فراش	١٤٥	٣٩	١٨٤
مهن أخرى	٣٣	٩٣	١٢٦
المجموع	١٧٥٢	٨١٢	٢٥٦٤

احصائية رقم (٤)
التوزيع العددي لاجمالي قاطني العشيش من الكويتيين
حسب افراد الاسر والمناطق السكنية عام ١٩٧٠

عدد أفراد الأسرة المنطقة	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	أكثر من ١٠	جملة
الشدادية	١١	٢٣	١٨	٣٦	٤٢	٥٢	٦٢	٥١	٤١	١١٦	٤٥٢
جليب الشيوخ	٣	١٦	٢٦	٣٦	٥٩	٥٢	٤٣	٤٤	٢٣	٦٧	٣٦٩
صهيد العوازم	١٢	٣٧	٥٨	٧٥	١٢٩	١٤٦	١١٦	١٠٣	٧٠	١٤٤	٨٩٠
الناصرية	١	١	٥	٣	٧	٦	١٠	١١	٥	١٧	٦٦
الفروانية	١	٧	٩	١١	١٨	٢٣	١٩	١٢	٢٠	٤١	١٦١
العضيلية	٢	٥	٩	٧	١٣	١٣	١١	٩	٥	١٩	٩٣
خيطان	—	—	٧	٨	٧	١١	٥	١١	٨	١٤	٧١
السالمية	١	—	٥	٨	٩	٦	٩	٥	١	٦	٥٠
جملة	٣١	٨٩	١٣٧	١٨٤	٢٨٤	٣٠٩	٢٧٥	٢٤٦	١٧٣	٤٢٤	٢١٥٢

احصائية رقم (٥)
التوزيع العددي لاجمالي قاطني العشيش عام ١٩٧٠ (الكويتيين)
حسب عدد افراد الاسرة وعدد العشيش لكل أسرة .

عدد افراد الأسرة	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	أكثر من ١٠	جملة
عدد العشيش	٢٥	٤	١٩	٣٢	٤٨	٥٤	٦٨	٦٢	٣٢	٢٧	٤٢٣
١	٢٥	٣٥	٣٩	٥١	٦٣	٣٣	١٩	٨	١	٤	٢٧٨
٢	٤	١٩	٣٢	٤٨	٥٤	٦٨	٦٢	٦٢	٣٢	٢٧	٤٢٣
٣	٢	٢٨	٣٤	٣٥	٧١	٨٠	٧٣	٦٢	٤٠	٦٣	٤٨٨
٤	—	٥	٢٢	٣٥	٦٩	٦٩	٥٨	٥٦	٤٦	٩٧	٤٥٧
٥	—	٢	٧	١٣	٢١	٣٥	٤٢	٣٧	٣٠	٩٩	٢٨٦
أكثر من ٥	—	—	٣	٢	٦	١٥	١٥	٢١	٢٤	١٣٤	٢٢٠
جملة	٣١	٨٩	١٣٧	١٨٤	٢٨٤	٣٠٩	٢٧٥	٢٤٦	١٧٣	٤٢٤	٢١٥٢
جملة عدد أفراد الأسر	٣١	١٧٨	٤١١	٧٣٦	١٤٢٠	١٨٥٤	١٩٢٥	١٩٦٨	١٥٥٧	٤٩٣٥	١٥٠١٢

دُورَبَنكُ التَّسْلِيفِ وَالْإِدْخَارِ
فِي
سِيَاسَةِ الْإِسْكَانِ وَالتَّوْطِينِ

محاضرة

الأستاذ يوسف محمد الشايجي

مقدمة :

أسس البنك عام ١٩٦٠ باسم بنك الائتمان ، برأس مال قدره ٧٥ مليون دينار وقد أسس كما تشير الى ذلك تسميته لتيسير الائتمان الى المواطنين على شكل قروض عقارية وصناعية وزراعية ، وعلى مدى أربع سنوات اثبتت تجربته البنك العملية صحة ما توصلت اليه الدراسات التي أجريت قبل انشائه والتي اشارت الى حاجة البلاد الى مؤسسة تقدم خدماتها للمواطنين على شكل قروض بجانب الاسهام في بناء البيوت السكنية ، مما حدا بالمسؤولين الى تطوير هذه المؤسسة فصدر قانون بنك التسليف والادخار عام ١٩٦٥ ليحل محل بنك الائتمان برأس مال قدره عشرين مليون دينار ، ثم رفع ليصبح خمسة وعشرين مليوناً . ومن المتوقع ان يزداد رأس مال البنك مرة أخرى ليصبح ٣٥ مليون دينار خلال الاسابيع القادمة حتى يتمكن من الحصول على الاموال السائلة التي تمكنه من القيام بواجباته تجاه المواطنين من هذه العجالة يتبين ان دور البنك في مجال الاسكان ينقسم الى شقين : — اولهما يتضمن تقديم القروض المختلفة الى المواطنين وفي مقدمتها القروض العقارية ، وثانيهما مساهمة البنك في بناء عدد من المساكن الخاصة .

أولاً - الائتمان العقاري

ويتضمن تقديم القروض العقارية لبناء المساكن الخاصة او توسعتها او ترميمها كما يتضمن تقديم القروض الى المستفيدين من بيوت ذوى الدخل المحدود لاضافة مبان او للترميم .

وتقدر قيمة القرض بعد معرفه الراتب أو الدخل الشهري او السنوى للمواطن بحيث تحتسب على اساس ربع الراتب الاساسى وما يعادله بالنسبة لغير الموظفين مضروباً في ثلاثين سنه . وتسترد هذه القروض على اقساط شهرية لا تتعدى ربع الراتب الاساسى او الدخل حتى لا يسبب ذلك ارهاقاً للمقترضين .

وعلى ذلك فان القروض تسدد في مده اقصاها ثلاثين سنه ، ومن الجدير بالذكر ان البنك لا يتقاضى اية فوائد على القروض العقارية التي تقدم للمواطنين سواء كانوا من الموظفين او من غير الموظفين .

ومن الملاحظ ان القروض العقارية قد استأثرت بنصب الاسد من رأس مال البنك حيث بلغت قيمتها حتى ٣١ / ٣ / ١٩٧١ - / ٤٨١ ر٥١٦ ر٢٨ ديناراً بينما بلغت القروض الصناعية - / ٤٠٠ ر٤٧٤ ر١ ديناراً والقروض الاجتماعية - / ٦٢٢ ر١١٤ ر١ ديناراً .

ولما كان هدف الندوة الاهتمام بالناحية الاسكانية ومناقشتها فسوف نقصر حديثنا على هذه الزاوية مركزين على دور بنك التسليف والادخار فيها .
موضحين ان التجارب العملية يجب ان تكون منارة يهتدى به لتلافي ما قد يقع من أخطاء اثناء التطبيق .

واضح ان الهدف من تقديم القروض العقارية للمواطنين هو بناء المسكن اللائق او توسعة وصيانة المباني القائمة ، وقد قدم البنك هذه القروض وفق النظم واللوائح الداخلية له . وهنا نود أن نشير بأن عدداً من المواطنين الذين استفادوا من هذه القروض وقعوا في اخطاء سببت لهم بعض المشاكل وفي رأينا ان لذلك اسباباً نذكر منها : -

- ١ - عدم خبرة المقترضين باعمال البناء ، ومتطلباته ، ومراحل تنفيذه .
- ٢ - عدم وجود الوقت الكافي لدى المقترضين ، وأغلبهم من الموظفين أو اصحاب الاعمال ، للتفرغ لمتابعة البناء في مراحل المختلفة ، التي تتطلب رقبته وخبرته .
- ٣ - عدم وجود مواصفات محددية لبناء البيوت تناسب طقس البلاد ، يسترشد بها المواطنون ، ولاشك ان ذلك يضع امام جمعية المهندسين الكويتية بالدرجة الاولى مسئوليته المبادرة الى وضع مثل هذه المواصفات والمواد التي ينصح باستخدامها .

وقد لاحظنا من خلال التجربة ان نسبة كبيرة من المباني تصبح بحاجة الى ترميم وصيانة بعد مرور حوالى العامين فقط ، وباعتقادنا ان مرد ذلك يعود الى عدم ملائمة المواصفات والمواد المستعملة في البناء . وقد وجد البنك ان الحل الامثل

— حتى الآن — للتغلب على الكثير من هذه المشاكل هو استخدام الطابوق الجيري الذى تنتجه شركة الصناعات الوطنية — مع التأكيد باننى ارى ان ذلك وحده غير كاف إذ يجب أن تتضافر الجهود لإنشاء دائرة أو مركز أبحاث للبناء ، فالمشكلة لا تنحصر اولا تنتهى عند وضع التصميم والمخططات التنفيذية والتنظيمية — اية مخططات وتصاميم — ولكن المشكلة تكمن في اختيار المخططات والمواصفات الملائمة للبناء ، الملائمة للاحوال الجوية ومن هنا اود التركيز على ما قلته من ضرورة مساهمة جمعية المهندسين الكويتية وضرورة تكوين مركز لأبحاث البناء .

ان المبالغ التى صرفت على القروض العقارية حتى الان ضاقت الواحد والثلاثين مليوناً من الدنانير ، ومع ذلك يجد البنك نفسه امام عديد من الطلبات التى يقدمها المواطنون لصيانة مبانيهم ، وكان من الممكن تفادى الحاجة لهذه الصيانة او تقليصها الى اقل الحدود لو وجد مركز الابحاث الذى يتولى الاشراف على وضع المواصفات المناسبة والملائمة ، وتوفير مواد البناء المناسبة .

ومما لاحظته البنك اثناء تجربته الماضية ، ما عمد اليه الكثيرون من محاولة الحصول على اقل الاسعار التى تعرض عليهم ، بل عمدوا الى الضغط على المقاولين لتخفيض التكلفة فماذا كانت النتيجة : استعجاب المقاولون وعملوا على تخفيض الاسعار ولكن على حساب العمل نفسه وذلك عن طريق تخفيض جودة المواد والتنفيذ مما تسبب في حدوث مشاكل كان بعضها من الخطورة لدرجة سقوط اجزاء من البناء ، ومما لاشك فيه ان هذا الامر يتطلب نوعاً من التوعية ، فالتكاليف تعتمد على مساحة البناء من ناحية وتخفيض الحسابات وقياسات ومواصفات محده من ناحية اخرى ، فالبناء الذى يمكن تنفيذه باربعة الاف دينار مثلاً لا يمكن تنفيذه بثلاثة الاف دينار الا على حساب نوعية المواد وكيفية استخدامها .

وانطلاقاً من ذلك وعملاً على التخفيف من هذه الاخطاء والاحطار فان البنك سوف يعمد ، مع علمه بان ذلك لا يضع حلاً جذرياً ودائماً للمشكلة ، سوف

يعتمد الى محاولة تتلخص في ان يطلب من المكاتب الهندسية المحلية ان تتقدم بتصاميم مختلفه مع مواصفات لمباني تراوح تكلفتها بين ستة آلاف دينار وثلاثة عشر الف دينار ، ثم يترك للمواطنين حرية الاختيار في حدود القرض المقرر . مع محاولة اخرى في ان يقوم البنك بمساعدة المقترض عن طريق متابعة التنفيذ ما امكن . وبجانب ذلك تم الاتفاق مع شركة الصناعات الوطنية على ان تعمل على توفير الطابوق الجيري بتكلفة منخفضة ، وقد استجابت الشركة لمشكوره لهذا النداء وسوف تقيم وحده جديدة للانتاج رغم التزامها بانتاج ٤٠ مليون طابوقة لمشاريع البنك .

وقبل ان ننهي حديثنا عن القروض العقارية نود ان نتطرق الى نقطه اخرى سببت مشاكل لبعض المواطنين ، فقد عمد البعض الى اختيار طريقة البناء بالمساحة معتقدين ان في ذلك وفرا ، دون ان يخطر ببالهم ما قد تجره هذه الطريقة من متاعب ومصاريف اضافية .

ان هذه الطريقة تحتوى على كثير من الاغراءات اذ تفتح المجال لاستحداث اضافات اثناء سير العمل مما يؤدى الى صرف كامل القرض قبل اتمام البناء وبالتالي التوقف وعدم القدرة على استكمال السكن ، وقد عانى الكثيرون من جراء ذلك متاعب جمه .

من كل ذلك يمكننا ان نخرج بنتائج نذكر منها :

أولاً : ضرورة مساهمة جميع الجهات المعنية الى وضع المواصفات واختيار المواد التى تتلائم وطبيعة البلاد .

ثانياً : ضرورة تضافر الجهود لانشاء مركز لاجاث البناء .

ثالثاً : ضرورة توعية المواطنين الى المشاكل التى قد يتعرضون لها اثناء التنفيذ

رابعاً : ضرورة توعية المواطنين الى ان الحاجة تنصب الى ايجاد السكن الملائم الذى يفي بالحاجة ، دون بذخ او تبذير سواء كان ذلك من حيث مساحة البناء او نوعية المواد المستخدمة .

ثانياً - المشاريع العمرانية

قلنا ان الشق الثاني هو دور البنك في المساهمة في بناء عدد من المساكن ، وقد نفذ البنك بالفعل عددا منها في مناطق مختلفة من البلاد ابتداء بمنطقة الجهراء ومرورا بمناطق الصليبيخات والفنطاس وابى حليفه والمزرعة وانتهاء بالشعبية - وبين الجدول التالى عدد البيوت التى اقامها البنك والمبالغ التى صرفت على انشائها . كما يقوم البنك حاليا بانشاء « مدينة الرقة » التى تحتوى على ٢٣٣٠ بيتا يتكون الواحد منها من طابقين يحتويان على سبعة غرف .

وسوف يستخدم البنك في البناء الطابوق الجيرى ، كما ستزود البيوت بخزانات مياه مصنوعة من مادة (الفير جلاس) بدلا من خزانات المياه العادية اذ تتميز هذه الخزانات بمقاومتها للصدأ والتآكل السريع ، وسهولة تنظيفها . وقد اعد البنك تصميمين معينا لهذه الخزانات وطلب من مصنعين كويتيين العمل على انتاجها . ويتراوح سعر الخزان الذى يتسع ١٠٠٠ جالون بين ٦٥ - ٧٠ دينار ، ومن الواضح ان هذه الخزانات تستعمل للمرة الاولى في بيوت ذوى الدخل المحدود .

لقد صادفت البنك اثناء تنفيذ المشاريع المذكورة بعض المصاعب وهو يعمل دوما الى الاستفادة من جميع التجارب التى تمر به . فهو مثلا عندما نفذ بيوت الدوحة والمزرعة وسلمها الى الجهات المختصة بقيت هذه البيوت بدون خدمات ومرافق عامة مدة طويلة ، ومن الواضح ان الخدمات والمرافق العامة ليست من مسئولية البنك ، كما ان الظاهر ان عدم توفر الاعتمادات المالية حال بين الوزارات المعنية وبين استكمال هذه الخدمات والمرافق العامة ومن هنا وجد البنك انه عليه ان يضع حلا لهذه المشكلة عند تنفيذ مشاريعه في المستقبل ، الامر الذى جعله يفكر في ان يجعل « مدينة الرقة » مدينة متكاملة عند تنفيذها وبالمناسبة فان اربعة تجمعات من المقاولين الكويتيين تضم في مجموعها خمس عشرة شركة او مقاولا كويتيا تساهم في تنفيذ هذه المدينة ، والامل معقود في ان تؤدى هذه التجربة الرائدة الى ايجاد شركة كويتية كبيرة قادرة فنيا وماديا على تنفيذ المشاريع الكبرى بدلا من تلزيمها الى الشركات الاجنبية .

قلنا ان البنك سوف يتولى تزويد هذه المدينة بنفسه بالخدمات والمرافق العامة فهو سيطرح خلال هذه السنة مناقصات تزويد المدينة بالطرق والمجارى الصحية ومجارى الامطار ، والكهرباء ، والماء ، وشبكات الهاتف ، كما سيطرح مناقصات لبناء المدارس والمساجد والجمعية التعاونية ومركز البوليس وغير ذلك من الخدمات والمباني العامة . وقد خطط البنك في ان يستفيد من التجارب السابقة في هذا المجال ، فقد علمتنا التجربة ان توزيع الخدمات على عدة مقاولين يؤدى دوما الى زيادة التكلفة من ناحية الى التضارب والتداخل بين المقاولين من ناحية اخرى مما يتسبب في تاخير الاعمال ، لذا فهو سوف يلجأ الى اسلوب جديد ولاول مره بان تنفذ جميع الخدمات دفعه واحده . وتطبيقا لذلك فسوف يدعو البنك عددا من الشركات العالمية المؤهلة والقادرة للتقدم بعروضها لتنفيذ هذا المشروع كما سيطلب من هذه الشركات التعاون مع المقاولين المحليين .

نحن نعى تماما ان هذا يعتبر حلا سليما لمشكلة تزويد المناطق السكنية بالخدمات والمرافق العامة ولكنه ليس الحل الاسلم ، فمن المفروض ان يتم بمجرد تخصيص الارض التى سيقام عليها المشروع تزويدها بالمرافق والخدمات قبل الشروع ببناء المساكن . ان هذه المشكلة قديمة وهى تطرح نفسها بنفسها علينا ان نضع لها الحلول المناسبة ، فمنذ بدء الدراسات الاولى لتنظيم مدينة الكويت كان هناك رأيان رأى ينادى بتنظيم المدينة اولا ، بينما ينادى الآخر بتنظيم المناطق السكنية خارج السور ثم يشرع بتنظيم المدينة من الداخل . وقد انتج هذا الاختلاف مشاكل لم تنته حتى يومنا هذا ، فلا المدينة نظمت بشكل كامل ، ولا المناطق السكنية خارج السور اعدت وجهزت لاستقبال المواطنين .

ونحن منذ ذلك التاريخ بحاجة الى اعادة النظر وتقويم الوضع بحيث لا يشرع في بناء المساكن الا بعد تنظيم الارض المخصصة وتزويدها بالخدمات .

لقد بنيت البيوت في بعض المناطق وبقيت بانتظار تزويدها بالخدمات والمرافق العامة لمدة سنتين او اكثر ، مما جعلها بحاجة الى الترميم والصيانة قبل ان يستفاد منها .

والبنك وعيا منه على هذه المشكلة عمد الى ايجاد حل وسط وهو ان يزود المدينة بالخدمات والمرافق العامة بمجرد الانتهاء من بناء المساكن بحيث توزع البيوت على المواطنين . وقد حوت المدينة كل متطلبات السكن .

وبجانب بناء هذه البيوت يقوم البنك بتنفيذ مشروع كبير آخر هو مشروع المساكن الشعبية ، وتقدر عدد البيوت التي سينفذها حاليا بحوالى عشرة آلاف وخمسمائة بيت ، وهذه البيوت تبنى خصيصا للتغلب على مشكلة قائمة هى مشكلة العيش اذ من غير اللائق اطلاقا ان يبقى العيش منتشرا في مناطق مختلفة بالبلاد فهى بجانب تناقضها مع حركة التطور العمرانى تسبب العديد من المشاكل الاجتماعية والصحية او غيرها .

وقد وجد البنك ان مثل هذا المشروع الضخم يحتاج الى خبرات عالية وامكانيات كبيرة لتنفيذه ، ولذلك عمدنا الى دعوة الشركات العالمية لتقديم عروضها لانشاء هذا المشروع فاعلنا عنه عن طريق سفارات الكويت في الخارج وطلبنا من الشركات العالمية ان تتقدم بعروض تشمل على التنظيم ، والتصميم والتنفيذ ، والصيانة ، والتمويل بحيث تسدد تكاليف المشروع على مدى عشر سنوات - وقد استجاب لهذه الدعوة عدد من الشركات العالمية يفوق ما توقعناه ، فتلقينا ثلاثة وثلاثين عرضا مما يدل دلالة واضحة على ما تتمتع به الكويت من مركز ممتاز وسمعه طيبة في دول العالم الخارجى .

لقد تضمنت هذه العروض بحوث ودراسات قيمة ، مما جعلنا نستفيد من خبرات الشركات العالمية ، لقد اردنا هذه البيوت مبسطة اذ يحتوى البيت الواحد منها على ثلاث غرف ومطبخ وحمام وسيرود بالكهرباء والماء والخدمات الاخرى ، وتبلغ مساحة القسمية التي سيقام عليها البيت الواحد ١٥٠ مترا مربعا تبلغ مساحة المباني حوالى ٦٠ مترا مربعا . كما ستزود المناطق التي سيقام عليها هذا المشروع بما تحتاجه من مرافق وخدمات عامة .

ومن المتفق عليه ان ينقل الى هذه البيوت جميع ساكنى العيش بحيث لا يسمح بعد ذلك باقامة العيش في البلاد مهما كانت الاسباب ، وبجانب ذلك فسوف

يراعى ما امكن عدم التأثير على القطاع الخاص بحيث لا يسكن هذه البيوت الا كل من لا يستطيع تأجير مسكن له . ونتوقع ان ينتهى العمل بهذا المشروع او معظمة خلال عام ١٩٧٣ .

من ذلك نجد ان بنك التسليف والادخار قام بانشاء عدد من المشاريع الحيوية في البلاد ، كان مشروع « مدينة الرقة » تنويجا لها فهو مشروع بلاشك يحتوى على كل عناصر النجاح من حيث تصميم المدينة ، ومن حيث تصميم البيوت وشكلها واتساعها ، وكلفتها حيث يكلف البيت الواحد الذى يحتوى على سبع غرف حوالى ٣٩٠٠ دينار ، ومن حيث تزويد المدينة بالخدمات والمرافق قبل توزيعها على المواطنين ، ونأمل ان تعتمد جميع الجهات المعنية الى تنفيذ مشاريع المستقبل بشكل متكامل كما بينا سابقا .

تلك لمحة موجزة عن جهود البنك المتعلقة بالاسكان ، واننى على ثقة بان البنك لم يتمكن من تحقيق ذلك كله الا بتضافر جهده مع جهود المعنيين بالاسكان جميعهم . لان البنك في الواقع يتعاون بشكل كبير وملحوظ مع جميع الوزارات والادارات ذات العلاقة بالاسكان كوزارة الاشغال العامة ووزارة الكهرباء والماء ووزارة البريد والهاتف ووزارة الشؤون الاجتماعية والعمل وادارة البلدية ، ونحن لا يساورنا ادنى شك بان نجاح اى مشروع يحتاج الى التعاون وتضافر الجهود .

والله ولى التوفيق ، ، ،

مشاريع البنك الاسكانية

مشاريع منتهية

عدد البيوت	الموقع	التكاليف
١٨٨٣	الصليخات	د . ك ٦,٢٥٠,٨٠٨/-
٧٦٤	المزرعة	د . ك ٢,٥٢٧,٠٥٠/-
١٢٧	الفحيحيل	د . ك ٤٣١,٥٧٩/-
١٠١	الرميثية	د . ك ٣١٧,٦٣٣/-
٦٢	الجهراء	د . ك ٢٠٧,٠٥٨/-
٤٢	القطيف	د . ك ١٤٦,٤٢٣/-
٣١	ابي حليفه	د . ك ١٠٥,٠٧٨/-
٣٠١٠ ١٤٣ (فيلا)	الرميثية	٩,٩٨٥,٦٢٩/- ٧ ١٥,٦٣٥/-
٣١٥٣		١٠,٧٠١,٢٦٤/-
مجاري المزرعة ٩,٩٨٥,٦٢٩/- مجاري الدوحة ٥٨٣٦٧/- ١٠١٦٨٧/- ديناراً		
مشاريع تحت التنفيذ		
البيت الواحد	قيمة العقود	
٣٩٠٩/٦١٢	٩١٠٩,٣٩٧/-	مدينة الرقة
٤٣٤١/٣٧٥	٤٦٨٨٧٨/٤٣٨	الجهراء
٢٣٣٠		
١٠٨		

سِيَّاسَةُ الْإِسْكَانِ وَالتَّوْطِينِ

كَلِمَةٌ

لِلسَّيِّدِ عَيْسَى يَاسِينَ

مقدمة :

سأتناول عنصرين أساسيين ، الاول خاص بالمبادئ والاتجاهات الواجب تحديدها فيما يتعلق برسم سياسة اسكانية والعنصر الثاني يتعلق ببعض الامور المتعلقة بالبرامج الاسكانية فقضية الاسكان أساسا هي قضية تخطيطية ترتبط بسياسة معينة ذات أهداف محددة ولذلك لن أتحدث عن الاسكان في مرحلة ما قبل النفط على اعتبار أن السكن في ذلك الوقت كان بسيطا نتيجة لبساطة الحياة التي كان يحياها الكويتيون في تلك الفترة من تاريخهم . لكن سأتناول بصورة مختصرة جهود الدولة بعد اكتشاف النفط . فأقول ان الدولة بدأت جهودها في ميدان التنظيم والعمران نتيجة لارتفاع مستوى دخلها وقد تطلب الأمر لتنفيذ هذه المشاريع العمرانية استملاك مساكن المواطنين داخل السور مقابل منحهم تعويضا ماليا كبيرا بجانب اعطائهم قطعا من الارض تابعة لاملاك الدولة لبناء بيوت لهم وفق أسس حديثة وقد سمي هذا المشروع وقتذاك (بمراكر الضواحي) ولا زالت هذه التسمية قائمة حتى الآن ثم بدأت الدولة بتنفيذ مشاريع سكنية أخرى سميت بمشروع ذوى الدخل المحدود ضمن نسبة معينة من القسائم المخصصة لمشاريع مراكز الضواحي . وهذا المشروع عبارة عن بيوت سكنية بمواصفات معينة ومستوى معين . وقامت بعدها الدولة بتنفيذ مشروعا مكتملا لمشروع ذوى الدخل المحدود . وهو ما يعرف الآن بمشروع القسائم والقروض وكان الهدف من ذلك هو توفير مستوى سكنى أعلى لبعض الفئات التي تتمتع بمستوى اجتماعى وثقافى ووظيفى والتي تكون في الغالب قادرة على تحمل أقساط عالية ، وقد جاء هذا المشروع أيضا ضمن مشروع مراكز الضواحي ويشرف على تمويل هذا المشروع بنك التسليف والادخار وذلك عن طريق اعطاء القروض المالية للمواطنين المنتفعين بهذا المشروع . كما اتاحت الفرصة لبعض الافراد الذين يتمتعون بإمكانيات مادية ويرغبون في الاستقلال بالملكية الخاصة ثم الخروج من نطاق الاسرة الكبيرة هؤلاء استطاعوا أن يشيدوا لانفسهم سكناً مستقلاً في المناطق التي نظمتها الدولة . وكان للوافدين على الكويت دور كبير في تحديد المعالم العمرانية للبلد . وكنتيجة للهجرة التي حدثت في الكويت بقصد العمل وحيث اصطحب العدد الكبير من هؤلاء الوافدين أسرهم فقد تطلب الامر قيام العمارات السكنية ذات الطوابق المتعددة .

هذه باختصار هي جهود الدولة في هذا الميدان وكما هو واضح ان هذه الجهود كانت تركز على عنصرين العنصر الاول تخصيص قسائم فردية في مناطق السكن النموذجية والعنصر الثاني تخصيص مساحات بنسب معينة لبناء مساكن لفئة ذوى الدخل المحدود . ولقد ورد مجلس التخطيط وهو بصدد تقييم هذه الجهود العديد من الملاحظات على السياسة السكانية التي اتبعت قبل وضع الخطة الخمسية ومن هذه الملاحظات :

١ - لم يكن هناك سياسة اسكانية واضحة المعالم محددة وانما كانت هناك حلولاً تبدل وبسرعة بقصد مسايرة التطور السريع ادى الى حدوث اخطاء فنية منها كيفية تحديد المواقع وكيفية استعمالات الارض حيث وزعت القسائم بسخاء ونشأت المرافق دون دراسة لعدد السكان من جهة ومتطلباتهم من جهة اخرى .

٢ - الاخذ بالاتجاه الافقى بالتوسع ومنع التوسع العمودى في مناطق السكن النموذجية .

٣ - تشيتت الجهود في العمليات الاسكانية من حيث التمويل والتصميم ومن حيث الاشراف والتوزيع .

كيف نخطط لسياسة إسكانية

واضحة المعالم والأهداف

ان الكثير من المشكلات التي تبرز يوميا خلال الممارسة العملية لهذه القضية الهامة التي تمس فئة من المواطنين وقصد بذلك ذوى الدخل المحدود تبني في اساسها الى عدم قيام السياسة المرسومة بوضوح تام . وهذا بالطبع لا يعنى ان رسم سياسة إسكانية لذوى الدخل المحدود يجب أن تكون بعيدة كل البعد عن تخطيط السياسة السكانية بشكل عام بل أن ربط هذه السياسة بالسياسة العامة للتنظيم والعمران أمر ضرورى واذا كنت قد أعطيت اهتماما خاصا لذوى الدخل المحدود ذلك لان هذه الفئة تعتمد أساسا على الدولة في توفير السكن المناسب لها

كما أن لها وضعاً اقتصادياً معيناً وبالتالى وضعاً اجتماعياً معيناً . وعلى العموم في حديثي عن الكيفية التي يجب أن نخطط لها للاسكان سيكون الحديث عاماً ، وهو محاولة من مجتهد وليس من خبير وقد لا أكون أيضاً مصيباً . على أية حال ان هناك نقطتين أساسيتين يجب التركيز عليهما عند رسم سياسة اسكانية النقطة الاولى تتعلق ببعض الاتجاهات الاساسية الواجب تحديدها لرسم سياسة اسكانية . والنقطة الثانية تتعلق بالعناصر الواجب توافرها لرسم برامج اسكانية .

فبالنسبة للنقطة الاولى والتي تتعلق بالاتجاهات والمبادئ أود أن أركز على عدد من النقاط أولها تتعلق باستعمالات الارض باعتبار ان الارض تمثل الجانب الاساسي في قضية الاسكان والارض كما تعرفون قضية اساسية في الكويت وهي في الكويت عنصر ثمين ونادر اذا جاز لنا التعبير وهذا يرجع الى حجم الكويت من حيث المساحة لذلك لا بد لمن يرغب في رسم سياسة اسكانية أن يحدد السياسة المعروفة لاستعمالات الارض بمعنى أن يحدد الاغراض المراد استعمال الارض من أجلها كالصناعة والخدمات والزراعة والسكن والمرافق وغيرها من الامور وهذا يجب أن لا يكون اعتباطاً بل يجب أن يكون قائماً على دراسات وأبحاث مع ربط ذلك بأهداف اقتصادية واجتماعية حددتها خطة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية . أما فيما يختص بمسألة تحديد سعر الارض فالارض كما قلت قبل قليل قليل عنصر نادر في الكويت فهل ياترى من الضروري الاخذ بسياسة التحديد في سعر الارض ؟ وهذا بالطبع يعنى تدخل الدولة في هذا المجال او أن تترك القضية دون تدخل من الدولة باعتبار أن النظام الاقتصادي المتبع في الكويت نظام حر . أما النقطة الثالثة فتتعلق بايجارات السكن وهذا الموضوع أيضاً هام ويجب أن يكون الموقف حياله واضحاً . فالكويت لا تتبع سياسة تحديد الايجار بل أن صاحب الملك هو صاحب الحق في هذا وهذه المسألة يمكن أن يدور حولها الكثير من الجدل والنقاش شأنها شأن تحديد سعر الارض . أما النقطة الرابعة فتتعلق بوضع تعريف محدد للسكن ، فالسكن قد يكون خاصاً وقد يكون مشتركاً وقد عرف البعض المنزل بأنه المكان المستقل والمنفصل والذي انشأ لكي يكون سكناً ويجب أن يستعمل لهذا الغرض . وأن استقلالية السكن تعنى أن يكون له مدخل

مباشر من الشارع أو من من السلم أو من ممر دون أن يتم المرور عبر مساكن الآخرين أما استغلالية السكن تعني أيضا أن يكون للسكن حوائط وأسوار وسقوف بحيث يمكن الساكنين من عزل أنفسهم عن الآخرين لغرض ممارسة وظائفهم الاسرية كالنمائم وأداء الطعام وحماية أنفسهم من مؤثرات الجو . أما النقطة الخامسة فتتعلق بمستوى السكن فلا بد لكل بلد أن يحدد في سياسته الاسكانية المستويات السكنية المطلوبة آخذا في الاعتبار الجوانب الاقتصادية والاجتماعية التي يعيشها لان تحديد المستوى الوطني للسكن أمر ضروري . مثلا هل من الضروري أن يكون لكل أسرة وحدة سكنية مستقلة ؟ وما هي سعة الوحدة السكنية التي يجب أن تكون عليها ؟ وما هي التسهيلات التي يجب توفيرها لكل فرد في الاسرة ؟ مثل هذه الامور تتطلب منا أيضا معرفة الوظائف التي تمارسها الاسرة يوميا بالنسبة لجميع أفرادها وأما النقطة السادسة فتتعلق بالتمييز بين الحاجة الى السكن والطلب على السكن هناك طبعاً فرق بين الحاجة الى السكن وبين من يطلب السكن فالحاجة للسكن تعبير يطلق على المدى الذي تكون عليه الاوضاع السكنية تحت المستويات والمعايير التي يعتبر توفيرها ضروري من الناحية الانسانية وذلك وفقاً للظروف المعيشية الضرورية للأسرة . والطلب على السكن قد لا يكون حاجة ملحة إنما قد يلجأ الفرد رغبة في أن — يتساوى مع غيره فقط تدعيماً لشعور الانسان بقيمته واعترازه بالمساواة مع الآخرين وحقه في أن يكون مالكا . كما يعتبر الطلب على السكن رغبة مدعومة بالقدرة الاقتصادية . اذن لابد أن يكون الموقف واضحاً من حيث التمييز بين الحاجة الى السكن كجانب انساني وبين الطلب على السكن لتحقيق رغبة في المساواة مع الآخرين .

أنتقل الآن الى الحديث عن الجانب الآخر من هذا الموضوع والمتعلق بالعناصر الواجب توفرها لرسم البرامج الاسكانية . وأولى هذه العناصر تتعلق بتقديرات السكن المطلوبة من الوجهة العامة ، هذه التقديرات تركز على الرغبة في توفير ظروف سكنية بحيث لا تتعدى مستوى معين شريطة أن تتوفر بها كل التسهيلات المطلوبة لتلبية احتياجات ووظائف الاسرة اليومية ويمكن تعريف ، هذه التقديرات بأنها عدد البيوت والمنازل والاحياء المطلوب

بنا أو اصلاحها أو صيانتها بغرض الوصول بالظروف السكنية في فترة محددة من الزمن إلى المستوى المطلوب ، على أن ينظر إلى ذلك جغرافيا من حيث المكان ، واجتماعيا من حيث الخصائص الاقتصادية والاجتماعية للسكان . وتقديرات السكن يمكن الوصول اليها خلال مرحلتين . المرحلة الاولى هي معرفة الحاجة إلى السكن والمرحلة الثانية هي احتياجات المستقبل للسكن . وهذا التمييز ضروري لهدف إيجاد نسبة المساكن المطلوبة توفيرها . وأن معرفة الامكانيات الموجودة بعد تقديرات السكن الحالية والمستقبلية أمر ضروري وذلك لمقارنتها بالامكانيات المطلوبة لتغطية هذه التقديرات ومن ثم يمكن رسم البرامج الاسكانية . وهذه الامكانيات يمكن تقديرها وتقييمها بمقارنتها بقدرة قطاع البناء مثلا ، وتوفير مواد البناء الخ أما العنصر الثالث فيتعلق أو يتصل بقدرة المواطن على الدفع فنجاح برامج الاسكان يعتمد بشكل نهائي والى حد بعيد على قدرة المواطنين على الدفع للسكان التي تشيد من أجلهم : لذلك فالتواحي الطالبة لبرامج الاسكان لا تعتمد فقط على حجم الاستثمار المطلوب لتشييد هذه المناطق بل على قدرة المواطن على أن تكتمل العناصر السابقة ، هذا العنصر يتعلق بالدراسات والبحوث الاسكانية اوذلك بقصد الوصول إلى معلومات وبيانات تحدد لنا صورة واقعا في هذا الميدان وبالتالي رسم أو تحديد صورة المستقبل ، وأهم هذه الدراسات هي احصاء المساكن كمصدر للمعلومات : واحصاء المساكن عملية في غاية الاهمية لان البيانات والمعلومات التي نحصل عليها من هذا الاحصاء سوف لا تمكنا فقط بالحقائق الاساسية اللازمة للوصول في التقديرات المطلوبة للسكن ، أو في رسم برامج للاسكان بل انما فائدتها تكمن في جعلها اساما ومنطلقا لعمل احصاءات دورية منحتها باستمرار خلال تنفيذنا لبرامج الاسكان . واحصاء المساكن يعتبر وسيلة يمكن الاستفادة منها في جمع المعلومات الاساسية لاجراء دراسات أخرى عن مستويات المعيشة ، وتستعمل عادة في احصاء المساكن طريقة العينة في المسح تفاديا للتكاليف الباهضة وتستعمل هذه الطريقة أى العينة للحصول على البيانات المطلوبة مثل ، هل المسكن مشغول أو غير مشغول . : عدد الغرف

الموجودة في السكن .. عدد الافراد الساكنين في كل غرفة وفقا للنوع .. والمواد المستعملة مثلا كالحديد والاسمنت ... الكثافة السكنية داخل المنزل في هذه تقريبا المعلومات التي تغطي هذا الجانب ، وفي نهاية تطرقي لهذا الموضوع أود أن أستعرض بسرعة السياسات المقترحة للاسكان كما جاء في الخطة الخمسية للدولة .

١ - توحيد أجهزة الاسكان وهذا أمر ضروري وجوهري فنحن نعاني تعدد الجهات والتناقض والتضارب في القرارات .

٢ - تخصيص اعتماد سنوي في الميزانية لهذه الجهات .

٣ - اقامة علاقات قوية بين أجهزة الدولة المهتمة في هذا الميدان .

٤ - اجراء مسح سكاني لمعرفة الوضع السكاني في البلاد .

٥ - اجراء دراسات اسكانية لمدة عشر سنوات .

٦ - تخصيص اعتمادات لهذه الدراسات لضمان استمراريتها .

٧ - تعبئة الخبراء والمختصين الممتازين في تخطيط المدن والاسكان وعلماء الاجتماع وخبراء الاحصاء والاقتصاديين لدراسة وتحليل عملية الاحصاء السكاني .

٨ - عدم الموافقة على أى برنامج اسكاني عام حتى تتأكد من صلاحيته اجتماعي واقتصادي وهندسيا وأن ينظر إلى أى جانب لبرنامج اسكاني من خلال ارتباطه بالمخطط الهيكلي الرئيسى في المدينة .

٩ - ارسال بعثات للتخصص في مجال تصميم الاسكان وحساباته المالية والادارية ونظم الاسكان والوسائل الايجابية لتنفيذ السياسة القومية المتعلقة بحركة الاسكان والاتجاهات الصناعية والزراعية .

الفهرست

الرقم المتسلسل	موضوع المحاضرة أو البحث	اسم المحاضر	رقم الصفحة
١	تقديم الموسم الثقافي الرابع	الاستاذ عبدالعزيز عبدالله الصرعاوى	٣
٢	نحو مستقبل أفضل والدعوة إلى النظر في تراثنا العربي والإسلامي وأحيائه	الاستاذ عبدالعزيز عبدالله الصرعاوى	٥
٣	دور التراث العربي والإسلامي في تدعيم التراث العربي	الدكتور محمد ناصر	٣٣
٤	دور الجامعات والمراكز الثقافية في إثراء التراث العربي لمواكبة التقدم العلمي التكنولوجي		٦١
		كلمة الاستاذ ابراهيم الشطي	٦٣
		الاستاذ يعقوب الغنيم	٦٩
		الاستاذ أنور النوري	٧٣
٥	التراث العربي والفلسفة الإسلامية	الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده	٧٩
٦	دور بعض الشخصيات العربية في زيادة الفكر	الدكتور زكي نجيب محمود	٩٧
٧	أثر العرب في حضارة الغرب والعالم	الدكتور شاكرو مصطفى	١٠٩
٨	الاصول والمقومات الأساسية للسياسة الاجتماعية عامة وفي الكويت خاصة	الدكتور عثمان خليل عثمان	١٤١
٩	الاصول والمقومات الأساسية للسياسة الاجتماعية	الدكتور مصطفى خشاب	١٥٢
١٠	السياسة السكانية والتخطيط لتنمية الموارد البشرية	الدكتور محمد علي الشناوي	١٦١
١١	السياسة السكانية والتخطيط لتنمية الموارد البشرية	الاستاذ فيصل المزيدي	١٨٣
١٢	الدفاع الاجتماعي ضد الجريمة	الدكتور عبد الوهاب حومد	١٨٧
١٣	الرعاية الاجتماعية للأسرة والطفولة والشباب	الدكتور محمد عثمان نجاتي	٢٢٥

رقم الصفحة	اسم المحاضر	موضوع المحاضرة او البحث	الرقم المتسلسل
٢٣٩	الدكتور محمد أحمد غالى	الرعاية الاجتماعية للطفل وقيمتها الاجتماعية	١٤
٢٦٧	الاستاذ عيسى ياسين	الرعاية الاجتماعية في الكويت	١٥
٢٧٧	الاستاذ محمد همام الهاشمي	الرعاية الاجتماعية للأسرة	١٦
٣٠٧	الاستاذ هيثم الملوحي	الفروق الرئيسية بين القطاعين العام والخاص	١٧
٣١٥	الاستاذ احمد توفيق	تطوير وتنظيم الادارة في الكويت	١٨
٣٢٠	الاستاذ عبدالله يوسف الغانم	التطوير الاداري في الكويت	١٩
٣٢٥	الاستاذ محمد السيسي	مفهوم الادارة العامة	٢٠
٣٣١	الدكتور عبدالمطلب البقاعي	السياسة الاسكانية والتوطين	٢١
٣٦٣	الاستاذ يوسف محمد الشايحي	دور بنك التسليف والادخار في سياسة الاسكان والتوطين	٢٢
٣٧٥	الاستاذ عيسى ياسين	دور وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في السياسة الاسكانية	٢٣

مطبعة حكومة الكويت